مكتبة

J A D A L

مورغان أوديك

رواية

# قتلى في بلاد العجائب



ترجمة

أيمن منير

CRIME SCENE DO NOT CROSS

مسرح الجريمة . ممنوع العبور




الطبعة الثانية


منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

# قتلى في بلاد العجائب

# قتلى في بلاد العجائب

## مورغان أوديك

ترجمة: د. أيمن منير

العنوان باللغة الفرنسية :

Trop de morts au pays des merveilles

Morgan Audic

الطبعة الثانية : سبتمبر 2023م

رقم الإيداع: 9444 / 1444

ISBN: 978-603-04-5253-8



Graphisme de couverture : Odile Chambaut Image de couverture : © Dorothy-Shoes



دولة الكويت - المملكة العربية السعودية - جمهورية مصر العربية




منشورات جدل©
JADAL PUBLISHING

WWW.JADALBOOKSTORE.COM

(+965) 99900912 (+966) 554658820

JADALPUBLISHING

JADALBOOKSTORE

مهرة للإنتاج

مهرة
MUHRA

JADAL



مورغان أوديك

رواية

# قتلى في بلاد العجائب

ترجمة
أيمن منير

# مقدمة المترجم

ربما تكون الرواية هي النوع الأدبي الوحيد القادر على كشف ماهية الحياة الإنسانية بحلوها ومرها، وهي بذلك تمتاز عن غيرها من الفنون الأدبية الأخرى بأنها تتيح للروائي الغوص في أعماق النفس البشرية، والدخول إلى عوالم الإنسان بخيرها وشرها. استثمر مرجان أوديك موهبته الأدبية وإحساسه بمختلف المشاعر الإنسانية في الكتابة عن أدب الجريمة؛ وذلك لما يحمله هذا الأخير من إثارة وتشويق وغموض وتعقيد في أدق التفاصيل وفقاً لخيال الكاتب في تناوله الأحداث، وما يترتب على ذلك من عرض لمسرح الجريمة وأساليب المجرم في إخفاء الأدلة، ومحاولات الشرطة المضنية في إماطة اللثام عن دوافع الجريمة وملابساتها عبر تقنيات علمية وراثية في علم الإجرام.

استطاع مرجان أوديك أن يطرح رؤيته عن نفسية الإنسان غير السوي؛ إذ يشير عنوان الرواية إلى دلالة المكان المحورية «بلاد العجائب»، والدور الذي يؤديه المكان في السرد، إلى جانب شخصية الفتاة «أليس» التي استمر حضورها على الرغم من اختفائها.

استثمر الكاتب أيضاً اختفاء هذه الشخصية ليعبّر، من خلالها، عن رؤيته حول ملابسات اختفاء فتيات أخريات ضمن مناخ قاتم تحاول فكَّ طلاسمه ضابطة شرطة سابقة، وتتداخل محاولاتها البائسة مع محاولات فاشلة لفريق من شرطة مكافحة الجريمة.

ولأن رواية «قتلى في بلاد العجائب» تنتمي إلى عالم القصص الجنائي شديد التعقيد، استثمر الكاتب مجال أدب الخيال الإجرامي استثماراً ذكياً من أجل أن تكون عقدة قصته لغزاً غامضاً.

إن بطل هذه الرواية زوج فقد زوجته ومتّهمٌ بقتلها، ورجال الشرطة يبحثون عن قاتل هذه السيدة، وعن قاتل أو قتلة سيدات أخريات تمّ قتلهنّ في ظروف غامضة. يغوص الروائي الفرنسي مورجان أوديك في أعماق النفس البشرية بدافع المغامرة لسبر أغوار أسرار هذه الجرائم، وأساليب المجرمين، وما يصاحب ذلك من عناصر تتعلق بالتشويق والإثارة؛ إذ تختلط مشاعر الخوف بالغضب، وذلك لجذب القارئ وجعله متابعاً للقصة من بدايتها حتى نهايتها.

نجح الكاتب في تفكيك عالم المتناقضات في النفس البشرية وتمكن من أن يجول بالقارئ بين جريمة وأخرى؛ وهذا ما أضفى على الرواية نكهة خاصة جعلت مسرح الجريمة يمثل شكلاً من أشكال القبح، الذي يثير في القارئ مشاعر الشفقة على الضحية، والنقمة على القاتل.

# الجزء الأول

## 1

في تلك الليلة، نام في وقتٍ متأخر من الليل. حلم برؤوس مصنوعة من البلاستيك، وبفراشات زرقاء، وأعناق من ذوي الشعر الأشقر تختفي وسط الزحام. ارتفع صوت جرس الهاتف عالياً جداً في غرفة النوم، وبطريقة عفوية رفع سماعة الهاتف دون أن يأخذ الوقت الكافي ليرى اسم المتصل الظاهر على الشاشة. يعلو صوت سيّدة في السماعة:

- أهذا منزل السيد كريستيان أندرسن؟

يردّ أندرسن بغضب وهو جالس على السرير، وكانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً. أضاء مصباح طاولة بجانب السرير، وأغمض عينيه ليعتاد على الضوء الخافت، وظهر رقم غير معروف على شاشة هاتفه.

نعم أنا. يردّ وهو يحاول كبح تثاؤبه. لحظة واحدة من فضلك، سأقوم بتدوين.

في العادة، عندما يتمّ إيقاظه في مثل هذا الوقت المتأخر، يكون ذلك من أجل إعلامه بضرورة الحضور إلى أحد أقسام الشرطة التي لا يدخلها المُحامون على الدوام. عندئذٍ وبطريقة آلية يأخذ دفتر الملاحظات من على طاولة بجوار السرير، ويبدأ تدوين تاريخ ووقت المكالمة. انتبه في هذه اللحظة إلى أن اليوم هو يوم الإثنين، وأنه لم يكن على أهبة الاستعداد.

يسألها بشكل مباشر:

- من أنتِ؟

- أنا ميريام، ممرضة قسم الطوارئ في مستشفى أوتيل ديو.

يشعر بأن نبضات قلبه تزداد قوة..

- قسم الطوارئ؟ يكرّر الكلمات بصوت خفيّ..

تتتابع ملامح الوجوه في مخيلته بعضها تلو بعض. أهُمْ من الأصدقاء أم من الأقارب؟! أهو باتيستي شريكه في العمل أم أنها جوديث؟! أهم أصدقاء من المدرسة الثانوية، الذين منحهم بطاقته المهنية الأسبوع الماضي خلال اجتماع لخريجي المدرسة الداخلية؟!

خفّضت الممرضة من نبرة صوتها قبل أن تواصل حديثها.

- منذ ساعة، وصلت سيّدة إلى قسم الاستقبال في المستشفى، ورفضت أن تعطينا اسمها، أو أن تُظهر لنا بطاقة هويتها، لكن... تصمت الممرضة، وتتردد في مواصلة حديثها برهةً... يكسر هذا الصمت صوت ضجيج غير مسموع إلى حدٍّ كبير. يبدو أنه يشبه صوت النقر على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، أو صوت ضغطات آلة تثبيت الأوراق.

- ما أقوله لك، يا سيد أندرسن، لا يمكن اعتباره قطعي الظن. إن هذه المرأة يمكن أن تكون زوجتك. لقد أثَّر الأدرينالين على أحشائها.

- يفقد القدرة على الكلام بشكل جيّد، ثمّ يقول: أيتها الممرضة... هل أنت متأكدة؟!

واصلت الممرضة حديثها:

- رأيت ملصقاتكم الإعلانية في مترو الأنفاق. لا أستطيع أن أؤكّد لك أنها هي، لكن الشبه بينهما كبير جداً.

يبدو الأمر منطقياً. هكذا يظن؛ لأن الصورة التي وضعها على اللوحات الإعلانية مرّت عليها سنوات عديدة.

انتابته مشاعر القلق، ثم قال:

- هل إصاباتها خطيرة؟

ترد الممرضة دون أدنى تردد:

- ليس هناك خطر على حياتها. لقد أصيبت بجروح في ركبتها ويديها، كما يوجد تجمع دموي كبير على وجهها تحديداً...

- هل تعرضت للاعتداء؟ يطرح السؤال، وهو يتنهد..

خفَّفت الممرضة من نبرة صوتها مرة أخرى:

- لا يوجد دليل لدينا لتأكيد ذلك؛ إنها لا تتحدث كثيراً و... تفكر بعمق

- عندما قلت لها إن بالإمكان استدعاء رجال الشرطة من المخفر المجاور لتقديم شكوى، نزعت أنبوب التغذية الوريدية، ثم حاولت مغادرة المستشفى! لقد تمكنت من جعلها تتفهم المشكلة، وهي الآن تستريح في إحدى الغرف؛ لكنني غير مقتنعة بأنها ستبقى هناك فترة طويلة، فإذا كنت ترغب في التعرف عليها، فتفضل...

يغمغم أندرسن:

- ثلاثون دقيقة فقط. سأصل إلى المستشفى في غضون ثلاثين دقيقة. من فضلِك لا تدعيها تغادر المكان.

وبمجرد أن وضع سماعة الهاتف، بدأ البحث في سجل هاتفه عن رقم سائق سيارة الأجرة، الذي يتصل به في العادة إذا اضطّر إلى التنقل ليلاً. لم يجد صعوبة في إقناعه بالمجيء إلى بيته بعد عشر دقائق، ووعده بأن يزيده في الأجرة. ذهب مسرعاً إلى الحمّام، وفتح صنبور

الماء البارد، ثم غسل وجهه بقليل منه؛ مضى وقت طويل وهو يقف عند خزانة الملابس، ويتساءل: أَمن الأفضل ارتداء الملابس التي تعرفها «أليس» أم على العكس من ذلك عليه أن يرتدي زيّاً غير لافت للنظر؟! كنا في نهاية شهر أبريل، وكان الطقس في هذه الليلة حاراً إلى حد كبير.

اختار بذلة سوداء وقميصاً أبيضاً بسيطاً، وشاهد نفسه في مرآة خزانة الملابس، وتخيّل رؤيتها له بعد مرور كل هذه السنوات! لقد أصبح نحيفاً دون شك على الرغم من أن شخصيته كانت دائماً حادة. تركت الحياة بصمتها عليه بكل تأكيد. ربما ستكتشف ومضات لامعة في عينيه السوداوين لم تكن تعرفها من قبل. ستفاجأ بندبة كبيرة على خده الأيسر. على أيّ حال، ما يزال يتمتّع بمظهر الشباب، وبشَعر غير ممشط جعله لا يبدو ابن الثلاثة والثلاثين عاماً وفقاً لما هو مسجل في بطاقة هويته.

بعد ثلاثة أرباع الساعة من اتصال الممرضة به، وقفت سيارة الأجرة أمام كاتدرائية نوتردام، وغمرت الأضواء الكاشفة واجهة الكاتدرائية بالنور القوي، وأبرزت أدق تفاصيل هندستها المعمارية. يوجد هنا على باب الكاتدرائية رسومات الذين يتم لعنهم يوم القيامة، ورسومات القديسين وملوك إسرائيل. إنهم يحدقون النظر إليه باحتقار شديد، وهو يسرع الخُطى نحو المستشفى المبني على شكل سفينة تعود إلى طراز العمارة القوطية[1] العظيمة. في قسم الاستقبال، طُلب منه المكوث في غرفة الانتظار المزدحمة بالزائرين، ولم يكن هناك أيّ مقعد خالٍ! لم يهتم بذلك، فلم يكن يريد الجلوس. ما إن وضع سماعة الهاتف حتى بدأ يشعر بتقلبات قوية في معدته. انقطعت أخبار «أليس» منذ ثلاث سنوات، ولا أحد يفهم السبب في اختفائها! سيناريوهات غريبة خامرت

---

1 طراز معماري ازدهر في أوروبا خلال القرون الوسطى. (المترجِم)

عقله؛ لقد تم اختطافها وحبسها مدة ثلاث سنوات. ها هي قد أصبحت حرة الآن، ومؤكد أنّها تشعر بالخوف الشديد وبالاضطراب!

يُمنِّي نفسه؛ لتكن هي، يتوسّل.. يسارع.. يحث الخُطا: لتكن هي؛ فلتكن هي هذه المرَّة.

أخيراً، وصلت ممرضة إلى غرفة الانتظار، تبدو صغيرة السنّ وسمينة. كانت ترتدي بلوزة، وتضع في قدميها قباقيب مطاطية خضراء بلون التفاح الأخضر. يوجد مُلصق على قميصها مدوّن عليه اسمها «ميريام». يبدو من نظرة عينيها أنها متعبة. تصوِّب نظرتها ناحية كل زائر، إلى أن رمقته بعينيها، وبمجرد أن رأته سارت نحوه، تخمّن..

- هل أنت السيد أندرسن؟

أومأ برأسه إيماءة بسيطة تدل على أنه هو. استغلق عليه الكلام. اصطحبته الممرضة إلى خارج غرفة الانتظار من خلال الممرات التي كانت تفوح منها رائحة الدم والجِصّ والكلور. كانت الأسِرّة المتحركة تصطف على جانبي الجدران، وكان ينام عليها الكثير من المرضى. شعرت الممرضة بأنها مضطرة إلى أن تبرّر له ما يراه..

- لا توجد لدينا مساحة كافية. إننا نستخدم 120٪ من طاقتنا الاستيعابية، وما يزال يستمر وصول الحالات المرضية.

- ألا يمكنكم إرسال سيارات الإسعاف إلى مكان آخر؟ كان صوته مُتهدِّجاً متكسِّراً وهو يسألها.

- لا يوجد. وفقاً لبرنامج الحاسوب المختص بإدارة الأزمات، هي الطاقة الاستيعابية نفسها في جميع أنحاء باريس؛ إذ إن معدل الإشغال مرتفع للغاية بكل تأكيد.

صعدا بالمصعد إلى الطابق الثاني. كان دبيب خطوات المارة ضعيفاً. هناك أصوات صفير منتظمة تصدر من آلات غير مرئية! يبدو المكان هادئاً بشكل يثير الريبة مقارنة بالصخب الشديد في الطابق السفلي. سارت الممرضة في الممر، ثمّ توقفت أمام باب نصف مفتوح.

- أود أن أذهب بمفردي. هكذا طلَب أندرسن في حين كانت تهُمُّ بدخول الغرفة.

- مستحيل. أجابت بكلّ صراحة. فأنا المسؤولة عنها، لا أستطيع...

سحب أربعمئة يورو من محفظته، ووضعها في يدها.

- من فضلك. إنني أنتظر هذه اللحظة منذ ما يقرب من ثلاث سنوات.

نظرت الممرضة إلى الأوراق المالية، وقالت جملة غريبة:

- أتعلم أنني لا أفعل هذا من أجل الحصول على الأموال. قالت وهي تضغط على يديها الممتلئتين: إنني أستقل مترو الأنفاق كل صباح؛ لقد رأيت الملصقات التي تُظهِرُكَ. وأرغب فقط في تقديم يد العون للأخرين. من فضلك لا داعي لذلك. قالت هذا الكلام وهي تعطيه أمواله.

أعاد أندرسن الأوراق المالية إلى جيبه، وهو يشعر بالخجل.

- انتبه إلى الذي سنفعله؛ ستدخل بمفردك، وستترك الباب مفتوحاً. سأنتظر أنا في الردهة. هل يناسبك هذا الاقتراح؟

- هذا رائع. أجاب أندرسن، وهو يتكلف الابتسامة.

يشعر بنبضات قلبه قويةً. يهمّ بالدخول إلى الغرفة الصغيرة المطلية باللون البيج الباهت. المصباح العلوي مطفأ، وتبدو الغرفة مضاءة بمصباح صغير يوجد بجانب السرير. توجد امرأة شقراء تجلس على السرير. أدارت ظهرها له، وكشف ثوب المستشفى، الذي ترتديه،

والمفتوح من ناحية الظهر، عن جسد يتألم بشكل كبير من الهزال الشديد. ينظر إلى بشرتها الشاحبة. يعتقد أندرسن أن لها عظاماً لامعة وأوتاراً بارزة تشبه السلاسل التي تربط المرساة بالسفينة! عندما شعرت بوجوده، التفتت نحوه، من وراء شعرها المنسدل كستارة صفراء. لاحظ أندرسن تلاشي عظام خدّيها نتيجة وجود تجمع دموي كبير بلون الأرجوان، كما أنه لاحظ جفاف جبهتها الشديد!

وبتمعن شديد، رمقته بعينيها الزرقاوين الصافيتين، فيلاحظ أندرسن ارتخاء كتفيها. هذه ليست أليس!

- من أنتَ؟ سألته هذه السيدة مجهولة الهوية.

يبدو أن السؤال قد قرع سمعه. أجاب وهو يتلعثم:

- أنا... كريستيان أندرسن.

- هل أنت الطبيب؟

- لا. أنا لست الطبيب.

- أنا رجل الشرطة.

- أحقاً ما تقول. هل «فيك» هو من أرسلك؟

- «فيك»؟ لا، أنا... أنا..

لم يكن يعرف كيف يجيب

- من أنتَ إذاً؟!

يشعر بطنين في رأسه وبانعدام توازنه. جلس على حافة السرير إلى جانبها. نظرت إليه، وكانت مندهشة.. تسأله:

- هل أنت بخير؟

- نعم، أنا... إنني أنتظر شخصاً هنا... كنت أمنّى نفسي أن أجد شخصاً آخر هنا. يتحدث وهو يتلعثم.

كان من الممكن أن يمسك عن الكلام، وأن يغادر الغرفة، وبدلا من ذلك، بدأ يحدثها عن أليس، وعن اختفائها قبل ثلاث سنوات، وعن التحقيقات التي أجراها كلّ تلك السنوات من أجل العثور عليها. حدثها أيضاً عن مواقع الإنترنت التي نشر فيها توسلاته، وكله أمل في أن تقرأ رسائله، وحدثها عن صورتها التي وضعها في كلّ مكان في المدينة. استمعت إليه السيدة؛ لكنّها لم تتجاوب معه. لم يقرأ في عينيها الشاردتين أيّ ردّ فعل إيجابي! كانت موجودة بجسدها فقط، لكن عقلها بدا في مكان آخر، وعندما أنهى أندرسن كلامه، بدا أنها غير مهتمة به، ثم اتجهت ببصرها ناحية النافذة! كانت تنظر في كل مكان.. أعلى سطح كنيسة نوتردام، وإلى منارتها ذات اللون الرصاصي الممتدة نحو النجوم. هنا يشعر بأنّ الوقت حان كي يغادر الغرفة.

وقف، ثمّ سار نحو الباب الموارب. قبل مغادرة الغرفة -ولآخر مرة- لم يستطع أن يمنع نفسه من الرجوع ليلقي نظرة على تلك السيدة غير المعروفة التي جلست وهي تجمع ركبتيها إلى ذراعيها في محاولةٍ منها لتجنّب التجمع الدموي الكبير، الذي أصاب الجزء العلوي من قدمها. تجلس وتهتز ناحية الأمام وناحية الخلف بطريقة انسيابية تشبه حركة طفلة ضلّت الطريق بعيداً عن منزلها، وتأمل أن يعثر عليها والداها، ويصحباها إلى البيت؛ فيشعر بانقباض في قلبه، الا أنه قال لها:

- لم أفكر حتى في السؤال عن اسمك؟!

تفحصته فترةً طويلة بعينيها الزرقاوين الذابلتين من قمَّة رأسه إلى أخمَص قدمه:

- فاليري. اسمي فاليري. تحدّثت إليه على غير رغبتها.

أخرج أندرسن بطاقة عملٍ مُدون عليها بياناتِه وعنوان مكتبهِ بدت بالية من داخل أحد جيوبه العميقة، وأعطاها إياها.

- أنا محامٍ يا فاليري، وأعمل في المحكمة التي تقع إلى جوارك هنا.

وأشار بيده بطريقة غامضة إلى زاوية في الجزء الغربي من الغرفة، بينما كانت السيدة تنظر إلى بطاقة الزيارة كما لو كانت هذه البطاقة تمثّل شيئاً غريباً وخطيراً.. كرّر حديثه إليها:

- هل باستطاعتي أن أساعدك؟

أجابت فاليري:

- لن أتقدم بشكاية ضد أحد. لقد وقعت من على الدَّرَج.

أعطته قطعة من الورق المقوى، وقالت له:

- احتفظ بها في حال غيّرت رأيك.

- هل من الضروري أن أتابع الصعود؟ سألته وهي تبتسم ابتسامة باردة.

- أنت تعرف جيداً قصدي من هذا الكلام.

ابتعدت عنه، ثمّ نظرت إلى القمر فوق سطح كنيسة نوتردام، وقالت بصوت حازم:

- إلى اللقاء أيها المحامي.

# 2

ثلاثون دقيقة فقط.

كان هذا هو الوقت الذي خصّصه أندرسن للمشتبه بهم في قسم باء 12، قبل ترحيلهم إلى مركز إيداع المتهمين؛ أي إلى السجن الموجود أسفل المحكمة. ذهب الجميع على الفور للعرض على المحكمة بعد ظهر اليوم ذاته، ولم يكن أمام أندرسن سوى عدة ساعات قلائل للمرافعة عنهم، ولكي يتأكّد له تنظيمُ الوقت بالتساوي بين موكليه السبعة في الفترة الصباحية؛ كان يستخدم ساعة الإيقاف بمجرد دخول أحد المشتبه فيهم إلى مكتبه، وذلك من أجل الالتزام بالثلاثين دقيقة فقط.

«المكتب» كان مصطلحاً جريئاً جداً تمّ استخدامه من أجل تعريف المساحات شديدة الضيق التي تتألف من ثلاثة أمتار ويتم تخصيصها ليجتمع فيها المحامون بموكليهم بين المشتبه بهم، والمحامين الذين يتمّ تعيينهم من قبل المحكمة. إن إطلاق كلمة وعاء زجاجي على المكتب يُعدُّ وصفاً مناسباً إلى حدّ كبير؛ لأن الجدران الضيّقة كانت تتكوّن من ألواح زجاجية معتمة. ومن أجل وضع مفروشات في هذه المساحة، أبدت الإدارة مزيداً من ضبط النفس؛ فلم يكن هناك سوى كرسيين متهالكين، وطاولة تصدر صوتاً عند تحريكها، وهاتفٍ سلكي قديم جداً يستخدمه المحامون الذين نسوا إعادة شحن هواتفهم بلا مقابل.

فيما عدا ذلك، كان الأمر متروكاً لهيئة الدفاع لتنظيم أنفسهم بأنفسهم.

إلى جانب المواد القانونية، ودفاتر الملاحظات، وأقلام الرصاص، كان الشيء الأكثر فائدة، بالنسبة إليه، في ذلك الصباح، هو إناء القهوة الكبير الذي أعدّه قبل مجيئه إلى العمل! لم يخلد إلى النوم منذ ذهابه

إلى المستشفى فجأة؛ علماً أنه إذا لم يتمكن من النوم مدة أربع ساعات، فلن يستطيع العمل بشكل جيد إلا بعد تناول القهوة.

بعد احتساء القهوة الساخنة، استطاع ضبط أول خمسة لقاءات في ذلك الصباح. كان ملتزماً بمدة الثلاثين دقيقة المحددة سلفاً، وهكذا سارت الأمور على ما يرام إلى أن وقع المشتبه فيه رقم ستة في الفخ؛ شاب التقى به أثناء عرضه على قاضي الأمور المستعجلة، وجهه ممتلئ، جسمه ضخم غير متناسق، نظراته تنم عن دهاء، ملابسه عبارة عن سويت شيرت بسيط لا يناسب بشرته السوداء وسروال مخصص للركض وحذاء رياضي؛ إنه الزي الرسمي للمدينة. تبدو هذه الملابس مجعدة كما كانت بشرته دهنية. تمّ حبسه للتو مدة يومين في مخفر الشرطة دون أن تتاح له فرصة الاغتسال أو تغيير ملابسه؛ اسمه ميكائيل بكاري، يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً بالتمام. يعيش مع والديه في شقة في مدينة باولو بيكاسو في منطقة نينتير. المستخرج رقم 1 من سجله الجنائي يوضح أنه تم اعتقاله ثلاث عشرة مرة، ومعظم هذه المرات كان بسبب بيع المخدرات. محضر الاستجواب يذكر أنه قبل يومين من هذه الواقعة، تمّ اعتقال بكاري من قِبل ضباط في مخفر شرطة حي كرملين- بيستر؛

تم إلقاء القبض عليه وهو يبيع المخدرات بالقرب من المدرسة العليا في منطقة كاشان، وكمية المخدرات، التي تمت مصادرتها وقت اعتقاله، بسيطة؛ لكن عند تفتيش منزل والديه، عثر رجال الشرطة على كيلوجرامين من المواد المخدرة التي يمتلكها، وعندما سأله أندرسن عن سبب اتّجاره في المخدرات -بينما كان محبوساً لمدة عام تقريباً- حرك بكاري كتفيه فقط!

يسأله أندرسن:

- هل سبق لك ارتكاب مخالفات من هذا القبيل من منطلق التلهي؟

تفاجأ أندرسن بإجابة الشاب! عندئذ أعاد التفكير في الزيارة التي قام بها ليلاً إلى المستشفى. ها هو يعيد التفكير في كلّ تلك الليالي التي قضاها وهو يسير على قدميه على امتداد الشوارع المظلمة. إنه يعيد التفكير عندما كان يجلس القرفصاء، ويعيد التفكير في أماكن استقبال النساء المعنّفات، ويعيد التفكير في مراكز مدمني المخدرات، وفي بيوت الدعارة!

- حدث لي ذلك. نعم. إنه يكرر هذا الكلام، وهو يحاول رسم ابتسامة حزينة.

منذ اختفاء أليس، أصبح لزاماً عليه تتبع أيّ دليل يقع في طريقه. تمّ تزويده بهذه الأدلة من قبل الأشخاص الذين شاهدوا ملصقات المختفين، التي وضعها في جميع أنحاء المدينة، كما تمّ تزويده بهذه الأدلة عن طريق مستخدمي الإنترنت، الذين يزورون المواقع التي نُشرت فيها مكالمات الشهود. في كل شهر، كان يتلقّى ثلاثة أو أربعة تقارير مثيرة للاهتمام، وكان يحيلها إلى السيد موريس المحقق الخاص، الذي تمّ توظيفه بشكل مؤقت في مكتب المحاماة الخاص به من أجل متابعة القضايا بالغة الأهمية.

يضبط ذلك الشاب ثنية سرواله الرياضي بطرف إبهامه.

يتحدث إلى نفسه بصوتٍ يبدو عليه التعب، ويقول:

- إذا أبرمت الاتفاق مع الهيئات التنفيذية فسيكون هذا الأمر لصالح ابني. إن زوجتي حامل.

لم يعلق أندرسن. لقد رأينا كلّ شيء عند قاضي الأمور المستعجلة، كما أن هذه الحالة ليست الأولى التي يقابلها. الأب شاب صغير السن، وهذا الشاب ليس هو الأصغر سناً من بين كل هؤلاء. قبل بضع سنوات، وفي بداية حياته المهنية بوصفه محامياً، كان عليه أن يقول إنه ليس من الجيد أن يكون للشاب طفل في مثل هذا العمر، أما الآن فإنه يكتفي عادة بطرح سؤال:

- متى يحين موعد الولادة؟

- خلال شهر.

يدوّن أندرسن هذه المعلومة في دفتر ملاحظاته. ربما يشجع ذلك الأمر القضاة على أن يكونوا أكثر رحمة، لكنه يشك في ذلك الأمر. إن بكاري ارتكب العديد من الجرائم عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره بالضبط، وهذه المرة، ليست لديه أي فرصة لكي ينجو من السجن المشدّد. هذا هو الخبر السيئ.

لدينا مشكلة كبيرة يا ميكائيل. يخبره بالأمر بأسلوب المحامي المتمرّس. فبجوار المكان الذي تمّ فيه إلقاء القبض عليك، في منطقة كاشان، توجد خمس أو ست مدارس في محيط كيلومتر واحد، وإذا تمكنت النيابة من إظهار أنك كنت تبيع المخدرات للأطفال في هذه المدارس، فسيتم تشديد عقوبتك. لن تتم معاقبتك بالسجن مدة خمس سنوات فقط بل مدة عشر سنوات.

شحب وجه موكله، وبدا كأن أعصابه ترتخي.

- عشر سنوات؟! أنا... هل ستضيع سنوات عمري في السجن؟!

- هذا المعنى لم أقصده. أعاد الكلام أندرسن:

عشر سنوات هي الحدّ الأقصى الذي يمكن للمدعي العام أن يعاقبك به. ربما تكون العقوبة أقلّ من ذلك، لكن عليك الاستعداد لعقوبة كهذه؛ ستقضي بعض الوقت في السجن.

مسح بكاري جبينه المتعرق بظهرِ كُمّ سُترتهِ، وأصبحت نظرة عينيه حادة. ارتجفت شفتاه الغليظتان، وبدأ ينَطق أجزاء من عبارات بإيقاع متقطع:

- لا، لا، لا... لا أستطيع أن أتعرض للضرب هناك... ليس الآن... ليس هناك... ليس الآن...

بدأ بكاري في الاهتزاز، وهو جالس على كرسيه. حاول أندرسن تهدئته:

- ميكائيل. أعلم أن الأمر صعب؛ لكنك تشكك في أنك ستعاقب بالسجن المشدد هذه المرة. سأبذل قصارى جهدي كي تتم معاقبتك بشكل عادل؛ لكني لا أستطيع عمل المعجزات و...

استضاء وجه بكاري فجأة:

- لكنك، يا سيدي، لم تعاقب، ولم تدخل السجن.

قطّب أندرسن جبينه:

- معذرة؟!

لم يفهم ما الذي كان يتحدث عنه الشاب.

- المدعي العام يقول إنك قتلت زوجتك، ورغم ذلك لم يتمّ سجنك. أنت تعرف كيف تتصرف. أنت رائع.. ستجد مخرجاً لي. أنا وزّعت المخدرات فقط، هذا كل ما في الأمر. أنا لا أستحق العقاب عشر سنوات!

المفاجأة جعلته يصمت عدة ثوانٍ.. بدأ الدم ينفجر في عروقه. اشتد الغضب بداخله، بعد الاحتجاز في قسم الشرطة.

سيتم عرض بكاري على المدعي العام، أو على أحد نوابه، من أجل إخطاره ببقية الإجراءات المتعلقة به. سأله أندرسن عن اسم الشخص الذي تحدث إليه.

- لم أعد أعرف اسمه. ربما يكون «لولون» أو «لولوان».

- كلود لولوار؟ (صرخ أندرسن بصوت مرتفع)

- نعم، نعم، هذا هو، هذا هو.

كان على أندرسن أن يشك في الأمر. إنه لولوار الذي عُهد إليه بالتحقيق في اختفاء أليس قبل ثلاث سنوات. لقد فتح المدعي العام تحقيقاً قضائياً في هذه الجريمة، وكان دائماً يعدّه المشتبه به الرئيس؛ على عكس وجهة نظر قاضي التحقيق. لا يبدو على لولوار الانزعاج من هذا الحديث في المحكمة؛ الأمر الذي جعل أندرسن يثور أمام أحد موكليه للمرة الأولى.

يا له من حقير.. أقسم أندرسن بغلظة. ضرب براحة يده فوق الطاولة. دوّى صوت الضربة بقوة في الغرفة الصغيرة، وبدا عليه الارتباك. شحب وجه بكاري وهو جالس على كرسيه، يغمغم ويتأسّف:

- أعتذر... ما كان يجب عليّ أن أقول ذلك... ما كان يجب عليّ أن أذكر زوجتك...

- في الواقع (أجاب أندرسن بصوت حاد).

- لا أعتقد أنه محق في ما يقول؛ لكنني متأكد من أنه لا يملك دليلاً على ذلك.

- لا، لا دليل عنده -يبدو على أندرسن أنه منزعج- وحتى لو كان لديه ذلك الدليل؛ فلن يكون لهذا الأمر أي تأثير على قضيتك.

بدا عليه الغضب، وأصبح غير متحمس. بدا صوته هكذا. كانت لديه رغبة عارمة في أن يخبر لولوار بما يفكر فيه من حيله القذرة، ينظر إلى ساعة الإيقاف، وكانت تشير إلى الرابعة والدقيقة الأربعين. جيد جداً؛ ففي غضون دقيقتين، سيكون في مكتب المدعي العام، في الجزء الأخير من القسم باء 12

- سنتوقف عند هذا الحد -ثم أغلق ملف قانون العقوبات الخاص به- سنلتقي في جلسة الاستماع.

قبل أن يتمكن من الإشارة إلى الجنود المسؤولين عن اصطحاب المتهمين إلى زنزانتهم، مدّ بكاري يده ومسكه من معصمه.

قال له أندرسن:

- اتركني.

- أنت لا تفهم... عليك مساعدتي. لا أعرف أبي، ولا أريد أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى ابني؛ خاصة في اليوم الأول لولادته!

- على الرغم من ذلك، سيفهم أنه لا يعرف والده ولا حتى والدته. لقد أمضى السنوات الأولى من حياته بين دور الأيتام والعائلات الحاضنة، وإن كل ما كان يعرفه عن أصوله هو أنه وُلد لأم غير معروفة في مستشفى باريسي في 6 أبريل في أحد فصول الربيع الكئيبة، وقد أُطلق عليه اسم كريستيان أندرسن؛ تيمناً باسم مؤلف رواية البطة الصغيرة القبيحة ملكة الثلج وحورية البحر الصغيرة، ربما يكون اختيار هذا الاسم مقصوداً، إذا أخذنا في الاعتبار أن وظيفته تعتمد بشكل أساسي على حكاية رواية خرافية من أجل الدفاع عن موكليه!

عندما لاحظ بكاري أنه جذب انتباهه، ترك معصمه، وبدأ يتحدث إلى نفسه مدة طويلة:

- لقد فعلت أشياء قبيحة في حياتي؛ حتى أسوأ مما هو موجود في ملفي. أنا لست فخوراً بذلك، لكنني... لكنني تغيرت، منذ أن أصبحت إميلي حاملاً. لقد امتنعت عن فعل هذه الجرائم. بدأت أتدرب على العمل عاملَ بناء لكي أكسب دون مشاكل، ارتكبت حماقات. هذا الأمر مؤكداً كالاتجار بالمخدرات وبيعها؛ هناك أشخاص يتعاطونه من أجل العلاج... لكن... ما كان يجب علي أن أسقط في خضمّ هذه المشاكل مرة أخرى! أنا لم أحصل إلا على قسط ضئيل من التعليم؛ فأريد أن أعلم ابني. نعم، حتى لا يُحرَم من شيء. أنا لا أستحق عشر سنوات في السجن من أجل ذلك!

طرق رجل ذو ملامح غريبة الباب الزجاجي للمكتب، فعرف أندرسن على الفور أنه جوبير، المحامي الرئيس الذي ينسق الاجتماعات بين المحامين المنتدبين وموكليهم. نقر جوبير على ساعته بسبابته لكي يجعله يفهم ضرورة إنهاء المقابلة مع بكاري بأسرع ما يمكن.

خارج المكتب كانت المحكمة متخمة بالعديد من القضايا. هناك الكثير من المتّهمين في أقفاص الاتهام وفي الزنازين ذات النوافذ الشبكية ينتظرون مقابلة محاميهم.

قال أندرسن عندما همّ جوبير بالرجوع إلى مكانه:

- لم يعد لدينا وقت كافٍ؛ لذلك سألخص كلامي قدر الإمكان: لا أستطيع أن أنقذك من السجن. أفضل ما يمكنني أن أفعله لك هو التظلم من العقوبة التي تعتقد منصة القضاء أنّها منطقية. سأحاول تقليل العقوبة، التي أقرها المدعي العام، بمقدار عامين أو ثلاثة أعوام. صدقني، من

الصعب جداً كسب القضية بسبب عودتك إلى عالم الإجرام، بالإضافة إلى كمية المخدرات الكبيرة التي تم العثور عليها في منزلك.

يغمغم بكاري بكلمات غير مفهومة:

- وهل يمكن أن أطلب محاكمتي في وقت آخر؟ هكذا يمكنني حضور موعد الولادة...

أومأ أندرسن برأسه من اليسار إلى اليمين، وبدا على وجهه أنه مستاء..

- يمكننا أن نطلب تأجيل جلسة الاستماع، لكن المدعي العام سيطالب بالحبس الاحتياطي، وسوف يحدث ذلك بالنظر إلى خطورة الاتهامات الموجّهة إليك.

ينهار بكاري، وهو ما يزال يجلس على كرسيه، وينظر نظرة باهتة. بعد عدة ثوانٍ، أخرجه أحد رجال الشرطة بشكل غير رسمي من قفص الاتهام. يجلس أندرسن بمفرده في مكتبه الزجاجي مدةً طويلة، وتبدو عليه مظاهر التردّد، وهو ينظر إلى ساعة الإيقاف، حيث يتحرك عقرب الثواني بشكل مستمر. كان يعلم أنّ عليه إعادة ضبط الساعة على مستوى الصفر، واستدعاء متّهم جديد، ورغم ذلك لم يستطع فعل ذلك. كان ملف القضية، التي أثبتتها الشرطة ضد بكاري، متماسكاً؛ لكن شيئاً ما أفسد ملف القضية عند إحالته إلى قاضي الاستجواب، الذي أعاد قراءته بسرعة، ومن ثمّ أخذ سماعة الهاتف الأرضي القديم التابع للإدارة، واتصل بجوديث سكرتيرته.

- وبصوت جاذب ورنان، قالت: هنا مكتب أندرسن وباتيستي للمحاماة.

رائحة عطرية زكيّة يشتمها بأنفه. كانت جوديث تتعطّر بعطر جديد منذ بضعة أسابيع؛ كولونيا برائحة الماندرين النفاذ والليمون العطري

وشجر البرتقال. عندما دخلت إلى مكتبه لترتيب الملفات، بدا الأمر كما لو أن نسمات فصل الربيع تهبّ من بستان مشمس!

- أنا أندرسن. أحتاج منكِ يا جوديث أن تسدي إليّ معروفاً. يجب أن تذهبي بالقرب من المدرسة العليا في منطقة كاشان.

- وماذا أفعل هناك؟ سألته وهي متفاجئة!

- للحيلولة دون دخول أحدهم السجن، إذا حالفنا الحظ.

## 3

ثلاثة زبائن، شريحة من لحم خنزير بالزبدة، فنجانان من القهوة، فاكس من جوديث. يدفع أندرسن أبواب القاعة الإصلاحية رقم 23. في قاعة الجلسات الكبيرة المصنوعة من جدران خشبية صفراء اللون، كانت كل الأنظار متجهة نحو المتهم في القضية رقم 2؛ جزائري يبيع السجائر المهربة في منطقة باربيس، وعندما استجوبه رئيس المحكمة بشأن تجارته الصغيرة، قال الرجل إنه لا يربح سوى 15 أو 20 يورو في اليوم. وهذا الربح يعدّ مصدر دخله الوحيد؛ فليس لديه أوراق ثبوتية، ولا يمكنه العمل بشكل قانوني في فرنسا، وأضاف أنه لا يفهم السبب في منعه من فعل ذلك بدلاً من اعتقال المجرمين الحقيقيين؟! وقال لرئيس المحكمة: إن ما أفعله لا يؤذي أحداً. يعتقد أندرسن أن دفاعه عن نفسه بهذه الطريقة سيّئ جداً.

جاء دور المدعي العام في الحديث، ومن دون سابق إنذار تكلم واقفاً، عيناه سوداوان، شفتاه رفيعتان، شعره رمادي مغبرّ، بشرته بلون القمح؛ كان لولوار يتمتع بمظهر الكاردينال المصاب بالإمساك.

وغالباً ما تشتمل تحقيقاته على دروس أخلاقية؛ فيشرح للمتهم بالتفصيل أن السجائر، التي يوزعها هو وزملاؤه في باربيس، تغذي شبكات المافيا، وتمول أنشطة أخرى أكثر خطورة، كالمخدرات والبغاء والكسب غير المشروع والإرهاب، ولمدة خمس دقائق كان يتسلط على المتهم كما لو كان الرجل المسكين قد زرع قنبلة في حافلة مدرسية!

وما إن شعر أنّه آلمه بشدة حتى ختم لولوار كلامه، وأشار إلى السقف بطرف إصبع السبابة، وطالب بالسجن المشدد مدة عامين، وغرامة قدرها خمسة آلاف يورو على بائع التبغ في منطقة باربيس. هنا ينظر محامي المتهم إلى السماء كلما بدت العقوبة غير متناسبة مع الجرم!

يستفيد أندرسن من مرافعة زميله من أجل القيام بواجباته الاعتيادية في بداية جلسة الاستماع، وأكد للموثق أنّه مستعد للترافع. قدم استنتاجاته إلى كاتب المحكمة، ثم ذهب دون تسرع إلى مكتب لولوار ليعلمه باسم المتهم الذي يترافع عنه، ولكي يعطيه نسخة من المستندات التي كان يستخدمها في المرافعة عن موكليه.

تحدث إليه لولوار باندهاش، وقال بصوت يرتعش:

- يبدو عليك الإرهاق أيها المحامي. فيم تقضي لياليك؟!

يمتنع أندرسن عن إخباره بما يفكر فيه حقيقة. يسترجع في ذاكرته بضعة أسطر من المادة 5-433 من قانون العقوبات؛ الازدراء الذي يعاقِب عليه القانون بغرامة قدرها 7500 يورو، وبالسجن ستة أشهر، تنحصر في الكلمات أو الإيماءات أو التهديدات الموجهة إلى شخص يتمتع بسلطة عامة.

- أيها المدعي العام، إن ما أفعله خارج المحكمة لا يعنيك في شيء!

يضغط لولوار على شفتيه الدقيقتين:

- بلا شك، أيها المحامي؛ طالما أن أفعالك تبقى في إطار القانون.

وضع أندرسن وثائقه على الطاولة، وأعلن أسماء المشتبه فيهم، الذين كان يدافع عنهم، ثم رجع إلى الوراء، وابتعد بسرعة عن المكتب؛ فكل ثانية يقضيها أمام لولوار تزيد من رغبته في التضييق عليه.

يجلس أحد المحامين على مقعد على بعد صفوف قليلة من الحاجز، ويشير إليه بالجلوس إلى جواره. يبدو على وجهه أنه ينحدر من منطقة تطل على البحر الأبيض المتوسط؛ شعره أسود كثيف ينسدل خلف رأسه، وضع عليه كريم ترطيب، اسمه فرانك ويعمل في النصف الآخر من مكتب أندرسن وباتيستي للمحاماة، يحمل هاتفاً في يده اليسرى، ويضع هاتفاً آخر فوق ركبته. جلس أندرسن إلى جانبه. ينحني باتيستي، ويهمس في أذنه بصوت خشن وبلكنةٍ كورسيكيَّة:

- تلقيت للتو رسالة نصية من الأعضاء البارزين في نقابة المُحامين بخصوص تنظيم احتفال مساء غد. هل يناسبك الموعد؟

في نهاية المرحلة الدراسية لهما، كان أندرسن وفرانك يعملان في وظيفة سكرتير مؤتمر المحامين التابع لمكتب باريس؛ أقدم مؤسسة تابعة لوزارة العدل، ومسؤولة عن ضمان الدفاع في القضايا الجنائية عن المشتبه فيهم، فإذا كانت هناك حالة طارئة تحول دون استدعاء محامٍ في الوقت المناسب، ويتم اختيار محامٍ من هذه المؤسسة بشروط قاسيةً. في كل عام، عندما يتقاعد السكرتاريةً وعددهم اثنا عشر، فإنهم ينظمون مسابقة للخطابة لاختيار من يخلفهم في هذه الوظيفة، ومن ثَمّ

يقع الاختيار على الأكثر فصاحة؛ على الرغم من عبء العمل التطوعي المنهك.

يتقدم للامتحان ما يقرب من مئتي محامِ شاب كلّ عام بلا أدنى شك. يعد هذا العمل نقطة انطلاق لمهنة واعدَة.

أجاب أندرسن:

- اذهب من دوني، لقد قضيت ليلة سيئة للغاية! في كل مرة نحضر جلسة استماع تستمر حتى وقت متأخر، والشيء الوحيد الذي أريد أن أفعله غداً عندما أعود إلى المنزل هو أن أنام.

بسبب نقص الموظفين، وتعدد الإجراءات، أصبح طبيعياً أن تنتهي جلسات الاستماع الإصلاحية بعد الساعة العاشرة مساءً.

- أتريد مني أن أطلب منهم تأجيل الجلسة إلى يوم آخر؟

يبتسم أندرسن. لم ينخدع بكلام صديقه. في الفترة الأخيرة، بذل باتيستي أقصى جهده ليشغله في هذه الليالي. كنا في منتصف شهر أبريل عندما اختفت «أليس» في بداية هذا الشهر قبل ثلاث سنوات.

- لا. أنا بحاجة إلى الراحة. تفضل أنت.

- كما تريد. أجاب باتيستي وهو يلفت انتباهه إلى هاتفه.

يلاحظ أندرسن أنه بعد كلّ رسالة نصية تصل إلى هاتف فرانك، يرفع رأسه ويتحوّل بنظره الثاقب باتجاه موظفة سمراء جميلة لم تبلغ بعد ثلاثين عاماً. ذات مرة، تضحك الفتاة بينها وبين نفسها وهي تنظر إلى هاتفها؛ حينئذٍ يدرك أندرسن أن فرانك كان يتودد إليها. لقد كانت فعلاً تشبهه. إنها سمينة، شعرها الأسود الطويل يشبه شعور فتيات مدينة صقلية؛ عيناها صافيتان وكبيرتان؛ على الرغم من كل الود الذي يكنه

لباتيستي، كان أندرسن يأمل سراً أن تبتعد عنه، وكان لديه ما يكفي من المشاكل مع لولوار.

لا حاجة، إذاً، إلى كاتبة مهووسة بسبب خيانة شريكه. لا يستطع فرانك مقاومة سحر أي فتاة جميلة؛ لهذا السبب، طلق للمرة الثانية وهو في الرابعة والثلاثين من عمره! عاجلاً أم آجلاً، سينتهي به الأمر إلى البحث عن امرأة أخرى في مكان آخر، ولهذا توجد لديه هواتف كثيرة... تساعده هذه الهواتف في عدم الوقوع في مشاكل بسبب مغامراته.

بعد أن وقع للمرة الألف في شراك هذه المغامرات، يفتح باتيستي عينيه ويصوب بصره باتجاه رجل من بين جمهور الحاضرين:

- أليس هذا فينيول؟

يحرك أندرسن رقبته لينظر في الاتجاه الذي يشير إليه صديقه. بين المتقاعدين الذين حضروا جلسات المحاكمة يتعرَّف أندرسن على وجه إتيان دو فينيول الكئيب؛ آخر من توظفت عنده أليس.

يسأله باتيستي:

- ما الذي يفعله باعتقادك؟

- سؤال جيد. هكذا يعتقد أندرسن. إن فينيول يدير مكتب محاماة فخماً جداً؛ مساحته 700م مربع، ويقع في قلب بلدية نويي، بالإضافة إلى مكتب آخر أكثر تواضعاً في مدينة نيويورك. يدفع رواتب مستثناة من الضرائب أكثر من 900 يورو في الساعة، ولا يستطيع فعل أي شيء مع هذه المحاكم القضائية الغريبة، التي تتشكل منها الغرفة رقم 23، والتي توجد فيها مجموعة من مدمني المخدرات والمهاجرين غير الشرعيين وتجار المخدرات.

يقول أندرسن:

- ربما يعرف أحد المشتبه فيهم.

أما عن باتيستي، فهو يسخر منه كالعادة:

- أهكذا؟! لقد جاء ليقابل أحد المتشردين الذي تم توقيفه بسبب سرقة أحد المتاجر.

يدقّ هاتف باتيستي. تلفت نظره طريقة تودّده إلى موظفة! بعد بضع دقائق، ينادَى على بكاري. ينهض أندرسن ويتقدم نحو القضاة، يشعر بألم خفيف في رأسه. يحدث ذلك له غالباً إذا كان يعاني من التوتر. يطالب لعشرات المرات ببطلان الأحكام، ويلّح على الموافقة على طلبه؛ لا بد أن يخرج موكله من المحكمة من دون عقوبة. يحاول أن يجعل لولوار يشعر بالإحساس المرير نفسه الذي تعرض له هذا الصباح.

في القفص الزجاجي المخصص للمحبوسين احتياطياً، استمع بكاري في صمت إلى رئيس المحكمة، وهو يصرِّح بهويته، ويذكره بالوقائع التي جعلته يمثل بين يديه، وعندما سأله القاضي، في نهاية المطاف، عما إذا كان يوافق على أن يُحاكم على الفور، أجاب «بنعم»، وهو يشعر بالخجل. في تلك اللحظة بالذات؛ يقول أندرسن بصوت قوي:

- سيادة رئيس المحكمة، أود أن أعلن بطلان الأحكام.

قطّب المدعي العام لولوار حاجبيه. جمع الأحكام التي دونها من على مكتبه، وبدأ قراءتها بسرعة.

- تم القبض على موكلك وهو في حالة تلبّس من قبل ضباط الشرطة الذين صرحوا بأنهم شاهدوه. سأقول لك ما كتبوه: «بيع المخدرات بمقابل مادي بالقرب من ساحة فولتير»، ما دفعهم إلى التدخل، كما

أنهم ذكروا في محضر الضبط أن سيارة الشرطة التي داهمت المشتبه فيه كانت موجودة في شارع بيير كوري.

يختلس أندرسن النظر إلى لولوار وهو يفحص الأوراق ويأخذ نسخة من الصور التي التقطتها جوديث في منطقة كاشان.

- يوجد في المستندات التي قدمتها لكم أن هذا الشارع أبعد بكثير عن الساحة؛ لهذا هو لا يستوعب الذي جاء في محضر الضبط. كانت الشرطة على بعد خمسين متراً، على الأقل، من موكلي، إذا أضفنا إلى ذلك أن الاعتقال كان في الليل، وأن المكان كان سيئ الإضاءة. يبدو واضحاً، بالنسبة إلي، أنهم لم يتمكنوا من رؤية المخدرات وهم يتبادلونها بأيديهم!

بدا على لولوار أنه شاحب الوجه. لقد أدرك للتو أن الشرطة زوّرت المحضر لتبرير حقيقة أنهم قاموا بتفتيش المتهم دون سبب مشروع.

- في ظل هذه الظروف، أطالب ببطلان الاستجواب؛ لأن شروط الضبط لم تتحقق!

إذا قبلت المحكمة بهذا الإجراء المعيب فسيتم الحكم ببطلان القضية بأكملها؛ لأن وقائع الضبط، التي أتاحت إمكانية العثور على المخدرات عند والدي موكلي، أصبحت غير قانونية.

يقف لولوار، ويعلن احتجاجه:

- سيادة الرئيس، دعونا نتمسك بالقواعد المشتركة. ما ذكره حالاً السيد أندرسن لا يُمثل إلا خطأً بسيطاً في الكتابة. لا شيء يمكن أن يبرر الحكم ببطلان القضية بشكل جدي. يمكن للشرطة أن تخطئ في اسم الشارع؟ إذاً، لا يجب غض الطرف عن الأساسيات، هناك عوامل

واضحة سمحت للشرطة بالشك في أن المشتبه فيه متورط في تهريب المخدرات و...

- ما الذي تقصده بالعوامل الواضحة؟ قاطعه أندرسن: هل تقصد أن موكلي من ذوي البشرة السوداء، وأنه كان يتبادل شيئاً ما مع شخص عربي في ساحة ذات إضاءة ضعيفة؟

حدّق لولوار النظر إليه. تُسمع أصوات مهموسة في الغرفة رقم 23. يقول رئيس المحكمة: أطالب الجميع بالهدوء.

- التزموا الصمت في القاعة. وأنت أيها المحامي تجنّب هذا النوع من الكلام المشين، والتزم بالوقائع.

- ما الذي تقصده بالوقائع؟ الوقائع تتحدث عن نفسها سيادة رئيس المحكمة؛ الوقائع تعني التلبس بجريمة، القانون واضح. لا يمكن لقوات الشرطة استجواب أي شخص يتجول في الطريق العام من دون سبب وجيه. لقد تجاوزت الشرطة حدودها باعتقال وتفتيش موكلي دون سبب موضوعي. بعد الاطلاع على النتائج أصبح هذا الاستجواب غير قانوني، وكذلك أيضاً التفتيش الذي رافق هذا الأمر. أطالب بالإفراج الفوري عن موكلي!

ساد الصمت. حبس بكاري أنفاسه. جلس المدعي العام. حاول أندرسن أن يبدو طبيعياً قدر الإمكان. همس القضاة بعضهم إلى بعض. أخيراً، بعد ثوانٍ عديدة، تحدث الرئيس مرة أخرى.

لحسن الحظ تم تعليق جلسة الاستماع؛ عندئذٍ أدرك أندرسن ما فعله إتيان دو فينيول عند مثوله أمام قاضي الأمور المستعجلة. يتحدث مدير أليس السابق مع جوبير في القاعة الإصلاحية أسفل إحدى النوافذ الكبيرة، وهو يرتدي بذلة رمادية أنيقة ذات خطوط بيضاء ناعمة، وزوجاً من الأحذية لامعين ومصنوعين بإتقان شديد. يلاحظ أن شعره المصبوغ من الخلف تمّ تصفيفه بمهارة من أجل إخفاء الصلع الذي يمتد حتى أعلى رأسه. يعتقد أندرسن أنه يستخدم باستمرار مواد معالجة بصيلات الشعر ليخفي هذه الصلعة. كان فينيول في الخمسينيات من عمره؛ لكنه يبدو أصغر من ذلك بنحو عشر سنوات تقريباً بفضل الجراحة التجميلية التي أجراها، لكننا إذا اقتربنا منه بما فيه الكفاية، يمكننا أن نكتشف خلف أذنيه آثار آخر عملية قام بها لشد تجاعيد الوجه.

عند سماع صرير باب الغرفة رقم 23، الذي أعيد غلقه، استدار فينيول وراَه. ألقى المحامي على الفور التحية على جوبير، وسار نحوه ببطء..

- أنت كريستيان أندرسن (يبدو على فينيول الاندهاش). أأنت المحامي الذي يُطلق عليهِ بعبع النيابة؟!

أشار مدير أليس السابق إليه بيده شديدة البياض؛ قبضة يده قوية. كان إتيان دو فينيول رجلاً رياضياً يمارس العديد من الرياضات التي تتطلب جهداً بدنياً؛ يركض عشرة كيلومترات كل يوم قبل أن يقوم بعمله، الذي يستغرق منه ما بين 10 إلى 12 ساعة يومياً؛ ويمارس رياضة الفروسية الجماعية وقفز الحواجز بالخيل عندما تتاح له فرصة (شغوف بركوب الخيل إلى حد كبير، ويمتلك مزرعة خيول في وسط

فرنسا وإسطبلات في قصره في ضواحي باريس)، وكان مبارزاً جيداً. وفي تلك الفترة عندما يكون لديه أوقات فراغ، يمارس لعبة السيف أو الرماية مرتين في الأسبوع. أما الآن، مع وجود مكتبين له في منطقتين يفصل بينهما المحيط الأطلسي، لم يعد لديه الوقت الكافي لممارسة رياضاته.

- كنت في القاعة عندما حصلت على بطلان الحكم. كانت مناورة جيدة جداً؛ خاصة عندما تفكر في الوقت القليل المتاح لك لتقديم مرافعتك.

أعاد أندرسن مرة أخرى التفكير في إشارة لولوار الغامضة؛ بينما يلاحظ القضاة الخلل في محضر الاستجواب! إن هذا التفكير جعله يشعر بالرضا التام. انهار الملف مثل قصر مبنِي من ورق، ولم يتمكن لولوار من فعل أيّ شيء حياله، وخرج موكله مرة ثانية من المحكمة.

هنا يعلق فينيول قائلاً:

- «من المؤكد أن المدعي العام يكرهك».

- لا يمكنك أن تتخيل إلى أي درجة تصل هذه الكراهية أيها المحامي.

ارتسمت على وجه إتيان دو فينيول ابتسامة عريضة.

- أيها المحامي؟ (ناداه وهو يضحك) لا يجب علينا أن نكون متحذلقين. يجب أن يكون إتيان راضياً. ألا تعتقد ذلك؟

أومأ أندرسن برأسه. لقد التقى فينيول مرتين أو ثلاث مرات في حفلات عامة، أو في غيرها من المهرجانات الخيرية؛ لكن لم تكن لديه الجرأة على مناداته باسمه دون ألقاب! يبدو على فينيول أنه مهيب الجانب؛ لهذا أصبح من الطبيعي أن يمنحه لقب «السيد» أو «الأستاذ».

- ماذا تفعل هنا، يا إتيان؟! نحن بعيدون عن شارع الإيطاليين.

يوجد هنا المركز الاقتصادي والمالي للمحكمة العليا في باريس؛ حيث يعمل فينيول بشكل أساسي في مجال القوانين المرتبطة بالضرائب.

- هل تصدقني إذا أخبرتك أنني كنت أسترجع هذا بكل بساطة، وأشعر بالحنين إلى سنوات شبابي عندما كنت أترافع عن الأرملة واليتيم في هذه القاعات الإصلاحية؟

أجاب أندرسن:

- لا على الإطلاق.

لم يبتسم، وقال إن فينيول ينتمي إلى واحدة من أغنى عائلات المحامين في باريس؛ لهذا هو غير مضطر إلى استنفاد وقته في الترافع في المحاكم الجنائية، وسرعان ما تحول عمله إلى مجال قانون الضرائب المربح جداً بالنسبة إليه. لقد كان عليه متابعة بعض الدورات التأهيلية في مجال المحاكم الإصلاحية ليتمرس في هذا العمل قبل أن يشغل وظيفة مساعد في مكتب المحاماة الخاص بوالده.

كانت نظرات فينيول تنم عن مكر شديد!

- أؤكد أنني أعمل عملاً احترافياً، هل بالإمكان منحي بضع دقائق قبل استئناف الجلسة؟

أدهش هذا السؤال أندرسن، ثم قال:

- نعم.

- إذاً، لنسر على أقدامنا إذا كنت لا تمانع، فالسائق الخاص بي ينتظرني في الخارج؛ سأسافر إلى نيويورك في غضون ساعات قليلة.

بدأ فينيول السير في الممر باتجاه ضاحية دو باليه، وتبعه أندرسن بتؤدة.

- هل تعرف طبيعة العمل الذي أمارسه يا كريستيان؟

- تحسين الأداء الضريبي؟ أجاب أندرسن كما لو أن الأمر يتعلق بشيء واضح كالبيان.

إن تحسين الأداء الضريبي، بعبارات بسيطة، يعني تبني استراتيجيات قانونية لجعل الشركة أو الفرد يدفع أقل قدر ممكن من الضرائب. هذا ما فعلتْه أليس عندما كانت تعمل مع فينيول.

أجاب فينيول:

- هذا هو نشاطنا الرئيس، لكن لدينا العديد من مجالات العمل الأخرى. إننا مهتمون بإجراءات التقاضي بين الشركات وبالشركات المستدامة وبلوبي الضغط وبكل ما يتعلق بقانون الملكية الفكرية... لدينا محامون متخصصون في القانون الجنائي للأعمال.

بدأ أندرسن يستشف ماذا يريد فينيول منه، أعطاه فرصة ليواصل حديثه بينما كانا يسيران معاً على امتداد قصر سان شابيل، آخر بقايا القلعة ذات الطابع القوطي التي يعود بناؤها إلى القرن الثالث عشر، وتقع في وسط قصر العدل.

- لن أتردد في الحديث يا كريستيان. إن أحد المتعاونين معي، والمسؤول عن قسم القانون الجنائي، سيتركنا قريباً؛ لأنه سيتقاعد عن العمل، فطلبت منه أن يقدم لي قائمة بالمحامين الذين، حسب خبرته، سيكونون قادرين على أن يملؤوا الفراغ الذي سيخلفه، وكان اسمك مذكوراً في أول هذه القائمة.

تقابلا مع اثنين من المحامين يتميزان بوجود علامة بيضاء بين العين والأذن وبجبهة لامعة. توقف فينيول لإلقاء التحية عليهما، ويعرف

خبير الضرائب معظم المهنيين في قصر العدل؛ حيث كان رئيساً لنقابة المحامين مدة عامين.

تابع حديثه بأسلوب الخبير الواثق من نفسه: تقابلت مع معظم المحامين في هذه القائمة، فكنت أشاهدهم وهم يترافعون، وكانوا جميعاً على درجة عالية من الجودة. ورغم هذا، أؤكد لك أنك الأفضل على الإطلاق، وتقول أليس إنك محامٍ ممتاز. إنها محقة في ذلك. أنت موهوب.

قطب أندرسن جبينه، ولاحظ فينيول ارتباكه.

- أعتذر لك. يجب عليّ أن أتفهم مشاعر الألم التي ما تزال تعتصرك. إنني أحترم زوجتك احتراماً شديداً ياكريستيان. عرضت عليها العمل معي كشريك قبل أن تختفي. كانت امرأة ذكية جداً.

يشعر فينيول أن الحديث في هذا الموضوع مؤلم، فأدار دفة الحديث إلى موضوع آخر.

- إن مكتبي يتوسع بشكل كبير في مجال القانون الجنائي، وأنا محتاج إلى محام متمرس لإدارة هذا المكتب. أبحث عن محامٍ جيد بما فيه الكفاية، وسيصبح في نهاية المطاف الشريك رقم 18.

يفكر أندرسن برهةً في حصة من الأتعاب يتعين على مكتب كبير للمحاماة، مثل مكتب فينيول، التنازل عنها للشركاء، وفي مقدار المكافآت وسيارة المكتب التي تستخدمها أليس عندما كانت تعمل هناك؛ إلا أنه أعاد التفكير فيها، في موقف السيارات الخاص عندما كانت توقف سيارتها. أدرك أنه سيمر بهذا المكان كل يوم إذا وقع عقد عمل مع فينيول، وماذا عن باتيستي؟! لقد كانا شريكين مدة سبع سنوات، وأصدقاء منذ السنة الأولى في كلية الحقوق؛ فلا يمكن أن يخذله!

أجاب أندرسن بأسلوب دبلوماسي:

- لا أعرف ما إذا كنت أنا الشخص المناسب لهذا العمل؟

- أنا متأكد من ذلك يا كريستيان.

غادرا قصر العدل باتجاه محكمة النقض، وسارا معاً نحو الضاحية.

- ولأنني حزين جداً، أخشى ألا أستطيع إقناعك -أجاب خبير الضرائب وهو يسير باتجاه سيارة رمادية كبيرة من نوع بنتلي متوقفة بالمخالفة في صف ثانٍ- ماذا لو تحدثنا عن كل هذا لاحقاً... لماذا لا نتحدث عن مستقبل المكتب القادم؟

تذكر أندرسن أنه ذهب إلى هناك مع أليس قبل نحو خمس سنوات؛ حيث أقيم حفل في قصر دو فينيول على حدود مدينة باريس. اجتمع هناك كل أصحاب الامتياز القضائي والسياسي والمالي.

- سأبذل قصارى جهدي للمجيء. أجاب أندرسن بكل أدب.

رحب فينيول بهذا الوعد بابتسامة دافئة:

- ممتاز.

استقل خبير الضرائب سيارته البنتلي اللامعة، التي تشبه مدرعة من الفولاذ المصقول. انطلقت السيارة، واختفت بسرعة في زحام المرور!

لم ينتظر أندرسن خارج القصر. كان يريد أن يذهب إلى غرفة خلع الملابس الخاصة بالمحامين قبل نهاية تعليق جلسة الاستماع من أجل أن يأخذ خطاباته البريدية معه.

فيما مضى، كان المحامون يترافعون وهم يرتدون قبعة سوداء على رؤوسهم؛ لكن لم يعد هذا التقليد متبعاً، في حين أن الخزانات التي يضعون داخلها القبعات الخاصة بهم ما تزال تستخدم كصندوق بريد احترافي، وكالعادة، كان صندوقه مكتظاً بالأوراق. وعلى الرغم من

عدم إضفاء الطابع المادي على الإجراءات القضائية بشكل متزايد، إن العديد من الوثائق تتحول إلى مجرد أوراق!

أثناء قيامه بقراءة خطاباته البريدية، لفت نظره خطاب لونه أزرق مرسل إليه، ومكتوب عليه عبارة «اقرأني» بأحرف كبيرة، وعندما فتح الخطاب بهدوء وجد في داخله بطاقة مكتوب عليها جملة صغيرة مكتوبة بالحبر الأرجواني:

- ما الذي يشبهه الغراب؟

أثار هذا التساؤل فضوله! أعاد البطاقة إلى داخل الخطاب، ثم وضعه في كومة من خطابات البريد الخاصة به لقراءته لاحقاً. كانت جلسة الاستماع على وشك الاستئناف من جديد؛ رجع إلى حيث توجد القاعات الإصلاحية، ووصل لولوار إلى القاعة رقم 23 في الوقت نفسه الذي وصل فيه أندرسن. لم يستطع المدعي العام أن يرمقه بنظرة حادة؛ فقد كان يسير أمامه.

- أنت تستحق الثناء حقاً أيها المحامي! بفضل مجهوداتك تمكن مجرم آخر من بيع سمومه إلى شبابنا!

حدّق أندرسن النظر إلى لولوار مدة طويلة قبل أن يرد على المدعي العام:

- إنه القانون، أيها المدعي العام! إذا لم يناسبك هذا القانون، فتقدم بطلب إلى مجلس الأمة لتغييره. ضغط لولوار على أسنانه فتحركت عضلات فكه أسفل جلده الرقيق.

«إن وجودك هنا يعدّ إهانة مستديمة لقيم هذه المؤسسة يا سيد أندرسن. صنيعك هذا يشبه الدودة التي توجد في التفاح! أنت إذاً المجرم الذي يشوه روح القانون من أجل الدفاع عن المجرمين!».

شعر أندرسن بالدم يتدفق في عروقه.

- أيها المدعي العام، من فضلك أنا على عِلم بما قلته أنت هذا الصباح لأحد موكلي؛ كلمة أخرى منك، وسأرفع دعوى قضائية ضدك بتهمة التشهير!

أراد لولوار أن يردّ عليه؛ لكنه تراجع. تبدلت ملامح وجهه، وتحولت إلى ابتسامة ساخرة مرسومة على شفتيه.

- إنني مسرور من انتصاراتك سريعة الزوال أيها المحامي. قريباً سوف يدرك الجميع الحقيقة؛ أي نوع من الرجال أنت. سأصفق لك مقدماً.

شعر أندرسن بألَم قوي يسري في رقبته كلها. بدت عينا المدعي العام السوداوان لامعتين، يتطاير الشرر منهما! يعتقد أن كلماته لم تكن مجرد تهديدات فارغة.

## 5

تسير ديان بمفردها على امتداد الطريق المكسو بالثلوج في جميع أنحاء الغابة. ترتجف من البرد القارس. ترتعد من الخوف الشديد. الصمت الذي يلف الغابة بدا مخيفاً إلى درجة تجعل الدماء تتجمد في عروقها. أخيراً، ينبعث صدى صوت من الظلام، يترك أثراً عميقاً في ذهنها لا يمكن أن تنساه!

إنها ترتعد.. تسمع أصوات صراخ تأتي من أعماق الغابة.. يزول السكون، توجِّه مصباحها نحو الغابة، يضيء شعاع المصباح السماء المكفهرة نتيجة لكثافة الأشجار، التي تبدو كأنها ميتة نتيجة تشابك أفرعها السوداء في تلك العتمة.

- من هناك؟

لا أحد يرد، ورغم ذلك يتحرك الظل في العتمة، وينسل بين الجذوع السوداء التي اخترقت السدود مثل أنياب حيوان خطير!

يُسمع صوت الصراخ من جديد!

ينتشر صدى الصوت إلى أبعد مدى، ثم يتلاشى في الليل ليحل محله صمت مطبق.

غادرت ديان طريق الإسفلت الممتد، وسارت حتى اختفت في ثناياه. بعد نحو عشرات الأمتار، وصلت إلى بركة صغيرة متجمدة، كانت هناك امرأة ملقاة على حافة البركة، وكانت عليها علامات عض على رقبتها وكاحليها ومعصمها. يبدو أن جسدها أصبح بارداً!

بينما كان السكون يلف الغابة، وإذ بعينين براقتين لونهما أصفر تحدقان النظر إليها؛ إنهما لذئب، أسنانه الحادة تشبه الخناجر وذيله طويل شائك!

استيقظت ديان، وقفزت على سريرها. ينشر المصباح المعلق في السقف ضوء شعاع برتقالي يُشعرها بالدفء؛ لأنه كان مُضاءً طوال الليل، ووفقاً للراديو الذي يعمل كساعة، وينقل الأخبار، إن تاريخ ذلك اليوم هو الرابع والعشرون من شهر أبريل. العالم ما يزال مضطرباً؛ زيادة في معدل البطالة، حادث على الطريق الدائري، زحام في المرور، إضراب سائقي القطارات، تم العثور على امرأة ميتة في غابة تقع في منطقة فانسان!

نهضت ديان وسارت خطوات تفكر في أمر ما؛ الصور الأخيرة التي رأتها في الحلم ما تزال تراود مخيلتها! أزاحت الستائر بالكامل. أشعة الشمس الدافئة التي يتميز بها فصل الربيع تسللت إلى داخل الشقة.

الأشباح التي صاحبتها خلال الليل تم التخلص منها نهائياً؛ منذ عدة أسابيع ومثل كل صباح تشعر ديان بالجوع الشديد. ذهبت إلى المطبخ، وقامت بطهي أربع بيضات. أكلت فقط بياض كل بيضة، ولم تأكل صفارها، وزنت مئة جرام من الشوفان الملفوف، وأضافت إليه الماء، وقبل أن تتناول الطعام اتجهت نحو الميزان، وقامت بقياس معدل الدهون في جسمها. يبلغ طولها نحو متر وثلاثة وسبعين سنتيمتراً، وتزن نحو سبعين كيلوجراماً، المعدل لا يبدو سيئاً جداً؛ فهي تكاد تقترب من الوزن المثالي. بطبيعة الحال لا تشبه عارضات الأزياء؛ فأكتافها قوية

وعريضة جداً لا تناسب فساتين السهرة؛ أنفها مسطّح إلى حدٍ ما بسبب تعرضها لضربة قوية، شعرها مخضب باللون الأحمر وقصير كي لا يعوقها أثناء ممارسة الملاكمة، وجهها نَمِش بكثرة، القفص الصدري قوي، العروق طويلة ودقيقة وبارزة من تحت الجلد؛ لهذا لا يمكن لها أن تتخيل إمكانية أن تكون عارضة أزياء، وتسير فوق المنصة بكعب مدبب. لم تكن أبداً قبيحة المنظر. يقول وول: الفرق بينها وبين الفتاة الجميلة يكمُن في هذا الأنف المكسور، ويقول لها في مرات عديدة إنه لا فرق بينها وبين ملامح الرجل المكتمل الرجولة.

أكلت ديان طعام الإفطار بسرعة، وتوجهت إلى خزانة الملابس الخاصة بها الممتلئة عن آخرها تقريباً بالسراويل القصيرة وقفازات الملاكمة والقميص الذي ترتديه عند التدريب وفستان أبيض يوجد في وسط الخزانة يشبه شراعاً مربع الشكل يوجد أعلى سطح زورق يعمل بمحرك، وصلتها هدية من والدتها قبل ثلاثة أيام بمناسبة عيد ميلادها الخامس والثلاثين، وضعتها في الخزانة دون تفكير؛ حيث قامت بلفها على شكل كرة، وألقتها على الرف في أعلى خزانة الملابس

بجوار مجموعة أخرى من الملابس السوداء، أو التي تشبه اللون الأسود، مطبوعاً عليها رسومات مربعة أو أزهار رائعة جداً، لم تلبسها نهائياً. بسرعة شديدة ارتدت حذاءها الرياضي، وخرجت.

في الخارج، بدت المدينة ساكنة إلى حد ما، وما تزال رائحة البارود والغاز المسيل للدموع في الهواء؛ فخلال الليل داهمت كتائب الشرطة مدينتي كوريال وآرشيرو. قاومهم شباب الحي؛ أطلقوا الألعاب النارية الكبيرة باستخدام قذائف الهاون. استمرت المواجهة أكثر من ساعة.

أنفاسها منتظمة وسلسة كأنها مقدمة قطعة موسيقية. تجاوزت ديان الأبراج في منطقة أورج دو فلاندر، تُسرع الخُطا إلى حد ما وهي تمر بين القطع الخرسانية المربعة. كانت المنطقة الكبيرة أسفل تلك الأبراج مهجورة من البشر. أصحاب المحال التجارية لم يفتحوا محالهم بعد. وصلوا في وقت متأخر بعد أن فتح مكتب البريد الأبواب التي يقف على حراستها رجل قوي البنية معه كلب حراسة منذ ثلاثة أسابيع. من المدهش أن تبيع المكتبة المجاورة لمكتب البريد عدداً من موازين الرسائل يفوق بكثير مبيعات أي مكتبة أخرى في باريس!

صار الشارع أصغر، بدت الطبيعة متغيرة؛ ها هي الحمامات والمعابد اليهودية ومحلات البقالة. نحن نوجد في منطقة القدس الصغيرة في باريس؛ ها هم يهود الشاباد لوبافيتش[1] من ذوي اللحى الطويلة، والقبعات السوداء من ماركة بورسالينو المشدودة على رؤوسهم، يتجولون بلا هدف مثل الغربان التي تستشعر القلق بالقرب من مجمع بيت هيا موشكا، وعلى بعد خطوات أخرى من هذه المنطقة تتغير الصورة في الحي نفسه؛ حيث توجد المتاجر الأفريقية التي تشتهر بالتوابل ويخنة

1 طائفة من اليهود تجمع بين تعاليم الحاسيديم والحاريديم.

الفراخ بالفول السوداني وطبق التاندوري[1] وعيش البيتا الطازج[2]، التي تجد طريقها إلى قوائم المطاعم. تقابلت ديان مع امرأتين باكستانيتين ترتديان الساري[3]، وهما تخرجان من متاجر منوبري. العطر الذي تضعانه تفوح رائحته من على مسافة بعيدة.

وما إن تجولت بين المتاجر حتى بدأت التفكير، مرات عديدة، في المنتجات التي تحتاجها في المطبخ كالخضروات والحبوب وحليب الصويا، بالإضافة إلى الكثير من مسحوق البروتين. يجب عليها شراء عبوّة تزن خمسة كيلو جرامات من هذا المسحوق. إنها تفكر في الدراجة النارية التي تركتها في الجراج، كما أنها تفكر في تأخير الدورة الشهرية التي تحسبها بالأسابيع؛ هي ليست حاملاً، بطبيعة الحال، بما أن الطمث قد انقطع بسبب ممارستها رياضة الملاكمة.

يحدث ذلك لعدّاءات الماراثون من السيدات، أو لمن تمارس رياضة كمال الأجسام، أو لراقصات الباليه. ليست بدينة؛ إنها تعاني من الإجهاد. بدأ جسدها يفقد طاقته وأنوثته؛ إنها تفقد خصوبتها. أصبحت شبيهة بالرجال! مع الأسف، هذا هو الثمن الذي يجب أن تدفعه لكي تكون قوية. هكذا تفكر وهي تسير بسرعة.

وصلت إلى النادي بعد أقل من ساعة من مغادرتها. الصالة الرياضية تعجّ بالصخب والحركة؛ الضرب القوي باليدين على الجلود؛ نقرات حبال القفز على الخرسانة؛ قرقعة أقراص الحديد الزهر على القضبان الفولاذية. في منتصف الحلبة، كان مدير الصالة والتر مراد ينتظرها

1 الطبق عبارة عن فراخ مُتبلة بالزبادي وهو أكلة من الأكلات المعروفة في جنوب شرق آسيا وتحديدًا في الهند وباكستان.

2 رغيف يُصنع من الدقيق والردَّة ويعرف في مصر باسم العيش البلدي.

3 الساري هو الزي الشعبي للنساء في هذه البقاع

في عالم الملاكمة الإنجليزي الصغير. الجميع يطلقون عليه اسم والتر الحائط، أو، بكل بساطة، الجدار. هو في الخمسينات من عمره؛ صلعته ناعمة كالصدفة؛ يتمتع ببنية جسدية قوية؛ بشرته السوداء العميقة تبدو كأنها زرقاء تقريباً تحت تأثير أضواء النيون القديمة في صالة الألعاب الرياضية. حقق 43 انتصاراً في مقابل ثلاث هزائم؛ لكنه لم يخسر أي مباراة بالضربة القاضية. تلقى لكمات قوية جداً. ترددت شائعات في تلك الآونة، عندما كان يلعب بوصفه محترفاً، بأن شيئاً ما كُسر فيه، أو أنه يعاني من خلل في الأعصاب، أو شيء من هذا القبيل، لكنه لم يشعر بالألم مثل الملاكمين الآخرين. أصاب منافسيه بالرعب؛ لأنهم يعلمون أنهم مضطرون إلى الاحتماء بحائط حلبة الملاكمة حتى الجولة الأخيرة، وما يزال محفوراً على وجه وول الخشن آثار تلك المباريات التي لا نهاية لها. تعرض لإصابة في أنفه الكبير؛ لهذا أصبح أنفه على شكل حبة البطاطس يصدر صوتاً إذا تقاطعت زفرات أنفاسه الملتهبة.

كان باستطاعته إجراء علاج للحاجز الأنفي منذ وقت طويل؛ لكن «الجدار» لم يكن وسيماً، ولم يفكر مطلقاً في إجراء عملية شد للوجه.

في هذا الصباح، طلب وول من ديان أن تتدرب تدريباً شاقاً مدة ساعتين بلا توقف. كان التدريب مكثفاً إلى درجة أنها واجهت صعوبة في متابعته، رغم أنها تمرست على ذلك لشهور! كان قميصها مبتلاً من شدة التعرّق، وبدت كأنها قد اغتسلت وهي ترتديه؛ لم تعد لديها طاقة لمواصلة التدريب، تباطأت.. عندما أصبحت لكماتها ضعيفة، وهي ترتدي قفازات جلدية ثقيلة، استشاط وول غضباً.

- مالكِ تضربين برقةٍ كفتاة؟!

- لا يمكنني الاستمرار بعد الآن يا وول. قمنا بعمل تدريبين، وهذا أكثر من المعتاد.

الحديث بهذا الشكل جعله يتنفس بشكل متقطع..

- لأنك ستلعبين بعد شهرين من أجل الحصول على اللقب. يجب متابعة ضرب تلك الأهداف الصعبة. تحدث وهو يرفع واقي حماية الرأس إلى أعلى مستوى لها. الضرب يكون بشكل مباشر وغير مباشر وبسرعة.

تضرب بأقصى ما تستطيع؛ لكن ذراعيها كانتا ثقيلتين ومنهكتين..

- هل تعتقد أن هذه هي الطريقة التي سأهزم بها المنافس؟

- لا بد من الضرب. هيا من فضلك.

- أنا منهكة يا وول.

- اصمتي. أنا لا أتحدث مع ديان. أنا أتحدث مع دينا.

دينا القاتلة ذات الوجه الملائكي حصدت ثمانية وثلاثين انتصاراً، وخسرت مباراة واحدة، وتعادلت في واحدة. كان هذا هو اللقب الذي أطلقه عليها، وبعد أن تودّد إليها قال:

يجب أن يكون للملاكم لقب. يجب أن يتغير اسمه ليكون شخصاً آخر في الحلبة.

- أريد أن أسمع صوتك أثناء الملاكمة. أين حنجرتك؟! هل جئت إلى هنا من أجل درس الرقص؟ اضربي، بقوة.. اضربي..

الضربات بدأت تتوالى بأسرع ما يمكن. لا يكفي هذا الضرب بالنسبة إلى وول؛ لهذا ضربها بشدة على رأسها بأحد واقيات الجلد الخاصة به!

- استيقظي. ماذا ستفعلين مع هذه الملاكمة التي تلعب بعدما حصلت على حزام بطلة العالم؟!

- سأنتصر عليها.

نظر إليها وول بلا اكتراث..

- لا يكفي الانتصار عليها. اضربي من فضلك. ماذا ستفعلين مع هذ العدو؟!

ضربة أخرى في أعلى الرأس. استطاعت تسريع وتيرة الضربات. تكاد عضلات كتفها تلتهب. تريد أن تصرخ:

- سأدمرها..

- لا يكفي تدميرها. ماذا ستفعلين بعدوك؟!

- أقتلها، سأقتلها! صرخت، وألقت بآخر قوتها في ضربات عشوائية، لكنها كانت قوية، وحفرت أثراً عميقاً في الحائط المغلّف بالجلد.

قال وول، وهو يتراجع إلى الخلف:

- هذا جيد جداً. إلى المزيد من الضرب. أريد أن يكون الضرب أكثر. هيا اضربي..

صرخت صرخات عالية مع كل ضربة. استمر الضرب عدة ثوانٍ حتى نادى أحد كبار السن في النادي على وول من على حافة الحلبة.

- ألا ترى ما نفعله؟! نفقد دهون البطن. صرخ الجدار.

- سيدي، يوجد رجال شرطة عند المدخل. تحدث الرجل بصوت يبدو عليه القلق!

يسأله وول:

- هل أعرفهم؟

كان الجدار يعمل كأحد رجال الشرطة مدة خمسة وعشرين عاماً. قضى معظم هذه الفترة في الضواحي المشتعلة، وليس في الضواحي الهادئة.

- لا أعرف. على أي حال، إنهم يريدون التحدث إليك.

أنف وول المكسور يصدر صوتاً وهو يتنفس. يبدو عليه الانزعاج. ينزع واقي حماية الرأس.

- لا بأس يا ديان. سنتوقف عن التدريب هذا الصباح. اشربي الماء واغتسلي.

خرج الجدار من بين الحبلين الثاني والثالث لسور الحلبة، وسار دون استعجال نحو القاعة. وبمجرد أن هدأت أنفاسها بشكل كافٍ، ذهبت ديان كي تستحم، وبينما ظلت ديان تحت مياه الصنابير الدافئة مدة خمس دقائق؛ إذ بصوت وول يعلو في غرفة ملابس الملاكمات:

- هل أنت قلقة يا ديان؟

- لا، لماذا؟

- رجال الشرطة هنا يسألون عنك.

أغلقت ديان صنبور الماء لتسمعه جيداً!

- ماذا يريدون مني؟!

- لم يتكلموا معي. هل تريدين أن أطردهم؟

- لا، انتظرني بعد خمس دقائق.

خرجت ديان من الغرفة، وجففت نفسها، ثم ارتدت ملابس نظيفة حيث كانت دائماً تحتفظ بعدد من الأثواب البديلة في خزانة ملابسها.

كانت الصالة الرياضية تمثل لها منزلها الثاني. في الردهة، تقابل وول مع شرطيين يرتديان الزي الأزرق.

يسألها أحدهما:

- أأنتِ الملازم ديان كيليرمان؟

- استاءت ديان عندما سمعت رتبتها القديمة.

- لا تناديني برتبة ملازم؛ فأنا لم أعد أعمل في مجال الشرطية. إذاً، ماذا تريدون مني؟!

- أطلب منك أن تأتي معي يا سيدة كيليرمان.

- إلى أين؟

- إلى قسم شرطة مكافحة الجريمة.

- تشعر ديان بحبّات العرق البارد تسيل على ظهرها. قسم شرطة مكافحة الجريمة! كان آخر عمل لها هناك قبل أن يتم طردها من الشرطة.

## 6

بعد نحو نصف ساعة، مرّت ديان من أمام الرصيف دي أورفيفر رقم 36، أحاط بها الشرطيان اللذان أتيا للبحث عنها، رافقاها إلى ممر مجهز بنظام يسمح أو يمنع وصول الشخص إلى مكان ما تابع للشرطة القضائية في الطابق الثالث من المبنى، الذي يتميز بنوافذه المضادة للرصاص، وكاميرا للمراقبة، وحارس مسلح يجلس في غرفة الاستقبال. يوجد فرق كبير جداً وفظيع بين عالَم رجال الشرطة وعالَم المدنيين العاديين، الذي ما تزال تنتمي إليه حالياً! في الخلف، كان هناك رجل ينتظرها بالقرب من مكاتب مديري الشرطة القضائية. يبدو أنه شاب ذو بشرة داكنة وشعر قصير، يرتدي سترة جلدية بنية اللون، ويحمل مسدساً مثبتاً في خزانة بحزامه؛ يقول إن اسمه أحمد صلاح! ملامح وجهه لا تذكّرها بأي شيء.

يعمل هناك منذ فترة قصيرة. طلب صلاح من زميلاته، اللاتي يرتدين الزي العسكري، أن يبتعدن، ثم قال لها إن مأمور الشرطة جيريكو يريد مقابلتها. جيريكو... هذا شخص آخر لا تعرفه أيضاً! ما تزال تفكر في الأمر.. إن الممرات التي يمرون بها من أجل الوصول إلى مكتبه كانت مألوفة بالنسبة إليها؛ يتغيّر الرجال، ورغم ذلك لا يتغير المكان! فهذا المبنى يضم المديرية الإقليمية للشرطة القضائية منذ عام 1913. كل شيء هنا له تاريخ طويل

من القاعات إلى كلّ قطعة أثاث. ما قصة قضبان نافذة المكتب رقم 415؟ تم تركيبها بعد أن قفز منها ريشار دورن القاتل المعروف في مدينة نانتير. يشرح كيف أقدم؛ خلال خمسين ثانية من الجنون المطلق وسبعة وثلاثين رصاصة، على قتل ثمانية من أعضاء مجلس البلدية، وجرح تسعة عشر آخرين! ألم تكن هناك شبكة الأمان في الطابق قبل الأخير؟! بدا عليه الاضطراب الشديد في فترة الثمانينيات؛ لأن أحد أعضاء الجماعة المسلحة الفوضوية، التي يطلق عليها جماعة العمل المباشر، حاول الانتحار عن طريق القفز من النافذة.

حتى مكتب ديان القديم كأنه قطعة من تاريخ المبنى؛ تم استخدامه لتصوير فيلم كلوزو في عام 1947، وكان من الضروري إخراج الكمبيوتر والهاتف من المكتب للحفاظ على الديكور الأصلي. التدخين هنا مبالغ فيه إلى درجة أنه يمكن شمّ رائحة التبغ البارد على الجدران والأسقف!

أخيراً، وصلا إلى مكتب جيريكو مأمور الشرطة؛ إنه مكتب رئيس القسم السابق الذي كانت تعمل فيه؛ ربما تم نقله إلى مكان آخر! تركها الشرطي الشاب بمفردها أمام الباب. أخذت نفساً عميقاً قبل أن تطرق الباب ثلاث مرات...

- تفضلي بالدخول. تسمع رنين صوت أجوف!

تدخل إلى الغرفة الصغيرة المليئة بخزائن معدنية. تشاهد الكثير من حزم الأوراق في الخلف بالقرب من النافذة. يوجد مكتب كبير، عليه أدوات الشرطي المُنهك بالعمل المُثقل كاهله بالضغوطات؛ حاسوب قديم جداً، وأكوام من الملفات، ونماذج إجرائية معدة مسبقاً، ومظاريف إدارية لونها بني، وهاتف ومجموعة من المحاضر الشرطية.

لا يوجد سنتيمتر واحد فارغ من مساحة المكتب! يوجد رجلان في الغرفة. تفترض ديان أن الشخص الجالس خلف المكتب هو جيريكو مأمور الشرطة بعينيه البنّيتين اللتين تميلان إلى اللون الأصفر، وقصة شعره القصيرة جداً، وجبهته التي فيها خطوط من التجاعيد الطويلة، وأنفه الذي يشبه منقار طائر جارح. يبدو أنه يحمل رتبة نقيب. يوجد على كتفيه المربعتين ما يتوافق مع هذه الرتبة؛ شعرت بأنه الرجل الذي يصدر الأوامر بكل تأكيد، لكن الوجبات الغذائية الجيدة، والساعات التي يقضيها جالساً على كرسيه، جعلت بطنه مستديراً، وبسطت غرز سترته الرمادية الفاتحة. أما عن الرجل الآخر، فقد بدا عصبياً وحاداً ونحيفاً، يجلس إلى جانبه، يغزو شعره الشيب، وتبدو عيناه سوداوين غائرتين.

يسأل جيريكو:

- هل هذه هي السيدة أيها الضابط؟

أومأ الشرطي برأسه.

- إذاً، سأتركك.

ألقى الرجل النحيف التحية عليها، ثم غادر المكان. أشار الضابط إليها بالجلوس على الكرسي ذي المساند المصنوعة من الجلد الأصفر،

والمخصصة عادة للمشتبه فيهم. كانت المساند غير مريحة، وكانت إطاراتها الحديدية قوية بما يكفي لتقييد المشتبه فيه بزوج من الأصفاد.

تسأله ديان وهي جالسة:

- أخبرني من فضلك، لماذا أنا هنا؟!

وضع جيريكو مرفقيه على الطاولة، وأشبك أصابعه بعضها ببعض.

- أتعرفين الرجل الذي غادر للتو؟

- لا أعرفه نهائياً!

- اسمه كلود لولوار، المدعي العام. كان هنا لمناقشة قضية وصلتنا أمس؛ تم العثور على امرأة ميتة في غابة تقع في منطقة فانسان.

ربما سمعتِ عنها؟ تظهر عليها آثار طعنات كثيرة في منطقة الظهر، كما توجد آثار أربطة على كاحليها ومعصمها. يُعتقد أنها جريمة قتل ارتكبها السّفاح ضمن سلسلة الجرائم التي حقّقتِ أنتِ فيها قبل أربع سنوات.

- إنه محرك الدمى! تهمس وهي مذعورة.

تشعر بقشعريرة تصيب الجزء الخلفي من رقبتها؛ تتذكر لقطات واضحة ودقيقة تلوح في رأسها، وتبدو لها مثل القوالب النمطية التي يتم وضع الأختام عليها! في فترة زمنية -قبل أربع سنوات- ذهبت ديان بنفسها إلى الضواحي، وتحديداً إلى منطقة صغيرة غير معروفة للجميع، بعيدة كثيراً عن العاصمة؛ الأمر الذي جعل ديان تشعر كأنها في الريف، ورغم ذلك يمكن لأي أحد استدعاء الشرطة المختصة بمكافحة الجريمة في حالة الوفاة المشتبه فيها. كانت عطلة نهاية الأسبوع، وكان الفريق الذي تعمل معه في عمل مستمر. رن الهاتف في منزلها نحو الساعة الخامسة صباحاً..

أنتِ «الملازم كيليرمان»؟ معكم هيئة الأركان العامة. تم ضبط مجموعتك متلبسة في جريمة قتل في منطقة سوسي أون بري.

أعادت التفكير في غابة دومانيال التابعة لمنطقة نوتردام. تبدو الغابة أحادية اللون إلى حد كبير، ومظلمة بسبب كثافة الأشجار السوداء، وكمية الثلوج الكثيرة، وتقع شرق المدينة. كنا في فصل الشتاء، وكانت درجة الحرارة أقل من الصفر، واستمرت مدة أسبوعين، ترتجف وهي ترتدي ملابس مكونة من تايير أبيض، وغطاء رأس، وحذاء وقناع وقفازات؛ بينما يقوم المصور التابع لقسم الأدلة الجنائية بتزويد علبة كاميراته بعدسة 50 مم الأقرب إلى زاوية رؤية العين البشرية. تجاوز مسؤول جمع الأدلة في مسرح الجريمة الشرائط الصفراء والسوداء التي تحدد المحيط الأمني.

سارت إلى جانبه، وهي تستمع إلى نصائحه؛ لكنها كانت مشتتة الذهن. لمدة أسابيع، وهو يعلمها كيف تمعن النظر في الأماكن، وتكتشف الآثار، وتدون الملاحظات باستخدام مفردات دقيقة وتقنية. وبمجرد تكليفها بالعمل ضمن الفريق المسؤول عن محرك الدمى، أعربت عن اهتمامها بهذا التخصص الدقيق وبالصور والروائح والأصوات. كان على مسؤول جمع الأدلة في مسرح الجريمة أن يتعامل مع فظاعة كل جريمة قتل بكل أبعادها أكثر من أيّ شخص آخر؛ فهو المكلّف بوصف مسرح الجريمة بكل تفاصيله، وهو المكلف بعمل ألبوم صور التحقيق التي يتم التقاطها في موقع الحدث، وهو أيضاً المكلف بمساعدة طبيب التشريح أثناء تشريح الجثة.

فوق الأرض، التي حدثت عليها الواقعة، يتم تثبيت أسهم بيضاء بخلفية سوداء على امتداد الطريق إلى حيث يوجد جسد القتيلة، يلتقط المصور صوراً لكل شيء يمت بصلة إلى الواقعة مثل العلب الفارغة، والأغصان المكسورة، وآثار الأقدام، وأي ثقب داخل الأرض، لا بد من تصوير كل شيء..

على امتداد الطريق، الذي يقطع الغابة بأشجارها الصغيرة، حاولت ديان ألا تفكر في الغابة التي تحيط بها، ولا في الأصوات المتتالية والفرقعات الكثيرة التي كانت تسمعها، ولا في تلك الأشياء التي تتحرك كظلها، ولا في الأشباح التي لاحت في خاطرها منذ زمن مضى، حينما كانت تُمرر يديها المُتجمدتين من البردِ على ظهر الفتاةِ وصدرها!

يساعدها الروتين الرتيب، الذي اتّبعه المصور ومسؤول جمع الأدلة في مسرح الجريمة، على التركيز والتفكير في الضابط الذي يضع رقماً بجانب كل شيء يشتبه فيه، وفي مسطرة القياس بالسنتيمتر على شكل حرف L، وفي الصور الثلاث التي تم تشبيكها بعضها ببعض بسرعة.

هي إذاً خطة شاملة بأدق التفاصيل؛ لكن بعد فترة قصيرة، بدأت أصابعها ترتعش بقوة إلى درجة أن الملاحظات التي تدونها أصبحت غير قابلة للقراءة. كان عليها أن تتوقف عن الكتابة لبضع دقائق، وأن تنظم تنفسها كما علمها وول منذ سنوات؛ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة: شهيق، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة: زفير.

بمجرد أن هدأت، استأنفت عملها، وذهبت إلى منطقة يحرسها رجال الشرطة المناوبون. ساد هناك صمت يشبه الصمت داخل الكنائس؛ لا يُسمع صرخات لحيوان، ولا أصوات لبشر. كل ما سمعناه هو انكسار العشب المتجمد عندما يصدر صوت فرقعات تحت أحذيتهم وهم

يمشون، وصوت نقرة الكاميرا عند التقاط الصور. هناك بالقرب من البركة يوجد جسد امرأة ملقى على الأرض من دون ملابس، ملتفة حول نفسها كما يلتف الجنين في بطن أمه. كانت بيضاء شديدة البياض تكاد تكون بلون الرخام، عروق يدها زرقاء وسوداء، الأوراق الحمراء والصفراء المتساقطة من الأشجار الجليدية الطويلة تتناثر فوق جسدها، وعلى شعرها الأشقر العالق بين الطحالب والثلوج؛ بدت الجثة كأنها جذع شجرة!

في اليوم التالي، أرسل رئيسها في العمل فرقة مزودة بكلاب متخصصة في البحث عن الجثث. فوق هذه الأرض، التي تجمدت بسبب الشتاء، توجد أربع جثث ملقاة في الغابة. كانت هذه الجثث لفتيات صغيرات يبدو عليهنّ أنهن فقيرات جداً، ويعشن، بشكل أو بآخر، في الشوارع، ويمثلن الضحية المثالية لمُغتَصِب!

يوضح المتخصصون في علم النفس العصبي أن البِركة تشكل للقاتل نوعاً من الملاذ الآمن من أجل أن يمارس جرائم القتل! على حد قول هؤلاء المتخصصين، إن القاتل كان ينوي العودة إلى دفن القتيلة الأخيرة بعد ذوبان الجليد.

إنه يعاني من تبلّد المشاعر، ويرغب في العثور على هذه الجثث فقط. إننا نعرف ما الذي كان يفعله بهنّ؛ لقد اتضحت الصورة الآن: إنه مهتم بجعل ضحاياه تبدو كالدمى المكسورة!

لقد أعادها صوت جيريكو إلى واقع الأمر.

- تبدو الضحية صغيرة، في الثلاثينات من عمرها، وربما أقل من ذلك، شقراء، عيناها زرقاوان؛ مثل غيرها من ضحايا محرك الدمى. لم نستطع أن نتعرف عليها بعد!

- هل تعرضت لاعتداء من نوع معين مثل الأخريات؟ أومأ جيريكو برأسه.

- هل وجدت أي أثر للحمض النووي؟

- سحبنا العديد من العينات؛ لكن من غير المحتمل أن يقدم لنا أي منها دليلاً على هوية القاتل! كالعادة، تم غسل الضحية بعناية وقص أظفارها، وتمشيط شعرها جيداً، وتم حرق أعضاءها التناسلية بماء النار... وكذا أسفل الجسد كله!

تشعر ديان بدوار شديد. ألا يوجد حد لهذه الفظائع؟ ألا يمكن ألا تتكرر مرة أخرى؟! مستحيل..!

- أرسلت إلي لمساعدتك في هذه القضية. أليس كذلك؟

يبتسم جيريكو كما لو أنها تمزح؛ لكن نظراته الحادة لا تدل على أي سعادة!

- لا، إطلاقاً - ردّ عليها جيريكو- لكن المدعي العام مُصرّ على أن أتحدث معك، ونظراً إلى أنكِ تعاملت مع جرائم القتل الأخرى، فإنه يعتقد أنكِ تستطيعين تسليط الضوء على محرك الدمى؛ لكنه لم يقرأ ملفك على ما أعتقد!

فتح الضابط إحدى الملفات الورقية الموضوعة على طاولته، وأخرج حزمة رقيقة من الأوراق.

- ديان كيليرمان؛ حصلت على دبلوم في القانون من جامعة باريس 8 بتقدير جيد، دبلوم في عِلم الجريمة؛ بطلة الجامعة في ملاكمة السيدات على مستوى فرنسا لعامين متتاليين؛ تم قبولها في مسابقة المدرسة الوطنية العليا لضباط الشرطة؛ ثمانية عشر شهراً من التدريب في مدرسة كان-اكليوز؛ حازت المرتبة الرابعة بين المتخرجات؛ تم

انتدابها للعمل لأول مرة في مركز شرطة سان لامبير في الدائرة الخامسة عشرة؛ حصلت على درجات ممتازة؛ تم نقلها إلى فرقة مراقبة أعمال البغاء، ثم إلى فرقة مكافحة الجرائم حيث انضمت إلى الفريق الذي كان يعمل بالفعل على جرائم القتل التي ارتكبها محرك الدمى؛ تم تدريبها لكي تكون مسؤولة جمع الأدلة في مسرح الجريمة لفرقتها. حتى ذلك الحين كانت سيرتك الذاتية مثالية.

ينظر إليها بعيون تشبه عيون الطيور الجارحة.

- أما عن سيرتك الذاتية بعد تلك الفترة فهي غير مشرفة؛ حصلتِ على لفت نظر متعدد، عصيانك للأوامر، مضايقات وضرب وإصابة رجل يدعى أنطوان هنكر.

هنكر! مجرد ذكر اسمه جعلها تتوتر بشدة؛ كان هنكر رجلاً عسكرياً سابقاً، نجح في تغيير مساره عندما استأجر مستودعاً لدفن الضحايا. بعد أسابيع من التحقيق المضني، أثبتت ديان أن جميع ضحايا محرك الدمى كنّ يعشنَ ويعملنَ أو يعبرنَ بانتظام بالقرب من أحد مستودعاته؛ لكن بما أنه يمتلك العشرات منها، فإن قاضي التحقيق لم يعدّ ذلك سبباً كافياً لتوجيه الاتهام إليه، وتفتيش هذه المستودعات.

يسألها جيريكو:

- ما الذي دفعك إلى تتبع أثر هذا الرجل؟!

- اختفاء فتاة تشبه إحدى الضحايا مدة أربع وعشرين ساعة.

تعاملتُ مع الواقعة بسرعة شديدة. كان هنكر هو المشتبه فيه الرئيس، فقمتُ بإعداد خطة من أجل مراقبته.

- تتصرفين بشكل غير قانوني تماماً. لم يوقع القاضي على أيِّ تفويض لك!

- تردّ ديان -وقد بدا عليها الانزعاج- كانت حياة السيدة مثل اللعبة! لقد فعلت ما أعتقد أنه ضروري.

يحمل جيريكو حزمة من المستندات المصورة..

- تقرير الطبيب يثبت أن هنكر تعرض للضرب المبرح في هذه الليلة عندما كنت تراقبينه، ودخل على إثر ذلك المستشفى، ومكث فيه عدة أيام.

- قلت لك من قبل، كانت المرأة على وشك أن تموت. أمسكت بقاتلها ولم يقاوم أحداً. حاولت أن أجعله يتكلم لكن الوضع خرج عن السيطرة. كيف يمكنك أن تتصرف أنت في مثل موقف كهذا؟!

- أنا على ثقة في فريق العمل لدي. أثبت زملاؤك أن هنكر بريء من جميع جرائم القتل.

إذا قرأت المحاضر بعناية، فستلاحظين أنه لا يمكن أبداً تحديد وقت معظم حالات الاختفاء. هذه مجرد فرضيات. يكفي أن تقومي بمراجعة تقاريرنا مدة ساعة أو ساعتين، وستري أن البراءات التي حصل عليها هنكر تتوالى الواحدة تلو الأخرى؛ هذا ملفه! لقد تم بالفعل اعتقاله عدة مرات بتهمة الاعتداء على ضحاياه.

جلس مأمور الشرطة بارتياح تام على المقعد، وشبك يديه على بطنه البارز.

- قرأت كل ذلك في التقرير المقدم من لجنتكم التأديبية؛ لكنني أعتقد أن هناك مشكلة تتعلق بالأدلة؛ إنها مشكلة كبيرة..

يحدق جيريكو النظر إليها بقوة.

- اليوم، لدينا جريمة قتل أخرى أقدم عليها محرك الدمى، ولابد من التركيز عليها، كما أن هنكر مسجون منذ أكثر من ثلاث سنوات لحيازته مخدرات. كيف تفسرين ذلك؟!

تنظر إلى أسفل منها.

- إذا لم يكن ذلك من أجل مساعدتك، فلماذا يتم استدعائي؟!

انحنى جيريكو على المكتب. استحسنت أسلوبه في الحديث؛ لكنه أجابها بصوت يتسم بالبرود.

- لقد استدعيتك يا كيليرمان من أجل أن تكون الترتيبات كافة بيني وبينك واضحة المعالم. أعلم أنك ما تزالين تحتفظين بعلاقات هنا، وأعلم أنك تواكبين تقدّم التحقيقات التي تخصّ محرك الدمى.

توقف عن الكلام، وانتظر قليلاً وما إن تكلم من جديد حتى أصبح جرس صوته عميقاً إلى درجة تجعله يشبه رنين المعادن!

- مسؤول جمع الأدلة في مسرح الجريمة لدي لم يلتفت إلى هذا الأمر. أعتقد أنه أعجب بك بالرغم من الفوضى التي تسبّبت فيها خلال عملك معه. أنا لا أثمّن طريقتك تلك على الإطلاق. إن رجال الشرطة المتمردين مثلك لم أتمكن من السيطرة عليهم أبداً؛ لا أريدك ضمن فريقي؛ لذا، إذا علمت أنك تجرين تحقيقاً مضاداً من خلف ظهري (حدّق النظرإليها كما لو كان يتخيل الموقف في ذهنه)، إذا علمت بذلك يا كيليرمان، فاعلمي أنني لن أتردد في تدميرك.

كان عليها أن تغرز أظفارها في راحتي يديها كي تهدأ.

يتساءل جيريكو:

- أيبدو كلامي واضحاً بما فيه الكفاية؟

- واضح جداً. أجابت دون أن تضغط على أسنانها.

جلس جيريكو على المقعد بكل أريحية. بدا عليه أنه سعيد.

- في هذه الحالة، لا أرى أيّ سبب لاحتجازك هنا طوال هذه المدة. سيرافقك أحد رجالي إلى الخارج.

يبدو كما لو أنه أهدر وقته معها. أمسك قلماً، وبدأ كتابة مذكرة على كراسة كبيرة. نهضت في سكون، وغادرت القاعة، ينتظرها في الردهة رجل الشرطة صلاح، الذي يرتدي سترة مصنوعة من الجلد لونها بني، يرافقها إلى خارج المبنى. أوقف سيارة أجرة لها، وبينما كانت تستعد لدخول السيارة، قال لها الشرطي الشاب بعض النصائح:

- لو كنت في مكانك، كنت سأفعل ما طلبه مأمور الشرطة؛ فهو ليس من ذلك النوع من الرجال الذين نستطيع مضايقتهم.

نظرت إليه وهي مندهشة!

- هل تنصّتَّ علينا؟

- لا أحتاج إلى ذلك. تحدّثنا كثيراً عن هذا الأمر هذا الصباح.

تتذكّر رجالَ الشرطة ضمن المجموعات الثلاث التي يترأسها جيريكو، وهم مجتمعون في إحدى قاعات الاجتماعات الصغيرة من دون تهوية نهائية، إنهم يحدقون النظر في صورتها المعلقة على الحائط. ربما هذه الصورة هي بطاقة الشرطة القديمة الخاصة بها.

تتساءل:

- إذاً، أنت تعرف قاتل الفتاة في منطقة فانسان؟

يرد عليها باستغراب:

- ماذا تقولين؟! يشعر أنها ستطرح عليه سؤالاً آخر يضعه في مأزق.

- وجدتَ آثاراً على ظهر الضحية. كم كان عددها؟

أجال البصر فيها، وهو مرتاب في أمرها!

- ألم تستمع إلى أيّ كلمة قلتها أم ماذا؟!

- استمعت جيداً؛ لكنني أريد أن أتأكد من أن الحقيقة الكاملة ستأخذ مجراها في هذه القضية.

- وما الحقيقة حسب رأيك؟

- طريقة القتل عبارة عن تقليد.

يحرك رأسه ببطء من اليسار إلى اليمين. تظهر علامات العبوس الساخرة على شفتيه.

- أنت حقاً عنيدة كما يقولون.

- سأسألك عن رقم بسيط. كان من الضروري وجود أربعين علامة على ظهر الضحية؟! لم يتم الكشف عن هذه المعلومات. لا أحد يعلم ذلك سوى أولئك الأشخاص الذين أجروا التحقيق والقاتل. كم عدد الآثار التي وجدتها على ظهر الضحية؟

- بالنسبة إليك وإلي، من الأفضل أن يتوقف الحديث عند هذا الحد. أجاب عليها، وهو يغلق باب سيارة الأجرة بقوة.

تحرك ديان النافذة إلى الأسفل.

- إن عملية القتل هذه مجرد فعل لشخص مقلّد. لا تهمل هذا المسار، وإلا فستندم عليه. هكذا حذرته ديان.

رفع الشرطي يده وكأنه يقول: «لا تفكري في هذا الأمر». اختفى خلف أحد الأبواب الثقيلة لمقر الشرطة.

التفت إليها السائق:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

ترددت برهةً..

- إلى منطقة رصيف رابي. أريد الذهاب إلى المشرحة.

# 7

أوصلتها سيارة الأجرة إلى ميدان مازا، أمام بناء مبني بالطوب الأحمر يقع بين نهر السين ومنطقة المترو الواقعة على جسر علوي مرتفع. يتميز هذا المبنى بجدران عريضة، ونوافذه بها قضبان في الطابق الأرضي. بدا المبنى كأنه يشبه السجن. دخلت ديان من المدخل الرئيس، ومرّت من خلال الممرات المخصصة لاستقبال العائلات؛ الطلاء باللون الأبيض، البلاط على شكل مربعات مصنوع في منطقة بوربيري. أجزاء من تماثيل منحوتة من الرخام لأطباء معروفين وغير معروفين من ذوي الشعر القصير والسوالف التي تم تمشيطها على الطراز المُتبع قديمًا. الجزء الداخلي من معهد الطب الشرعي في باريس مقبول المنظر تقريباً مقارنة بواجهته، لكننا لن ننخدع بهذه المظاهر؛ فمن خلاله تتجسد آلام البشر، فكراسيه ذات المساند الزرقاء المنتشرة أسفل النوافذ يجلس عليها رجال ونساء يبكون.

طلبت ديان كيليرمان من مكتب الاستقبال إخبار ماري سولنيي بأنها ترغب في مقابلتها بشكل عاجل. قابلتها بعد ربع ساعة. تبدو سيدة في العقد الخامس من العمر ذات عينين عسليتين واسعتين وجبهة فيها تجاعيد؛ من ينظر إليها يشعر أنها منشغلة بأمر ما، عندما رأتها ابتسمت ابتسامة باردة.

تسألها الدكتورة سولنيي بصوت ناعم وواضح:

- لماذا لا أبدو مندهشة من مجيئك؟

لأنني فحصت جميع ضحايا محرك الدمى. لم تتغير الدكتورة سولنيي كثيراً منذ آخر لقاء منذ ما يقرب من أربع سنوات. شعرها الأسود الطويل فيه بعض الشعيرات البيضاء.

- أنتِ هنا من أجل السؤال عن الفتاة التي قُتِلت في منطقة فانسان. أليس كذلك؟ أومأت ديان برأسها.

- سنتحدث عن ذلك الأمر في مكان آخر. هكذا تحدثت الطبيبة الشرعية، وهي تمسك مرفقها.

اصطحبت ديان إلى مكتبها الواسع جداً. يمكن من خلال النافذة رؤية المراكب وهي تشقّ على مهل عباب المياه الرمادية لنهر السين. على أحد الرفوف المكشوفة تماماً يوجد وعاء فيه أزهار الأزاليا والنرجس والزنابق، التي تتعرض بشكل جيد لشمس شهر أبريل. زهرة البورجنيون تهتز وسط الخزائن الباهتة وأثاث المكاتب. بينما كانت ماري تصب القهوة لنفسها، لاحظت ديان علبة على طاولة مليئة بقطع من الأوراق الصغيرة.

إنها ملفات الضحايا الذين يقتلون ليلاً.

- فجأة تتكلم ديان: أريد رؤية الجثة.

شربت ماري قهوتها الساخنة على عجل. بدت كأنها مضطربة..

- أنت تعلمين أنه لا يمكنني السماح لك برؤية الجثة!

أصرّت على موقفها. إنها تكره استخدام الناس مصطلح «جثث»، ومصطلح «رُفات» عند الحديث عن مرضاها.

قالت لها:

- أنت لا تعملين في الشرطة الآن، إذا وافقت على طلبك هذا، فسأواجه مشكلة كبيرة.

- أنا فقط أحاول أن أمنعك من تشريح جثة شقراء أخرى.

رمقتها ماري بنظرة حادة تشبه حدة لون القهوة في الكوب.

- لا تلعبي هذه اللعبة معي يا ديان. هناك أشخاص أكفاء يعملون على هذه القضية. لن يتغير شيء إذا قمت أنت بفحص الجثة!

- لقد التقيت رئيس لجنة التحقيق جيريكو؛ إنه يسير في المسار الخطأ.

- لأنه يقول إن القاتل هو محرك الدمى؟ لقد قمت بتشريح الجثة بنفسي وأنا أتفق معه. صدقيني، هذا ما فعله القاتل. لا شك في ذلك.

- ماذا لو قلد شخص ما أسلوبه في العمل؟!

ترتشف الطبيبة الشرعية قهوتها، وهي تفكر في الأمر.

تنهدت قائلة: أهذا يُعقل يا ديان؟ بعد مرور كلّ هذا الزمن، ما زلتِ تعتقدين أن هنكر هو محرك الدمى؟

- تكفيني عشرون دقيقة لفحص الجثة. هذا كل ما أحتاجه لإثبات أنني على حق.

أنا لا أفهم أبداً سبب إصرارك على تصديق هذا المجرم.

انزعجت ديان:

- سأطلب منك خدمة. إما أن تقولي نعم وإما أن تقولي لا؟

تحدق ماري النظر مدةً طويلةً في المراكب التي تمخر عباب النهر في سكون.

- إذا علم أحدهم أنك أتيتِ، فستعرضين نفسك إلى مشكلة!

- أنا على استعداد للمخاطرة.

تتنهد الطبيبة الشرعية...

- أوافق، عشرون دقيقة فقط، هذا كل ما ستحصلين عليه.

وأضافت، وهي تغلق باب مكتبها: تتمتعين بموهبة تجعل الناس يشعرون بالذنب! ذهبنا معاً إلى الجناح المخصص لتشريح الجثث.

انتشرت رائحة الجثث المتحللة، ورائحة الكلور والفورمالين في الممرات. كان الجو بارداً. وصلت درجة الحرارة إلى خمس عشرة، وربما ست عشرة درجة. ارتديتا ثوباً وقناعاً وزوجاً من القفازات قبل الذهاب إلى الغرفة الباردة. فتحت ماري باب خزانة معدنية، وجذبت إلى الخارج الرف القابل للسحب، الذي وُضعت عليه المرأة مجهولة الهوية، التي قُتِلت في منطقة فانسان. يمتد قطع كبير على شكل حرف Y من أسفل البطن إلى عظام كتفها.

- أسرعي، لدي عمل آخر، ومن المفترض أن يصل زملاؤك السابقون حالاً لإجراء تشريح آخر للجثة.

انحنت ديان فوق الجثة، وبدأت فحصها، وعلى الرغم من القناع الذي تلبسه، شمّت رائحة عفن حديث يشبه رائحة أشجار قوية جداً!

- ما هذا العطر الذي أشمه؟!

- مادة الكافور، مادة سائلة ينظف به القاتل جسدَ الضحية.

- لم يستخدم محرك الدمى هذه المادة من قبل!

تستخدم ديان ذاكرتها القوية لحفظ هذه المعلومات. لفت انتباهها شعر الضحية. تم أخذ خصلة كبيرة شقراء اللون من الجانب الأيسر للرأس؛ هذا الجزء أكبر بكثير مما يؤخذ عادة أثناء فحوصات السموم.

- تسألها ديان: أأنتِ التي فعلت ذلك؟

- لا. أنت تعلمين أن القاتل يحتفظ بخصلة كبيرة من شعر الضحية بعد عملية القتل.

- قالت: أعرف هذا؛ إنه قد يقوم بحلق رأس ضحاياه بالموس. مرّرت إبهامها على جزء مستطيل من الشعر المقصوص: هنا قطع بطول سنتيمتر واحد أو سنتيمترين.

- ردت ماري: هذه تفاصيل غير مهمة.

كان وجه المرأة القتيلة منتفخاً، وفيه بقع حمراء، دققت ديان النظر إليها، ولاحظت النوع نفسه من البقع في بياض عينها. توجد نمشات وهي نتيجة طبيعية للقتل خنقاً. عند فتح فمها، وجدت ديان أن اللسان مغطى بكدمات عميقة؛ ربما كان السبب في ذلك أسنانها أثناء عملية الخنق، كما أنها وجدت على جلد عنقها علامتين داكنتين متقاربتين إحداهما من الأخرى إلى حد ما. ربما تعودان إلى إبهام المعتدي. هذا يعني أنها خُنقت من الأمام بيدين عاريتين من دون قفازات، ورغماً عنها، لم تستطع ديان أن تمنع نفسها من التفكير في الألم البدني الذي تعرضت له الضحية، ولا من الطنين في أذنيها، ولا من النقاط المضيئة التي كانت تتراقص أمام ناظريها قبل أن تفقد وعيها؛ فصور الغابة تتوارد إلى ذهنها. ضغطت على أسنانها، وركزت في عملها؛ فجلد القتيلة بالقرب من بصمات الإبهام يبدو سميكاً ولونه أصفر، ويمكن ملاحظة بعض القشور على الجلد.

تقول ديان:

- هذه أثار خدوش. أومأت ماري برأسها.

- هذا ما أشرت إليه في التقرير.

- لا توجد آثار على الضحايا الأخريات.

- ممكن. لا أتذكر تفاصيل تتعلق بباقي الجثث التي قمت بتشريحها.

إن ديان تتذكرها. غالباً ما يتم العثور على علامات أظفار على أعناق الضحايا المخنوقات بيدين عاريتين من دون قفازات؛ لكن لم تتم ملاحظة هذه العلامات مطلقاً على أعناق من تمّ قتلهنّ بيدي محرك

الدمى. أثبتت التحليلات أنه كان يرتدي قفازات مصنوعة من الجلد أثناء جرائم القتل. تم انتشال قطع صغيرة من جسد الضحية رغم غسل الجثة.

تتساءل:

- ماذا حدث عند تشريح العنق؟

- لاحظت وجود إصابات كبيرة في الحلق، وبشكل رئيس كسوراً في الغضروف الحلقي، وتسريباً للدم. حدث ذلك وهي ما تزال على قيد الحياة.

- والعظم اللامي؟

- تم كسره إلى قسمين.

يكفي أن تضغط مرة واحدة بقوة عشرات الكيلوجرامات من أجل أن تجعل القصبة الهوائية مسطحة على المستوى الفقري. من ناحية أخرى، من أجل كسر العظم اللامي لا بد من توافر القوة والصرامة اللازمة. مرّرت ديان يدها على كامل الجلد البارد للمرأة مجهولة الهوية، تتتبّع القطع الطويل الذي أحدثته الطبيبة الشرعية للكشف عن عضلاتها، عندما أدارت معصمها الأيسر برفق لاحظت أنه كان محاطاً بدائرة من اللحم الملتهب قطرها بضعة مليمترات.

- تتكلم بصوت خفيض. لا يبدو الأمر طبيعياً!

تم ربطها بخيوط رفيعة إلى درجة أنها تركت أثراً عميقاً في الجلد. تتذكر ديان ذلك بوضوح؛ فالعلامات التي تم وضعها على الجثث الأخرى كانت على نطاق أوسع وأقل عمقاً.

كان القاتل يستخدم الحبال السميكة، التي لا تنغرز بسهولة في الجسد؛ لهذا السبب أطلقنا عليه اسم محرك الدمى؛ لأنه كان يتحكم في أرجلِ وأذرع ضحاياه كأنهن دُمى خشبيَّة.

تحذرها ماري:

- لا تتركي لخيالك العنان؛ فالقاتل يدبر أمره باستخدام الوسائل المتاحة.

- لكنه ليس محرك الدمى؛ إنه دقيق في عمله، غير أنه مريض نفسياً. لقد أمضى سنوات في إتقان طقوسه. لن تتغير عاداته مطلقاً.

قامت بفحص الصدر والبطن بحثاً عن تشوهات أخرى؛ لكنها لم تجد شيئاً. حبات العرَق البارد تتسرب أسفل ظهرها، وهي تفحص الأعضاء التناسلية للقتيلة الشابة، أعلى الفخذين مغطى بكدمات كبيرة. إنها تعلم أن الأعضاء الداخلية والمستقيم وفتحة الشرج تمّ استئصالها بشكل كامل بسبب التشريح. بالنظر إلى التشويه الذي أحدثه القاتل، ستكون النتيجة مروعة. شدّت إحدى رجليها، ونظرت بين فخذيها؛ حالة الرعب الشديد أصابتها مدة عشر ثوان توقفت خلالها عن التنفس!

علّقت ماري قائلة:

- هذا العمل يشبه عمل القصّاب!

أعادت ديان ساق الضحية إلى مكانها: حدثت الأشياء نفسها مع الجثث الأخرى.

- هل توجد آثار لوجودِ سائلٍ منويّ؟

- لا. ربما لن يكون هناك أيّ أثر لحمض نووي قابل للاستخدام كالعادة.

صوت ماكينة قطع العظام يُسمع من داخل إحدى غرف التشريح. يقوم طبيب شرعي آخر بقطع الجمجمة والقفص الصدري من أجل فحص الأعضاء الموجودة تحتها. تنظر ماري إلى الساعة المعلقة على الحائط.

قالت: انتهت العشرون دقيقة.

- لحظة. يجب أن أرى ظهرها. هل يمكنك مساعدتي في تقليبها؟

تنهدت الطبيبة الشرعية، وقلبت الجثة. يوجد في الظهر ثنيات تشبه أخاديد بنفسجية ممتدة من الكتفين إلى أسفل الظهر؛ تعرض جميع الضحايا إلى الضرب المُبرح بسلاح تعذيب قوي باستخدام عدة أحزمة جلدية وكرات من الرصاص مثبتة في نهاياتها. في البداية، تسبب الضرب في إحداث كدمات خطيرة في جسد الضحية الرقيق؛ قبل أن يتقطع جلد ظهرها بعد ذلك، ويتدلى على شكل أشلاء طويلة هنا وهناك... كل اصطدام بكرات الرصاص المعدنية يترك جرحين متوازيين صغيرين تفصل بينهما فجوة مقدارها سنتيمترات. هذه العلامات تجعلنا نعتقد أنها تشبه بصمة آلة الدمبل إذا وُضعت فوق سطح رخو. تقتفي ديان الآثار بأطراف أصابعها، وبدأت عدَّها بصوت خفيض.

- لا تضيعي وقتك يا ديان. يوجد أربعون أثراً.

تجمد الدم في العروق. كيف حدث ذلك؟!

لا يمكن لأحد أن يعلم سوى هنكر، وأولئك الذي أجروا التحقيق.

تسألها ماري:

- أهذا جيد؟ هل يمكننا التوقف عند هذا الحد؟

- انتظري. أنا بحاجة إلى التقاط بعض الصور.

ومن دون انتظار موافقتها، أخرجت ديان هاتفها، وبدأت التقاطَ الصور، عندما قامت ماري بوضع جسد الضحية في مكانه، قامت أيضاً ديان بتصوير الرقبة والمعصمين والكاحلين.

- وماذا بعد؟ هل يمكنك إثبات أن الأمر يتعلق بنسخة مقلدة؟ تسألها الطبيبة الشرعية، وهي تدفع الجثة إلى داخل الخزانة المعدنية. تتجهّم ديان، على عكس ما كانت تأمله؛ حيث إن فحص جسد الضحية جعلها تطرح أسئلة كثيرة لا إجابة لها!

- لا، بكل تأكيد. إن من فعل ذلك يملك معلومات دقيقة؛ فإما أنه تمكن من الوصول إلى ملف التحقيق وإما أنه تحدّث مع هنكر.

- أو أنك أخطأت التقدير، وأن الأمر لا يتعلق بمحرك الدمى.

أجابت ديان بشكل قاطع:

- مستحيل، لقد تم قتل هذه المرأة على يد قاتل مقلد.

- وما خططك لإثبات نظريتك هذه؟

ارتجفت ديان. ولم يكن ذلك بسبب البرد.

- سأذهب لأتحدث مع الشخص الوحيد الذي يعرف مثلي أن محرك الدمى ليس هو القاتل.

اندهشت الطبيبة الشرعية، وهي تقطّب جبينها.

تسألها:

- أتفكرين في شخص ما؟

- ردت ديان وقد اختنقت الكلمات في حلقها: أفكر في هنكر.

# الجزء الثاني

## 8

متى نلتقي مرة أخرى؟

لقد غادرت دون كلمة وداع.

لم تقل حتى كلمة واحدة...

صوت امرأة، مؤثر جداً وحزين يحاول التخفي بين الصناديق الخشبية المتصلة بجهاز مشغل الأسطوانات. أرخى أندرسن لتفكيره العنان في تلك الكلمات إلى أن أبعده ذلك الصوت المسترسل والرتيب، الذي يتميز به المتخصصون في مجال علم النفس العصبي، عن تأملاته.

- ما الذي تفكر فيه وأنت تستمع إلى هذه الأغنية يا كريستيان؟

جلس الدكتور هاليزيدوت في مكان قريب على كرسي قديم مصنوع من القماش البرتقالي الباهت يُصدر صوتاً ضعيفاً عندما يضع إحدى ساقيه النحيفتين الواحدة فوق الأخرى، أو ينزلها. لم يستطع أندرسن رؤيته بسبب القناع المضاد للضوء، الذي يضعه على عينيه، ورغم ذلك يمكنه أن يتخيل، بكل سهولة، تفاصيل وجهه: جبينه المتجعد، وعينيه اللامعتين المختبئتين خلف النظارات المصنوعة من مادة الأسيتات الناعمة ذات الإطار السميك، ولحيته الكثيفة غير المهذبة؛ كانت هذه اللحية رمادية لامعة عندما التقيا أول مرة، إلا أنها تحولت بعد ذلك إلى اللون الأبيض على مرّ السنين شيئاً فشيئاً..

كانت أول استشارة طبية له في مستشفى بيتي سالبتري في قسم طب الأعصاب قبل ثلاث سنوات تقريباً. تخطى الدكتور هاليزيدوت بالتأكيد سنواته الخمسين ليدخل بعد ذلك عامه الستين أو الحادي والستين.

- كريستيان. لقد اخترت الاستماع إلى هذه الأغنية لكي تنتهي جلستنا. لماذا؟

بدت الإجابة واضحة له:

- لأنها تجعلني أفكر في أليس.

- أهذه الذكرى مرتبطة بوقت معين قضيتماه معاً؟

لا أعتقد ذلك على وجه اليقين؛ لكن كلمات المغنية لها صدى يتعلق بقصتها؛ إنها تعاتب حبيبها لأنه تركها دون كلمة، دون أن يقول إلى اللقاء، ومن دون إلقاء نظرة وداع؛ إنها تتساءل متى يمكن أن تراه مرة أخرى.

يشرح أندرسن ذلك للطبيب.

- أترغب في أن تكون مع أليس الآن؟

- نعم أكثر بكثير من أي شخص آخر.

- إذاً تفضل. هل تقابلتما في صباح الخامس من أبريل، قبل ثلاث سنوات؟

أوقف اختصاصي علم النفس العصبي جهاز مشغل الأسطوانات. يلاحظ أندرسن صوت النقر الخافت للأزرار، التي يتم الضغط عليها، ومفاتيح جهاز التسجيل التي يتم تشغيلها. يستمع إلى أصوات مألوفة له تأتيه من الجهاز؛ حركة الملعقة في الفنجان. صوت غليان آلة صنع

القهوة. زقزقة العصافير. يحاول أندرسن التركيز في مصدر هذه الأصوات في حين كانت صور مطبخ دوجسون تدور في رأسه.

- أين كنتما؟ يتساءل هاليزيدوت.

- عند والد زوجتي.

يشعر بحكة في ذراعه في مكان حقن الطبيب الدواء المحفز للجهاز العصبي الذي اختبره لمصلحة شركة أدوية كبرى.

بينما ترتفع سريعاً درجة حرارة جسده؛ هنا يستشعر حاجة ماسة لأن يتدفأ.

- صف الغرفة لي يا كريستيان.

- البلاط الأرضي لونه رمادي. الثلاجة كبيرة، ولونها أحمر. الكراسي مرتفعة، وتوجد حول طاولة أساسية مغطاة بلوح من الرخام. يمكن رؤية الأطباق والصحون في الخزائن الصغيرة. الأبواب زجاجية. يتم تخزين كل شيء في الأدراج بشكل جيد. كل أدوات المطبخ توجد في المكان المخصص لها، والد زوجتي مهووس بترتيب هذه الأشياء.

صف لي الروائح.

- تفوح رائحة القهوة والعشب الطازج. تم قص العشب أمس.

- وأليس، أين هي؟

- تجلس على الطاولة. قامت بلف منشفة حول رأسها. لقد غسلت شعرها للتو، لكن...هناك شيء غير طبيعي!

ماذا يوجد إذاً؟

- توجد خصلة شعر على جبهتها... وهي سوداء اللون.

- لا بد أنها تستخدم صبغة للشعر.

- لا أدري لماذا. أنا أفضل أن تكون بشعرها الأشقر.

- أيسبب لك هذا الأمر إزعاجاً؟

- لا بالطبع.. فقط... أشعر أنه غريب!

- حدثني عن نفسك. هل تجلس أمامها كالمعتاد؟

- لا. أنا أقف بالقرب من الحوض. أشرب قهوة؛ فمزاجي غير معتدل.

- لماذا؟

- تشاجرنا معاً.

بسبب أي موضوع؟

- لا أعرف.

- لنطرح هذا الأمر جانبًا الآن. هل تحركت في أرجاء الغرفة؟

- نعم، خرجت أبحث عن رسالة، وعند عودتي، تعثرت قدماي بالحقائب.

- لماذا توجد هذه الحقائب هنا؟

- سنسافر في عطلة نهاية الأسبوع.

- إلى أين؟

- إلى مكان دافئ.

- ما رأي أليس في سفرك؟

- أعتقد أنها كانت خائفة.

- لماذا؟!ينبغي عليها أن تفرح.

- لا أعرف. إنها لا تحب الطائرات. ربما هذا كلّ شيء.

- لنعد إليك الآن. ماذا فعلت بعد أن تسلّمت خطابك؟

- ذهبتُ إلى السيارة؛ فسيارة والد زوجتي مخصصة للسير في الطرق الوعرة. وضعت الأدوات في صندوق السيارة.

- ما هذه الأدوات؟

- مجرفة...قماش لحماية النباتات...بعض أغراض الحديقة.

- وبعد ذلك، ماذا فعلت؟

توقف المشهد في عقله، وهو يغلق صندوق السيارة. كل ما يتذكره يتعلق بأرنب أبيض كان يراقبه في الحديقة. إنه يتذكره بقوة شديدة! عيناه حمراوان، وأذناه طويلتان. انطلق الحيوان بسرعة إلى جحره عندما خطا خطوة في اتجاهه. كان باب المطبخ مفتوحاً وهو ينظر إلى ما في داخله.

- وماذا بعد ذلك

يا كريستيان؟ ماذا فعلت بعد ذلك؟ أصر الطبيب النفسي على سؤاله: أين أنت؟

- لا أعرف...أنا...أنا...يتذكر السقف الأبيض المتصدع بسبب الشقوق.

جلس على الأريكة، وهو يشتُم، ثم نزع القناع الموضوع على عينيه.

- أنا في المستشفى. ما هذا، أنا ما زلت في المستشفى.

تفرقعت أصابعه. يمشي بين الحديقة حتى غرفته في المستشفى. يستيقظ من الغيبوبة بعد حادثة السيارة. خلال الأسابيع القليلة التي تلت هذه الحادثة، لم يستطع تحريك رأسه بسبب دعامة العنق حول رقبته؛ لهذا السبب، أصبح هذا السقف اللعين جزءاً لا يتجزأ من حياته. يستطيع الآن ملاحظة كلّ صدع، وكلّ ثقب.

يلاحظ هاليزيدوت أنه يدلك صدغيه.

يسأله هاليزيدوت:

- أتشعر بألم في رأسك؟

أومأ أندرسن برأسه بطريقة تنمّ عن ضعف في الحركة.

- في هذه الحالة، سنتوقف هنا لهذا اليوم؛ سأصف لك دواءً جديداً لعلاج الصداع النصفي.

جلس الطبيب على مكتبِهِ يكتب روشتة الأدوية، ظل أندرسن ينظر باستمرار إلى الإطارات السوداء المعلقة على الجدران بأحجام مختلفة؛ كلها تحتوي على فراشات زرقاء مثبتة على ورق كرتون أبيض عاجي. يشير هاليزيدوت:

- إن الحائط يعكس مدى ما تفرَّد فيه وبرع؛ فبدلاً من عرض شهاداتي العلمية عليه، أفضّل إظهار ما نجحت في تحقيقه؛ فراشة لكلّ مريض أنهى العلاج، وأحتفظ بفراشات أخرى في مكتبي في مستشفى بيتي سالبتري، وأحتفظ بحزمة منها في الجراج، ولهذا السبب تطالبه زوجته، التي جنّ جنونها، بالتخلص من هذه الأشياء؛

لكنه يرفض، ولكن لوقف انتشار الحشرات ذات الأجنحة الرباعية، وجب عليه تقليل كمية العينات الجديدة.

يسأله أندرسن فجأة:

- هل تعتقد أنني سأتذكر كل شيء في يوم من الأيام؟

يرفع هاليزيدوت وصفته الطبية إلى مستوى أنفه، ويقول:

- هل تشك في ذلك؟ نحن نحرز تقدماً كل أسبوع. هذا الأمر يجب أن يشجعك.

- هذا صحيح؛ لكن...مرّت إلى الآن ثلاث سنوات على اختفاء أليس، وما يزال هناك الكثير من الأشياء التي لا أتذكرها وما زلت لا أعرفها! أين يكمن الخطأ؟!

اكتشف في أحد الأيام، أثناء قيامه بفرز الأوراق القديمة، أن الاسم الأوسط لأليس ليس فيكتوريا، كما كان يعتقد، بل بيرينيس! أخافه هذا الأمر بشكل كبير! وقد كان دومًا يتساءل عن كون الذكريات التي يختزنها في عقلِه ذكريات مبنيَّة على أحداثٍ عاشها أم محض خيالاتٍ نسجها عقله!

يؤكد هاليزيدوت:

- إن هذه الظاهرة طبيعية لدى المرضى الذين يعانون من إصابات في الرأس، لذلك يُزيف العقل أحيانًا ذكريات بغرض سد الفجوات الموجودة في فضاء الذكريات.

- هل هذه الثقوب مستدامة؟

أمسك هاليزيدوت التمثال البلاستيكي الأبيض، الذي يحتل أحد أركان مكتبه. يرفع الجزء العلوي من الجمجمة فيظهر دماغ متعدد الألوان في الأسفل.

- إنها الأحجية التي أعطتني إياها زوجتي. هذه الأداة ليست علمية بشكل جيد، أتفق معك؛ لكنها ستكون جيدة من أجل علاجك.

يفصل الطبيب النفسي القطع ذات الألوان المختلفة، التي يتكون منها التمثال. تم نقش كلمات الأمل والشجاعة والإخلاص على كل قطعة. توجد كلمة مكتوبة بأحرف كبيرة؛ وضع واحدة منها في يده. كانت زرقاء اللون، وكُتبت عليها كلمة السعادة.

- لنأخذ هذا الجزء، ونقول إنه المكان الذي توجد فيه ذكرياتك.

يضع طرف قطعة من التمثال البلاستيك على الطاولة. هذه المنطقة من دماغك سليمة. لقد تحدثنا بالفعل عن ذلك عدة مرات، وكل الفحوصات تثبت ذلك. فقدانك الذاكرة عرض نفسيّ؛ إنه مرتبط بالصدمة النفسية الناتجة عن اختفاء زوجتك وحادث السيارة.

قام الطبيب النفسي بطي أصابعه ما أدى إلى اختفاء قطعة لعبة الغز.

- إن يدي تمثل منطقة اللاوعي عندك، وتوجد بين ذكرياتك وذاتك الواعية؛ إنها تمنع وصولك إلى المعلومات التي تبحث عنها؛ لأنها تريد حمايتك من حلقة مؤلمة في حياتك.

عندما فتح الطبيب يده مرة أخرى عاد اللون الأزرق إلى الظهور.

- كل شيء يوجد هناك في رأسك، كما يقول فرويد، الذكريات المنسية لا تضيع؛ مع الوقت والعمل، يمكننا العثور عليها. تقدمنا بشكل جيد منذ بدأنا استخدام الدواء الجديد. عليك التمسك بالعلاج والمثابرة عليه يا كريستيان.

يحدق أندرسن البائس النظر في قطع البلاستيك المتناثرة على الطاولة. يشعر أنه إذا هز رأسه بقوة فسوف ينتهي به الأمر إلى سماع رنين الأجزاء المكسورة وهي تتصادم في الداخل!

## 9

توجد نساء جميلات بطبيعتهنّ، وأخريات جميلات بما يبذلنه من جهد مستمر. جوديث سكرتيرته تنتمي إلى الفئة الثانية؛ إنها صغيرة الحجم ولا توجد سمة مُميزة بملامحها. كان عليها أن تفعل كل ما بوسعها لجذب أعين الرجال إليها. بعد انتهاء عملها الرسمي، تعقص شعرها الأسود الكثيف على شكل ذيل حصان. تترك المكتب وتمارس

الرياضة مدة ساعة في صالة الألعاب الرياضية القريبة من العمل، حتى يتسنى لها الحفاظ على بطن مُسطَّح وردفين مُمتلئين، وفي الصباح، تقضي وقتاً طويلاً في وضع أنواع من المساحيق والكريمات لجعل بشرتها ناعمة، وتغيير ملامح وجهها الحادة إلى الأحسن. طالما كانت ملابسها أنيقة جداً. يتخيّلها أندرسن وهي تتصارع مع نفسها آلاف المرات قبل أن ترتدي ملابسها. تحاول أن تجد الأحذية الخفيفة وترتدي بلوزة مفتوحة من عند الصدر أو الأحذية اللامعة التي تتناسب مع البلوزات الرقيقة. تحاول أيضاً تقدير ما إذا كان الطقس سيكون أكثر برودة مما كان متوقعاً أو لا، وإذا كان الأمر كذلك، فما السترة التي تناسب السراويل الضيقة من نوع سيجار، وبعد ذلك، ما يزال عليها اختيار الإكسسوارات والساعات والمجوهرات الأنيقة والأقراط، ومن ثَمَّ تناسق الألوان مع الملابس.

في ذلك اليوم، جاءت إلى العمل مرتدية تنورة ضيقة، وقميصاً واسعاً يكشف عن صدرها. كما أنها كشفت عن حمالة رافعة للصدر حمراء اللون، يشبه لونها لونَ العقيق أو اللون القرمزي، وذلك ليناسب لمعان أحمر الشفاه الذي تستخدمه؛ على أي حال، كان القميص مشابهاً للقميص الذي أخفاه باتيستي بسرعة في الدرج عندما دخل أندرسن بعد عودته من مقابلة هاليزيدوت إلى مكتبه دون سابق إنذار.

ينادي عليه وهو يهم بالوقوف:

- يا كريستيان، يمكنك أن تطرق قبل الدخول.

كان الهواء مشبعاً برائحة عطرية نفاذة وحادة؛ تشبه رائحة الحيوانات. يمكن شمّ رائحة فاكهة فوّاحة، مزيج من اليوسفي والبرجموت وزهر البرتقال. يسأل أندرسن باتيستي بأسلوبٍ جاف:

- كم من الوقت استمر هذا الأمر؟

يمسك باتيستي مجموعة من الاستمارات الخاصة بطلبات المساعدة القانونية، ويبدأ تصفحها ليعطي نفسه فرصة للتفكير.

- ماذا تقصد بهذا السؤال؟

-أقصد علاقتك بجوديث.

يتشتّت نظر باتيستي برهةً من الزمن، ثم يشعر أنه لا جدوى من إنكار الحقائق، فيضع الاستمارات وهو يتنهد..

- لقد مرّ نحو شهرين تقريباً على هذا الأمر.

لم يكن أندرسن منزعجاً من إعجاب شريكه بسكرتيرتهما؛ حتى إنه اندهش من أن ذلك الأمر لم يحدث قبل ذلك!

استشاط غضباً منه!

- متى كنت تخطط لإخباري بذلك الأمر؟! يسأله أندرسن!

ردّ باتيستي عليه، وهو يهز كتفيه:

- لا أعرف. ربما عندما تتضح الأمور.

- عندما تتضح الأمور! (يتعجب أندرسن). مثلما فعلت مع لورا، أو جابرييل؟ أو كما كان حالك مع الكاتبة ابنة الثالثة والعشرين عاماً!

يقطب باتيستي حاجبيه.

- ما المشكلة. نقضي وقتاً ممتعاً معاً.

- ماذا لو قررت التخلص منها؟ كيف سيكون ردّ فعلها؟!

يرد باتيستي:

- سيكون الأمر على ما يرام.

- ماذا لو لم تسِر الأمور على ما يرام؟

- إذا سارت الأمور بشكل سيّئ، فسنغير السكرتيرة. لماذا تثير كل هذه الضجة حول هذا الموضوع، (يقاطعه باتيستي)، ما هذا الإزعاج؟!

- أعتذر لقلقي على مستقبل المكتب يا فرانك!

- مستقبل المكتب؟ أيعقل هذا؟ ما الذي لا يجب أن أقوله لك؟!

أخرج باتيستي مظروفاً أخضر باهتاً من بين خطاباته، وسلّمه إياه.

عثر أندرسن، في داخل المظروف، على قطعة مستطيلة من الورق المقوى مطبوع عليها بخط حسن وبأحرف ملونة بلون الذهب: يسرّ مكتب فينيول وشركائه دعوتك ومعاونيك إلى حضور الحفل التنكري التقليدي الذي يعقد فعالياته كل ربيع. الحضور يكون بثياب السهرة، وسيتم تقديم الأقنعة من قِبل صاحب الدعوة. كان مكتوباً على ظهر المظروف بخط اليد: عليك أن تفكر بجدية في المقترح الذي قدمته إليك.

يبدو على أندرسن الانزعاج، وهو يخدش بطرف إبهامه إحدى زوايا بطاقة الدعوة. يجب على فينيول أن يرسل هذا المظروف إلى منزله بدلاً من إرساله إلى هنا!

جاء فينيول لرؤيتي أثناء تعليق جلسة الاستماع، وفي آخر مرة تمّ تعييني فيها، يريد أن أعمل معه شريكاً.

أبدى باتيستي الإعجاب به.

أنت على عِلم بهذا الأمر. غريب جداً أنك تلومني على علاقتي بسكرتيرتنا بينما تحاول أنت إزعاجي!

توقف عن الهراء يا فرانك!

يشعر أندرسن بالحرج؛ لأن صديقه اكتشف حواره مع فينيول؛ لكنه يتفهم غضبه. عندما كان في المستشفى، كان هو الذي يدير المكتب بمفرده مدة ثمانية أشهر. لم يحصل على أي إجازة، وكان يعمل حتى

في عطلة كلّ أسبوع من أجل الحفاظ على أعمالهما دون توقف؛ إنه يعدّ ملاحظة فينيول الصغيرة مثل الطعنة في الظهر!

- لقد عملنا معاً مدة سبع سنوات. إذا كنت أخطط لإنهاء شراكتنا، فسأخبرك بهذا القرار في وجهك.

يرن الهاتف الموضوع على مكتب باتيستي باستمرار. يرد على الهاتف، ويتبادل بضع جمل مهذبة مع محاوره؛ إلا أنه قام بوضع يده على سماعة الهاتف.

قال باتيستي بصوت جاف:

- أحتاج مزيداً من الوقت للتفكير. سنتحدث عن ذلك لاحقاً.

أجاب أندرسن بصوت حاد:

- تماماً.

عاد أندرسن إلى مكتبه، على الرغم من هذا الغضب، فقد حاول التركيز في أعماله التي كان عليه القيام بها. أخرج مفكرة ووضعها بجانب الإطار الفضي الذي يحتوي على صورة أليس. بعد تدوين التاريخ، كتب على الورقة كلّ ما يتذكره عن الجلسة التي قضاها مع هاليزيدوت.

يمكن اختصار كل ما كتبه الآن في عشرة أسطر وسؤال واحد: لماذا وضعت أليس هذه الصبغة؟

عندما انتهى عمله، نزع الورقة من الدفتر، ووضعها في ملف من الورق المقوى يحتوي على جميع الأدلة التي جمعها حول اختفاء أليس خلال السنوات الثلاث الماضية. فحص المستندات الموجودة في الداخل مرة أخرى. يوحي هذا الأمر بأنه لم يكن يحفظ عن ظهر قلب ما تحتويه صفحات هذا الملف من شروحات تفصيلية تمت كتابتها على عجل.

كانت المجموعة الأولى من الأوراق عبارة عن نسخة من استمارة «آر أي إف»، أو استمارة بحث بغرض مساعدة العائلات. كان أندرسن قد ملأ خاناتها في مركز شرطة سان- مور دي فوسى قبل ثلاث سنوات، وها هو يعيد قراءة بضعة أسطر منها وهو شارد الذهن!

في ذلك اليوم، لم تعد أليس إلى المنزل بعد العمل. لم يساورني القلق. كانت ليلة الجمعة، وكنت أعتقد أنها ذهبت إلى والدها الذي سيسافر من أجل حضور مؤتمر في إيطاليا. تشاجرنا في ذلك الصباح؛ لهذا اعتقدت أنها لم تتصل بي بسبب هذا الشجار.

من الغريب جداً إعادة أندرسن قراءة هذه الورقة؛ وخاصة أنه يستخدم ضمير المتكلم «أنا» للحديث عن نفسه. إنه لا يتذكر اتصاله بقسم الشرطة، ولا حتى شجاره مع أليس!

اليوم التالي، لا توجد أيضاً أيّ أخبار عنها! اتّصلت بشارل دوجسون والد زوجته عندما اكتشفت أنها ليست معه، وليست لديه أخبار عنها، أدركت أن شيئاً ما قد حدث! اتصلت بكل من يستطيع رؤية أليس؛ كالجيران والأصدقاء والزملاء وكل من تربطني بهم علاقات...

خلال هذا الوقت، اتصل والد زوجته بالمستشفيات للتأكد من أنّها لم تتعرض لحادث؛ لهذا السبب، وفي نحو الساعة الخامسة مساءً، ذهبت إلى مركز الشرطة للإبلاغ عن اختفائها.

كل ما فعله رجال شرطة قسم سان مور هو تعقب هاتفها وبطاقتها الائتمانية. لم تتلقَّ الشرطة أيّ تحذير ولا إخطار بشجار ولا بحث على نطاق واسع. بالنسبة إليهم إن اختفاء أليس ليس له طابع إجرامي. لم يبدأوا التّحرّكَ إلا بعد أسبوع عندما نشر زوج أمها إعلاناً يعِد فيه بمكافأة كبيرة لأي شخص يُدلي بمعلومات عن مكان وجود أليس. وبسبب

الضجيج الإعلامي، قرّرت السلطات سحب القضية منهم، وإسنادها إلى جهاز متخصص في حالات الاختفاء المشتبه فيها؛ لهذا السبب يحتوي الملف المصنوع من الورق المقوى على مجلدين ملونين؛ أحدهما باللون الأزرق خاص بالتحقيق الذي أجراه رجال شرطة سان مور، والآخر باللون الأحمر خاص بالتحقيق الذي تجريه فرقة بي دي آر بي، وهي الفرقة المتخصصة بمكافحة الاعتداء على الأشخاص. إذاً، يوجد محتوى يتعلق بقصة أليس يختلف من ملفٍ إلى آخر!

يفضل رجال شرطة سان مور فرضية الهروب الطوعي. لقد اكتشفوا عمليات سحب نقدي كبير من حسابهما في الأسابيع التي سبقت اختفاء أليس. يظهر الكمبيوتر الخاص بها أنها أجرت الكثير من الأبحاث حول السفر إلى أمريكا اللاتينية؛ لكن لم يتم العثور على جواز سفرها!

علماً بأنّ أعضاء فرقة بي دي آر بي المتخصصة بمكافحة الاعتداء على الأشخاص كانوا مقتنعين بأن أليس قد تم اغتيالها. بالنسبة إليهم إن زوجته تعدّ نموذجاً للفتاة التي يُحتذى بها؛ لأنها كانت على علاقة طيبة جداً بأبيها؛ فحياتها تعدّ قصة خيالية..! لا يوجد لديها أيّ سبب للاختفاء. زوجها يحبها، وناجحة في عملها، وتمتلك منزلاً صغيراً في الضواحي... لهذا إنهم لا يجدون مبرراً يجعلها تتخلى عن كلّ ذلك، أو أن تقدم على الانتحار دون كتابة أي كلمة! إنهم أول من طرح فكرة السفاح. إن مدينة سان مور تبعد كيلومترات قليلة عن منطقة نوتردام، وهي الغابة التي يدفن فيها محرك الدمى جثث ضحاياه.

في يوم اختفائها، كانت أليس تعمل طوال الصباح في مكتبها. تناولت نحو الساعة 12:30 ظهراً الغداء مع عدد من زملائها في مطعم الحي، ونحو الساعة الثانية مساءً، وبدلاً من العودة إلى المكتب معهم،

استقلت سيارتها، وتوجهت إلى ضواحي المدينة، ولا يعرف أحدٌ لماذا فعلت ذلك؟! وفقاً لمذكراتها، لا يوجد لديها مواعيد عمل بعد ظهر ذلك اليوم، وتم العثور على السيارة في ساحة انتظار في محطة خدمة على الطريق السريع (A6) بالقرب من مخرج مطار أورلي؛ لكن اسمها غير مدرج على أيّ قائمة للمسافرين، وزودت أليس سيارتها بوقود كافٍ، وأوقفتها في المحطة، ودفعت الأجرة، ثم اختفت عن الأنظار!

عندما أعاد أندرسن الملف إلى الدرج، وجد الظرف الأزرق، وفيه رسالة غريبة. كان عليه أن يتساءل عن شبيه الغراب، وهنا يتم طرق باب المكتب.

قالت جوديث:

- لقد وصل موريس.

في المكان الفاصل بين السكرتيرة وإطار الباب لاحظ أندرسن خيال الشرطي السابق بشكل واضح. يبدو أنه في الخمسينيات من عمره؛ قصير القامة، وذو بنية جسدية ممتلئة. رقبته متورمة بسبب تضخم الغدة الدرقية. يرتدي بذلة زرقاء رمادية كبيرة الحجم، ويضع منديل جيب. يبدو من هيئته أنه بارد الطبع؛ لهذا هو يذكرنا بأحد الطيور الكبيرة السمينة، التي اختفت في جزيرة بعيدة عن المحيط الهادئ؛ فهي لا تهرب عندما يقترب أحد الصيادين منها. إن مظهره غير المؤذي دليل قوته بصفته محققاً سرياً؛ فنادراً ما يُنتَبه إليه.

قال المحقق:

- صباح الخير يا سيدي.

كان موريس يتمتع بصوت جهوري أجشّ؛ فأربعون عاماً من تعاطي الكحول والتبغ تسبّبت في حدوث قطع لأحباله الصوتية، ولأنها رخيمة، هي تهتز ببطء، ومن ثم أصبح صوته عميقاً جداً بمرور الوقت.

- أحضرت لك بطتك المفضلة. اقرأ الصفحة الثامنة عشرة. ستعجب بها كثيراً.

كان مع موريس مجلة مطوية في راحة يده. ألقى بها على المكتب قبل الجلوس. نظر أندرسن إلى الغلاف. كانت هذه نسخة من مجلة «المخبر الفرنسي». في الصفحة التي أشار إليها موريس، وجد أندرسن مقالاً عنه في دوريَّة تُعرف «بالعدالة الناجزة» يتحدث عن الغضب الذي استثاره في الغرفة الثالثة والعشرين.

قرأ الخبر بصوت عالٍ. ما يزال يتمتع بالقدر نفسه من الخيال عند كتابة العناوين «إطلاق سراح تاجر مخدرات ناشئ بطريقة لافتة للنظر»!

يعتقد أنه لم يعد يتصدر عناوين الأخبار بعد الآن، فآخر مرة قرأ فيها هذ الخبر السيئ عندما كانت صورته منشورة في الصفحة الأولى.

كان ذلك بعد وقت قصير من عقد لولوار مؤتمراً صحفياً ليعلن أنه ما يزال يشتبه في أن أندرسن هو من قتل زوجته. ألقى المجلة في سلة المهملات الخاصة بالأوراق، وأخذ مبلغاً بسيطاً من النقود من الدُرج، وسلمه إلى موريس. عدّ الشرطي المال بكل تحدٍّ؛ ففي كل شهر يأتي للحصول على أتعابه في المكتب. كان باتيستي وأندرسن قد وظفاه لسنوات بشكل رسمي؛ لكن عندما يتعلق الأمر بأعمال خاصة فإن أندرسن يدفع له أتعابه نقداً من أمواله الخاصة.

يسأل أندرسن المحقق:

- ألديك خبر جديد عن المرأة في مترو الأنفاق؟

قبل أسبوعين، تلقى أندرسن رسالة من رجل أقسم أنه رأى أليس تستقل قطاراً في محطة تروكاديرو. كانت مثل هذه الرسائل شائعة جداً بسبب الوعد الذي قطعه على نفسه بمكافأة الشخص الذي سيساعده في العثور على زوجته؛ لكنْ هذه المرة استطاع الرجل أن يلتقط صورة لها بهاتفه، وأرسل إليه الصورة. كانت المرأة في الصورة ذات شعر أشقر فاتح وفي الثلاثينيات من عمرها. كان من الضروري أن يكون طولها نحو متر وسبعين سنتمتراً لكي يتمكن من التحقق منها في هذه الصورة. لا يمكن رؤية عينيها بسبب النظارات الشمسية. بالنسبة إلى أي شيء آخر، هذه السيدة التي في الصورة تتطابق مواصفاتها مع أليس.

بدأ موريس حديثه قائلاً: لدي صديق قديم في مقر قيادة شرطة النقل. في هذا المكان يتم التحكم في جميع كاميرات المترو؛ المكان آمن مثل المخبأ؛ لكنه تمكن من الحصول على نُسخ من سجل التسجيلات لخط المترو رقم 9.

يتحدث موريس غالباً عن الجهات التي يتواصل معها. يتساءل أندرسن عن الوسيلة التي يستعملها الشرطي السابق، وتسمح له بإضفاء الشرعية على تقاريره ذات التكلفة العالية التي يقدمها له بانتظام؟!

بعد عدة ساعات من المشاهدة المكثفة، تأكدت من أنها صعدت في الصباح إلى مبنى بلدية حي مونتراي، وأنها ذهبت إلى محطة قطار تروكاديرو؛ لذلك أجريت مسحاً للحي على محيط يبلغ خمسمئة متر حول مبنى البلدية للعثور على منزلها، وكنت محظوظاً.

أخرج موريس من سترته إشعاراً بضرورة البحث عنها، وكتب على ظهر هذا الإشعار رقماً واسماً لشارع. خفق قلب أندرسن. هل ذهبت إلى هناك لترى ما إذا كانت هي فعلاً؟

أصيب موريس بسعال شديد منعه من الرد على الفور. ارتفع صوته الخشن بشكل مزعج عندما بدأ يتحدث مرة أخرى.

- نعم، تقابلت مع إحدى رفيقاتها في السكن، وعندما عرضت عليها صورة أليس، أخبرتني عن امرأة تدعى ناتاشا تعيش في إحدى غرف الشقة.

يسأله أندرسن:

- هل تمكنت من مقابلتها؟

- لا، بحسب المرأة التي سمحت لي بالدخول، لم يشاهدها أحد في الشقة منذ عدة أيام.

- هل ألقيت نظرة خاطفة على غرفتها؟ من الواضح أن قوله نظرة خاطفة يعني أنه كان يقصد تفتيش الغرفة.

- لا، كانت مغلقة بالمفتاح، لكنْ هناك خبر سار. تحدثت إلى المالك عبر الهاتف، وأقنعته بأن يعطيني نسخة من مفتاح هذه الشقة. لا بد من تعويض مالي بطبيعة الحال.

وضع المحقق مجموعة من المفاتيح على المكتب، ومعها ورقة مطوية أربعة أقسام، كما أنه وضع أيضاً ملفوف التبغ في تلك الطيّات، وعند فتح الورقة، اكتشف أندرسن تقريراً بمصاريف بخمسمئة يورو بالإضافة إلى أتعاب موريس، والمجموع نحو ألفي يورو أنفقها أندرسن اليوم! وطالما أن أعمال المكتب متباطئة في الآونة الأخيرة فآخر الشهر سيكون صعباً جداً.

توجد الشقة في الطابق الثاني. لا يمكنك تفويت هذه الفرصة. وضعنا علامة على الباب؛ لكنني أحذرك، المكان مشبوه جداً. ربما

يتعلق الأمر بمدمني المخدرات أو ما شابه ذلك. قد يكون من الأفضل أن أصحبك هذه المرة.

يمسك أندرسن خاتم الزواج بإصبعه البنصر بطريقة ميكانيكية.

يردّ عليه برد قاطع:

- لا فائدة من ذلك. سوف أذهب بمفردي.

## 10

ان الفتاة التي تشبه أليس ويقتفي أثرها في محطة مونتروي هي الفتاة رقم اثنين وعشرين. انها عالقة في أعماق ذاكرته بشكل كبير، كلّ اللاتي يشبهنَ أليس من الفتيات السابقات لم يكنّ سوى أرقام ترتبط لديه بذكريات غامضة؛ فالفتاة رقم 12، التي تدمن الكحوليات، فتحت له الباب، وكانت ترتدي رداء الحمام وفي فمها سيجارة. أما الفتاة رقم 8 فهي من أصول ألمانية، شعرها مصبوغ باللون الأسود، وتستعمل أحمر شفاه بنفسجي، وتلبس جوارب مشبكة، وتعاني من خدوش على معصميها، في حين قامت أليس رقم 14 بمراودتهِ عن نفسهِ، لديها طفل يبلغ من العمر 6 سنوات ينام في غرفة مستقلة. الفتاة ألِيس رقم 20 مصابة بالإيدز، والفتاة ألِيس رقم 9 لديها ستة أطفال، تزوّجت ثلاث مرات. إنهن يشبهن زوجته إلى حدٍّ ما! يبدو الأمر كما لو أنه رآها في إحدى وعشرين مرآة مشوهة؛ مرايا متشققة في الغالب.

على بُعد بضعة شوارع من مبنى البلدية في مونتروي، تتوقف سيارة الأجرة، التي استقلها عند مغادرته المكتب، أمام بناء مبنيٍّ من الحجر المنحوت، ويبدو هذا البناء في غاية الروعة من الخارج.

بشرفاته المتناسقة، التي تمتد من طرف إلى آخر في الطابقين الثاني والخامس؛ يجب فتح الباب الأمامي كي يتحقق من العفن الكثير جداً تحت الجزء المطلي من الواجهة الأنيقة. الردهة مليئة بأكياس قمامة ممزقة. تمت بَعثَرة محتوياتها على الأرضية المشققة. تناثرت زجاجات الخمور وأعقاب السجائر والأكواب الفارغة على الأرض بالقرب من الدرج. المصعد لا يعمل. رائحة المكتب قيء شخص سكّير. الطابق الأول نظيف إلى حدٍّ ما. تم وضع علامات على الجدران. الأسلاك الكهربائية المكشوفة تتدلى من الأسقف. يُفترض أن تكون هناك مصابيح كهربائية، ويَستخدم كشّاف هاتفه الخلوي لإنارة المكان!

يلاحظ في الطابق الثاني باباً مرسوماً عليه بالطلاء صليب ضخم للدلالة على أن المكان مشبوه، وما إن فتح الباب بالمفتاح الذي أعطاه إياه موريس حتى وجد السجاد مهترئاً بسبب الرطوبة، كانت أرضية المدخل تُصدر أزيزًا جرّاء مشيهم عليها. كانت مليئة بالأحذية وأكياس القمامة، وتؤدي إلى ممر تتوزع على جانبيه غرف ضيقة؛ في الغرفة الأولى يوجد أطفال يشاهدون التلفزيون، ويجلسون على مراتب لأسرّة مكونة من طابقين. توجد مرتبة أخرى على الأرض مفصولة عن باقي الغرفة بستارة معلقة على خيط. أدرك أندرسن أنه سرير الوالدين. في الغرف الأخرى، تجتمع العائلات المكونة من ثلاثة أو أربعة أفراد في مساحة تبلغ نحو عشرة أمتار مربعة. لا شك في أنه دخل شقة أحد ملاك العقارات المستغِلّين.

عندما وصل إلى باب مكتوب عليه باللون الأزرق رقم 3، استعمل مفتاحاً جديداً من مجموعة المفاتيح لفتح القفل، ليكتشف بعد ذلك أنها غرفة صغيرة. كانت الجدران مغطاة بأكياس قمامة ملفوفة بشريط

«سكوتش» بُني اللون خاص بخزان المياه القديم، وتم تعليق مرتبة على الحاجز. البلاط اصفرَّ لونه بسبب أجيال متتابعة من المستأجرين الذين يسندون رؤوسهم عليه عندما يجلسون على المراتب. الأثاث عبارة عن رف وحامل الملابس. البلوزات مقاسها صغير، بلوزات بمقاسٍ صغير وحمالات صدر بالمقاس. كان لهذه السيدة غير المعروفة مقاس أليس نفسه! وجد حذاء مقاسه 37 داخل صناديق مصنوعة من الورق المقوى، أيضاً مقاس أليس نفسه!

لفتت انتباهه صورة موضوعة على رف مصنوع من البورسلين؛ يُفترض أن يتم وضعها فوق الحوض. تضم هذه الصورة ثلاثة أشخاص يجلسون في صالون قليل التأثيث. يوجد رجل له شارب كبير، وامرأة تزين رأسها بمنديل أخضر، وفتاة صغيرة شقراء سمينة إلى حد كبير. الصورة ذات جودة رديئة ومطبوعة باللون الفضي. الملابس والأثاث يدلان على أن الأشخاص ينتمون الى دولة من أوروبا الشرقية. تم التقاطها على الأرجح بكاميرا سوفييتية قديمة. الصورة تجذب الأنظار بشكل كبير. لم يكن الرجل في الصورة هو شارل دوجسون والد أليس، لكنهما هو وزوجته هما من قاما برحلات متكررة إلى رومانيا عندما كانت أليس ما تزال طفلة صغيرة. ماذا لو كانت هي التي في الصورة؟

لا، هذه الصورة غريبة جداً، فلماذا تحتفظ بها، ولا تحتفظ بصورة أي فرد آخر من أفراد عائلتها؟! لا أفهم السبب!

أخذ بعناية كوبًا ملقيًا على الأرض، ولفه في كيس بلاستيكي قبل وضعه في جيب معطفه. ذهب إلى الغرفة المجاورة يوجد فيها حمّام مشترك. كان جوّ الغرفة الصغيرة حارّاً ورطباً. تم تقسيمها إلى نصفين كي تكون لناتاشا غرفة مستقلة. كانتا تتقاسمان البلاط الأبيض نفسه

فيما عدا أركانها التي تآكلت بفعل العفن، وتحولت إلى لون سيئ برتقالي وبني في بعض الأماكن.

يفتش في خزانة الأدوية الكبيرة الملتصقة بالجدار فوق الحوض. تحتوي على علب الأدوية، وأنابيب معجون الأسنان، وضمادات وزجاجة عطر من نوع شانيل باهظة الثمن. وما إن وضع بضع قطرات من هذا العطر على معصمه حتى شعر بأحاسيس فياضة ذكرته بثقل رأسها على كتفه وبخصلات شعرها وهي تلامس أذنيه، وبرائحة زكية تصل أنفه. إن هذا العطر تستخدمه أليس؛ إنه متأكد من ذلك؛ إنه اليقين الذي يملأ قلبه بحرارة العاطفة!

عندما أغلق خزانة الملابس، شاهد نفسه في المرآة، ولاحظ نظرة عينيه. حدق النظر في ندبة على خده. لم يركّز عليها. ذكّرته جراحه بالألم النفسي الذي يعاني منه. غالباً ما يتكون لديه انطباع بأن شخصاً آخر تعرّف على أليس في الأسابيع الأخيرة قبل اختفائها. ما الذي يعرفه عنه بعد سنوات مضت قضاها تحت تأثير علاج هاليزيدوت؟! لا شيء تقريباً، إنه يعيش مع هذا الشخص الغريب في داخله!

وهنا شعر باهتزاز هاتفه الذي كان قد فعَّله على الوضعِ الصامتِ في جيبِهِ. ظهرت للتو رسالة نصية على الشاشة:

كيف يبدو الغراب؟ ظل صامتاً للحظة مدركا أنها الرسالة نفسها التي تلقاها وهو في المحكمة.

من أنت؟

جاءه الرّد في غضون دقيقة.

الحقيقة، لقد تغيّرتُ كثيراً منذ هذا الصباح؛ إلى درجة أنني لم أعد أستطع معرفة من أكون!

استشاط أندرسن غضباً في نفسه. بدا شخصاً غريب الأطوار. منذ اختفاء أليس وهو يستقبل مكالمات كثيرة جداً من محققين مضلّلين ومن وسطاء على تواصل مع منجّمين وأشخاص غير متوازنين عقلياً؛ لكن هذا الشخص كان أول من كانت لديه الجرأة لإرسال رسالة إليه في المحكمة.

- رسائلك لا تعني شيئاً. لماذا تزعجني؟!

أجاب الشخص الغريب:

- يا لها من ألغاز. كيف يبدو الغراب؟

يبدو على أندرسن الانزعاج. ينقر على الطاولة بشكل مزعج..

- إذا استمرت مضايقتك لي، فسيتعين عليّ الاتصال بالشرطة.

رد عليه الشخص الغريب:

- ألا تريد أن تعرف ماذا حدث لأليس؟

لم يكن أندرسن يفكر في شيء أفضل للرد عليه من الرّد بشتيمة.

- ما تزال تزعجني أيها الوغد!

لقد قرر حظر الرسائل التي تصله من رقم هذا الشخص الغريب؛ لكن وصلته رسالة نصية أخرى جعلت دماءه تتجمد في عروقه: إن أليس ماتت، ولا داعي لمواصلة البحث عنها.

ابنة عبد العظيم.

تقدمت امرأة ترتدي الحجاب، وتحمل طفلاً بين ذراعيها، إلى غرفة مجهزة بنظام يسمح أو يمنع الدخول. وضعت بعض الأشياء في سلة بلاستيكية، ودخلت من البوابة المعدنية. ينادى المراقب على اسم المُحتجز الثاني المسجّل في القائمة: هنكر.

وقفت ديان. ساقاها ترتعشان. فكرت للحظة في مغادرة المكان. لقد بذلت محاولات مضنية للحصول على تصريح لزيارة هنكر منذ ثلاثة أيام، وبالتالي لم يكن من المفترض أن تتراجع في اللحظة الأخيرة. ضغطت على أسنانها، وسارت نحو الغرفة المجهزة بنظام يسمح أو يمنع الدخول، وقبل أن يُسمح لها بالدخول وضعت في صندوق خاص حزامها وحذاءها وسترتها وكل ما من شأنه أن يصدر صوتاً عندما تمر عبر جهاز الكشف عن المعادن؛ إنها تمرّ الآن عبر البوابة.

سُمع رنين جرس الجهاز، وأضاء المصباح بالضوء الأحمر؛ فجعلوها ترجع إلى الخلف. إنها حمالة الصدر الخاصة بكِ يا سيدتي. يجب أن تضعي في الصندوق كل شيء يصدر صوتاً. اذهبي إلى الاستقبال. تخضّب وجهها من الإحراج بحمرة الخجل، واضطرت إلى وضع أشياء من ملابسها في كيس بلاستيكي قبل المرور من أمام البوابة. أصبحت الإضاءة خضراء، سمح لها الحارس بالدخول.

تصعد درجات السلم، ثم تسير عبر أحد الممرات. رائحة غرفة سيئة التهوية في كل مكان. بدأت تسمع همسات مثيرة للقلق، صرخات وتهديدات، أصوات التلفزيونات مرتفعة. ركل بالأرجل على الأبواب،

شتائم، أصوات مكتومة تخرج من بين الجدران، لا تعرف بالضبط من أين تأتى هذه الأصوات!

الاستقبال جديد، ومراقب بشكل جيد. تم سحب بطاقة هويتها وإعطاؤها بطاقة كرتونية ليسمح لها بالدخول. تم التصريح لها بالمرور مرة أخرى عبر جهاز الكشف عن المعادن. وضعت أغراضها في الخزانة، وعبرت أمام الجهاز للمرة الثانية دون سماع أي رنين، تم تخصيص رقم لها للجلوس في أحد الأماكن الخاصة بالزيارة. قام الحارس بصبغ يدها بحبر لا يظهر إلا تحت الأشعة فوق البنفسجية. سألته: ما الفائدة من ذلك الحبر؟ أجاب الرجل: يجب التأكد من أن السجين لن يتبادل معها الأدوار.

تريد أن تمر من الباب الأخير، لكن المراقب تركها في الخارج. كان مكان الزيارة صغيراً ولا يحتوي على أثاث سوى كرسيين اثنين، يفصل بينهما جدار منخفض سميك يُستخدم كطاولة. لا توجد هناك أي حواجز زجاجية بين جزأي مكان الزيارة؛ حيث يمكن للمرء أن يمر من جانب إلى آخر بالمرور فوق الجدار المنخفض.

بعد انتظار طويل، فُتح الباب الزجاجي في الجزء الخلفي من الغرفة، وظهر هنكر؛ شعره كثيف غير ممشط، لحيته سوداء محلوقة بشكل سيئ، عيناه رماديتان ونظراته حادة وباردة مثل نظرات الحيوانات البرية. بدت هيئته باعثة على القلق بشكل يفوق كل ما تتذكره عنه.

جلس أمامها، ووضع مرفقيه على الطاولة، وشبَّك أصابعه.

- إذاً، يا ديان، هل قررت أخيراً أن تعتذري لي عن اتهاماتك الباطلة؟

ارتسمت على محياها الشاحبة ابتسامة باردة. تتميز شفاهها بندبة وردية. تشعر ديان بغصة في الحلق. الألم يعتصر معدتها وهي تحاول أن تتكلم بصوت بارد ومهني:

- توقف عن الاستهانة بي يا هنكر. لا يوجد أحد في هذه المكان إلا أنت وأنا. لا أحد هنا يستمع إلى أكاذيبك.

صعَّدها بنظرِه من أعلى رأسها لأخمص قدميها، ثم قلب النظر إلى شعرها القصير ثم إلى صدرها.

يسألها فجأة:

- هل معك ميكروفون؟

- لا، ليس معي ميكروفون.

- أظهري صدقكِ وارفعي قميصك؟

تجمدت في مكانها. لاحظ أنها لا ترتدي قميصاً.

أبدت اعتراضها على أسلوبه، وقالت:

- كنت مضطرة إلى المرور أمام جهاز الكشف عن المعادن.

- كلامك غير مقنع بالنسبة إلي. من يدري، لربما أخفيتهِ في مناطق حساسة من جسمك.

- غير صحيح. لا يوجد عندي ما أقوله لك!

تجمد الدم في عروقها. ظلت بلا حراك فترة طويلة. تظاهر هنكر باستدعاء المراقبين.

لا بأس، أجابت وهي تهمّ بالوقوف، سأفعل ما يتحتم عليّ فعله. تنازلت عن كبريائها. قامت من توها فرفعت قميصها كاشفةً عن قدها حتى وصلت لأسفل صدرها. كانت نظراته ثاقبة.

تشعر باشمئزاز شديد كاشمئزاز المرء ممن يبصق أمامه. شكرها هنكر، وأثنى على بطنها المشدود وعضلات بطنها المتسقة. تخيلت أن بإمكانها العبور إلى الجانب الآخر من الجدار الزجاجي المنخفض لكي تضربه؛ لكنها تذكرت أنه يتمتع ببنية جسدية قوية، فامتنعت عن استفزازه مرة أخرى، وشرعت بسرعة فأنزلت قميصها المرفوع.

يتحدث هنكر وهو عابس ومكتئب:

- كم هو محزن ارتداء مثل هذه الملابس الخاصة بكلا الجنسين! فسترتك سيئة المنظر، وحذاؤك كبير، وسروالك يشبه سراويل سائقي الشاحنات! أعتقد أن ملابسك السابقة كانت أفضل؛ ذلك الفستان الصغير باللونين الأبيض والأحمر، الذي تفوح منه رائحة عطر اللافندر على سبيل المثال. أقصد الفستان الذي كنت ترتدينه عندما التقينا لأول مرة. لماذا لا ترتدينه؟! أنا أحب النساء اللاتي يرتدين مثل هذه الفساتين. أنت تعلمين ذلك.

استطاع هنكر بهذه الكلمات، وتلك النظرات الحادة، أن يتسبب في إيذائها معنوياً بدرجة تفوق مستوى الإيذاء الحسي. لا يمكنها مقاومة هذا الأذى؛ إنه يحاول تحطيم أعصابها وجعلها تشعر بالغثيان. إنها تجاهد نفسها حتى لا يظهر على وجهها أي ارتباك، ولهذا أخرجت صورة السيدة غير المعروفة في منطقة فانسان.

- تم العثور على هذه السيدة ميتة، وأعتقد أنك مسؤول عن اغتيالها.

إنه يسخر منها!

- لا علم لي بما تتحدثين عنه، ولا أعرف من هي!

- يوجد عليها آثار التعذيب نفسها التي مارستها أنت ضد ضحاياك الأخريات.

- تقصدين ضحايا محرك الدمى؟

- قلت لك صراحة ضحاياك أنت!

يشبك ذراعيه بعضهما ببعض.

سأخرج بعد نحو عام. لماذا أتسلى بقتل الشابات البريئات؟!إذا كنت أنا القاتل الذي تقصدين فلماذا أنتظر حريتي بفارغ صبر؟!

أجبرت نفسها على النظر في عينيه بشكل مباشر.

أمعنت التفكير في هذا الموضوع من جميع جوانبه. الوحيد الذي يمكن أن يستفيد من هذا الاغتيال هو أنت، كما أنك لا تستطيع أن تمتنع من مزاولة أعمالك الوحشية مرة أخرى بمجرد خروجك من السجن. إن أول شيء يفعله رجل الشرطة عند العثور على جثة فيها أربعون جلدة على ظهرها هو التحقيق مع الأشخاص الذين خرجوا من السجون في الفترة الأخيرة. المرضى أمثالك لن يتوقفوا عن القتل سنوات عدة دون أن يجبروا على ذلك.

أومأ هنكر برأسه. كانت الأجواء مضطربة بشكل كبير..

- ما تقولينه يثير الاهتمام يا ديان. لكن كيف لي أن أفعل ذلك؟ لا أستطيع المرور عبر الجدران، وليس لدي أي اتصال بالخارج تقريباً. لا تنسَي أن مكان الاحتجاز يخضع للمراقبة. توجد ميكروفونات. يتم تسجيل حديثنا الآن.

تعض ديان شفتيها من الداخل.

- ماذا تقصدين بذلك؟ ألا تتذكرين ما حدث؟! يبدو أنك غير متّزنة يا ديان. ربما بسبب وجودك هنا في هذا السجن، أنت لا تحبين الأماكن المغلقة. أنت تفضلين المساحات المفتوحة الواسعة مثل الغابات.

يستطيع محاميك أن يتحدّث معك دون أن يستمع أحد.

- أتعتقد أن هذا المحامي السمين المتلعثم يستطيع أن يعطي الأوامر لقاتل؟!

- أنت مجنونة يا ديان ياعزيزتي. أنت مجنونة فعلاً!

يتدفق الدم في عروقها.مكتبة سُر مَن قرأ

- الرجل الذي قام بهذا العمل القذر من أجلك أنت شخص متميز جداً. لقد شوهد وهو يترك الجثة في منطقة فانسان. كان يعلم أنه سيتم العثور عليها في أقل من ساعتين أو ثلاث ساعات. يبدو أنه عمل جيد يدل على أنك لم تكن هناك وقت ارتكاب الجريمة، لكنه ارتكب أخطاء بتقليد أفعالك.

هذا الأمر سيكلفك الكثير.

يدقّق هنكر النظر في الصورة، ثم قال فجأة:

- انتهت المقابلة.

- لا، ما يزال لدينا عشر دقائق متبقية!

- ليس لدي ما أقوله لك.

وقف وأعاد الكرسي إلى مكانه.

- هذه المرة لن تفلت من العقاب. سأعثر على الرجل الذي قتل تلك المرأة.

يضحك مرة أخرى ملء شدقيه ليبدو كأنه بارد الحسّ!

- لست بحاجة لكي أقتل الناس. سأكون حراً طليقاً في القريب العاجل. توقفي عن التظاهر بالاعتزاز بنفسك. لم تتمكني من العثور على محرك الدمى منذ أربع سنوات. يبدو أنه لا طائل منكِ. أنت مثل الفتاة الصغيرة المذعورة التي تخشى أن تعطي نفسها مساحة أكبر من حجمها!

وقفت وهي تفرك كلتا يديها. نظرت إليه وجهاً لوجه. ينادي هنكر على المراقب بصوت مرتفع. فتح الحارس القفل الموجود أمامه، ثم اصطحب السجين وهو يبتسم؛ لكن قبل أن يعبرا الباب الزجاجي استدار هنكر فجأة ليقول لها:

- في المرة القادمة، التي سنلتقي فيها، أتمنى أن ترتدي ذلك الفستان الأبيض والأحمر الذي تفوح منه رائحة اللافندر. يطيبُ لي أن أراكِ بملابس مُغرية.

تم غلق الباب من خلفها. انتظرت ديان حتى تهدأ ضربات قلبها، ثم غادرت القاعة. عندما ذهبت إلى الصناديق، التي وضعت فيها أغراضها وجدت ورقة مطوية أربع طيات في الخزانة. في أعلى الورقة تمت كتابة بعض الأسماء والعديد من التواريخ بالقلم الأسود. وضعت الورقة في جيبها. إذاً، أحد المخبرين لديه هو من قام بهذا العمل!

كان الخروج من السجن مزعجاً جداً مثل الدخول إليه. كان عليها أن تتوقف ثلاث أو أربع مرات قبل أن تصل إلى البوابة. يبدو أنها تغوص في أعماق المحيط الجليدي، وتتعرض لضغوط كبيرة. في الخارج، أخذت سيارتها، وظلت جالسة فيها فترة طويلة، ويداها ممسكتان بعجلة القيادة. أرادت أن تصرخ وتتقيأ وتبكي. يتردّد صدى ضحكة هنكر القاتمة في رأسها، وسرعان ما حل محل هذه الضحكات صور التعذيب، التي كانت تمارس في العصور الوسطى، والتي بلغت ذروتها بابتسامته الباردة التي تبخرت برصاصة من عيار 12.

عندما هدأ الغثيان، فتحت بيديها المرتعشتين الورقة التي قدمها لها الحارس وقرأتها. انتبهت إلى أسماء كل من جاء لزيارة هنكر منذ بداية اعتقاله، ولفت انتباهها أحدهم:

كريستيان أندرسن!

هذا الشخص مهم جداً. هي متأكدة من ذلك. لقد سمعت هذا الاسم من قبل! أصبح الأمر معقداً. أخرجت ديان هاتفها، وأجرت بحثاً سريعاً على الإنترنت: كريستيان أندرسن، عضو في نقابة المحامين في باريس، متزوج من أليس دوجسون، يوجد الكثير من الفيديوهات باسمه واسم زوجته.

ركّزت في أول الأسماء في قائمة الفيديوهات. ظهر رجل على الشاشة صارم الوجه، فيه تجاعيد واضحة، كثيف الشعر ولونه أبيض يمشّطه بعناية فائقة، في الستينيات من عمره. بلا شك؛ ليس هو أندرسن ابن الثلاثين عاماً. ربما هذا والده؟ يقف الرجل بالقرب من طاولة مصنوعة من خشب الكرز في صالون واسع ومزخرف بأناقة. معه حقيبة فتحها لإظهار محتوياتها المكونة من عشرات الأوراق النقدية من فئة الخمسمئة يورو.

بدأ الرجل يتكلم بصوت قوي. يبدو أنه مهيب الجانب. تحتوي الحقيبة على مليون يورو، وأنا على استعداد لتسليمها كلها مقابل الحصول على معلومات عن ابنتي. سأعطي هذا المال لأي شخص يساعدني في العثور عليها.

ظهرت صورة لامرأة شقراء في الزاوية اليسرى من الشاشة. عجزت ديان عن الكلام! فتّشت في جيوب معطفها، وأخرجت صورة المرأة التي تم العثور عليها في منطقة فانسان، والتي عرضتها على هنكر. قالت لنفسها بصوت خفيض:

- أليست هي يقيناً؟!

ظلّت ديان ثواني طويلة تنظر إلى الصورتين قبل أن تتمالك نفسها. بحثت في سجل هاتفها عن رقم لم تتصل به منذ سنوات، ثم اتصلت به على الفور.

صوت رجل أجش يقول:

- أنا أوسكار دوكلير.

- مرحباً أوسكار. أنا ديان.

- ديان! مرّ زمن طويل لم تتصلي بي فيه. كيف حالكِ؟

- أنا أمارس رياضة الملاكمة حالياً. لدي مباره للمنافسة على لقب عالمي قريباً.

- رائع جداً. أنا سعيد لأنك نجحت في تغيير مسارك.

- يا أوسكار، إذا كنت أتّصل بك اليوم فذلك لأنني بحاجة إلى مساعدتك. أحتاج إلى أن تزودني بمعلومات.

يعمل أوسكار رئيسَ تحريرٍ ومؤسساً لمجلة المخبر السّري الفرنسي الأكثر انتشاراً في فرنسا. نسج شبكة اتصالات تساعده لأغراض النشر على نطاق واسع، وكان لديه مخبران في جميع المكاتب المركزية، ومن الطبيعي أن يأتي إليه رجال الشرطة يطلبون منه معلومات عندما تتأزّم خيوط التحقيق.

- أي نوع من المعلومات تريدين؟

- أفضل تحديد موعد لأتحدث معك حول هذا الموضوع.

- متى؟

- حالاً. أَأنت في المنزل أم في المكتب؟

- أنا في المنزل؛ لكن لدي مواعيد بعد الظهر، من الممكن أن نلتقي غداً.

- أنا بحاجة إلى موعد اليوم.

- انزعج الصحفي.

- لا أستطيع القول إن تحذيراتك تخيفني.

- أعطني موعداً وستكون أول من يسمع القصة التي يرغب الجميع في قراءتها صباح الغد.

- كانت تعلم أن قصتها الذرائعية ستجعله يتفاعل معها.

- ما الذي سنتحدث عنه بالضبط؟

- أتحدث عن جريمة قتل، وعن قاتل ارتكب العديد من جرائم القتل.

قال الصحفي:

- على الفور. يمكنك المجيء إلى منزلي بعد ساعتين.

## 12

رائحة أوراق قديمة تنتشر في منزل أوسكار دوكلير تجعل التنفس صعباً. توجد في جميع الغرف أكوام من الصحف والمجلات ترتفع حتى مستوى الرأس، وتوجد بالقرب من المدخل أعداد قديمة من مجلة المخبر السّري الفرنسي. إن أوسكار دوكلير يقتل نفسه من أجل عشرة يورو. يتصارع من أجل هاتف؛ مُغتصب الأطفال بالحضانةِ التابعةِ للبلديَّة؛ فألقابه الكثيرة لا خير فيها، ولأن مجلة دوكلير تُنشر في كل أسبوع، فإنها تحتوي على عشرات المقالات، وفيها كثرة كثيرة من الصور غير الواضحة التي تتناول وقائع قضائية متنوعة وقصصاً خيالية لجعل المجلة أكثر إثارة. يكتب دوكلير عن الجريمة في زمن المضارع؛

لأنه يعيش أحداث الجريمة، ولكي يتجسد مشهد الرعب أمام ناظري القارئ على سطح ورق المجلة السميك اللامع، أطلق أوسكار على هذه المجلة اسم الصحافة السردية؛ أما بالنسبةِ لديان فإن الأمر لا يعدو أن يكون مُجرد تلصص.

شقت طريقها عبر هذه الأوراق الضخمة حتى وصلت إلى داخل الشقة المكونة من غرفة كبيرة، يمكن اعتبارها غرفة الصالون إذا لم تكن هناك هذه الأكوام من الصحف المتكدسة. كان الظلام شديداً بسبب أكوام الأوراق المتراصة أمام النوافذ! يجلس دوكلير أمام طاولة لامعة. يفحص صور طفل لأحد نجوم برنامج «تلي ريالتي» تم العثور عليه مقتولاً قبل عدة أيام. يرتدي سترة من قماش الجاكار وسروالاً مصنوعاً من القطيفة المضلعة ونظارة كبيرة. بدا كأنه موظف أرشيف في مكتبة إنجليزية قديمة لكنه لم يعد يعمل فيها.

قالت له ديان:

- ألاحظ أنك دائماً مهتم بالأعمال الشاقة!

يرفع دوكلير رأسه إلى أعلى، ويحدّق النظر بقوة ليرى بشكل أفضل من الذي يتحدث معه.

- ديان... كيف دخلت إلى هنا؟

- كان الباب مواربا.

يعلق دوكلير بصوت خفيض:

- هل يجب أن أقسم إنني أغلقته. لا أعرف أين ذهب عقلي الآن؟!

توجد خزانة مصفحة خلف دوكلير. أحد أبوابها مفتوح، ويمكن رؤية ما بداخلها؛ شرائط الكاسيت القديمة والمجلدات الكبيرة المتراصة

بعضها فوق بعض. أعاد دوكلير إغلاق باب الخزانة بسرعة. سار نحو ديان على أطراف أصابعه الملتوية ناحية الخارج بسبب سمنته المفرطة.

تقول ديان وهي تحدق النظر بحذر إلى أكوام الصحف التي طالت السقف:

- تتكدس الصحف بكثرة يا دوكلير!

- بالطبع. مرت سنتان. لم تتوقف المطابع عن طبع الصحف.

يُعاني أوسكار مرض الاكتناز القهريّ؛ لهذا الأشخاص الذين يعانون من هذه الحالة المرضية عادة ما يخزِّنون مجموعات كاملة من الأشياء بطريقة مبالغ فيها!

- كل المقالات التي تحتفظ بها هنا يمكن وضعها على أسطوانة. إلى جانب ذلك، بات كل شيء مُتاحًا على الإنترنت في الوقت الحالي، فلم كل هذا العناء؟!

- وكيف لي أن أتأكد من عدم تزوير النسخ الرقمية؟ وكيف سيكون حال هذه النسخ بعد عشر سنوات؟! قد يكون تخزين الصحف غير جيد، لكن لا يمكن محوه بضغطة زر.

أشار دوكلير لكي تتبعه. توجها معاً إلى المطبخ؛ إنه المكان الوحيد الذي لا توجد فيه صحائف. طلب منها الصحفي الجلوس أمام الطاولة، وأخرج كوبين من الخزف الأزرق من الخزانة. يصبّ الشاي كما تصبّه سيدة برجوازية عجوز، ثم جلس أمامها.

- حسناً. ما الذي تريدين أن تتحدثي عنه؟

- هل سمعت عن المرأة التي عُثِر عليها مقتولة في منطقة فانسان؟

أومأ دوكلير برأسه، وظل يهتز على الكرسي. عندئذٍ شعرت ديان بأنّها ستحصل على معلومات منه، ثم قالت:

- وفقاً للقسم المتخصّص في مكافحة الجرائم، ستكون هذه آخر ضحية لمحرك الدمى.

ظلت شفتا الصحفي تلتوي وهو في حالة من الذهول. وقف على كعبيه، وبدأ يتحرك ذهاباً وإياباً في المطبخ.

- هذا مستحيل. لقد تم تحذيري...من الذي يقود التحقيق؟

- جيريكو.

يرفع دوكلير بصره إلى أعلى.

- نعم، إنه جيريكو إذاً. الآن أفهم بشكل أفضل لماذا لم يزودني المخبر الذي يعمل لمصلحتي بأي معلومات. إنه خائف. يقول إنه سيكون مدير قسم مكافحة الجرائم.

جلس دوكلير.

- هذا جيد. قصتك تهمني. استمري في الحديث.

- ليس بهذه السرعة. أولاً، أريد عقد صفقة معك.

- ينقر الصحفي على الطاولة البلاستيكية بأطراف أصابعه القصيرة. كانت الصفقة على وشك أن تتم.

يسألها الصحفي:

- ماذا تريدين على وجه التحديد؟

- أريد نسخة من تقرير التحقيق الجنائي.

- هذا فقط؟!

يضع يده على ذقنه السمين، ويتظاهر بأنه يفكّر.

- أوافق لكن في المقابل أريد معرفة كل ما لديك من معلومات حصرية، ونسخة من جميع المستندات التي حصلتِ عليها أثناء تحقيقك الشخصي: الملفات والصور ومقاطع الفيديو.

فكرت ديان مليّاً، واستعدّت للاعتراض على طلباته.

- طلبك مرفوض من حيث الأصل. لا يجب الكشف عن أي وثيقة شخصية خاصة بالضحايا.

- أوافق، لكن بخصوص المعلومات المتوافرة لديك يا ديان؟

- لن أتحدث إلى أي صحفي غيرك، لكن اسمي يجب ألا يُعرف.

- مصدر مجهول قريب من التحقيق. أنا أعرف هذه الأغنية. إذاً، ما الذي عثرت عليه؟

- ستعرف بمجرد وعد منك ألا تنشر أيّ شيء حتى أعطيك الضوء الأخضر.

- لا. اندهش دوكلير! وماذا لو نشر الآخرون ما لديكِ من معلومات قبلي؟

- لا بد من المخاطرة. لا أريد أن يصطدم جيريكو بي في منتصف الطريق لو سرّبت شيئاً ما قبل أوانه. سيشتبه بي على الفور إذا وصلت التسريبات إلى الصحافة.

- يبدو على دوكلير الغضب.

- حسناً، حسناً. لن يتم نشر أيّ شيء من دون موافقتك.

- أتعدني؟

- لقد أعطيتك كلمة. إذاً ما الذي عثرت عليه؟

- عملية القتل هذه ليست من أفعال محرك الدمى.

- إنها عملية مرتبة.

تحدثت ديان بإيجاز عن التشوهات التي تمت ملاحظتها عند تشريح الجثة، وعن رائحة الكافور غير المعتادة، وعن الشعر الذي لم يتم قصه، وعن أخذ القاتل خصلة من شعرها، كما أنها تحدثت عن الخدوش

الموجودة على رقبتها التي تشير إلى أنه لم يكن يرتدي قفازات، والأهم من ذلك كله أن الأربطة التي استخدمها كانت رفيعة جداً مقارنة بالحبال التي استعملها محرك الدمى.

يقول الصحفي:

- هذه تفاصيل صغيرة لا يُلتفت إليها كثيراً.

- هذه هي المشكلة الأساسية. جميع العناصر الأخرى معروفة. هل رأيت تلك العلامات على الظهر؟ توجد على ظهر كل الضحايا أربعون علامة. لم أخبر الصحافة بهذه المعلومات. أنت فقط من يعلم هذه التفاصيل.

استمع الصحفي إلى كلامها، ثم واصلت ديان حديثها:

- السبب في هذه العلامات هو الضرب بالسوط. إنها أداة للتعذيب تم استخدامها في العصور القديمة لمعاقبة المجرمين، وهي مكونة من أحزمة ينتهي كل منها بقطعة معدن من الرصاص. هذا السوط لا يباع في أي مكان؛ هو دليل قاطع على التطرف الشديد؛ حتى بالنسبة إلى السادومازوخية، أعتقد أن القاتل حصل على واحد من هذه السياط من هنكر، أو صنع السوط بنفسه.

- أو هنكر ليس هو محرك الدمى.

استمع إليّ الآن. حسناً: يضرب القاتل أربعين ضربة؛ لكن أثناء البحث الذي أجريته، خلال التحقيق الذي أجريته بخصوص هذه القضية، اكتشفت أن هذه الضربات هي الحد الأقصى المسموح به لمعاقبة السجين وفقا للقانون العبري؛ علماً أن والد هنكر يهودي، وقد سُجلت ضده قضية عنف منزلي. أنا متأكدة من أنه هو الذي ضربه، وأنه لم يتجاوز هذا الرقم عندما عاقبه.

- مجرد افتراض.

- من الممكن أن يحدث هذا؛ لكني على يقين مما أقول.

توقفت ديان برهةً. وضع الصحفي يده على الطاولة، وقال:

- أتكون القتيلة هي أليس أندرسن؟

- تقول أليس أندرسن؟ أنت على علم بالأمر.

- نعم إلى حد ما. لقد نشرنا ثلاثة أعداد من المجلة عن اختفائها.

- زوجها كريستيان ذهب لرؤية هنكر في السجن. بالإضافة إلى هذا، عرضت على شاشة هاتفها صورة تظهر الجزء العلوي من الجسم ورأس ضحية منطقة فانسان.

يحاول دوكلير في دقائق استيعاب ما حدث. استدارت شفتاه من هول المفاجأة، يحاول تعديل وضع نظارته:

- أهذا معقول...! إنها هي... إنها أليس أندرسن!

بدا على ديان الاستغراب من الفرحة التي غمرت دوكلير، على الرغم من أنها لم تخبره بأي خبر سار، وقالت له:

- إن لهذه السيدة نظرات ثاقبة. توجد بعض الشامات على رقبتها. انتبه إلى طبيعة الأذنين وإلى قاعدة الأنف. إنها ليست أليس أندرسن؛ لكنها امرأة تشبهها إلى درجة كبيرة.

أومأ دوكلير برأسه. ترتسم على شفتيه ابتسامة عريضة. في هذه المرة، شعرت ديان بعدم الارتياح. إن افتتان دوكلير الشديد ببؤس الإنسان يجعلها تشعر كأن هناك ميثاق شرف بينه وبين الشيطان. لم يعد لديها حرية الاختيار؛ فهو الوحيد الذي يمكنه مساعدتها.

- الملامح شديدة التشابه؛ إنها تشبه شخصيات شكسبير. أهذا معقول؟!

يبتهج دوكلير وهو يهمّ بالوقوف. يتوجّه نحو الصالون وهو يتمتم ببضع كلمات. تسمعه وهو يفتح خزانته المصفحة. يعود بعد قليل ومعه مجموعة كبيرة من الوثائق مثبتة في ملف من الورق المقوى، ومعه أيضاً ثلاث نسخ من مجلة المخبر الفرنسي.

- هذا ملف التحقيق الذي يخصك، وهذه أعداد المجلة الثلاثة التي خصصناها لأليس أندرسن.

وضع كل شيء أمامها، وقال:

- يمكنك أن تأخذيهم معك إلى المنزل!

- هل تحتفظ بنسخة هنا؟

- إن قضية أندرسن واحدة من أهم القضايا بالنسبة إلي.

- من الخطر الاحتفاظ بها هنا.

- إنها مخاطرة كبيرة؟ مَن مِن رجال الشرطة يستطيع أن يفتش منزلي؟! معظمهم يخافون جداً مما أفعله معهم.

يبتسم دوكلير، ثم يقول: توجد في هذه الخزانة صور غير منشورة تم التقاطها لجيريكو مع إحدى السيدات. يمكنك اقتناؤها إذا كنت مهتمة بالأمر.

اطّلعت ديان على الملف. بدأت بفحص استمارة آر أي اف، أو استمارة بحث بغرض مساعدة العائلات كتبه كريستيان أندرسن في مركز شرطة سان مور دي فوسي.

- هل أعطاك أحد رجال الشرطة في قسم سان مور هذا الملف؟

- لا، حصلت عليه عن طريق أحد المخبرين، الذين يعملون في الفرقة المتخصصة في مكافحة الجرائم الموجهة ضد الأفراد.

يبدو الأمر منطقياً؛ فيوجد لدى الفريق المختص بمكافحة الجرائم الموجهة ضد الأفراد قسمٌ خاص يعمل على حالات اختفاء البالغين المثيرة للقلق. إن رجال شرطة سان مور يعملون في القسم الأكثر كفاءة.

- وماذا عن كريستيان أندرسن؟

- هو محام عنيد جداً. كتبت مقالاً عنه منذ وقت ليس ببعيد. نجح في الحصول عَلى براءة رجل عُثر على كيلوجرامين أو ثلاثة كيلوجرامات من القنب في حوزته.

- أيفعل الخير إلى هذا الحد؟! لكن كيف نجح في ذلك؟

- أبطل دعاوى رجال الشرطة من خلال اكتشافه خللاً في الإجراءات. كان يجب أن تسمعينه وهو يفنّد القضية أمام القاضي! إنه يتحدث بلباقة. أكسبته هذه القضية عدة ألقاب في قاعة المحكمة.

- ما هذه الألقاب؟

- «الراوي... المحامي الثعلب ... عازف الفلوت... » نعم، اللقب الأخير هو المفضل لدي. إن أندرسن يجيد فن التقليد باحتراف.

تبتسم ديان. تتذكر أيام طفولتها، عندما كان والدها يقرأ لها القصص في المساء. إنها تحب تلك الفترات لأنها الأكثر تأثيراً فيها.

على الرغم من مرور سنوات على هذه الأحداث، ما تزال تتذكر قصة عازف الفلوت في مدينة هاملين، وتتذكر الأخوين جريم.

فهاملين هذه مدينة ألمانية صغيرة اجتاحتها الفئران، وأقسم سكانها المنزعجون جداً على تقديم مكافأة لمن يستطيع أن يتخلص منهم. وذات يوم حاول عازف الفلوت القيام بهذه المغامرة، واستخدم موسيقاه المثيرة في توجيه الفئران نحو النهر، ثم غرقت الفئران جميعاً؛ لكن القرويين نكثوا بوعودهم، ولم يريدوا أن يقدموا للعازف المكافأة!

طردوه خارج المدينة، وبعد أسابيع قليلة، عاد عازف الفلوت، وصبّ جام غضبه على القرية؛ حيث عزف لحنه مرة أخرى، لكنه هذه المرة كان أطفال هاملن هم من استدرجهم إلى مكان بعيد؛ حيث اختفوا هناك إلى الأبد!

حديثاً، علمت ديان أنه في القرن الثالث عشر الميلادي كانت توجد في كنيسة هاملن رسومات على زجاج ملوّن تحكي عن الاختفاء الغامض لأطفال القرية. لم يتمكن أي مؤرخ من شرح ما حدث بالفعل في البلدة الصغيرة. كان هناك شيء واحد فقط مؤكد. يقول الأخوان جريم أنه من أجل تأليف قصة جيدة يجب أن يكون هناك دائماً قسط من الحقيقة.

تحدث دوكلير مرة أخرى:

- الملامح شديدة التشابه مع أليس أندرسن... زوجها هو الذي قتلها... لا أصدق ما حدث! سننجح في معرفة السبب.

حدقت النظر إليه. أصبحت غير متحمسة.

- بكل تأكيد، عائلته حزينة جداً.

- لنتحدث عن العائلة. ماذا تعرف عن والد أليس؟

- شارل دوجسون؟ طبيب سابق، وعَد بمنح أموال طائلة لمن يعثر على ابنته. يعتقد أن رجال الشرطة لم يبذلوا الجهد الكافي من أجل البحث عنها.

- دوجسون...؟ تقول ديان: لا يبدو أن الاسم فرنسي مئة في المئة!

- عائلته من أصل إنجليزي.

- هل أجريت مقابله معه؟

- كنت أرغب في ذلك؛ لكنه غادر سان مور بعدما تعرّض زوج ابنته لحادث سيارة. شيء مزعج جداً. كاد أندرسن يموت بسبب هذا الحادث الذي وقع على الطريق الدائري بعد فترة وجيزة من اختفاء زوجته، ولسوء الحظ لم يتمكن أحد من تصوير الواقعة. كان من الممكن أن تكون هذه الصورة رائعة إذا وُضعت في الصفحة الأولى للمجلة. كل ما يمكنني إخبارك به عن دوجسون أن زوجته توفيت منذ نحو عشر سنوات، وأنه تقاعد بعد اختفاء ابنته مباشرة.

التقطت ديان ملف القضية ومجلات دوكلير، ثم وقفت، وقبل أن تغادر الشقة أعطاها الصحفي اسم أحد الأشخاص. إنه إريك بيرجر كما أنه أعطاها أيضاً عنواناً..

- هو من أعطاني نسخة من الملف، إذا كان لديك أي استفسارات. اذهبي لرؤيته. ربما تعرفينه، لقد كان ضمن فريق البحث والتدخل.

يقع مقر فريق البحث والتدخل في الطابق الرابع في مبنى مقر شرطة باريس، لكن اسم الرجل لا يعني شيئاً بالنسبة إليه، يفرك دوكلير يديه وهو يبتسم.

هذه القصة كبيرة جداً، يفوق تأثيرها قصة وفاة التاجر العام الماضي، وقصة الرجل الذي قتل الدلافين. سنبيع أعداداً كثيرة من المجلة تفوق مبيعات رواية «القط الذي يتكلم».

ترمقه ديان بنظرة باردة. لم ينتبه دوكلير إلى نظراتها. تسير عبر الممر أمام كومة كبيرة من مجلة المخبر الفرنسي. تتساءل عن عدد المجلات التي ستقرؤها، وتتناول هذه القضية القذرة التي تحقق في ملابساتها. كيف تعامل دوكلير مع كل هذا باستخفاف؟!

يسألها الصحفي وهو يسير معها حتى الباب الأمامي:

- ماذا ستفعلين الآن؟

- يعتمد الأمر على ما سأجده في الملف؛ لكن أعتقد أنني سأحاول مقابلة دوجسون عاجلاً أم آجلاً.

وقف دوكلير على السجادة، وتمنى لها التوفيق في عملها، ثم قال لها قبل أن تنزل بسرعة على الدرَج:

- قبل كل شيء اعتني بنفسك. لا أريد أن أفقد الدجاجة التي تبيض الذهب!

## 13

ظلت ديان تقرأ المستندات التي تتعلق بملف التحقيق بقية النهار حتى وقت متأخر من الليل. في الصباح الباكر استيقظت وهي على يقين بضرورة مقابلة شارل دوجسون والد أليس؛ فهو الوحيد الذي بإمكانه أن يخبرها عن الأيام الأخيرة لابنته عندما قضت مع زوجها إجازة في منزله قبل أن تختفي؛ لكن دوجسون لا يمكن العثور عليه. ليس لديه رقم هاتف، ولا بريد إليكتروني نشط، ولا عنوان معروف غير منزله في سان مور، الذي وجدته مهجوراً، وأثناء حديثها مع جيرانه السابقين، علمت أنه لم يعد يأتي إلى بيته هذا منذ سنوات، وللعثور على والد أليس أصبح لزاماً عليها أن تعطي رجال الشرطة، الذين يحققون في اختفاء ابنته، عنواناً للوصول إليه؛ لهذا السبب، وفي نحو الساعة الثانية ذهبت ديان إلى غابة فانسان للبحث عن إريك بيرجير.

بالقرب من حديقة فلورا، كانت الملاعب مليئة بالأطفال الذين يلعبون ويصرخون... إنهم متهورون ومشاكسون، يقف الأولاد الصغار بأقدامهم أمام أعمدة أقفاص السنجاب، وتقفز الفتيات الصغيرات على

قدم واحدة فوق لعبة مرسومة بكعوب أحذيتهنّ على الحصى على شكل مربعات الحجلة. تسير ديان نحو المقاعد التي يجلس عليها الآباء والأمهات. يرن الهاتف. إنه وول. ترددت فترةً طويلة قبل أن ترد عليه. كانت تعلم أنه سينفعل عليها.

- ديان؟ هل يمكنني أن أعرف ماذا تفعلين؟

يتنفس بصوت مرتفع. يصدر أنفه صفيراً...

- أنا آسفة يا وول. لن أتمكن من المجيء للتدريب اليوم.

- أنت البطلة، ولا يمكن لك أخذ عطلة نهاية الأسبوع.. صوته يرتفع..

- لن أستطيع المجيء.

- أنت طلبت مني أن أجعل منك بطلة قوية. أتفهمين...؟! البطلة القوية لا تأخذ استراحة، لا يجب تفويت أي تدريب. هل معكِ رفيق؟

- لا.

- إذا أقبل عليكِ وعانقكِ قبل التدريب، فإن ذلك من شأنهِ أن يرفع من نسب التستوستيرون أما أن تُبدلي العِناق بالتدريب!

بدا عليها الغضب، وقالت:

- توقف عن هذا الهراء يا وول.

- أنا لست مع زوجي، أنا مشغولة بقضية قديمة.

- أي قضية؟

- إنها تتعلق بمحرك الدمى.

يضغط وول بلسانه على سقف فمه بقوة.

- لا تتدخلي فيما لا يعنيك يا ديان! أنت لا تعملين في الشرطة الآن.

لم يعد صوت وول حاداً. أدرك أنه لن يقنعها بالعودة إلى صالة الألعاب الرياضية. استنشق الهواء بصوت مرتفع، ثم غمغم بكلام غير مفهوم...

- لا بد من إعادة ترتيب أمورك في أسرع وقت ممكن. سأنتظرك في صالة الألعاب الرياضية صباح الغد لتعويض التدريب الذي فاتك اليوم.

أنهت ديان المكالمة، وهي تتنهد لمدة طويلة. لم يكن الأمر سيئاً للغاية. تنظر إلى الأمهات الجالسات على المقاعد بجوار ملعب الأطفال. حاولت أن تتخيل نفسها مثل هؤلاء الأمهات، في الحديقة مع أطفالها وزوجها وسيارة كبيرة بمقاعد أطفال وواقٍ من الشمس مرسوم عليه رسومات ديزني. عطلات نهاية الأسبوع وأعياد الميلاد مع عائلة زوجها. هل سأتمكن يوماً ما من اللعب بهذه اللعبة أيضاً؟ عندما أنتهي من كل شيء، هل سأصبح واحدة مثل هؤلاء الأمهات أم أنه قد فات الأوان بالفعل؟

فجأة توقفت الضحكات والصراخ. سقطت فتاة صغيرة للتو من على جدار التسلق في المنطقة التي يلعب فيها الأولاد. تركض ديان نحوها من دون تفكير. وصلت أولاً، جلست بالقرب من الطفلة، تنظر إليها الطفلة وهي تئن. ذرفت عيناها دموعاً كثيرة لتأخذ طريقها إلى خديها. وقبل أن تتمكن من التحرك، سمعت صوتاً قوياً وعميقاً لرجل من الخلف.

- لا بأس عليك يا كلوي. أنا هنا.

استدارت ديان، فوجدته رجلاً ضخماً؛ في الأربعين من عمره، طويل القامة، قوي البنية، ذا ملامح معروفة، أكتافه عريضة جداً، يبلغ طوله مترين تقريباً، جبهته مغطاة بشعر بني غير مُصفف، يبدو أن الهموم قد

تركت بصمتها على وجهه. مدت كلوي الصغيرة ذراعيها السمينين إليه، وضع ركبته على الأرض، وأخذها برفق بين ذراعيه، ثم رفعها إليه. بدت الصغيرة كأنها أخف من دمية مصنوعة من القماش. أخبرته كيف أنها سقطت. يستمع إليها وهو يتفقد مرفقيها بحثاً عن الخدوش، وسرعان ما توقفت الطفلة عن البكاء، ثم التفت الرجل إلى ديان.

- شكراً لكِ على المساعدة. كلوي متهورة إلى حدّ ما. ورثت هذه الجرأة من والدتها.

- تقول والدتها؟

تتساءل ديان عن أوجه الشبه بينها وبين أمها. يبدو أن الفتاة الصغيرة لم ترث من الأب إلا خدين مستديرين فقط؛ شعرها الكثيف لونه أسود، وعيناها تشبهان قليلاً عيون ذوي الأصول الآسيوية. وضع الرجل كلوي على الأرض، طمأنها. تركته الفتاة لتنضم إلى الأطفال الصغار الذين يركبون ألعاباً على شكل تنانين تهتز بزنبرك.

- ما اللعبة التي تفضلينها؟

- اللعبة الصغيرة؟

تنظر إلى الأطفال من حولها. إنها حائرة.

- أنا... لا. ليس لدي أطفال.

يبتسم الرجل...

- أعتذر، يوجد الكثير من الآباء والأمهات هنا إلى درجة أننا ننسى أن هذا المكان حديقة جميلة عامة يتنزه الآخرون فيها أيضاً.

ديان تواصل النظر إلى كلوي.

- كم عمر ابنتك؟

- ست سنوات. أنا لم أقدم نفسي إليك. أنا إريك بيرجر.

- وأنا ديان كيليرمان.

- أهلاً وسهلاً ديان. أيمكنك المكوث معنا على مقاعد في الجانب الآخر؟ أنا متأكد من أن كلوي تود مشاركتك وجبة طعام خفيفة؛ لدينا حلوى منزلية الصنع على شكل ديناصورات.

شعرت ديان بعدم الارتياح، وتجنبت نظرته إليها.

أتخبره أن وجودها هنا لم يكن عن طريق المصادفة، وأنها تحاول أن تتسلل إلى حياته الخاصة لتطلب منه معلومات حول ملف قانوني؟ يبدو أن الأمر معقد أكثر مما كانت تتخيل!

يقول بيرجر:

- نعم. أعترف بأنه لم يتبقَّ سوى الحيوانات التي تأكل العشب. إنها ليست الأكثر تفوقاً؛ في حين اختفت الحيوانات آكلة اللحوم عن الأعين! لا نعرف ماذا حدث لها؟! إن ابنتي تؤكد أن النَّجم المذنَّب هو من تسبّب في انقراضها؛ لكنني أراهن أنه إذا تم العثور على الجثة فستكون عليها آثار أسنان.

- أعتذر لك أيها الرائد. أنا هنا ليس من أجل التَّنزه، ولكن لكي أطرح عليك بعض الأسئلة حول إحدى القضايا التي تحقق فيها!

بدا الامتعاضُ على وجه الشرطي، وفقد صوته عذوبته على الفور!

- من أنت بالضبط؟! أأنت شرطية؟ أنا محقق خاص!

- أنا شرطية سابقة. كنت أعمل في القسم المختص بمكافحة الجرائم. التقينا سابقاً بالتأكيد هناك (هكذا تكلمت وكلها أمل في خلق شعور طيب يسمح بالتعاون معه). لقد تم فتح ملف حقّقت أنا فيه.

قاطعها بيرجر بشكل مفاجئ:

- اليوم السبت. تعلمين، بطبيعة الحال. أنا في الحديقة مع ابنتي التي لا أراها بقية أيام الأسبوع؛ لأنني أعمل بشكل جنوني. أتعتقدين أنني أرغب في التخلي عن إجازتي من أجل هذه القصص؟!

- أخبرني أوسكار دوكلير أنه أسدى إليك معروفاً. إذاً حان وقت ردّ الجميل.

- تقولين أوسكار؟

أمسكها من كوعها ليخرجها من ملعب الأطفال. نظرت إليها الأمهات اللواتي يدفعنَ عربات الأطفال، وهمسنَ وهنّ مندهشات،

يتكلم معها بحدة. لقد حذّرت أوسكار، وطلبت منه ألا يتّصل بي في عطلات نهاية الأسبوع. ماذا تريدين بالضبط؟!

- أبحث عن ملابسات موت امرأة تم العثور على جثتها هنا في منطقة فانسان منذ عدة أيام.

- ألا تعلمين؟! أنا أتعامل مع حالات الاختفاء، وليس مع حالات القتل! اذهبي واسألي في شرطة مكافحة الجريمة. أنا متأكد من أن دوكلير لديه بعض المخبرين هناك.

- تعرض ديان عليه صورة الجثة التي تم تشريحها: هذه هي الضحية. أصيب الرائد بيرجر بالذهول!

غمغم بكلمات، وقال:

- هذه الصورة تشبه أليس أندرسن تماماً.

- تفهم بشكل أفضل سبب رغبتي في مقابلتك.

التفت بيجرر إلى ملعب الأطفال، وهو متذمر:

- حسناً، ما الذي تريدين أن تعرفيه؟

- أبحث عن شارل دوجسون. حاولت الاتصال به؛ لكن لم يعد لديه خط هاتف باسمه، كما أنه ترك منزله في سان مور.

- لماذا تريدين مقابلته؟

- أعتقد أن مقتل هذه الفتاة واختفاء أليس مرتبطان بعضهما ببعض.

يغمغم بيرجر وهو يأخذ من جيبه علبة العلكة بنكهة النيكوتين:

- لا مجال للمزاح هنا. أيمكن أن نقول إنهما أختان.

- هل أقلعت عن التدخين؟

- أحاول. يضع حبوب العلكة الخضراء في فمه. وإذا لم تكوني تعملين كمحقق جنائي، فلماذا تهتمين بكلّ هذا؟!أنت لا تعملين في جهاز الشرطة. هذا الأمر لا يخصك!

أجابت ببساطة:

- لدي دوافعي الخاصة. إذاً هل يمكنك أن تعطيني عنوان دوجسون؟

يغمغم بيرجر بكلمات غير مفهومة، وهو يمرّر يده على شعره الكثيف. بدا عليه الاضطراب بسبب مشاعره المتضاربة.

يسألها بعد أن صدرت عنه تنهِيدة ملؤها تفكير عميق:

- هل معك قلم؟

أخرجت دفتر ملاحظاتها بينما كان بيرجر ينقر على مفاتيح هاتفه للبحث عن رسالة قديمة أرسلها إليه شارل دوجسون. توقعت أن يعطيها رقم هاتفه، لكن بدلاً من ذلك، قدم لها عنواناً لمكان يوجد في منطقة سان موردي فوسي.

رد عليها:

- لقد غادر دوجسون المدينة بعد فترة وجيزة من حادث السيارة الذي تعرّض له زوج ابنته. أنا لا أعرف أين يعيش حالياً؛ لكنه ترك لي

هذا العنوان في ذلك الوقت في حال احتجت إلى الاتصال به بخصوص أليس.

- لماذا لم يعطيك رقم هاتفه؟

أجاب الشرطي:

- يجب عليك أن تسأليه أنت!

وضع بيرجر يديه الكبيرتين في جيوب سرواله الجينز.

- أنت غير معنية بفعل أيّ شيء من أجل دوجسون. الأمر يتعلق بأبٍ اختفت ابنته. لا يجب عليك أن تتجاهلي ذلك. سأعلم إذا تجاوزت حدودك. عند رؤيتك دوكلير مرة ثانية أخبريه أنه إذا أرسل إلي شخصاً آخر خلال عطلة نهاية الأسبوع فسأطرده.

## 14

تقع مدينة سان مور دي فوسي داخل حزام نهر المارن الهادئ. المدينة نموذج مثالي للضواحي المتميزة؛ فالسكان من الأثرياء، المنازل فاخرة، المساحات الخضراء تتم العناية بها بشكل جيد، الشوارع هادئة، سعر المتر المربع يرتفع باستمرار وبشكل منتظم، المدينة غنية، وتبذل قصارى جهدها لإبعاد الفقراء عنها. تم بناء 30 وحدة سكنية اجتماعية من أصل 1200 ؛ حيث يتعين على البلدية تشييد هذه الوحدات من أجل الامتثال للمعايير القانونية؛ لكن الوضع لم يكن دائماً على ما يرام في سان مور؛ فمن أجل توفير التمويل اللازم لازدهارها حصلت المدينة على قروض كبيرة أثقلت ميزانيتها، والآن تعدّ هذه البلدية واحدة من أكثر المدن مديونية في فرنسا.

توقفت ديان أمام مبنى بالقرب من الجسر الذي يرسم الحدود بين مدينة سان مور وبقايا بناء في مدينة كريتاي. تمت إعادة طلاء واجهته الباهتة بألوان غير مبهجة. تحاول متابعة الأسماء الموجودة على جهاز الاتصال المثبّت على مدخل المبنى حتى عثرت على الاسم الذي كانت تبحث عنه: كوسمينا بوبيسكو الشقة رقم 603.

تستمع إلى صوت كأنه صادر من الأنف عبر الميكروفون.

- من أنت؟

- أنا ديان كيليرمان. أبحث عن شارل دوجسون. أصدر جهاز الاتصال الداخلي صوتاً يُفهم من خلاله أن الباب قد فُتح. دخلت ديان إلى البهو الذي تفوح منه رائحة الطلاء الرطب والحشيش، وصناديقُ البريد المعلقة على الحائط المطلي باللون البيج الوردي لم تتغير بعد. تم وضع علامات عليها وتحطيمها كلها تقريباً. لاحظت ديان إضافة اسم شارل دوجسون إلى جانب اسم كوسمينا بوبيسكو. تعتقد ديان أن كوسمينا ربما تكون زوجته الجديدة.

المصعد لا يعمل. الروائح الكريهة تصل إلى أنفها من بئر السلم. خليط من العطور الرخيصة والتوابل وبول نتِن. وصلت إلى الطابق السادس، وطرقت باب الشقة رقم 603، وعندما فُتحت الأقفال صدر صوت مرتفع! فُتح الباب بشكل موارب لبضعة سنتيمترات؛ بدا لها وجه كوسمينا بوبيسكو الباهت المتجعّد. امتدت سلسلة مصنوعة من مادة الكروم عبر فتحة الباب الموارب.

- هل أنت السيدة كوسمينا بوبيسكو؟

- نعم أنا.

تسألها بلهجة أبناء أوروبا الشرقية الأصليين:

- ماذا تريدين؟

تتفحصها من أم رأسها إلى أخمص قدميها بعينيها الصغيرتين البنيتين. انبعثت من الشقة رائحة طبخ ملفوف بأحشاء حيوان.

- أريد مقابلة شارل دوجسون.

أغلقت كوسمينا بوبيسكو الباب فجأة. تحاول ديان الطرق من جديد.

السيدة بوبيسكو، أنا هنا لأتحدث مع السيد دوجسون بخصوص ابنته. الأمر مهم جداً. الرائد بيرجر هو من أعطاني عنوانك.

فتحت كوسمينا الباب مرة أخرى. الآن تضع النظارات الطبية على طرف أنفها المعوج. ترتدي روباً واسعاً. شعرها الرمادي يختفي تحت منديل أحمر. إنها تشبه شخصية الساحرات بابا ياجا، التي وردت في الحكايات الروسية!

- أريد بطاقة عملك. أنت ضابطة شرطة.

ولأنها كانت تتوقع هذا السؤال، أحضرت ديان معها بطاقتها القديمة. لم تقل لها إن هذه البطاقة غير صالحة، وإنها بلّغت الشرطة عن فقدها هذه البطاقة قبل طردها من الخدمة في فرقة مكافحة الجريمة. حدقت بابا ياجا النظر فيها فترةً طويلة قبل أن ينتهي الأمر بفتح الباب على مصراعيه.

- يوجد مجرمون يحاولون التعدي على ممتلكات الغير. إنهم يتظاهرون بأنهم رجال الشرطة. امسحي قدميك هنا.

تدخل ديان إلى شقة كوسمينا الصغيرة؛ إنها نظيفة جيداً. المفارش على الطاولات، الكراسي بذراعين مغطاة بغطاء بلاستيكي، توجد إطارات لصور نظيفة. يبدو أن شقة كوسمينا بوبيسكو من الداخل يتم العناية بها بشكل فائق!

تسألها كوسمينا:

- هذا هو الحساء. هل تريدين شيئاً منه؟

- ترد ديانا: لِمَ لا؟

إنها جائعة، كما أن القليل من الحساء لن يسبب مشكلة كبيرة لنظامها الغذائي. ذهبت كوسمينا إلى المطبخ. جلست ديان على كرسي بذراعين. كان صلباً كالحجر، كما أن البلاستيك الذي يغطيه يصدر صوتاً مع كل حركة لها. عادت بابا ياجا إلى الظهور ومعها كأس قدمتها إلى ديان. تنفخ ديان في الحساء الضارب إلى البياض ليبرد...

وما إن ذاقته حتى شعرت بطعم سيئ جداً في فمها وحلقها. اغرورقت عيناها بالدموع. أغلقت جفونها، وعطست بصوت عالٍ.

صرخت بصوت ضعيف: ما اسم هذا الحساء؟!

هذا سيوربا؛ إنه حساء روماني يتكون من خليط من أمعاء لحم بقري والقشدة وخل وثوم وشطة حارقة وفلفل حار.

اكتسى وجه ديان باللون الأحمر. وضعت وعاءها على طاولة القهوة، وأمسكت أنفها براحة يدها، وبدأت تعطس بشكل كثيف.

- ربما يوجد كثير من الفلفل. وافقتها كوسمينا الرأي، وأعطتها علبة مناديل ورقية.

قالت ديان:

- ربما. وهي تجفف دموعها.

وبينما كانت تمسح أنفها، لاحظت ديان وجود صورة على طاولة صغيرة؛ إنها لزوجين يمسكان بأيديهما فرشاة تستخدم للرسم، ويقفان أمام جدار رُسمت عليه كتابات باستخدام الطلاء الأبيض بلغة تفترض ديان أنها اللغة الرومانية.

تسألها ديان:

- أنت في هذه الصورة؟

- نعم.

- ماذا تعني هذه الكتابات؟

- تعني: اليوم حصلنا على نصيبنا من الحرية.

هذه الكتابات كانت موجودة في كل مكان في بوخارست بعد وفاة تشاوتشيسكو. تذكرت ديان بشكل غامض مشهد الإعدام الذي تم عرضه في التلفزيون عندما كانت طفلة؛ حيث تم سحب الدكتاتور الشيوعي وزوجته على يد جنود يرتدون الزي الزيتي. سمعت صوت طلقات الكلاشينكوف. توجد صورة كبيرة لجثث الميتين. كان ذلك في عام 1989.

عطست ديان مرة أخرى بقوةإ لى درجة جعلت كوسمينا تقفز.

أنا آسفة. تعتذر ديان وتأخذ منديلاً جديداً. ومن ذلك الرجل في الصورة؟

- إنه زوجي فاسيلي الذي قُتل خلال الثورة؛ حيث أصابته رصاصة قناص بالقرب من مكتبة الجامعة المركزية.

- معذرة، لا ينبغي أن أكون فضولية إلى هذا الحد.

- لا توجد مشكلة لدي. كنا نعرف المخاطر المحيطة بنا. نحن من الطائفة الكاثوليكية، كان تشاوتشيسكو يرغب في أن يصبح جميع

الكاثوليك أرثوذكساً. لم نقبل بذلك. كنا نحضر إلى القداس بشكل سري. غالباً ما كان يتم القبض علينا من قِبل البوليس السياسي.

نظرت كوسمينا إلى ديان فترة طويلة قبل أن تسألها:

- ماذا تريدين من شارل؟

- أريد فقط أن أتحدث معه عن ابنته، متى سيعود؟

- شارل لا يعيش هنا.

أعربت ديانا عن غضبها!

- لماذا يوجد اسمه على صندوق البريد الخاص بك إذاً؟!

رفعت كوسمينا كفيها إلى السماء، كما لو كان الأمر واضحاً وضوح الشمس.

- لأنني أستلم الرسائل التي تخصه.

- هل تعرفين أين هو الآن؟

هزت كوسمينا كتفيها الضعيفين.

- لا أدري.

- هل ترك رقماً يمكن أن أتصل به؟

تهز كوسمينا كتفيها مرة أخرى، وتردّ بالنفي.

- هل له بريد إلكتروني؟

- ليس لدي آلة حاسبة.

- ماذا تقصدين؟!

- آلة حاسبة؛ أقصد الآلة التي تستخدم لإرسال البريد الإلكتروني.

- شبكت كوسمينا ذراعيها ووضعتهما فوق صدرها؛ شفتاها مدببتان، وحاجباها مجعدان، يبدو من وقفتها وإيماءاتها أنها تريد أن تقول: أنا لم أرَ ولم أقل ولم أسمع شيئاً. اذهبي إلى حيث تريدين.

تقول ديان:

- لا يجب أن يساورك القلق إزاء السيد دوجسون؟

- ولماذا أقلق؟

- إذا لم تكن لديك أي وسيلة للاتصال به، فمن يخبرك أنه ما يزال على قيد الحياة؟ أصبحت التجاعيد على جبين كوسمينا عميقة.

تابعت ديان حديثها...

- كيف تعرفت عليه؟ هل كان طبيبك؟

- لا، هو من ساعدني في العثور على عمل عندما أتى إلى فرنسا.

صحّحت كوسمينا عبارتها «عندما أتيت أنا».

- هل كنت تتحدثين اللغة الفرنسية عند وصولك إلى فرنسا؟

- أتحدث قليلاً.

- ما نوع العمل الذي وجده لك؟

- عملت عنده. كنت أطبخ وأنظف كما أنني كنت بمنزلة جليسة الأطفال لأليس.

- تقولين أليس؟ هل كنت المربية الخاصة بها؟

- نعم، كانت طفلة رائعة.

إنها تشعر بالحنين تجاهها. ارتسمت على شفتي كوسمينا ابتسامة رقيقة. أدركت ديان أنها تستطيع استخدام مشاعرها الطيبة تجاه أليس لجعلها تتحدث. أخرجت هاتفها الخلوي، وبحثت في ذاكرة الكاميرا عن صورة الفتاة غير المعروفة التي عُثر عليها في منطقة فانسان.

- سيدة بوبيسكو، سترين صورة؛ لكنني أخشى أن يصيبك هذا الأمر بصدمة.

حولت شاشة الهاتف نحو كوسمينا.

- ما الذي أراه يا ربي؟!

- أشارت المرأة العجوز بعلامة الصليب فجأة، ووضعت يدها على فمها لتخفي شفتيها المرتعشتين.

- إنها... إنها.

- أهي أليس؟ أليسَ كذلك؟ أعتقد أنها قُتلت أيضاً، ولهذا السبب يجب أن أقابل شارل.

مسبحة بين أصابع كوسمينا. وشرعت تعد الخرزات أثناء أداء الصلاة والتغني بترانيم أسمى التّحايا لكِ مريم، بعد مدة طويلة -ربما الوقت اللازم لأداء الصلاة- انتهى بها الأمر إلى أن تقول لديان:

- لا أعرف أين مكان شارل. لم أره منذ سنوات! لقد جاء بعد أن اختفت أليس وطلب مني الاهتمام برسائله، وقال إن شخصاً ما سيمر من وقت إلى آخر كي يأخذها.

نسيت كوسمينا فجأة الكثير من لهجتها الرومانية. قررت ديان عدم لفت نظرها لهذا الأمر خوفاً من أن تتلعثم.

من هذا الشخص؟

- رجل ما.

- هل هو نفسه؟

- نعم.

- هل يمكن أن تصفيه؟

بدأت أصابعها الضعيفة التي تتشبث بالمسبحة تتثاقل عن عدّ حبات اللؤلؤ.

قالت: ليس بالشيخ الكبير ولا بالفتي الصغير؛ لكنه ليس كبيراً في السنّ. شعره أسود ودهني.

- الأوصاف غامضة إلى حد ما. أيمكنك أن تصفيه بدقة أكثر؟

أعادت كوسمينا المسبحة إلى جيبها.

- لا. ردّت عليها بقسوة، وقالت: أعاني من ضعف في البصر. مربية أليس هي التي تُعدّ له رسائله.

تسألها ديان تحسباً لأي عارض:

- ما اسم هذا الرجل؟

- لم يقل لي اسمه؛ لكنه يقول إنه من طرف شارل.

قررت ديان تغيير أسلوبها الهجومي. لن تخبرها كوسمينا بأي شيء آخر عن الرجل الذي يرسله دوجسون. إنها متأكدة مما تقول.

- أود إلقاء نظرة على رسائل شارل؛ قد يساعدني هذا الأمر في العثور عليه. من المهم أن يعرف ما الذي أعرضه عليك. ألا تعتقدين بصحة ذلك؟

أومأت كوسمينا برأسها بالموافقة. نهضت وفتحت درج خزانة وسحبت كومة صغيرة من الرسائل والفواتير وكشوفات الحساب البنكي والأوراق المعتادة الخاصة بالمتقاعدين. كانت ديان مهتمة بشكل خاص بالتواريخ الموجودة على الأختام البريدية، ولاحظت أن الختم الأقدم يعود إلى ثلاثة أشهر مضت تقريباً.

- كم عدد مرّات مجيء هذا الرجل إليك ليأخذ الرسائل؟

أجابت كوسمينا:

- كل شهرين أو ثلاثة أشهر.

- جيد جداً. هكذا تعتقد ديان. إذاً سيعود الرجل بعد وقت قصير.

قالت ديان لكوسمينا، وهي تضع رسائل دوجسون في جيبها:

- إذا كنت لا تمانعين، فسأحتفظ بهذه الرسائل.

تحاول كوسمينا أن تعترض؛ لكن ديان لم تمنحها الوقت الكافي لذلك. وقفت وأعطتها ورقة من دفتر ملاحظاتها كتبت عليها رقم هاتفها واسمها.

عندما يأتي الشخص الذي سيستلم الرسائل، أعطيه هذه الورقة، وأخبريه أنني بحاجة إلى التحدث مع السيد دوجسون بخصوص ابنته.

## 15

ما يزال شارل دوجسون لغزاً في حد ذاته؛ هو والد أليس المختفي عن الأعين منذ ثلاث سنوات تقريباً. يستخدم صندوق البريد الخاص بالسيدة الرومانية العجوز. هناك من يأخذ رسائله كل ثلاثة أشهر، ولا أحد يعرف مكانه. بدا الأمر كأنه سلوك شخص يختبئ، وهذه الزيارة المهمة إلى منزل الطبيب القديم كانت بغرض معاينته عن قرب بشكل واضح.

يبدو منزل دوجسون كقصر جميل مكون من ثلاثة طوابق يزيّنه شريط مزخرف بطريقة هندسية، ومصنوع من الحجر الرملي المصقول يلتف حول الواجهة. يرتفع فوق جدران القصر نبات اللبلاب، والطلاء زالت قِشْرتُه، والنوافذ مغلقة! يبدو القصر كأنه مكان للإقامة الموسمية.

طرقت ديان الباب من الجهة الداخلية. لا أحد يردّ. انتظرت خمس دقائق بالتمام، ثم ذهبت ناحية الممر الصغير المؤدي إلى الكراج. وضعت آلات فتح الأقفال على الأرضية المبلّطة، وارتدت قفازات مصنوعة من مادة النتريل، وحاولت فتح قفل الباب الذي

يفتح أفقياً عن طريق الانزلاق. وبفضل الأشجار الطويلة التي تحيط بقصر دوجسون، باتت ديان في مأمن بعيدًا عن الأعين وطفقت تعمل.

لم يستغرق فتح الباب أكثر من دقيقتين. بدا القصر من الداخل مُترِب ومُظلم. أضاءت ديان مصباحها، ووجّهت شعاعه ناحية الأرض والجدران. يوجد رف طويل يشغل مساحة كبيرة مرسوم عليه كل آلة يستخدمها دوجسون. لاحظت اختفاء مجرفة وآلة قطع وفقًا للظلال ذات اللونِ الأحمر. تم تخزين بقية معدات الحديقة الخاصة به على الأرفف بشكل جيد. توجد الأسمدة الطبيعية والأعمدة الخشبية والحبيبات الطينية، وبكرات من أسلاك الحديد الدقيقة للغاية. لا شيء غير طبيعي.

كان عليها أن تستخدم الآلة لفتح باب آخر للوصول إلى الطابق الأرضي. الأثاث مغطى بملاءات بيضاء كانت رائحتها متعفنة. عثرت ديان على عداد الكهرباء، وحاولت توصيل الكهرباء إلى المكان لكن دون جدوى! هذا الوضع لم يسرّها؛ لكنها أصرّت على مواصلة البحث باستخدام ضوء مصباح معها.

محاولات التفتيش الدقيق لكل الطوابق لم يسفر عن شيء! الخزائن فارغة. أدراج الطاولات فارغة. الصناديق فارغة. كل شيء كان فارغاً أيضاً. الشيء الوحيد المملوء عبارة عن مكتبة كبيرة في الصالون ذات أبواب زجاجية، وتحتوي على روايات تم وضعها جنباً إلى جنب في صفوف؛ مثل رواية كبرياء وهوى ورواية الحالة الغريبة دكتور جيكل ومستر هايد فرانكشتاين أو رواية بروميثيوس العصر الحديث، ومعظم الكتب مكتوبة باللغة الإنجليزية، ويبدو أنها قديمة لأنها كانت أول إصدار. شيء غريب فعلاً! يُفترض أن تكون هذه السلسلة مرتفعة الثمن،

ورغم ذلك، تم إهمالها في ذلك المنزل المهجور! الكتب في هذه المكتبة مرتّبة أبجدياً.

يوجد كتاب مفقود ضمن مجموعة «مرتفعات ويذرينج» لإميلي برونتي، كما يوجد كتاب آخر مفقود ضمن مجموع تشارلز ديكنز، والتفاصيل غير مجدية بلا شك.

كانت ديان على وشك أن تترك المكان؛ لكنها تذكرت أنها لم تفتش مخزن الحبوب. سمعت صوتاً قوياً في منتصف الطابق الأول، وعندما سلّطت ضوء المصباح على أعمدة السلالم الخشبية، رأت علامات سوداء على الجدران الضاربة إلى اللون الأبيض، وعند وصولها إلى الطابق الثالث استعملت الدرَج القابل للطي، وأصبحت قادرة على الوصول إلى فتحة مخزن الحبوب؛ ما تزال تسمع الصوت مرة أخرى! أدارت مصباحها الكهربائي باتجاه الممر. سلّطت شعاع المصباح على الأطر الفولاذية التي كانت تحيط بألواح التشريح القديمة؛ لكن ينطفأ نور المصباح فجأة!

تشعر ديان بقشعريرة تدبّ في رقبتها. ضغطت بقوة على زر الإضاءة في المصباح. لا تستطيع أن تلتقط أنفاسها؛ لأن المصباح لا يضيء. أصابها خوف شديد. تبحث في جيوب معطفها عن أعمدة بطارية الشحن التي أحضرتها معها، ولأنها كانت ترتعش بشدة سقطت منها عندما أخرجتها من جيبها. انتشرت الأعمدة على الأرض، وتدحرجت في الظلام. تسمّرت في مكانها، تحاول تهدئة نفسها، واستعادة السيطرة على أنفاسها.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، شهيق..

لا ترى شيئاً. تفقد السيطرة على حواسها الأخرى. تشعر بثِقل سُترتها على جسدها الذي تبلَّل بسبب العرَق. تشمّ رائحة ألواح الأرضية المتّسخة بشمع العسل. تسمع أصواتاً مخيفة في هذا المنزل المزعج!

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، زفير..

تسمع أصواتاً على الدَّرَج مرة أخرى! أيوجد أحد هنا؟! وضعت ركبتيها على الأرض، وبدأت البحث بيديها عن أعمدة بطارية الشحن.

واحد، اثنان، شهيق..

واحد، اثنان، زفير..

تسمع صوتاً ضعيفاً. تأكدت هذه المرة من أن شخصاً ما يصعد الدرج، ويعرف كيف يسير في هذه العتمة؛ يتحرك على أطراف أصابعه دون أن يشعر بالخوف! أخيراً تعثُرُ على عمود بطارية شحن واحد. أمسكت به بيدها المرتعشة، وضغطت عليه جيداً حتى لا يسقط منها. ما تزال تسمع أصواتاً ضعيفة. أدارت عمود بطارية الشحن. تكسّرت اللمبة داخل المصباح. هزته بشدة. بدأ ينبعث منه ضوء خافت ضارب إلى اللون الأزرق. ظلّت مدة طويلة تستند على الحائط ريثما تزداد إضاءة المصباح. ترى الآن الأرضية تحت قدميها. ترى الجدران أيضاً؛ بينما ظل الدرج يشبه الثقب الأسود! نزعت كبسولة عمود بطارية الشحن الثانية ووجّهتها أمامها. انعكس الضوء المسلّط على الحائط، وأضاء المكان الذي يأتي منه الصوت.

إنها لا ترى شيئاً!

تُقسم أنها تسمع وقع أقدام، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. عاد الهدوء إلى المكان، هدوء عابر؛ لكنه يصاحب الضوء المشوب باللون الأزرق الذي يبثه عمود بطارية الشحن. أضاءت ديان عمود بطارية

شحن آخر، ولفته بطرف فتيل رفيع حول رقبتها؛ لأنها تعتقد أن له تأثيراً سحرياً! كانت تخشى سقوط العمود الذي تمسكه بيدها بسبب الرعشة التي أصابت جسدها. صعدت الدرج وسارت ببطء في مخزن الحبوب.

هذا أزرق فاتح. أصوات تُسمع فوق الأرض، وهذا أزرق بلون الحِبر. ها هي الأشكال الغامضة في أسفل الغرفة. هذا أزرق، الخوف يتملكها من الأعماق! وعلى الرغم من الألم الذي ألمّ بحلقها، أصرّت على تفتيش كل قطعة أثاث، ولمس كل حاجز، وكل لوح.

إذاً ستؤتي المثابرة ثمارها. وجدت ديان أسفل الرف المعدني آثاراً لخدوش على الأرضية الباركيه، واكتشفت أن جزءاً من الجدار كان، في واقع الأمر، باباً تم إخفاؤه بذكاء. عندما فتحت الباب الذي أصدر صوتاً ضعيفاً وجدت نفسها داخل غرفة صغيرة طولها نحو ثلاثة أمتار، وعرضها متران، مليئة بصناديق من الكرتون والحلي الرخيصة والألعاب المستعملة وملابس الأطفال. لفتت انتباهها دمية كبيرة على شكل دُب وردي. يبدو أن هذا الرجل ساذج جداً! كان لديها مثل هذه اللعبة عندما كانت طفلة، وربما تجاوز هذا الرجل العشرين عاماً. مؤكد أنه على صلة بأليس. وجدت صندوقاً أسفل منها، واكتشفت أمراً غريباً؛ عشرات الصور لأليس تم قصها بالمقص! الجروح الحادة تشوّه جزءاً من جسدها. توجد على واحدة من هذه الصور آثار ليد الرجل الذي يستعمل المقص بطريقة عنيفة. يضع خاتم زواج كبير من الذهب. أدركت ديان فجأة أن كريستيان أندرسن لا علاقة له بهذه الصور.

# الجزء الثالث

## 16

**ساحة تروكاديرو**

في مكان ما وسط جمع من الناس، يرى امرأة شقراء تمشي بسرعة؛ عمودها الفقري، كتفاها المتأرجحتان، فخذاها يتمايلان، يبدو كل شيء مألوفاً له. يأخذه الانبهار بها كل مأخذ. يتبعها داخل مترو الأنفاق. ينظر إلى رقبتها وقد تدلّت عليها خصلة ذهبية من شعرها.

يستقلّ عربة المترو نفسه الذي استقلته، باتجاه محطة ناثيون بعد محطة باسي، يخرج المترو من حدود باريس، تمرّ أمامه واجهة مبنى، شارع، نهر السين، مراكب، برج إيفل مرة أخرى. تجلس المرأة في الطرف الآخر من العربة. تدير ظهرها دائماً له.

تتوالى محطات المترو، وتنزل أخيراً في محطة دونفير روشيرو. تتوجه إلى شارع داجير. يسير خلفها كالظلّ، وهي تتنقل من متجر إلى آخر في شارع داجير، الذي يشبه حي مونمارتر، لكنه من دون تل، وبعيدًا عن التكدس، ومن دون احتفالات، ومن دون خيلاء، والباعة الجائلون في كل مكان، وروائح الجبن، وأصوات اصطدام المحار الحي بعضه ببعض، باقات الزهور، وعلب الفواكه والخضراوات الموسمية، طاولات خشبية مثبّت عليها ألواح مكتوب عليها بالطباشير، أسعار العروض اليومية؛ لا حاجة إلى الالتزام بقواعد اللغة الفرنسية؛ متجر بائع الأكورديون الذي تم افتتاحه عام 1944.

ما يزال أندرسن لا يستطيع رؤية وجهها. كان بإمكانه اللحاق بها بسهولة، والتحقّق مما إذا كانت هي أليس أو لا؛ لكنه يفضل الابتعاد عنها مسافة عشرة أمتار، فهو لا يرغب في إفساد جمال هذه اللحظة عندما بدا له أن كل شيء يمكن أن يحدث.

تحمل حقيبة تسوّق في يدها. يتبلور سيناريو محتمل في عقلها. تنتهي من التجوال داخل المتاجر الكبيرة كمتجر جاليري لافاييت أو متجر برنتو. في قسم مستحضرات التجميل تشمّ رائحة العطر الذي وجدته في خزانة الأدوية يوماً ما، والذي أهملته مثلما كانت تتجاهل بطاقة الدعوة.

تسير في اتجاه مبنى المحافظة في الدائرة الرابعة عشرة. ما يزال يتابعها من مسافة ثلاثمئة متر، وفجأة استدارت، ورأى وجهها! فظة، مبتذلة، تضع «ماكياجاً» زائداً على الحد. ترمقه بعيونها الجاحظة. توقفت وتظاهرت بالبحث عن شيء داخل مكتبة لبيع الكتب القديمة. يشعر أندرسن بالخجل. أدركت السيدة أنه يتعقبها. بدأ القلق يساوره ويساورها، ما الذي اكتشفته؟! أتظن أن به مساً من الجن؟! أتعتقد أنه غير طبيعي؟! أراد الهروب بأسرع ما يمكن؛ لكن الهروب يعني الجبن، كتم أنفاسه ثواني طويلة قبل محاولة اقتفاء أثرها مرة أخرى.

لكنها اختفت، لا يعرف ما الذي أصابه؛ أهي مشاعر الحزن أم الفرح؟! يبحث الآن عن محطة سيارات الأجرة.

# 17

بعد نحو نصف ساعة، كان أندرسن يجلس في كافيتريا صغيرة داخل المحكمة؛ عبارة عن غرفة على شكل قوس مجاورة للدَّرَج الحجري الكبير المؤدي إلى ساحة المحكمة. الكافيتريا بعيدة عن القضبان الذهبية التي تقف عندها العربات التي تنقل المحكوم عليهم بالإعدام أثناء الثورة. كانت في ذلك الوقت بمنزلة السجن. قبعت داخلها ملكة فرنسا ماري أنطوانيت قبل أن يتم نقلها إلى ساحة الكونكورد ليتم قطع رقبتها. ما يزال الدَّرَج الحجري الصغير، الذي نزلت عليه ماري أنطوانيت للذهاب إلى ساحة المحكمة، موجوداً حتى الآن!

يوجد هنا الكثير من المحامين والكتبة والقضاة والصحفيين المتخصصين في التحقيقات الجنائيّة. يوجد أيضاً في كل الأيام أشخاص آخرون مثل المتحولين جنسيًا أو النامصين أو خفيفي اللحى الذين أتوا لمواساة صديقاتهم اللائي ألقي القبض عليهن بغابةِ بولونيا، تتجمّع هنا أيضاً عائلات السائحين الأمريكيين والصينيين والروس بعد عودتهم من زيارة كنسية تقع في منطقة سان شابيل.

هنا يتم استدعاء الفتيات الأفريقيات اللاتي يمارسنَ البغاء لمتابعة محاكمة سيدة نيجيرية تدعى ماما بسبب تكسّبها من هذا العمل، وبشكل استثنائي تتجمع في هذا المكان أعضاء مؤسسة ديبو يحتسينَ الشاي بالليمون؛ علماً بأن هناك جمعيات دينية بسيطة أخرى تعمل منذ سنوات على توفير مكان لاستقبال هؤلاء النسوة واستكمال الأوراق الإدارية لهنّ.

يمحّص أندرسن النظر في هذا العالَم الصغير بينما يضع هاتفه على أذنه؛ درجة صوت سماعة هاتفه عالية جداً، ورغم ذلك هو بالكاد يسمع صوت موريس المتقطع؛ هناك شخص يجلس بجانبه، صحفي يعمل في الإذاعة، يعيد الاستماع إلى مقابلته التي أجراها على جهاز تسجيل خارجي من نوع نجرا دون أن يخفض مستوى الصوت!

يطلب من المحقق الخاص مرة أخرى وهو يحدق النظر في الصحفي:

- تستطيع معاودة الاستماع. كنت أقول إنني لم أتلق نتائج فحص الحمض النووي الخاص بالكوب الذي حصلت عليهِ من ناتاشا؛ لكن بالنسبة إلى بصمات الأصابع جاءت سلبية.

تنهّد أندرسن... لم يتمكن مالك البيت، الذي تقيم فيه ناتاشا، من تزويدهم بلقب المرأة الشابة؛ فهو لا يطلب بطاقة الهوية من المستأجرين، ولا حتى بيان بمفردات بالراتب أو شهادة تأمين؛ فمعظم الناس الذين يؤجر لهم كانوا مهاجرين غير شرعيين، وكل ما يريده منهم هو دفع الإيجار نقداً في اليوم الأول من الشهر، أو على الأقل في اليوم الخامس، وإلا يقوم بطردهم.

- هذا لا يعني بالضرورة أن ناتاشا ليست أليس. أتفهم يا كريستيان؟! كان بإمكان أيّ شخص لمس هذا الكوب!

- نعم، نعم، أعلم (يبدو على أندرسن أنه غاضب). وبالنسبة إلى الغراب، هل اكتشفت أي شيء عنه؟ يطلب من موريس الاستقصاء عن ماهية البريد الإلكتروني والرسائل مجهولة المصدر.

يرد موريس:

- اتصلت بآخر مالك رسمي للهاتف. لا أعتقد أنه عميلنا. يبلغ من العمر خمسة وسبعين عاماً، ويدعي أنه تخلص من هاتفه لأنه معقد

للغاية، وباعه لفتاة ذات بشرة سمراء لا تتحدث جيداً اللغة الفرنسية، كما أنه لا يستطيع أن يتذكر اسمها. كانت تدفع الإيجار نقداً، وأضاف بلهجة إنجليزية سيئة للغاية أنه يعتقد أن الغراب يستخدم تطبيق بيرنر للهواتف الذكية.

يعرف أندرسن أنه يمكن تتبّع كل من جهاز التليفون والشريحة الموجودة داخله، ولهذا تم القبض على الكثير من عملائه من التجار نتيجة عملية التتبع هذه. أما بالنسبة إلى النجاح الكبير الذي تتحقق، فإن معظم هؤلاء العملاء يستخدمون حالياً هذا التطبيق مع أجهزة التليفون المؤقتة ذات الاستخدام الواحد؛ حيث إنهم يشترونها مستعملة، ويدفعون ثمنها نقداً، ولديهم شريحة مدفوعة مسبقاً.

يقول موريس:

- أيمكن غلق الهاتف؟

تُرسل الهواتف المحمولة إشارات تلتقطها هوائيات عديدة تُساعد على تحديد موقع الهاتف عن طريق التتبع الثلاثي.

أضاف المحقق الخاص:

- تذكرتُ زميلاً سابقاً سيقدم لنا هذه الخدمة بسعر مناسب.

النقود دائماً النقود...! يعتقد أندرسن أن عليه أن يعمل حتى الليل من أجل توفير النقود.

بالرغم مما سبق، يطلب أندرسن من موريس أن يغلق الهاتف. يقبل الأخير؛ لكنّه يقول إن هذا المهرج التافه بذل قصارى جهده حتى لا نعثر عليه. ماذا لو لم يكن الأمر يتعلق بمريض نفسي؟! إن هذا الرجل لديه أسبابه المنطقية لإيذاء الآخرين؟ إنه عميل سابق يترافع كثيراً أمام قاضي الأمور المستعجلة، ويدافع عن المجرمين؛ فالغراب،

وفقاً للتعريف الجنائي، يعني استخدام اسم مستعار رمزاً لأولئك الذين يرسلون رسائل مجهولة تهدف إلى إيذاء الآخرين، وتكون على شكل تهديدات وشتائم وإدلاء بمعلومات عارية من الصحة! إن الأدبيات القضائية مليئة بما يمكن أن نطلق عليه في اللغة المتخصصة: مؤلف خطاب مجهولاً، كيف يبدو الغراب...هل كان كاتب الرسالة يتحدى ويعلم استحالة العثور عليه؟

ينزعج أندرسن ويضرب بملعقة بلاستيكية قطعة الليمون الطافية في كوب فيه ماء نقي.

يعلق أحدهم بصوت حاد جداً:

- يبدو أنك مستاء يا سيد أندرسن!

يرفع أندرسن رأسه، وينظر إلى الرجل الذي يقف أمامه بلا حركة؛ يتعكر مزاجه أكثر فأكثر...

- السيد لولوار المدعي العام! (يرد عليه دون أي حماسة). من النادر أن أراك هنا!

لم يشاهد أندرسن لولوار في هذه الكافيتريا إلا مرتين أو ثلاث مرات فقط؛ فالمدعي العام يفضل تناول الغداء في مطعم على الجانب الآخر من شارع المحكمة، كما أنه عندما يريد أن يحتفل بمناسبة ما مع مجموعة من زملائه، فإنه يفعل ذلك في حانة فخمة بعيدة عن جزيرة المدينة.

يرد لولوار وهو يبتسم:

- صحيح أنني لا آتي كثيراً إلى هنا؛ فأنا لا أحترم الموجودين في هذا المكان، لكنني أعتقد أن رأيي هذا لن يزعجك على الرغم من أنك تصاحب المجرمين؟

يبتسم لولوار من عميق قلبه. يذهب ليطلب قهوة و«ساندويتشاً» من منفذ البيع المجاور. يأخذ المدعي وقتاً كافياً ليدفع الحساب. يتحدث قليلاً مع النادل، ويسأله عن سير الأعمال. يشتكي النادل من تقلب الأحوال إلا أنه يبدو بشوشاً وهادئاً على عكس طبيعته في العادة.

يشعر أندرسن باضطراب قوي في شخصيته؛ ما الذي سيحدث لو كان هو نفسه هذا الغراب؟! تتحول نظرات لولوار بانتظام من ساعته إلى النوافذ التي تطل على المحكمة التي توجد في مواجهة الكافيتريا.

يستبشر المدعي العام خيراً عندما يدخل إلى الكافيتريا رجل له أكتاف مربعة وكرش ضخم. يذهب الرجل ناحية أندرسن:

- هل أنت كريستيان أندرسن؟

يصوّب له الخطأ:

- أنا المحامي أندرسن.

- أنا مأمور الشرطة جيريكو. أود أن أتحدث إليكم.

ينحني جيريكو تجاهه حتى لا يسمعه العملاء الآخرون.

- أودُّ لو أعلم لما تم رفع بصماتك من إحدى مسارح الجريمة التي أشرف على حل القضايا المتعلقة بها ؟!

# 18

لا بد من الدخول في صلب الموضوع مباشرة مع مأمور الشرطة جيريكو، وبمجرد أن جلسا في مكتبه حتى بادره بمجموعة أسئلة مباشرة:

- ماذا تفعل بصمات أصابعك في غرفة في مبنى في حي مونتروي مؤجّرة لمهاجرين غير شرعيين؟!

أدرك أندرسن بسهولة أنه يتحدث عن شقة ناتاشا. من الغباء عدم ارتدائه القفازات؛ لكنه لم يستطع أن يرد رداً مقنعاً لهول المفاجأة!

- أنا محام يا سعادة المأمور. لست مضطراً إلى تبرير أسباب زيارتي إلى الأماكن الّتي أذهب إليها لمقابلة عملائي!

يتظاهر أندرسن بشعوره بالإهانة؛ لكنه كان يدافع عن نفسه، ويتساءل لماذا يهتم مأمور الشرطة شخصياً بمقابلته بدلاً من تكليف أحد مرؤوسيه بالمهمة؟!

هل كان يتصرف بناء على أوامر من المدعي العام؟!

يسأله جيريكو:

- هل ناتاشا تشيرفونا من عملائك؟

- إذاً، تشيرفونا هو اسم عائلة أليس رقم 22.

- ما الذي تأخذه عليها؟

- لا شيء بالنسبة إليها؛ لكنني أقصد القاتل، وطريقة الاغتيال والاعتداء والتعذيب والأعمال الوحشية الأخرى.

تبدو عليه علامات الاندهاش..!

- هي...هل ماتت؟

- اكتشف رجالي جثتها في منطقة فانسان منذ عدة أيام؛ لذلك أسألك للمرة الثانية: ماذا تفعل بصمات أصابعك في منزلها؟! لا تتذاكى عليَّ. لم تكن الآنسة ناتاشا تشيرفونا من بين عملائك. إنها تشبه زوجتك تماماً.

على الرغم من أن أندرسن يشعر بعدم الارتياح، يحاول توضيح موقفه بشكل أفضل.

- ما زلت أبحث عن زوجتي منذ ثلاث سنوات، وعدت بإعطاء مبلغ كبير من المال للشخص الذي يجعلني أعرف مكانها؛ لذلك أتسلّم رسائل بانتظام، وعندما يبدو أحد المسارات مثيراً للاهتمام أتحرك من تلقاء نفسي. هذا ما حدث بالنسبة إلى هذه الفتاة... ما الذي يجعلك تقول ذلك؟!

- تشيرفونا، ناتاشا تشيرفونا. يقطّب جريكو جبينه وهو يكرّر الاسم. إذاً، إذا كنت أفهم بشكل صحيح، فقد ذهبتَ إلى منزلها لأنك اعتقدتَ أنها زوجتك؛ يمكنني أن أتفهم ذلك. من ناحية أخرى، ما يقلقني هو أن بعض زملائها في المنزل أخبرونا أنك بقيت في غرفتها من عشر إلى خمس عشرة دقيقة، هل يمكن أن تشرح لي ماذا كنت تفعل كل هذا الوقت؟!

يحدّق أندرسن النظر في أكوام الملفات على مكتب جيريكو، وهو يفكّر في رد مناسب، تم وضع مشبك بين هذه الملفات؛ الأمر الذي يوحي بأنه تمت إعادة فتحها عدة مرات وقراءتها وتصفحها على أمل العثور على معلومات أساسية من شأنها أن تغيّر مجريات التحقيق.

يؤكد أندرسن له:

- لن أكذب عليك. كنت أبحث عن أدلة تثبت أن المرأة التي تعيش هناك هي أليس؛ لكنني أدركت بسرعة أنني أسير في الاتجاه الخطأ؛ لهذا غادرت المكان. لم أعد إلى تلك الشقة أبداً؛ وخاصة أنني لم أتقابل مع السيدة تشيرفونا.

- هل أخذت أي شيء من هناك؟

يفكر أندرسن في الكوب الذي أخذ موريس من عليه بصمات أصابعه.

- لا، أتعتقد حقاً أنني كنت أريد قتل تلك المرأة؟!

يحل مأمور الشرطة ربطة العنق. يبدو أنه منزعج من بدلته الضيقة المصنوعة من خام الفلانيل؛ قماش البذلة على وشك أن يتمزق في كل مرة يحرك فيها كتفيه الكبيريتين بينما كرشه الضخم يدفع أزرار القميص إلى الأمام. يلاحظ أندرسن في الجزء العلوي من الرف كأساً معدنيةً مصنوعةً من النحاس كتذكار للفوز يرمز الى اثنين من لاعبي الجودو؛ اللاعب الأول طرح الثاني أرضاً. يعتقد أندرسن أن جيريكو كان يصارع ضمن فئة الوزن الثقيل!

يقول المأمور:

- في الوقت الحالي، كلّ ما ألومك عليه هو التعدي على ممتلكات الغير. إننا نعتقد أن القاتل هو محرك الدمى.

- أيعقل هذا؟! لا أظنه هذا الرجل المريض!

الحبال والخنق والاعتداء.. تتبادر إلى ذهني عبارات مخيفة قرأتها في مقال نُشر في مجلة المخبر الفرنسي، وقرأت بعضاً منها من أجل الحصول على معلومات بخصوص جرائم قتل يُشتبه في أن مرتكبها

هو محرك الدمى؛ لهذا بدأت فرقة مكافحة الجرائم ضد الأشخاص في التحقيق في الواقعة.

وعندما أخرج جيريكو صورة ناتاشا تشيرفونا، اعتقد أندرسن للوهلة الأولى أنها أليس.

يعلق جيريكو:

- الشبه كبير جداً. يبدو أنك مندهش!

أومأ أندرسن برأسه. أضاف جيريكو قوله:

- لهذا ستدرك لماذا يفكر رجالي بهذا الشكل.

يبدو أن مأمور الشرطة يتردّد في اختياره الكلمات:

- لماذا يفترضون أن تكون زوجتك؟! أقصد، ربما هم يعتقدون أن تكون واحدة من هؤلاء الضحايا أيضاً.

يضع أندرسن يده على رأسه. لا يستطع إخفاء الصدمة الطفيفة التي أصابته، ولا تجاهل نظرات جيريكو الباردة.

- يا سيد أندرسن، سوف نعيد فحص جميع ملفات الجثث المجهولة الهوية، التي تم العثور عليها في الإقليم في السنوات الأخيرة لمعرفة ما إذا كان هناك تطابق مع ملف زوجتك.

- لا لا لا لا، (صداع شديد أصاب رأس أندرسن). لا يمكن أن تكون قد ماتت. إنها مصادفة بكل تأكيد.

يعاود جيريكو قوله:

- المشكلة هي أننا لا نجري، بشكل منهجي، اختبارات الحمض النووي على الجثث مجهولة الهوية كما تعلم، وما تزال هناك جثث كثيرة غير معروفة!

كل عام في بلادنا يتم دفن عدة آلاف من الأشخاص مجهولي الهوية. وهذا يعني أننا لم نتمكن من تحديد هويتهم. في باريس، يتم دفنهم في مربع مخصص للفقراء في مقبرة ثيايس في ضواحي العاصمة؛ طالما رفض أندرسن أن يتخيل- ولو للحظة -أن أليس يمكن أن تُدفن أسفل البلاط الخرساني في هذه المقبرة الجماعية المقيتة!

يتابع جيريكو كلامه:

- من أجل تيسير المهمة، أودّ أن أعرف ما إذا كانت هناك عوامل تسمح لنا بالتعرف على زوجتك، وأنك نسيت ذكرها قبل ثلاث سنوات.

يبتسم أندرسن ابتسامة حزينة. يعتقد أنه كان من الأولى طرح هذا السؤال على كريستيان قبل وقوع الحادث، وأضاف:

- لقد قمت بالفعل بإعطاء قائمة بالملابس التي كانت ترتديها يوم اختفائها، ولا أدرى ما الذي يمكنني قوله أكثر من ذلك؟!

- هل كان معها خاتم الزواج، على سبيل المثال؟

يحرك أندرسن خاتم الزواج الخاص به حول إصبعه.

- هذا مؤكد. لماذا خلعته من أصبعها إذاً؟!

يرد جيريكو:

- لا أدري، أيها المحامي؛ لكنك لم تعلق على هذا الخاتم في تصريحاتك قبل ثلاث سنوات.

- مجرد سهو مني.

بدا واضحاً أن لديها خاتم زواج؛ لكنه لم يفكر في الأمر في ذلك الوقت.

- هل لهذا الخاتم علامة مميزة؟ (ما يزال يُلح جيريكو في السؤال). موعد حفل زفافكما، على سبيل المثال، معظم الناس ينقشون التاريخ عليه.

يخلع أندرسن خاتم زواجه ويتفحصه؛ على الرغم من أنه يحفظ الكلمات الموجودة في الداخل عن ظهر قلب.

توجد هذه العبارة: إذا كان العالم ليس له معنى نهائياً.

- لكن توجد كلمات أخرى على خاتم زواج أليس؛ نهاية الجملة، عندما نجمع نصي الخاتمين يمكن أن نستكمل المعنى: إذا كان العالم ليس له معنى نهائياً فمن الذي يمنعنا من اختراع عالم آخر؟!

يطلب أندرسن من جيريكو تدوين هذه الملاحظة.

- ومن هذه المرأة التي تسمى ناتاشا؟

يرد جيريكو دون أن ينظر إليه:

- امرأة أوكرانية وصلت إلى فرنسا قبل بضعة أشهر؛ لا نعرف عنها سوى القليل باستثناء أنها كانت تعمل خادماً بشكل غير رسمي في الدائرة السادسة عشرة.

يعتقد أندرسن أن مكان عملها لا يبعد كثيراً عن ساحة تروكاديرو. يفتح دُرج مكتبه ويأخذ منه مجموعة عينات الحمض النووي.

- لن أسبب لك ازعاجاً بعد الآن أيها المحامي؛ بمجرد أن أسحب عينة من لعابك سأطلق سراحك.

ينظر أندرسن إلى اختبار الحمض النووي. بدا عليه الاندهاش كأنه ينظر إلى ثعبان حي!

- وإذا لم أقبل عرضك؟!

لن يضعه جيريكو قيد الحجز الاحتياطي، لهذا يمكنه رفض سحب العينة. هنا يبتسم مأمور الشرطة ابتسامة تدل على أنه يقبل رفض أندرسن سحب العينة.

- انظر إلى الأمر من قبيل التعاون المشترك أيها المحامي. اعفني من هذه الإجراءات المملة، وفي المقابل سوف أتجاهل تُهم التعدي على ممتلكات الغير.

يمدّ جيريكو ذراعه إلى الأمام قليلاً، وعلى مضض يأخذ أندرسن قطعة القطن التي يمسكها

مأمور الشرطة، ويضعها تحت لسانه لأخذ عينة من لعابه. يضع جيريكو اختبار الحمض النووي في مظروف خاص، ويكتب اسمه، والغرض من أخذ العينة، ثم يطلب منه التوقيع على وثيقة تفيد أنه خضع لاختبار الحمض النووي الخاص به بمحض إرادته.

يشكره جيريكو، ثم يخبره أن مساعديه سيعلمونه بموعد جلسة الاستماع خلال الأيام القادمة: لدينا أسئلة كثيرة سنطرحها عليك. أعلم أن لديك مرافعة اليوم، ولا أريد أن أربك جدول المحكمة؛ يجب أن تحقق العدالة، أليس كذلك؟

## 19

نحو أربعمئة جرام من الدقيق؛ ثلاث رشات ملح؛ خمس وسبعون جراماً من السكر؛ ست بيضات؛ ما يقرب من مئة جرام من الزبدة المذابة؛ لتر من الحليب، وبطبيعة الحال ثلاث ملاعق كبيرة من مشروب الروم؛ لم ينسَ أيّ شيء من مكونات وصفة الطبخ. إذاً، لماذا تفسد الفطائر؟!

ربما هي تحترق في القاع. ربما وسط الفطائر غير مطهي جيداً، وبالتالي أصبح الطعم مثل الورق المقوى الناعم!

ألقى بيرجر المقلاة في الحوض وهو غاضب. كان عليه أن يأخذ كلوي من عند مربية الأطفال في غضون ساعة ونصف الساعة، وكان من الضروري أن يكوي بعض الملابس خلال هذه الفترة. لا وقت لديه لعمل الفطائر مرة أخرى. هذه الليلة سيأكلان البيتزا للمرة الثانية. هذا الأمر سيئ للغاية! سيشتريها في طريق عودتهما إلى المنزل.

يرن الهاتف. إنها كيليرمان، وقبل أن يتمكن من قول أيّ شيء بدأت حديثها للمرة الثانية عن قصة والد أليس أندرسن.

- لم أتمكن من العثور على دوجسون. ذهبت إلى العنوان الذي أعطيتني إياه؛ لكنه لم يكن موجوداً هناك.

- وماذا بعد؟! هذا الأمر لا يعنيني!

- أريد منك تقديم طلب لمراقبة حساباته البنكية أو هاتفه من أجل تحديد مكانه.

يأخذ بيرجر نفساً عميقاً ليهدئ من نفسه، ثم يقول: اليوم هو يوم الثلاثاء. تمكنت بالفعل من التحقيق في اختفاء ثلاث حالات منذ ليلة أمس، أما غداً مثل كلّ يوم أربعاء، فستذهب كلوي إلى المسبح؛ غير أن مربية الأطفال الخاصة بها لن تستطيع اصطحابها إلى هناك. يجب عليها أن تطلب من زميل لها أن يحل محلها مدة ساعة لرعايتها، وأمّ إحدى صديقاتها ستأخذها من هناك لحضور حفلة عيد ميلاد، ولكن لمّا كان قد نسي أن يأخذ هدية بهذه المناسبة، فعليه شراء واحدة أثناء استراحة الغداء، ومن الضروري أيضاً أن يأخذ في اعتباره غسل الملابس بالبخار وتعبئة الثلاجة بالمواد الغذائية.

قال لها:

- سأهتم بطلبك يوم الخميس أو الجمعة.

- لا، (ألحّت عليه قائلة)، أريد هذه المعلومات غداً على أكثر تقدير.

- ستحصلين عليها في نهاية الأسبوع. لا جديد عندي أضيفه.

- لكن هناك قاتل!

أغلق الهاتف قبل أن تنهي كلامها.

- كل يوم يوجد قاتل، ولكن توجد حياة بجانب هذا الأمر.

أخيراً تمكن بيرجر من كيّ نصف حزمة القمصان، وما إن رنّ جرس الباب، حتى ذهب ليفتحه، وهو غاضب خوفاً من أن يكون الطارق كيليرمان؛ حتماً سيواجه موقفاً محرجاً.

- إنه ثيو؟ يندهش بيرجر وهو يراه واقفاً على إحدى درجات السلم!

يصافحه ثيودور جيريكو. ها هو بمعطفه البيج الواقي من المطر، وبدلته وحذائه اللامع، وكرشه الكبير، لم يعد يشبه ذلك الشرطي الشاب الذي كان يمزح كثيراً، ويرتدي سروالاً من الجينز الممزق، وسترة جلدية سوداء تساعده على إخفاء أسلحته عندما كان يعمل ضمن فريق البحث والتدخل.

- مساء الخير يا إريك. مضى وقت طويل لم نتقابل فيه.

يدخل جيريكو. كان على بيرجر أن يتكئ على الحائط للسماح له بالمرور. لقد أغلقا الممر طولاً وعرضاً بسبب حجمهما الكبير..

- ما الذي حدث؟ ينظر إلى بيرجر، ويقول: خمس سنوات لم نلتقِ خلالها؟!

- أعتقد أنها ست سنوات.

جلسا أمام الطاولة في الصالون.

- ماذا تريد أن تشرب؟

- شكراً. لن أبقى هنا طويلاً. جئت لأحدثك عن تحقيق تحقق فيه أنت. هل تتذكر أليس أندرسن؟

يفكر بيرجر في ديان كيليرمان وكتم ابتسامته.

- أتذكر القليل عنها. ما الذي حدث؟

- أعتقد أنها ماتت.

قطّب بيرجر جبينه.

- ما الذي يجعلك تقول هذا؟!

- جملة لويس كارول: إذا كان العالم ليس له معنى نهائياً فمن الذي يمنعنا من اختراع عالم آخر؟

أخرج جيريكو من معطفه صورة خاتم ذهبي.

- إن جملة لويس كارول منقوشة على خواتم زفاف العروسين؛ نصف الجملة الأول على خاتم كريستيان والنصف الثاني على خاتم العروس، الخاتم الذي تراه تم العثور عليه منذ عام في غابة نوتردام أثناء أعمال الحفر الخاصة بإنشاء طريق جديد.

- تقول غابة نوتردام التي دُفنت فيها ضحايا محرك الدمى؟

- نعم، هو أحد المشتبه فيهم المحتملين في ذلك الوقت.

يحدق بيرجر النظر في صورة خاتم الزواج.

- يسأله بيرجر:

- أين وجدت هذا الخاتم؟

- تقريباً عند منتصف القفص الصدري.

ينظر بيرجر باستغراب!

- غير معقول...! هل ماتت حقاً. ما العمل إذاً؟!

يفرك جيريكو رقبته وهو غاضب.

- أعتقد ذلك؛ لكن هناك مشكلة.

الحمض النووي الذي سحبناه من العظام لا يتطابق مع الحمض النووي الذي وضعته في الملف منذ ثلاث سنوات.

يشعر بيرجر بقشعريرة في جسده!

- هل أفهم أنك جئت إلى هنا لتتهمني بأنني أسأت التّصرّف؟

يستخدم جيريكو لهجته الدبلوماسية؛ هي اللهجة نفسها التي كان يستخدمها خلال عمله في فرقة مكافحة الجرائم ضد الأشخاص لإقناع المشتبه فيهم المحصنين داخل أحد البنوك بالاستسلام.

- لا تفهم الأمر على هذا النحو يا إريك. أنا فقط أحاول طرح كل الافتراضات. لقد أعدت إجراء الاختبارات بالفعل للمرة الثانية للتحقق من أن المشكلة غير نابعة من المختبر.

يسند بيرجر ذو الوزن الثقيل ظهره بارتياح تام على الكرسي، فيصدر للكرسي صوت مسموع.

- لم يرتكب فريقي أخطاء أثناء سحب العينات.

- كيف يتم اختيار العينات؟

- تم أخذ عينة الحمض النووي من بعض الأغراض التي قدمتها لنا عائلة أليس؛ فرشاة أسنان وبعض الملابس، إذا لم تكن تخنّي الذاكرة.

- ماذا تقصد بكلمة عائلة؛ أتقصد الأب أم الزوج؟

- أقصد الزوج كريستيان أندرسن.

- أَأنت من اخترت العينات أم هو؟

- هو الذي كان يعارض المدعي العام بخصوص هذا الإجراء.
- لماذا؟!
- كان أندرسن يريد منا ألا نأخذ سوى الملابس التي لم تكن زوجته تستعملها؛ إلا أن لولوار أصرّ على أنه يمكننا أخذ الملابس التي ارتدتها في الفترة الأخيرة.
- ما السبب؟!
- كان يعانده بكل تأكيد؛ لكن لولوار لا يستطيع التحكّم في أندرسن.
- وماذا عن الأب؟ ألم تسحب الحمض النووي الخاص به؟
- لم يقبل؛ لكن من الناحية القانونية يمكنه ذلك.
- ما العذر الذي قدمه لك؟
- لم يكن يرغب في أن يذكر اسمه في ملف الشرطة؛ إنه ذلك النوع من الأشخاص الذي ينضم إلى منظمات من نوعيَّة (أطباء بلا حدود) كما أنه من مُناهضي العولمة وكل ما يتعلق بذلك من هُراء.
ظل جيريكو صامتاً فترةً طويلة، محاولاً تحليل المعلومات.
يسأله بيرجر:
- هل تعتقد أن أندرسن قتل زوجته؟
- لا، أعتقد أن القاتل هو محرك الدمى، وكل الدلائل تتطابق مع هذا الرأي؛ مكان العثور على الجثة، صورة الضحية، العامل الزمني... وقبل أن تسأل هذا السؤال، لقد قدم أندرسن مرافعات قوية لجميع جرائم القتل الأخرى التي ارتكبها محرك الدمى.
- ما كانت حُجة غيابِه لدحض ضلوعه في مقتل زوجته؟
يحدق زميله القديم النظر إليه بعين تملؤها الريبة.

- هل تعرف ضابطة شرطة سابقة تُدعى ديان كيليرمان؟

يتظاهر بيرجر بأنه يفكر في الأمر.

- لا، لماذا؟

- لا شيء؛ لكن إذا اتصلت بك هذه المرأة، فاتصل بي، هذا كلّ ما في الأمر. تبدو لي هذه الفرضية غريبة جداً، أنت نفسك أثبت منذ ثلاث سنوات أن أندرسن بريء.

- ليس صحيحاً على الإطلاق! قلنا إن من المحتمل، إلى حدّ ما، أن يكون هو القاتل بالنظر إلى تحرّكاته يوم اختفاء زوجته؛ لكنه يستطيع قتلها إذا خطط بشكل جيد.

لا يبدو على جيريكو أنه متحمس لهذه الفكرة.

- لن تستطيع إقناعي بأنه قتل زوجته؛ إنه يبحث عنها منذ ثلاث سنوات بكل هِمّة من أجل العثور عليها. على أي حال، أنا محتاج إلى فحص الحمض النووي لوالدها للتّحقق من أنّ الجثة هي لأليس أندرسن. المشكلة هي أنني لا أستطيع معرفة مكان وجوده، كنت أعتقد أنه ربما أعطاك عنواناً أو رقماً لتتصل به؛ ليكون على اطلاع على سير التحقيق.

- لا، مع الأسف، لا أعرف أين مكانه. يحك جيريكو رأسه، ويبدو أنه في غاية الضيق. يقف بيرجر.

- أعتذر إليك يا ثيو. يجب أن أذهب لإحضار ابنتي.

رد عليه جيريكو:

- لقد انتهيت. ثم نهض عن كرسيه.

قبل دخول الممر الضيق جداً لكي يمرا منه كلاهما، توقّف جيريكو ونظر إلى بيرجر بشكل مباشر في عينه.

- إذا علمنا أن هذه الجثة هي لأليس أندرسن فسيتم نزع صلاحيات فريقك من هذه القضية. هل تفهم؟ آمل ذلك.

- مؤكد، وأنت، هل تفهم أن بإمكاني أن أعترض على نزعك صلاحياتي من هذه القضية التي أعمل عليها منذ ثلاث سنوات؟

- أنا لا أرغب في إشعال فتيل الحرب بين ضباط الشرطة يا إريك؛ إذا تم حل هذه القصة بسرعة، فإن تداعيات القضية ستكون إيجابية للجميع.

- إن القاء القبض على محرك الدمى من صميم وظيفتك المهنية. أليس كذلك؟

يحرك جيريكو كتفيه دليلاً على أن الأمر لا يحتاج تنبيهاً منه.

- نعم، وماذا بعد؟ إذا استطعت توقيفه، فالمؤكد عندئذٍ حصولي على وظيفة رئيس فرقة مكافحة الجريمة، وبالتالي يمكنني إعادتك إلى الوحدة المركزية. كلانا سيربح، أليس كذلك؟ ألا تفتقد رجوعك إلى مقر الفرقة 36؟

نعم. لكن بيرجر ظل صامتاً! منذ ولادة كلوي لم يعد يعمل كما يجب أن يكون. ترك فرقة مكافحة العصابات بأعمالها القذرة؛ فالمجهود العصبي الذي يبذله أثناء اقتفاء أثر سيارات اللصوص المسلحين والدقائق الطويلة التي تمر قبل أن يتوقفوا أمام البنك والتدخل في نهاية المطاف، وما يتبع ذلك من استنفاد كل مجهود وطاقة، لم يعش منذ سنوات طويلة مثل هذه الأوقات! لم يستوحش العمل في الشرطة، ولا رائحة الخراطيش الفارغة؛ لكن عندما تكون أبًا غير متزوج؛ فأنت لا تعيش فقط لنفسك أنت، لذا اختار العمل ضمن فرقة شرطية آمنة لا يخشى فيها أن يتعرض لرصاصة طائشة.

ينظر جيريكو، وهو مستاء، إلى الخزانة الزجاجية التي يحتفظ فيها بيرجر بالجوائز التي حصل عليها خلال مسابقات الرماية الرياضية القديمة.

- أنا لا أفهم سبب تركك فرقة مكافحة الجرائم ضد الأشخاص! إن بقاءك فيها يجعلك ترتقي إلى درجة مأمور الشرطة، وربما يوماً ما تصبح رئيس هذه الفرقة.

- وربما ستكون ابنتي غريبة عني، أو الأسوأ من ذلك أنها ستصبح يتيمة.

يتنهد جيريكو..

- اسمع يا إريك. لا تحشر رأسك في هذه القصة، بطريقة أو بأخرى، سأستعيد هذه القضية حتى لو اضْطُرِرْت إلى أن أسير فوق الجثث. لا تقف في طريقي.

يغادر جيريكو الشقة. يسكب بيرجر لنفسه كأساً من النبيذ، ويأخذ الوقت الكافي لاحتسائها. يحرك السائل في الكأس ببطء بين كل رشفة وأخرى. جيريكو، كيليرمان، أندرسن، كلوي، ماذا سيفعل؟ يتردد مدة عشر دقائق كاملة قبل أن يمسك هاتفه ويعيد الاتصال بكيليرمان.

- أنا الرائد بيرجر.

تشتكي ديان كيليرمان وتقول: أحاول الاتصال بك منذ خمس عشرة دقيقة. كنا نتحدث معاً في الهاتف، ثم توقف الاتصال قبل أن...

لم يمنحها الوقت الكافي لتنتهي من كلامها.

- أنا أبحث عن الرجل الذي يتسلّم رسائل دوجسون. تفضلي بزيارتي غداً بعد العشاء.

يحل الظلام. تعبر ديان شارعاً ضيقاً يؤدي إلى شقة بيرجر، وفي اليوم الذي يليه، أصبح الشارع مضاء بمصابيح الشوارع القديمة التي تُصدر صوتاً مزعجاً يوحي بأن الضغط الكهربائي سيفجّر المصباح فجأة، ولأن ديان تشعر بالتوتّر، أسرعت الخطى. تحمل مصباحاً يعمل ببطارية في يدها، وتحاول سحب مفتاح الإضاءة في كل مرة تمشي فيها عبر المناطق المظلمة الكبيرة بين أعمدة الإنارة.

أخيراً، تصل إلى بهو المبنى الذي يقيم فيه بيرجر؛ يسكن في الطابق الثاني في شقة دوبلكس. الشقة من الداخل تتطابق، إلى حد كبير، مع تصورها لها؛ صور لامرأة آسيوية موضوعة في إطار، أحذية مطاطية صفراء بمقاس طفلة ملقاة في الردهة، لوحات على باب الثلاجة، اللوحة الكبيرة كانت مثبتة بأربعة مربعات مغناطيسية يُطلق عليها أقوى الآباء. تعتقد ديان أن هذه اللوحة مقسّمة الى جزأين؛ بحثت عن الجزء الثاني الذي يضم عبارة أجمل الأمهات؛ لكنها لم تتمكن من العثور عليها!

لم يكن هناك سوى سترات رجالية وأخرى خاصة بالأطفال معلّقة على رفوف في مدخل الشقة. تعتقد أن بيرجر انفصل عن زوجته إلا أن ابنته الصغيرة تخضع لوصاية مشتركة من ذويها.

يقول الشرطي وهو يأخذ كأسين من الخزانة:

- أعتقد أنني عثرت على الرجل الذي يتسلّم رسائل دوجسون.

تسأله ديان:

- ما الذي غيّر رأيك، بينما كنت تقول شيئاً آخر أمس؟!

- إنهم يريدون نزع صلاحياتي من التحقيق في الملف الذي كنت أعمل عليه منذ ثلاث سنوات.

يبدو أنه الألم، وهو يحدّق النظر في صندوق فوق آلة صنع القهوة مكتوب عليه بقلم أحمر غامق بخط كلوي: صندوق الكلمات الفظّة.

- جاء جيريكو لزيارتي أمس.

يبدو عليها القلق وهي تسأله:

- هل كلّمته عني؟

- لا داعي للقلق؛ إنه زميل سابق. أراد التحدث معي عن أليس أيضاً. هل ترغبين في شيء تشربينه؟ يسألها وهو يمد يده ليأخذ زجاجة نبيذ تشتهر به مدينة بورجوني.

لا يسمح نظامها الغذائي بشربه؛ لكنها قررت تغيير هذا النظام، وبينما كانت تحتسي شيئاً منه، أخبرها بيرجر عن فحوى حديثه مع جيريكو.

وما إن انتهت من شرب الكأس حتى قالت:

- هكذا إذاً، يفحص جيريكو خاتم زواج أليس أندرسن. أحقا ماتت؟

- أنا غير متأكد. اتصلت بالمختبر الذي أجرى مقارنات الحمض النووي؛ أعادوا فحص الاختبارات بسرعة؛ لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة حاسمة. الحمض النووي على الملابس وفرشاة الأسنان، التي أعطاها لنا أندرسن، يختلف عن الحمض النووي المأخوذ من العظام، وكل ما أعرفه على وجه اليقين عن الضحية هو أنها امرأة في أوائل الثلاثينيات من عمرها مثل أليس.

- لذلك لم يتبقَّ لنا سوى فرضيتين؛ إما أن الجثة ليست لأليس، وإما أن كريستيان أندرسن أعطاك عينات خاطئة عن قصد.

أضاف بيرجر:

- إن هذا الأمر يجعلنا بحاجة إلى شارل دوجسون؛ ليس لديه أطفال آخرون كما أنّ جثة زوجته قد تم حرقها. أنا بحاجة ماسة إلى حمضه النووي لإثبات أن ابنته قد ماتت.

يتحدث بيرجر مطولاً عن نتائج فحصه الدقيق لحسابات دوجسون المصرفية، وقال إنه لاحظ وجود تحركات الأموال نفسها لمدة عامين ونصف العام تقريباً؛ تحويل شهري خاص بحساب التقاعد، وسحب نقدي كبير كلّ ثلاثة أو أربعة أشهر تقريباً، غير أن آخر عملية سحب كانت منذ يومين فقط. اتصل بيرجر بالوكالة التي تمّت من خلالها عملية الدفع، وتحدث مع السيدة التي نفذت تلك المعاملة. لقد وصفت الرجل بإيجاز؛ فهو ليس مسناً، وليس شاباً، وليس كبيراً، شعره داكن ودهني.

اضطر الرجل إلى إبراز هويته لإجراء عملية السحب؛ لذلك تمكن بيرجر من معرفة اسمه والبدء في البحث في ملفات الشرطة عنه.

- شارل ستريجا 27 عاماً، تم اعتقاله بتهمة سرقات متكررة، والاعتداء والضرب وحيازة سلاح وسرقة متفجرات من موقع بناء، تم سجنه مدة ثلاث سنوات في منطقة فلوري – ميروجي؛ قائمة طويلة من الجرائم التي ارتكبها هذا الرجل. أليس كذلك؟ ليس هذا كل ما في الأمر، هو روماني مثل كوسمينا بوبيسكو.

أوضح لها بيرجر أن هذا الرجل كان يعيش في منزل متنقل، وأنه، بفضل كتيب المرور الخاص به، استطاع معرفة اسم حي أوبرفيليي المسجل تبعا له، ولهذا إن رجال الشرطة هناك لم يقتفوا أثره مدة ستة أشهر؛ لكنه حُكم عليه في الفترة الأخيرة بغرامة لوقوف سيارته بشكل

غير قانوني في أرض يمتلكها الغجر بوضع اليد في منطقة إيفري في الضواحي الجنوبية.

تطرح ديان سؤالاً مهماً:

- ما العلاقة التي يمكن أن تكون بين طبيب متقاعد وغجري له سجل إجرامي كبير جداً؟!

- قد يكون لدي تفسير؛ تمكنت من التحدث إلى طبيب يعمل في عيادة دوجسون أخبرني أنه قام بالعديد من الرحلات ذات الطابع الإنساني خلال حياته المهنية، إلى أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، وجنوب شرق آسيا، وأمريكا اللاتينية. إنه يسافر كثيراً؛ لكن معظم المهمات التي أنجزها تمت في أوروبا الشرقية.

- دعني أخمن: أكانت معظم هذه الرحلات إلى رومانيا؟

وضع كأسه وحدق النظر في عينيها.

- الآن فقط يُمكننا الحديث بناءً على وصولنا لأرضية مشتركة؟

تبتسم ديان:

- أنت على صواب. إذاً، هذه المهمات، تمت في رومانيا؟

- بالضبط، في إحدى الفترات كان يذهب هناك مرتين أو ثلاث مرات في السنة.

كما أنه ترأّس جمعية صغيرة تدعم المشاريع الطبية والصحية بعد سقوط الشيوعية.

أجابت ديان نأمل ألا يكون قد رجع إلى هناك، وأنت هل تعرف ما إذا كان دوجسون لديه منزل متنقل أيضاً؟

يفرك بيرجر ذقنه بطرف الإبهام والسبابة.

- من الممكن ذلك. لقد لاحظت تحويل مبلغ كبير في كشوفه المصرفية بعد نحو ثلاثة أسابيع من الحادث الذي تعرض له زوج ابنته؛ ربما يتعلق الأمر بشراء منزل متنقل جديد بعشرات الآلاف من اليورو.

عندما انتهت ديان من شرب الكأس، أعطاها بيرجر نسخة من أهم أجزاء ملف التحقيق في قضية أليس.

تسأله ديان:

- وماذا بعد؟

- سأذهب إلى المخيم صباح الغد.

- بمفردك؟

- نعم. سوف يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن أحصل على ترخيص للذهاب إلى هناك مع فريق العمل. أتمنى ألا يترك ستريجا منطقة إيفري خلال ذلك الوقت، أو أن يقابله جيريكو قبلي.

- سأذهب معك.

- لا أوافق على ذلك نهائياً.

- لا يمكن اعتبار هذا اقتراحاً.

يأمرها بيرجر بذلك مع ابتسامة، ويكرر:

- هذا أمر.

- لا، سأكون صباح الغد أمام مدخل المخيم مهما كان قرارك (ترد ديان الابتسامة بابتسامة مماثلة). قد نذهب معاً.

## 21

في صباح اليوم التالي، وبعد الفجر مباشرة، ذهب إريك بيرجر إليها أسفل المبنى الذي توجد فيه شقتها. انطلقا نحو جنوب باريس باتجاه منطقة إيفري؛ مظاهر فوضوية جميلة تشوه مقصورة سيارته العائلية الرمادية الكبيرة. مجموعة من الدمى معرضة للشمس على الرف الخلفي للسيارة. اللوحات التي تم الانتهاء من الرسم عليها حديثاً تحت المقاعد، أغلفة الحلوى متعددة الألوان تملأ درج السيارة، في الخلف، تم تركيب أغطية واقية من الشمس على نوافذ السيارة، وقد تزينت هذه الأغطية بصور أميرات ديزني.

بسرعة شديدة، يدور حديثهما حول جيريكو.

تسأله ديان:

- هل تعرفه؟

- نعم، كنا زملاء في فرقة البحث والتدخل منذ وقت طويل.

- لماذا لم يطلب مساعدتك في هذا التحقيق؟

- إنها قصة طويلة.

- ما يزال أمامنا وقت. لن نصل إلى هناك قبل ساعة من الآن.

تتصفح ديان قصص الأطفال المتناثرة بين خرائط قديمة كان بيرجر قد وضعها في أدراج الأبواب الجانبية. يذكرها ذلك بلقب كريستيان أندرسن في المحكمة «عازف الفلوت».

يتكلم بإصرار:

- وماذا بعد؟

أخذت ديان نفساً عميقاً قبل أن تبدأ كلامها.

منذ أربع سنوات، عندما اختفت امرأة قريبة الشبه بضحاياه، حاولت التدخل بمفردي لاعتقال هنكر.

- تقولين هنكر؟

تشرح له ديان باقتضاب من هو أنطوان هنكر، ولماذا تشتبه في أنه هو محرك الدمى.

- كنت أعتقد أنه سيذهب عاجلاً أم آجلاً إلى المستودع الذي سجن فيه ضحيته؛ لذلك قررت اقتفاء أثره والقبض عليه.

تفكر في تلك الساعات الطويلة، التي قضتها تنتظر أمام منزل هنكر، والنوافذ المغطاة بالضباب بسبب أجهزة التدفئة، وهذه المناظير الضخمة، وطعم القهوة السيئ داخل وعاء حفظ السوائل والأجواء الباردة التي تشعرها بقشعريرة على الجلد، ورغبتها في الذهاب إلى المرحاض، والتحديق في نوافذ شقة هنكر، وأخيراً حالتها النفسية والعصبية عندما تضاء الأنوار في شقته!

- ذات مساء، نحو الساعة الثانية صباحاً، استقل هنكر سيارته، وذهب إلى المستودع في ضواحي المدينة. اعتقدت أن هذا هو المكان الذي يحتفظ فيه بالفتاة المفقودة؛ لكنها لم تكن هناك في هذا المكان الذي ضربته فيه.

- دفاع شرعي عن النفس إذاً؟

- أليس كذلك؟!

ما تزال تشعر إلى الآن برعشة أصابت أطراف أصابعها عندما ضربت هينكر على رأسه، ودفعته ناحية حافة باب الكراج الألومنيوم. في تلك اللحظة، بدا الأمر كما لو أنها فقدت التحكم في أعصابها؛ كل ما يهمها

هو إنقاذ الفتاة، أما عن مدى التزامها بالإجراءات القانونية فلم تفكر فيها، أما عن حياتها المهنية فلم تفكر فيها أيضاً. يجب عليها أن تجد الفتاة.

- لم أستطع السيطرة على نفسي، أريد منه أن يتكلم ويقول لي أين يحتفظ بضحاياه؛ لكن دورية من فرقة مكافحة الجريمة وصلت قبل أن يعترف.

تتذكر ابتسامته الشيطانية عندما تم توقيفه من قِبل رجال من فرقة مكافحة الجريمة؛ على الرغم مما أصابه من كسر في الفك ونزف في اللثة، فقد كان يشعر بسعادة غامرة. لم يهتم بالألم! يبدو أنه مسرور لأن الشخص الوحيد الذي كان يعلم أنه مجرم أصبح الآن خارج اللعبة. لم يره أحد آخر؛ لكنه في تلك اللحظة أظهر لها وجهه الحقيقي.

- تقدم بشكوى، فتم استبعادي من العمل على هذه القضية، وبعد ذلك، تم تحويلي إلى إدارة التفتيش العامة التابعة للشرطة الوطنية، خضعت للجنة تأديبية، وتم فصلي من العمل في الشرطة.

تنظر إلى الأسفل، وهي تتحدث عن خضوعها للجنة الاستماع في إدارة التفتيش العامة التابعة للشرطة الوطنية، وبعد يومين من اعتقال هنكر من قبل فرقة مكافحة الجريمة، تم العثور على جثة الفتاة في غابة على مشارف باريس. ربح هنكر الرهان، ربما لو كانت ديان صبورة لكان بإمكانها إنقاذ الفتاة!

- النقطة الإيجابية الوحيدة أنها سرقت السيارة التي كانت داخل مستودع هنكر. تم فتح تحقيق واكتشاف أشياء أخرى مشتبه فيها في الكراج الذي يملكه؛ تم العثور على مخدرات، واستغرق الأمر منه خمس سنوات لإخفاء الجثث والاتجار في المخدرات ضمن عصابة منظمة.

هذا قليل من كثير مقارنة بجرائمه؛ لكن ديان كانت تأمل العثور على شيء لإبقائه وراء القضبان لأطول فترة ممكنة، ولهذا السبب ظلت على اتصال بزملائها السابقين في فرقة مكافحة الجريمة، محاولة استكشاف كلّ الخيوط التي تعدّها مهمة.

- أيمكنك التأكد من أنه هو القاتل؟

- لو رأيت عينيه كنت ستعرف حتماً.

ما زالت تفكر في ابتسامة هنكر، وفي الأشجار السوداء المتراصة في صفوف، وفي رائحة الخشب المتعفن التي كانت تشمها. قبضت يديها بقوة، ثم قالت حان الوقت لتغيير الموضوع.

- أما تزال المكافأة التي رصدها والد أليس سارية؟

- المليون، أليس كذلك؟ انتهى وقتها؛ حيث أعلن دوجسون إفلاسه بعد عملية سطو على منزله. تم فتح خزانته وسرقة المنزل بالكامل. ليس هذا كل ما في الأمر؛ في اليوم التالي، أضرمت النيران في غرفة التخزين التي كان زوج ابنته يخزّن فيها متعلقاته ومتعلقات زوجته. لقد باعوا شقتهم، وهم الآن يعيشون مع دوجسون إلى حين الانتقال إلى منزلهم الجديد. تقريباً كل شيء تملكه عائلة أندرسن احترق في النار.

أثبت التحقيق أن الحريق تم بسبب فعل إجرامي، وأن النار اندلعت في أول الأمر من مستودعهم، وأن هؤلاء المجرمين الأغبياء كانوا يعتقدون أنهم سيجدون الأموال هناك، وأنهم أحرقوا كل شيء لمحو آثارهم!

- أيعقل أن يتم إخفاء مليون في غرفة تخزين؟! ترد ديان. إن ذلك هو الغباء بعينه!

- ومن قال إن المجرمين عباقرة؟!

تطرح السؤال وهي غير مقتنعة تماماً.

هل هناك مشتبه فيه في هذه السرقة؟

- كل من يشاهد الفيديو على الإنترنت.

إذاً، ما لا يقلّ عن أربعة ملايين شخص شاهدوا الفيديو، ويمكن لأيّ شخص أن يراه. المليون يمكن وضعه في حقيبة ظهر، حتى رجال الإطفاء الذين أخرجوه من سيارته كان بإمكانهم أخذ الأموال لو كانت بحوزة أندرسن وقت وقوع الحادث.

- حتى أنت؟

يرد مازحاً. هل خانتني سيارتي الرياضية؟

قهقهته الشديدة جعلتها تضحك هي أيضاً إلى درجة أنّها شعرت بألم في وجهها؛ الأمر الذي ذكّرها بمن يؤدي تمريناً رياضياً فجأة دون أن يتمرّس عليه من قبل!

مرت بقية الرحلة بسرعة. وبعيدًا عن مظهرِه القاسي، إلا أن بيرجر يتمتع بشخصية لطيفة. تحدثا عن كل شيء، وعن اللا شيء، كما لو كانا يعرفان بعضهما بعضاً منذ سنوات، حتى إن بيرجر أخبرها عن عمله في الشرطة عندما كان يعمل في فرقة البحث والتدخل، وعن قصص تتعلق بإطلاق نار واحتجاز رهائن، وعن الأوضاع التي كانت متوترة، وعن الاعتقالات التعسفية. تلاحظ ديان أنه لم يكن يضع خاتم الزواج، وتعتقد أن رأيها كان في محله؛ إذ إنه انفصل عن زوجته التي تركته بسبب حياته السابقة بوصفه ضابط شرطة، إن التعرُّض للموت باعتباره من مخاطر المهنة، بالإضافة للعمل لفترات طويلة ليلًا، والأسابيع التي تتخطى ساعات العمل فيها ستين ساعة، تتضافر كل هذه

العوامل لتكتب نهاية لمعظم زيجات رجال الشرطة، حتى أشد الزيجات استقرارًا تبقى معرضة للهدم.

وصلا أخيراً إلى منطقة إيفري، وتمكنا من تحديد موقع المستودع بسهولة. أوقف بيرجر سيارته العائلية الكبيرة في مكان تجميع أدوات معدنية بشكل مؤقت، وتخزين هياكل السيارات، وفي نهاية هذا المكان توجد بوابة طويلة حطمها الغجر للاستيلاء على الأرض الواقعة خلفه؛ حيث أقيم المستودع بين حزامين للطريق السريع، ويتكون من تجمع متهالك من عشرات من السيارات المتنقلة القديمة التالفة من الجوانب، وأكواخ مبنية من ألواح من الخشب والصاج المموج وقطَع من المشمع وكل شيء استطاع المستأجرون أن يجمعوه من صناديق القمامة. لا توجد هناك مياه صالحة للشرب ولا كهرباء ولا تدفئة ولا مراحيض! وبدلاً من ذلك، تحولت صنابير إطفاء الحرائق إلى نافورة وبراميل وأحواض، وتم توصيل مقابس بشكل غير قانوني بالغرف الكهربائية، كما تمّت تعبئة البراميل المهترئة بكميات من الحطب والبنزين، ولكن توجد هناك زوايا بديلة عن المراحيض.

أسفل الحائط المضاد للضوضاء، الذي يمتدّ على طول الطريق السريع، يبدأ الغجر يومهم؛ حيث يقوم الرجال الأقوياء بخلع معادن الثلاجات والغسالات الصدئة، بينما يقوم آخرون بفرز الأشياء التي يتمّ جمعها من صناديق القمامة، ووضعها على مفروشات من المشمع. يفرزون أيضاً أدوات معدنية رديئة، ويضعونها فوق بطانية ملقاة على الأرض في مناطق متعددة مثل منطقة بورت دي مونتروي ومنطقة مترو بيلفيل، أو في أي مكان بعيداً عن أعين الشرطة؛ حيث يتم التفاوض باللغات التركية أو الرومانية أو الصينية أو العربية حول بيع أشياء رديئة

للغاية؛ كبيع الأحذية القديمة، وحليب الأمهات التابع للصليب الأحمر، وعلب تونة منتهية الصلاحية.

يتجول الأطفال على دراجات علاها الصدأ، ويلاحظ كلّ من ديان وبيرجر أن هؤلاء الأطفال يتحدثون بصوت منخفض. يبدو على بيرجر الانزعاج وكأنه يريد أن يقول لا أستطيع سماع كلامهم!

- لا بد من توقيف زعيم هذا المستودع. علينا أن نجد منزل ستريجا المتنقل بسرعة.

يفحص مسدسه من طراز (Sig-Sauer SP 2022) المثبت بحزامه.

- إذا شعرت أن الأمور ستخرج عن السيطرة فسنطلب الدعم، فاستريجا من أولئك الرجال الذين يستطيعون دفن أجسادنا في مكان مهجور، ويسافرون بعد ذلك مسافة تبعد ثلاثمئة كيلومتر لطهي اللحوم المشوية في موقف للسيارات خاص بالمتاجر الكبيرة.

سلكا طريقاً أرضه موحلة، وفيه الكثير من الصناديق الكرتونية المتسخة، ونشارة الخشب، وفرش أرضيات السيارات المستعملة. ترتفع أصوات حركة السيارات على الطريق السريع كلما زاد اقترابهم من السيارات المتنقلة المتهالكة. رائحة الزيت وأبخرة العادم تجعلهما غير قادرين على التنفس. يصادفان في هذا الطريق مجموعة من الرجال يلتفون حول خزانة معدنية صغيرة تم تحويلها إلى موقد تدفئة يعمل بالحطب.

يستجوب أحدهم بيرجر:

- أنت يا ثرثار. أنت يا صاحب الكرش. أنت يا متسلط، ماذا تفعلان هنا. يدّعي بيرجر أنه جاء لإجراء جرد: لا داعي للقلق. يطلب الرجل توضيحاً أكثر. تدرك ديان أن المتحدث اسمه بوليباشا، وهو

الذي يحكم سيطرته على هذه الإمبراطورية الموحلة. هناك من يشبهه في مخيمات الغجر.

إن رجال بوليباشا، مثل كبار القوم من الإقطاعيين، يحصّلون الإيجارات، ويقيمون العدالة بين السكان، ويتخذون جميع القرارات المهمة الحياتية في هذا المجتمع. تتذكر ديان أنها تقابلت بالفعل مع هذا النوع من صغار الزعماء عندما قامت بتفكيك شبكة دعارة رومانية خلال عملها في فرقة مكافحة الدعارة. كان زعيم العصابة وقتها اسمه روم كالديراش، المتخصص في صناعة الأدوات المعدنية، والذي يعيش في قرية بوزيسكو، التي يبلغ عدد سكانها خمسة آلاف نسمة، وتقع في جنوب رومانيا. في هذه المنطقة البعيدة في الريف الروماني يتخذ زعماء التجمعات الغجرية بنايات من دون تخطيط ومن دون استشارة مهندس معماري؛ حيث تبدو في حالة سيئة كُلياً، يعيش رجال كلديراش في واحدة من هذه البنايات، وهي عبارة عن أعشاش صغيرة مكونة من 24 غرفة موزعة على ثلاثة طوابق، يمكن النظر إليها على أنها خليط مشوه من بناء إنجليزي بطراز شعبي وقلعة هندية ومعبد صيني ونصب تذكاري روسي من الحقبة السوفييتية. أكاد لا أصدق ما يمكن أن يضيفه العمل في مجال صناعة الأدوات المعدنية، وإعادة التعبئة إلى القرن الحادي والعشرين!

بينما تتخذ ديان قرارها بالسير بين السيارات المتنقلة، كان بيرجر يتحدث بلطف مع زعيم المخيم، وفي غمضة عين، أُغلِقت الأبواب، ونزلت الستائر خلف النوافذ الصغيرة. بدأت الشكوك تحوم حولهما. تم نقش أرقام على البلاط باستخدام عبوات الرش وكتابة عناوين وهمية على الرغم من أن ساعي البريد لا يمرّ من هنا! وعلى عكس كل السيارات

الأخرى، توجد سيارة من دون رقم حديثة وصالحة للاستعمال، وتتطابق مع لوحة سيارة ستريجا، إلا أنه قبل أن يتاح الوقت الكافي للطرق على الباب، تسمع ديان من ينادى عليها بصوت أجش بسبب الإفراط في تناول التبغ والكحول.

- أنت. ما الذي تفعلينه هنا؟!

تلتفت ديان، فإذا الصوت لرجل يحدق النظر إليها باحتقار. قبضة يده مشدودة، وملامح وجهه متوترة، طوله نحو متر وستين سنتيمتراً تقريباً. بشرته داكنة. يوجد وشم لونه أسود على ساعديه. شعره كثيف ودهني، ولونه أسود يتدلى على كتفيه بدرجة سواد لون الغراب نفسها.

شارل ستريجا.

يداه وسرواله الجينز ملوثان بزيت السيارات. يرتفع صدره ويهبط تبعاً لإيقاع تنفسه المتقطع. يبدو أنه كان يركض. تخمن ديان أنه يعمل شيئاً ما في مكان ما بالمستودع عندما تم تحذيره بوصول شخصين غريبين.

قالت ديان:

- هذه السيارات المتنقلة رائعة. كم تكلفتها؟

- هي ليست للبيع، كما أننا لا نبيع للشرطة.

- من قال لك إنني أعمل في جهاز الشرطة؟

- لا يأتي إلى هنا إلا رجال الشرطة والمتعاونون معهم.

أنت أيتها الحشرة، لا يبدو أنك تعملين في المجال الاجتماعي.

تشعر ديان بجفونها ترتعش؛ لكنها تحاول أن تحافظ على رباطة جأشها.

- أنا لست شرطية، أنا جئت إلى هنا لكي أبحث عن شارل دوجسون.
يبصق الرجل على الأرض.
- لا أعرف.
ردت عليه ديان:
- هو المالك السابق لهذه السيارات المتنقلة.
- هذه حيلة جيدة، وتثبت فاعليتها.
- تقصدين دوجسون. نعم ذلك الرجل الكبير، هو من سان مور. لقد باعها لي منذ عام.
- بكم اشتريتها؟
- خمسة عشر ألفاً.
- ليست باهظة الثمن بالنسبة إلى السيارات المتنقلة الجديدة تقريباً.
- ما الذي تريدين قوله؟ إن دوجسون يحتاج إلى النقود، وأنا أحتاج إلى منزل متنقل.
- هذا يعني أن لديك أموالاً سائلة كثيرة.
- أعمل في الأسواق، والناس يدفعون لي نقداً.
- ودوجسون، كم يعطيك لتتسلّم رسائله؟
- يحدق ستريجا النظر إليها.
- لا أفهمك!
- أعلم أنك تأخذ رسائله. عرفت ذلك من كوسمينا.
- لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه، ولا أعرف حتى من هي!

- أنت متأكد مما تقول؟ يمكننا مناقشة الأمر في الداخل. تحاول ديان دخول المنزل. يتحرك الغجري ويمسكها من كتفها، فتدفع ذراعه بعيداً بظهر يدها.

- لا تلمسني.

- اغربي عن هنا، لا يحق لك التواجد، اخرجي.

- يقترب ستريجو منها إلى درجة أنها استطاعت شمّ رائحة التبغ والجبن النتن تنبع منه. دفعته بعيداً عنها بكفيها وضغطت على صدره، فَقَد الغجري توازنه، وتراجع عدة خطوات إلى الوراء، واصطدم بطاولة معدنية توضع في الحدائق.

قال وهو يضع يده على شعره الدهني: إنها متهورة، هي ليست من هنا.

- أريد مقابلة دوجسون.

- لا أعرف أين هو. ارحلي من هنا.

- الموظفون في البنك يعرفونك. لا تعدّني امرأة حمقاء. أين يوجد دوجسون؟

ولأن الصوت كان مرتفعاً، تجمع الغجر الآخرون من حولهم.

- حان الوقت لتغادري هذا المكان أيتها الشرطية.

- لن أترك هذا الملف!

لكن بمجرد مغادرتها، غادره أيضاً ستريجا. لقد كانت تبحث عنه منذ أسابيع.

يقول ستريجا وهو يبصق على الأرض مرة أخرى:

- إنها شرطية قذرة تريد أن تفرض سيطرتها علينا!

تشعر ديان بضربات قلبها سريعة. تذكرها بما حدث عندما وضع وول خصلات مبللة بالأدرينالين في أنفها بين جولتين من جولات الملاكمة لوقف النزف الدموي الذي أصيبت به. تنقض ديان على الغجري، وتطرحه أرضاً بجوار سيارة متنقلة متهالكة.

- اسمعني، أيها الحقير، أخبرني أين يوجد دوجسون؟

- يدوي صوت بيرجر عالياً؛ لكنها لم تسمعه. تضع ساعدها فوق حلق ستريجا.

يتحشرج صوت الغجري، ويقول:

- لا أعرف.

تضغط ديان على رقبته بقوة.

- أين دوجسون؟

يصرخ ستريجا ويقول:

- ابتعدي عني أيتها الشرطية القذرة!

لم تنتبه ديان إلى السكين الصغيرة الذي يلمع مثل مخلب الصقر في يد ستريجا.

- أين هو؟ تصرخ ديان.

انطلقت رصاصة في الهواء. تستدير ديان ناحية الصوت، وتركت ظهرها دون حماية من السكين التي يحملها الغجري في يده.

- يصيح الشخص الذي أطلق النار. ابتعد يا بني.

يسحب بيرجر مسدسه؛ لكنه لم يكن هو الذي أطلق النار للتو، بل الرجل الذي يرافقه ومعه بندقية صيد.

يقول شارل دوجسون، وهو يضع بندقيته جانباً:

- لا بأس يا بني. سأتحدث معهما.

تبدو سيارة دوجسون المتنقلة من الداخل نظيفةً جداً؛ كل شيء في مكانه، الأرضية نظيفة أيضاً، كان المكان عند دوجسون يتسم بالنظافة الشديدة، كما كان لزامًا على كل داخلٍ أن يخلع حذائه على عتبة الباب حتى لا تعرف الأتربة والأوساخ طريقًاً لمنزل دوجسون.

يقول بيرجر وهو يفك رباط حذائه:

- من الصعب الوصول إليك.

يرد عليه دوجسون:

- ليس دائماً، بما أنك وجدتني الآن. لم أتناول الإفطار بعد. هل تريد أن تشرب الشاي أو ربما القهوة؟

أجاب بيرجر:

- لا هذا ولا ذاك، الحديث لن يستمر بيننا طويلاً.

- لكن في كلتا الحالتين، سيحتاج الشباب إلى وقت كافٍ لإعادة تركيب إطارات سيارتك.

قطب بيرجر حاجبيه.

- ما الذي تريد أن تقوله لي؟!

- إنها لعبتهم الجديدة. إذا رأيت أطفالاً يلعبون بالدراجات وأنت في طريقك إلى هنا، فأقترح عليك التحقق من أن مركبتك ما تزال صالحة لأن تقودها.

ينظر الشرطي إلى ديان نظرة ريبة..

- هيا بنا، كل شيء سيكون على ما يرام الآن. سنشرب الشاي فقط، ونتحدث. أليس كذلك؟

أومأ دوجسون برأسه. ذهب بعد ذلك ليضع بندقيته تحت سريره في نهاية السيارة المتنقلة. كانت السيارة كبيرة بما يكفي لاستيعاب عائلة!

يتكلم بيرجر مع ديان بصوت خفيض: سنلتقي في السيارة. لا تنسي الذي جئنا من أجله.

تتنهد ديان..

- أعرف، الحمض النووي.

يُعيد بيرجر ربط حذائه. يغادر السيارة المتنقلة، أما عن ديان فقد استبدلت بحذائها زوجاً من الأحذية صغير المقاس وردي اللون، وتوجد في أعلاه رسمة لقطّة لونها أبيض وأسود، أخذته من شارل دوجسون.

قالت ديان وهي تربط الحذاء:

- لا يبدو أنك تفاجأت برؤيتنا هنا. هل كنت تنتظرنا؟

رد عليها دوجسون: لستم أنتم على وجه التحديد؛ كنت أنتظر وصول شرطي ليخبرني عن ابنتي التي اختفت منذ ثلاث سنوات! يفتح دوجسون باب خزانة، ويخرج علبة فيها أكياس شاي، ولاحظت أن الرفوف في الداخل عليها أدوية كثيرة!

- هل تخضع لعلاج ما؟

- لا، أنا أتصرف كما يجب أن يكون من هو في مثل عمري. في الواقع، الكثير من الناس هنا مرضى، وليست لديهم إمكانات لعلاج أنفسهم، فأحتفظ دائماً بمخزون من الأدوية في حال احتجتُ إليها. تريدين شاياً أم قهوة؟

- شاياً من فضلك.

أمسك دوجسون ببراد الشاي، وأعد كوبين، ووضعهما على المنضدة قبل أن يجلس.

عندما جلست أمامه، تولّد لديها انطباع بأنها مريضة في عيادة طبيب؛ عيناه الزرقاوان العميقتان يتفحصانها كما لو كانتا تبحثان عن علّة غير معروفة في داخلها! تشعر ديان بالرهبة؛ لكنها شاهدت في دوجسون مسحة من الأرستقراطية التي تلازم جمود اللوردات الإنجليز في بلادهم؛ الأمر الذي يجعل الإنسان يشعر على الفور بالدونية.

تحاول ديان أن تخفي ارتباكها بالاطلاع على دفتر ملاحظاتها. في الليلة السابقة، وقبل أن تخلد إلى النوم، كانت قد أعدت قائمة بالأسئلة التي تريد أن تطرحها عليه. ها هي تبدأ بسؤال مزعج!

- لماذا تختفي عن الأنظار؟!

- أتقولين إنني مختفٍ؟! (رد عليها وهو يبتسم). هذه كلمة غير لائقة. أعيش على مفترق طرق بين فرنسا ورومانيا!

- رأيت منزلك في سان مور. يبدو أنه مريح نوعاً ما مقارنة بمنزلك هنا. لماذا لم تعد تعيش فيه؟!

- لم أستطع العيش هناك بعد اختفاء أليس. كان الأمر صعباً جداً. علاوة على ذلك، لم يعد لدي أي شيء يربطني بسان مور! ماتت زوجتي منذ خمس سنوات، وتقاعدت عن العمل منذ فترة طويلة. تركت منزلي وبعت سيارتي. تبرعت بكل شيء تقريباً للجمعيات الخيرية. كل ما احتفظت به من حياتي القديمة يتلخص في بعض الصور.

توجد على الرف عشرات الصور الموضوعة في إطارات خشبية، وفيها يبدو دوجسون خلال مراحل عمرية مختلفة. ها هي صورة له بالأبيض والأسود عندما كان طفلاً، وصورة أخرى من حفل زفافه،

وهذه ثالثة التقطت بكاميرا بولاروا عمرها ثلاثون عاماً؛ حيث شوهد دوجسون وهو يحمل طفلاً صغيراً بين ذراعيه وتحيط به امرأتان؛ مع إحداهما وشاح على الرأس مثل كوسمينا بوبيسكو. هذه الإطارات الصغيرة التي تذكره بماضيه تبدو مثل كشف محاسبة لحياته!

- هذه السيارة المتنقلة مسجلة باسم ستريجا على الرغم من أنك الذي تسكن فيه. لماذا؟!

- إذا حدث لي أي مكروه، أريد لهذه السيارة المتنقلة أن تعود ملكيتها إلى شارل؛ هو في منزلة ابني، وقد ساعدت أمه على ولادته في مستودع مثل هذا؛ ولادته كانت معقدة... كان من الأفضل ألا يولد!

- أهذا هو سبب إعطائك إياه اسمك الأول؟

- نعم.

- لماذا يسحب بانتظام مبالغ كبيرة من حسابك؟

- لأنني أعيش في عالم يهتم بالمال فقط، وستريجا يستلم الرسائل ويتسوق. أنا أملك الإمكانات المالية، وهو لديه القوة البدنية الجيدة. نحن نساعد بعضنا بعضاً.

- من الخطر الاحتفاظ بآلاف اليوروهات في سيارة متنقلة وسط مستودعات الغجر!

- الناس هنا شرفاء أكثر مما تعتقدين، ثم إن شارل يقوم بحراستي؛ إنه من الناس الذين يمكنك الاعتماد عليه دون تردد.

- لكن سجله الإجرامي يجب أن يحول دون إعطائه أموالك.

- أنتِ لا تفهمين. أنتِ لا تنتمين إلى هذا العالم.

أشارت ديان إلى أنها مقتنعة نوعاً ما.

- لكنك غير مقتنع. أليس كذلك؟ لماذا تعيش إذاً هنا؟

ارتشف دوجسون بعض الشاي قبل أن يرد بهدوء..

قضيت ثلاثة أرباع حياتي الأُولى، وأنا أعتني بالآخرين، أما عن الربع الأخير فقد خصصته للاعتناء بنفسي؛ ليس لدي عائلة الآن، ومن الضروري أن أجد معنى جديداً لحياتي. أنا أتنقل من مستودع إلى آخر، وأساعد الآخرين، وأوفر الرعاية للمحتاجين.

- لكن من المدهش أن تتخلى عن كل شيء لتعيش مثل هذه الحياة!

- أخبرتك من قبل. لم يعد لدي زوجة ولا بنت ولا أحفاد، وبعد خمسة عشر أو عشرين عاماً سأدخل رغماً عني دار المسنين. ماذا يمكنني أن أفعل سوى الانتظار؟! أن ألعب الورق؟! أو الجولف؟! لم أكن أبداً من هذا النوع من الرجال.

ينحني دوجسون، وينبعث منه خليط من رائحة الكولونيا ومسحوق بودرة أطفال!

- ولماذا تطلبين مقابلتي؟

تضع ديان على الطاولة ملصقاً عن شخص مفقود باسم كريستيان أندرسن أخذَته من على حائط في محطة المترو، وبجانب الملصق مباشرة توجد صورة ناتاشا تشيرفونا.

- وجدنا جثة هذه الفتاة في غابة فانسان، وكما ترى هي تشبه أليس.

ينظر دوجسون بتمعن في وجه ناتاشا؛ لكنه لم يهتم بالنظر كثيراً إلى الملصق عن الشخص المفقود.

تسأله ديان:

- هل تعرفها؟

- لا، لا أعرف من هي بتاتًا.

توقفت ديان عن الكلام، وأخذت نفساً عميقاً. حان الوقت لإخبار دوجسون أن أليس ماتت فعلاً.

هناك شيء آخر... وجدنا خاتم زواج أليس.

يقطع حديثها الطبيب، الذي كان على وشك أن يغمس شفتيه في الشاي الساخن، ويضع الكوب في صحن الفنجان:

- أين كانت؟

- في غابة نوتردام. يؤسفني أن أخبرك بذلك. كانت في حفرة، وفيها تم العثور على هيكل عظمي لأنثى.

أراح دوجسون مرفقيه على الطاولة، وشبك بين أصابعه بهدوء. لا تبدي ملامحه أي نوع من أنواع القلق. لم يصبغ وجهه باللون الأحمر. لا أثر لدموع تتشكل في أي زاوية من زوايا عينيه!

يقول بكل بساطة:

- سأفكر في الموضوع!

يبدو على دوجسون الهدوء الشديد إلى درجة أن ديان اعتقدت أنه لم يفهم معنى كلامها!

- ربما لم أوضح لك ماذا أريد يا سيد دوجسون. ما أخبرتك به حالياً يعني أن الهيكل العظمي يعود على الأرجح إلى ابنتك.

أومأ دوجسون برأسه بهدوء..

- فهمتُ جيداً قصدك يا آنسة كيليرمان؛ منذ ثلاث سنوات وأنا لا أعرف عن ابنتي ما يدل على أنها حية! كنت أتوقع أن يخبرني أحدهم بهذا الأمر عاجلاً أم آجلاً.

تفاجأت ديان بما يقوله! فلكل إنسان رد فعل يختلف عن الآخر عندما يموت أحد من أفراد أسرته؛ لكن عقلانية والد أليس جعلتها تندهش! أصبح لديها انطباع بأنه يتحدث عن أحد مرضاه، وليس عن ابنته!

أضافت ديان:

- لذلك أنت مقتنع بأنها ماتت!

- يا للأسف، هذه هي الفرضية الأكثر احتمالاً.

- يعتقد زوج ابنتك أنها على قيد الحياة.

أصاب الملل وجه دوجسون الجامد! يقطّب جبينه، فتبرز تجاعيد جبهته كثيراً.

- هل هناك مشكلة؟



- لا.

ينظر بعيداً؛ لكن ديان ما تزال مصممة.

- أيها الطبيب؟

يشتد الغضب بالطبيب للوهلة الأولى؛ لكنه يتحكم في ملامح وجهه، ويهدأ من جديد.

يغمغم بصوت خفيض:

- كان يجب أن يحميها!

تتحول نظرات دوجسون إلى الرفوف، التي وضع عليها بعض صور ابنته. تلاحظ ديان أن كل هذه الصور غير حديثة. ربما يكون تاريخ التقاط الصور منذ عشرين سنة. في الواقع، لا يوجد سوى صور لأليس وهي طفلة.

فجأة، تفكر ديان في الصور المشوهة في مخزن الحبوب في المنزل الموجود في مدينة سان مور. هل دوجسون هو الذي شوهها عندما أصيب بنوبة غضب؟

- هل تعتقد أن زوج ابنتك هو الذي قتلها؟

يستغرق دوجسون وقتاً طويلاً ليرد نافياً بلا؛ لذلك تصر ديان:

- هل اختلفت طبيعته عن الأيام التي سبقت حادثة الاختفاء؟

- لا أستطع الإجابة؛ لكن رأيت فيه اختلافاً بسيطاً. كان يعمل كثيراً... يغادر مبكراً... ويعود متأخراً...

- وأليس، ماذا كان شعورها حيال ذلك التغيير؟

- لا سلباً ولا إيجاباً. كانت تعمل كثيراً..

- ألم تكن هناك في عطلة نهاية الأسبوع التي اختفت فيها؟

- لا، ذهبت إلى أختي في إيطاليا. استضافتني عندها خلال مؤتمر دُعيت إليه.

- هل كانت هذه الرحلة مخططاً لها منذ فترة طويلة؟

- نعم، منذ ثلاثة أشهر على الأقل.

- وهل كريستيان على علم بذلك؟

- نعم.

تتذكر ديان منزل الطبيب في مدينة سان مور؛ ترتفع الأشجار عالية في الحديقة. باستطاعة أندرسن أن يقتل أليس، وأن ينقل جسدها في سيارة مجهزة إلى الطرق الوعرة يملكها والد زوجته دون أن يتمكن الجيران من رؤيته، ونظراً إلى أن السيارة تم التخلص منها في مستودع للخردة بعد الحادث، لم يعد بإمكاننا إجراء تحليلات الحمض النووي في صندوق السيارة للتحقق من هذه الفرضية.

تم شطب جميع الأسئلة تقريباً في دفتر ملاحظاتها، ولم يتبقَّ سوى ثلاث كلمات: التبرير والنقود وتحليل الحمض النووي. بدأت بسؤاله عما كان يفعله يوم اختفاء ناتاشا تشيرفونا؛ فيرد عليها بأنه قضى اليوم في المستودع، ويمكن للكثيرين أن يشهدوا على ذلك... تكتب الأسماء التي أعطاها إياها دون أن تكترث بالأوهام التي أصابتها؛ أي شخص هنا يمكن أن يكذب لحماية الرجل الذي يرعاهم طواعية منه، ويأتي في مقدمة هؤلاء ستريجا. يبقي السؤال الأخير:

- من كان يستطيع أن يسرق المليون حسب رأيك؟

يتناول رشفة من الشاي، وهو يحدق النظر فيها بعينيه الباردتين. يبدو كأنه يحاول وزن الكلمات التي كان على وشك أن ينطقها.

- عليك أن تسألي كريستيان ذلك السؤال؛ فهو الذي يحتفظ بالمال.

تندهش ديان:

- لكنك بلّغت عن السرقة بعد السطو على منزلك!

- كنت أعتقد أن بإمكاني استرداد جزء من المبلغ بفضل التأمين؛ لكن حيلتي لم تنجح، وكريستيان هو من أضاع النقود، أو- لكي نكون أكثر دقة- منذ الحادث وهو يقول إنه لا يتذكر ما حدث!

هناك من يطرق باب المنزل المتنقل. يفتح دوجسون، فاذا عدد من النساء المتوجسات يقفنَ في الخارج وينتظرن... يتكلم الطبيب معهنّ بضع كلمات باللغة الرومانية، ثم يذهب لإحضار حقيبة الإسعافات الكبيرة.

- يجب أن أتركك الآن. هناك سيدة مريضة تعاني من تقلصات. لا وقت لاستدعاء سيارة إسعاف.

وقفت ديان في طريقه:

- قبل أن تغادر، أحتاج إلى عينة من حمضك النووي.

يبدو على دوجسون الاندهاش:

- الحمض النووي الخاص بي! لماذا؟!

- أعلم أنك رفضت إعطاء العينة أثناء التحقيق.

- لا أحب فكرة أن تكون شفرتي الجينية ضمن قاعدة البيانات.

- أنت تعيش خارج المجتمع. أنت لا تقبل سحبَ حمضك النووي. قد ينتهي بنا الأمر إلى التفكير في أن لديك شيئاً ما تخفيه.

- أنت مريضة بالشك. آنسة كيليرمان، أنا مواطن على دراية ببعض الديكتاتوريات الأكثر وحشية في هذا العالم، وأخشى مما يمكن فعله بمثل هذه الشفرات الجينية.

- ما الذي تخشى أن نكتشفه؟ ما السبب في هذا التشابه القوي بين ابنتك وناتاشا تشيرفونا؟

يضحك دوجسون بعصبية!

- تعتقدين أن لدي بنتاً مختفية. أليس كذلك؟

- دعنا نقل فقط إنني أفضل سحب الحمض النووي الخاص بك لتبديد الشكوك حولك.

- مستحيل هذا الإجراء، ورغم ذلك، سأعطيك شيئاً يمكنك سحب الحمض النووي من عليه.

يفتح خزانة الأثواب. توجد فيها ملابس لنساء تم تخزينها جميعاً في أغطية بلاستيكية!

- خذي ما تريدين منها. إنها لأليس.

تنظر ديان إلى الملابس بدهشة!

- أعتقد أن هذه الملابس قد احترقت أثناء الحريق الذي أصاب غرفة التخزين، وأنك تصدقت بالباقي؟

- لم أستطع التخلي عن بعض الملابس.

يأخذ دوجسون كتاباً قديماً من فوق أحد الأرفف.

- على سبيل المثال، هذه النسخة الأصلية من كتاب «أليس في بلاد العجائب»؛ كنت أهديته إليها في عيد ميلادها الثامن عشر.

تعلق ديان:

- لابد أنه غالي الثمن.

- الكتاب لا يقدر بثمن؛ إنه يشبه أليس؛ فريد من نوعه، ولا يمكن الاستغناء عنه!

ينظر دوجسون بحزن إلى الكتاب القديم، ويمرر إبهامه عليه.

- عندما كانت طفلة، كنت أقرأ القصص لها قبل أن تنام، وكانت تحب ذلك كثيراً؛ لأن البطلة كان اسمها أليس، وكانت شقراء مثلها! قبل اختفائها بقليل، كانت ابنتي تستعد لاقتباس فكرة هذا الكتاب للعمل مع فرقة مسرحية، وكان عليها أن تؤدي دور أليس التي ترعرعت، ثم عادت إلى بلاد العجائب.

أعاد الطبيب الكتاب بعناية إلى مكانه، قبل أن يختم حديثه بقوله:

- أعتقد أن جميع الآباء سيتمنون يوماً ما ألا تكبر بناتهم. أتمنى أن تبقى أليس إلى الأبد في أرض العجائب.

## 23

بمجرد خروج دوجسون، قامت هذه المجموعة الصغيرة من النساء بسحب الطبيب إلى داخل المستودع. ابتعدن به ناحية مكان مخصص للعبادة مكون من منزلين متنقلين متلاصقين جنباً إلى جنب تتشكل منهما غرفة كبيرة. تمكنت ديان من خلال النوافذ، التي تتزين بستائر مطرزة، أن تشاهد كراسي بلاستيكية من أنواع مختلفة، وحوضاً معدنياً مخصصاً للتعميد من قبل الكنيسة الإنجيلية، وطاولة معدنية صفراء مغطاة بملاءة بيضاء. شاهدت ديان صليباً قديماً مثبتاً على الحائط في قبالة بعض السيدات المسنات اللاتي يغطين رؤوسهن بقطعة من القماش ويبكين. كن واقفات أو متكئات على ركبهن، يضعن أيديهن على ظهر كرسي وهن يمسكن بأيديهن المرهقة مسابح من اللؤلؤ ثقيلة.

وقفوا أمام كوخ مُتداعٍ مُشيد من الأخشاب والمعادن الصدئة، وأمامه كان رجل يذرع الأرضَ جيئة وذهابًا، يدخل دوجسون بعد أن تم وضع صورة على الباب. توجد ممرضة ضخمة الحجم تتزين بملاءة بيضاء، شموع نصف ذائبة ينبعث منها ضوء أصفر خافت يشبه الزعفران.

تشاهد ديان يداً ممدودة تمسح جبيناً أصابته الحمى. تتخيل أن الطبيب لم يسافر إلى عالم ثالث بعيد وغريب كما كانت تعتقد ذات مرة؛ لكنه يسافر إلى عالم رابع ينتمي إليهم يوجد بين الطرق السريعة والمناطق الصناعية.

أغلق دوجسون باب المنزل بسرعة شديدة. تشاهد ديان عيونهم قبل أن يختفوا عن الأنظار. لا تعكس هذه العيون أي عاطفة؛ لا خوفاً ولا لطفاً ولا ريبة، لا شيء على الإطلاق!

تستدير ديان وتتّجه صوب مدخل المستودع. هناك بالقرب من أحد أركان السيارة المتنقلة تلتقي مع ستريجا وجهاً لوجه.

يقول لها هذا الغجري:

- سأصحبك إلى الخارج.

تردّ ديان:

- يمكنني الدفاع عن نفسي.

- أنا أرد لك الجميل فقط. الناس هنا ليسوا خطرين؛ إنهم أناس طيبون، ليسوا مثلي.

سارا معاً في الاتجاه نفسه. يفصل بينهما حاجر غير مرئي طوله نحو مترين. وبينما كان ستريجا يدخن السيجار، تلاحظ ديان أن لديه وشماً على ظهر يده اليمنى يشبه رأس قط بري، وعندما أمسك السيجار بين إصبعيه؛ السبابة والبنصر، بدا لها الأمر كما لو أن الحيوان هو الذي يخرج الدخان من فمه!

تسأله ديان:

- لماذا أحدثت كل هذه الجلبة عندما وصلت؟!

- نحن لا نحب أشباهك في هذا المكان؛ فما إن وصلت إلى هنا حتى وقعت مشكلة، في حين أن تاتا يقدم العلاج للكثيرين من الغجر، ولا أحد يريد أن تحدث له مشاكل!

- من هو تاتا؟

- إنه روماني. هذا هو اسمه.

- لقد اعتنى بك أيضاً.

- عندما ولدت، كان الحبل السري ملفوفاً حول رقبتي، لولاه لما كنت أستطيع أن أصرخ صرختي الأولى.

بينما يضغط ستريجا بأصابعه على حلقه يظهر القط الملون على ظهر يده كأنه على وشك أن يغرس أظفاره في حنجرته، لكن عندما تنظر إليه يبدو الوشم، طبقاً لوصف ديان، كأنه قط أليف أكثر منه قطاً برياً!

- أخبر دوجسون أن يبقى في مكانه. قد نضطر إلى التحدث معه مرة أخرى.

- مستحيل، سنسير في الطريق نفسه غداً!

- إلى أين تذهبين؟

- إلى حيث تحملني الريح.

- ماذا لو احتجت إلى التواصل معه؟!

- إننا نعيش في سيارة متنقلة؛ لكننا لسنا متوحشين.

أعطاها قطعة من الورق المقوى مكتوباً عليها مجموعة من الأرقام.

- هل هذا رقم دكتور دوجسون؟

- لا، ليس لديه هاتف.

- كل الأمور معقدة معه. ما الذي يحاول إخفاءه؟!

يقطب الغجري جبينه.

- يتنهد ثم يقول لها:

- لقد حان وقت مغادرتك.

يرافقها ستريجا إلى ساحة انتظار السيارات في ناحية من نواحي المستودع. يقف بيرجر بجانب سيارته، وزيت السيارات يلطخ يديه. يبدو أنه منزعج للغاية؛ لكن سيارته أصبحت جاهزة.

- أخبرني؟ هل نستطيع السير بها؟

بينما يمسح بيرجر جبهته بكمه، يلامس خطٌّ صغيرٌ من الزيوت السوداء طرفَ شعره.

- كان لديهم الوقت الكافي لفك المسامير. وصلت في الوقت المناسب. أعتقد أنهم بصقوا على الأبواب أيضاً!

- من أي جانب؟

- من الجانبين!

عبّرت ديان عن اشمئزازها. تحاول فتح الباب من ناحيتها.

- تتنهد، وهي تقول شيئاً رائعاً.

تضع الكيس البلاستيكي، الذي يحتوي على الفستان الذي جلبته، في المقعد الخلفي، ثم تجلس على المقعد الأمامي. ينطلق بيرجر بسيارته.

- ما هذا..؟!

- يرفض دوجسون السماح لي بسحب عينة من الحمض النووي الخاص به؛ لكنه أعطاني قطعة من ملابس أليس!

- لا تكفى هذه الملابس، نحن بحاجة إلى حمضه النووي!

- إذا كنت تعتقد أنك تستطيع إقناعه فاذهب إليه؛ لكن من دون خطاب من المحكمة. صدقني، لن يعطيك أي شيء.

كانت ديان تود أن تسرق خلسة أيّ شيء من سيارة دوجسون المتنقلة كي تأخذ حمضه النووي؛ لكن الطبيب كان يراقبها باستمرار!

- أيعقل هذا؟! (يغضب بيرجر)، عناده يجعلني أفقد صوابي، إنه لا يرغب في أن نأخذ البصمة الوراثية؛ كل هذا من أجل التعرف على جثة ابنته. أمره غريب..!

- ماذا لو لم يكن هو والد أليس الحقيقي؟! هكذا ألقت ديان هذا السؤال.

يقطب بيرجر حاجبيه.

- لا يبدو عليه الغباء؛ لكن ما الذي يجب علينا أن نقوم به الآن. لم تعد لديه عائلة؟!

- ربما لا يريد نشر القضية على الملأ. أعتقد أنه يحب أن يكون في موقع يمكّنه من السيطرة على الوضع، والمرة الوحيدة التي فقد فيها السيطرة على نفسه كانت عندما ذكرت له اسم زوج ابنته. من الواضح أنه يعدّه مسؤولاً عن اختفاء ابنته.

يحدق بيرجر النظر في عينيها..

- بالحديث عن فقدان السيطرة؛ ما سبب هذه الجلبة التي حدثت مع ستريجا؟!

أدارت ديان رأسها لتجنب نظراته..

- لا شيء يستحق الكلام عن هذا الموضوع. استطعت السيطرة على الموقف.

- نعم؟ لكن أعتقد أن الأمر كان يمكن أن ينتهي بشكل سيئ للغاية، على عكس ما تقولين.

تهز ديان كتفيها كما لو أن كلامه بدا لها سخيفاً.

أضافت:

- لدينا ما يكفي لإجراء اختبار الحمض النووي مرة أخرى. وهذا هو الشيء الأكثر أهمية، وسوف نعرف أخيراً ما إذا كانت أليس أندرسن قد ماتت بالفعل أو لا.

# الجزء الرابع

## 24

السيد أندرسن؟ أتفهم ما أقوله لك حالياً؟

أومأ أندرسن برأسه وهو شارد الذهن. يتناقص الهواء فجأة، ويصبح أكثر كثافة في المكتب الضيق لفريق مكافحة الجرائم ضد الأشخاص. يستدعى بيرجر المحامي.

يكرر بيرجر كلامه:

- اختبارات الحمض النووي إجراء رسمي. هذه الجثة التي تم العثور عليها في غابة نوتردام هي جثة زوجتك.

لا يتفاعل المحامي ولا يتحرك. ظل صامتاً كأنه لا يتنفس!

- شيء ما يثير حفيظتي يا سيد أندرسن. إن عينة الحمض النووي المرجعية المستخدمة في البحث تم سحبها من الأغراض الشخصية التي وافقت أنت على تقديمها أثناء تفتيش منزلك منذ ثلاث سنوات. هل تتذكر ذلك؟!

يبتلع المحامي ريقه وهو يشعر بالألم.

- لا... لا أتذكر شيئاً عن هذه الفترة.

- ألا تتذكر أنك أعطيتنا فرشاة أسنان وبعض الملابس؟!

عندما قارن زملائي عينة الحمض النووي على هذه الأغراض مع العينات المأخوذة من الهيكل العظمي لزوجتك منذ عام لم تكن النتائج متطابقة. كيف تفسر ذلك؟

- لا أعرف... هذا الأمر غير مفهوم!...

يسند بيرجر ظهره على الكرسي، ويشبك ذراعيه بعضهما ببعض.

- هل يمكن أن تأتي امرأة أخرى إلى منزلك، وتستخدم هذه الأغراض؟

- أنا لست خائناً... لم أخن أليس.

- ليس هذا قصدي، ولكن بما أنك تذكرنا بذلك، فإذاً لندخل في الموضوع مباشرةً؛ هل كنت تتردد على شخص ما قبل اختفاء زوجتك؟

- سؤالك مثير للسخرية! لست أنا... لست من هذا النوع من الرجال!

- وفقاً للشهود، إن علاقتك بزوجتك لم تكن على ما يرام، وهذا يفسّر وجود حمض نووي لسيدة على فرشاة الأسنان.

- من قال لك ذلك؟!

- أقارب أليس، إنهم يؤكدون وجود خلافات مستمرة بينكما.

يرد أندرسن وهو غاضب:

- كلامك ليس له معنى؛ كل الأزواج تحصل بينهم هذه الخلافات!

- أحاول استيضاح الأمر منك. يجب حل قضية الحمض النووي!

- أولاً، كيف حصلت على تلك العينة؟! من أين حصلت عليها؟! لقد احترقت كل أغراض أليس أثناء الحريق الذي اشتعل في غرفة التخزين لدينا.

- ذهبنا لرؤية والد زوجتك. هل تعلم أنه يعيش في سيارة متنقلة منذ أكثر من عامين؟

- لا أعرف. انقطعت العلاقات بيننا بعد اختفاء أليس.

يتجهم أندرسن وهو يفرك أعلى وجهه من ناحية العين وكأنه يعاني من صداع.

يسأله بيرجر:

- أتشعر بتحسن الآن؟

- لا داعي للقلق، أنا الآن مشتبه فيه، أليس كذلك؟ لأنني أعطيتك فرشاة أسنان سيئة؟!

- الأمر أخطر مما تتصور. لولا الفستان الذي أعطانا إياه والد زوجتك لما كنا قادرين على معرفة جثتها، ولأنك اعترضت على أخذ بعض ملابس زوجتك؛ من الضروري لنا أن نفهم كيف تمكنت من تقديم عينات مزورة.

يحدق المحامي النظر في الحائط الذي أمامه باستمرار... تبدو عليه علامات الانكسار... الدموع تكاد تنهمر من عينيه. لا يمكن أن يكون هو القاتل؛ لكن بيرجر يعلم ضرورة أن يكون المحقق على حذر من المظاهر الخادعة. أخرج الملف الذي كان قد أعده بمساعدة ديان. ينزع سبع صور لنساء ويضعها جنباً إلى جنب... يحوّل المحامي عينيه من على الحائط، وينظر إليها..

يقول له بيرجر:

- انظر إلى ضحايا محرك الدمى. تم العثور على جثثهنّ في غابة نوتردام. أنت على علم بذلك على ما أعتقد. تقع الغابة على أطراف منطقة سوسي التي لا تبعد كثيراً عن سان مور.

يضع بيرجر أمامه صورة تم التقاطها من الجوّ لمنطقة الغابات.

- تم دفن هؤلاء النساء هنا في شرق الغابة، وتحديداً في مكان يسمى بحيرة الثعالب.

يرسم بيرجر علامة بالقلم الأسود الغامق على الصورة.

- كما ترى المكان على جانب الطريق، من السهولة بمكان إذاً إلقاء الجثة هنا، والتخلص منها بسرعة. يوضح المتخصصون في علم النفس العصبي أن محرك الدمى يذهب إلى هناك بانتظام للاستمتاع بجرائم القتل التي ارتكبها؛ يمثل هذا المكان بالنسبة إليه رمزاً مقدساً!

يرسم بيرجر علامة ثانية بعيدة عن العلامة الأولى على الصورة التي تم التقاطها من الجو.

- هذا هو المكان الذي تم فيه إخراج جثة زوجتك أثناء أعمال الحفر. يقع على امتداد لاجول نوار؛ أي الطريق الذي يوصل إلى الغابة من جهة الغرب. يجب أن تمشي نحو مئة متر داخل الغابة للوصول إلى هناك. هذا هو المكان المثالي لإخفاء الجثة؛ لكن عليك أن تبذل مجهوداً شاقاً للوصول إلى هناك. هل تمارس الرياضة يا سيد أندرسن؟

- لا (يرد عليه أندرسن بطريقة آلية) كنت أمارس رياضة كمال الأجسام أثناء فترة إعادة التأهيل.

- تخيل، إذاً، كيف يمكن حمل عمود رفع أثقال يبلغ وزنه ستين كيلوغراماً لمسافة تبلغ مئات الأمتار في أرض وعرة! لهذا السبب وبشكل عام، إن القتلة لا يتحملون حمل جثث أكثر من عشرين أو ثلاثين متراً من حافة الطريق؛ حتى بالنسبة إلى شخص قوي، سيكون مرهِقاً جداً له حمل جثة بمثل هذا الوزن الثقيل!

يشعر أندرسن بالإهانة، ويقول:

- أنت تتحدث عن زوجتي.

- أنا أتحدث بشكل أساسي عن الشخص الذي قتلها، وحفر حفرة بعمق يزيد على متر ونصف المتر لإخفاء جسدها، بينما لم يكن عمق أيّ من الحفر الأخرى التي حفرها محرك الدمى يزيد على متر.

يظهر الاضطراب على وجه أندرسن..

- لماذا تخبرني بكل هذه التفاصيل؟!

- لأنني أحاول أن أجعلك تدرك أن قاتل أليس حاول خداع الشرطة. هناك مسرحان للجريمة يحملان آثار قاتلين مختلفين؛ أحدهما يأمل ألا يتم العثور على الجثة، وآخر يرغب في أن يكون الوصول إليها سهلاً.

يُظهر بيرجر صورة جديدة عبارة عن شيء صغير أبيض مدفون في أرض موحلة.

- أتعرف هذا؟

- إنه يشبه العظم!

- نعم هو كذلك. عندما قمنا بإزاحة الأتربة من القبر، الذي يوجد في منطقة لاجول نوار، عثر الفنيون على عظمة الترقوة التي توجد بمستوى الحلق، وكما ترى هي سليمة لم يلمسها أحد، ورغم ذلك، غالباً ما يتم كسرها عندما يتعرض الإنسان للخنق بعنف، هذا ما حدث لجميع ضحايا محرك الدمى الآخرين؛ لقد قام بخنقهن حتى الموت.

- أيعقل هذا؟!

يضع على المنضدة صورة القفص الصدري، الذي تم العثور عليه في منتصف أرض الغابة الموحلة.

- هذا هو التناقض الأول. هناك شيء آخر يجعلني أقول إن هذه الجريمة مكتملة الأركان. ألا ترى العلامات فوق الضلوع؟! هذه آثار جروح. أعتقد أن هذه علامات خلّفتها طعنات بسكين، ونحن نعلم أن محرك الدمى يعمل وفقاً لنمط سلوكي محدد؛ فهو يستخدم الخيوط والأحزمة والمواد الصلبة، لكنه لا يستخدم الأسلحة الحادة. جروح أليس في الصدر لا تتناسب مع هذا النمط.

- وماذا عن جروح أليس؟

يركل المحامي الأرض برجليه بشكل عنيف، فيبتعد الكرسي عن المكتب محدثاً صوتاً قوياً.

- أيعقل هذا؟! أتريد أن تقنعني بأن الصور التي تعرضها علي هي صور جثة زوجتي؟! أنت قطعًا مخبول!

يعيد بيرجر الصور بهدوء إلى مكانها، ويتابع كلامه:

- وجدنا أيضاً في القبر آثاراً لمواد كيميائية تقودنا إلى الاعتقاد بأن القاتل كان يحاول تسريع تحلل الجثة. لقد فعل كل شيء حتى لا نستطيع أن نتعرف عليها؛ حتى أنه أعطانا عينة مزيفة من الحمض النووي.

- أنت تتهمني بقتلها؟! أنت تعبث بي، الوقت كله يوم اختفائها موزّع بين مكتب المحاماة والمحكمة! حدث هذا بشهادة زملائي؛ اسأل فرانك باتيستي شريكي.

تظهر على قميص المحامي بقع العرق عند مستوى الإبطين. يُخرج بيرجر صوراً جديدة من الملف عبارة عن لقطات لحادث سيارته؛ الورقة التي طبعت عليها الصورة مجعدة، انعكاسات أضواء النيون المتوهجة تظهر في الصورة، بلاغات عن المفقودين منتشرة في كل مكان. تتقلب نظرات أندرسن بين صورة وأخرى دون أن تستقر على أي منها. لا يستطيع التعرف على أي منها؛ علماً بأن رجال الإطفاء قطعوا جزءاً من سيارته بمنشار لإنقاذه، لكنهم عندما أخرجوه من السيارة المحطمة وجدوه مغشياً عليه.

- ألا تشاهد هذا الصندوق الكبير؟!

يشير بيرجر بإصبعه إلى صندوق معدني عرضه أكثر من متر وعميق جداً خرج من الصندوق الخلفي للسيارة بعد الاصطدام.

- ألا تخبرني لأي غرض تستعمله، وكذلك المجرفة التي توجد بجانبه؟!

- لا أعرف، هي مجرد معدات تستخدم في الحديقة.

- تقرير إدارة الإطفاء يذكر أنك كنت ترتدي أحذية مطاطية متّسخة بالتراب بشكل كبير؛ الأمر الذي يوحي بأنك كنت تسير في الغابة. ربما كنت تريد زراعة خضراوات في منتصف الليل!

يلتزم المحامي الصمت. يشعر بيرجر أنه على وشك الانهيار. كنت أعتقد بأنه بريء منذ ثلاث سنوات حتى إني ذهبت لرؤيته عندما أفاق من الغيبوبة في المستشفى، وأنني تعرفت عليه على الرغم من كل الضمادات التي كان ملفوفاً بها إلى الدرجة التي بدا معها مثل اليرقة في شرنقتها. نعم، كانت السيارة المملوكة لزوج أمه قديمة، ومن دون وسادة هوائية، ولهذا اصطدم رأسه مباشرة بعجلة القيادة وقت الحادث.

- انتبه الآن إلى كيفية تتابع الأحداث... أنت الذي قتلت زوجتك، وأنت الذي وضعت جسدها في الصندوق وذهبت لدفنها في منطقة نوتردام؛ لكي يَظهر أن محرك الدمى هو الذي قتلها، لكنك أوقعت نفسك في مشكلة! أنت طعنتها، وهذا يتعارض مع أسلوب محرك الدمى مع ضحاياه. أنت تعرف ذلك! لكنك قلت لنفسك إذا تحولت جثتها إلى هيكل عظمي، فعندئذٍ يمكن اعتبار أليس إحدى ضحاياه؛ لذلك قمت بتسريع تحللها بالمواد الكيميائية، وكل ما تحتاجه كان في كراج والد زوجتك؛ علاوة على ذلك، أخذتَ المجرفة التي وجدناها على الطريق السريع من الكراج. أليس كذلك؟ تمت خطتك بنجاح أفضل مما كنت تتوقع!

ولأنك تعرضت لهذا الحادث على الطريق الدائري، أصبحت الضحية المسكينَ وفوق كلّ الشكوك، وعندما قلت إنك تعاني من فقدان الذاكرة، صدقك الجميع؛ لكن الواقع يقول ربما تكون أنت من فعل ذلك. ربما نسيت اقترافك لجريمةِ القتل! هذا لا يهمني، الحقيقة قائمة على الدليل. أنت الذي قتلت زوجتك يا سيد أندرسن!

- أنا لم أقتل أليس! لماذا أفعل ذلك؟!

- من أجل الحصول على نقود التأمين على الحياة، أو لأنها كانت تحب رجلاً آخر؟

- هذا يكفي.

- أَلأنني أصبتُ كبد الحقيقة؟ هل كان لها عشيقٌ؟ ألم تخطط للتخلي عنك؟ هل همَّت بهَجرِكَ؟

- لا، انظر هنا. هذا الشيء يجعلك تقتنع بأنني أخبرتك الحقيقة.

يسحب بيرجر آخر صورة في الملف لوجه ناتاشا تشيرفونا، التي تم التقاطها أثناء تشريح جثتها.

- لقد تم قتل هذه المرأة بالطريقة نفسها التي يستعملها محرك الدمى، وكما ترى هي تشبه أليس إلى حد كبير جداً. أنت تعرف هذا. أليس كذلك؟!

يبدو أن المحامي تخور قواه بعد أن كان واقفاً، ويجلس مرة أخرى دون أن ينبس ببنت شفة، كما لو أن مسألة موت الضحيَّة أفرغت منه كل حسٍ للجدال وجعلته يؤثر السكوت!

- نعم. مأمور الشرطة جيريكو جعلني أرى الصورة التي بحوزته. أريد مقابلته. أريد التحدث معه.

يتجاهل بيرجر طلبه.

- وجدنا البلاغات عن المفقودين الخاصة بك في محطة المترو، الذي تستقله زوجتك في الصباح والمساء للذهاب إلى العمل.

وجدنا أيضاً بصمات أصابعك في الغرفة التي استأجرتها في منطقة مونتروي.

يجلس المحامي في الكرسي بارتياح شديد، ويتمتم بكلمات غير مفهومة.

- أنا... لقد شرحت بالفعل كل ذلك لمأمور الشرطة جيريكو. كنت أعتقد أنها أليس. ذهبتُ إلى منزلها؛ لكنني لم أقابلها هناك.

يحرق بيرجر آخر بطاقة له من أجل أن يجبره على الاعتراف.

- وزيارتك لهينكر في السجن؟ هل جيريكو على علم بها؟

يبدو على أندرسن الاستغراب؛ فالشفاه مستديرة والعيون جامدة. ينحني بيرجر إلى الأمام فوق الطاولة، ويضبط صوته ليجعله أكثر جودة مثل صوت الآباء في الكنيسة أثناء مراسم طقوس الاعتراف.

أعلم أنك ذهبت لرؤيته هناك يا كريستيان. أتفهم ما حدث؟! الله وحده يعلم كيف جعلته يثق بك! هو من قصّ عليك جرائمه. يقول المتخصصون في علم النفس العصبي إن محرك الدمى منحرف يعاني من اضطراب الشخصية النرجسية؛ فهو فخور بما فعله. لم يبخل عليك بسرد التفاصيل التي تتعلق بجرائمه كافة، وأنت كتبت كل شيء، واستخدمت ذلك لجعل حادثة مقتل ناتاشا تبدو كأنها الأكثر واقعية مقارنة بمقتل أليس!

يغمغم أندرسن ثم يقول:

- أنت مخطئ.

يضرب بيرجر المنضدة فجأة بيده، فينهض المحامي واقفاً!

- ليسترح ضميرك يا أندرسن. كل ما في هذا الملف يثبت أنك قتلتها؛ أنك قتلتهن.

- أيها الرائد بيرجر.

تجمّد بيرجر في مكانه. لم يكن أندرسن هو الذي يقاطعه، ولأنه كان متحمساً إلى أبعد درجة، لم ينتبه إلى رئيسه وهو يفتح باب المكتب!

- من الضروري أن أتحدث معك في الممر.

- ليس الآن. لديّ جلسات استماع كثيرة!

- الأمر عاجل.

توحي نبرة صوت رئيسه بالحدة والقوة؛ لكن بيرجر يمنع نفسه من شتيمته، ويوجه الأمر إلى أندرسن بعدم التحرك. يتبع رئيسه خارج الغرفة.

- يسأله بيرجر، ماذا؟ الذي حدث؟

- انتهى كل شيء. عليك أن تطلق سراحه.

- ماذا تقول؟! لكن أندرسن متورط في هذه الحادثة؛ إنه يعترف بكل شيء... لم يحن الوقت بعد!

- انتهى كل شيء، يا إريك. هذا قرار نائب المدير النهائي؛ فرقة مكافحة الجريمة هي الآن المكلفة بمتابعة القضية، ومأمور شرطة تابع لهم موجود هناك بالفعل.

بيرجر يوجه الكلام إلى رئيسه:

- تقول مأمور شرطة! إذاً يجب عليك أن تراقب أندرسن.

يجري بيرجر عبر الممر مثل الثور الهائج. ينتظر جيريكو في البهو، وهو يشبك ذراعيه على صدره العريض.

- ما هذا اللغط الشديد يا ثيو؟! ألا تعلم أن هذه القضية تخصني، وأنني قمت بعمل تحريات منذ اليوم الأول للحادثة؟!

عندما تعمل فرقتان بالمصادفة على القضية نفسها، فإن البروتوكول المتبع يقضي بأن يُعهد بالتحقيق إلى الفرقة التي أثمرت جهودها في تحقيق نجاح كبير، أو إلى الفرقة التي تسبق الأخرى في الترتيب الوظيفي.

يصرخ بيرجر بصوت مرتفع جداً:

- أنا أعمل على هذا الملف منذ ثلاث سنوات، ولن أدعك تسرق نجاحي، وأنا على مرمى حجر من نقطة النهاية! أندرسن موجود في مكتبي. هو على وشك الاعتراف. ألا تفهم!

- لم آتِ إلى هنا لأتناقش معك. مهمة فرقتك هي العثور على المفقودين، أما مهمتي فتنحصر في التحري عن جرائم القتل. أنت عثرت على الفتاة، وأنا سأعثر على القاتل.

- إن ناتاشا وأليس تم قتلهما على يد أندرسن. هل تعلم ذلك؟!

- كلام هراء.

- ماذا؟! ألن تطلب من القاضي توجيه لائحة الاتهام إليه؟!

- لا، فأنا أعدّه مجرد شاهد.

- أيعقل هذا يا ثيو؟! أنت أعمى البصر أم ماذا...؟!

يقترب من جيريكو جداً إلى درجة أن الحراس في المدخل كان لديهم انطباع بأنه سيضربه على رأسه.

- لدي دليل على أنه قابل هنكر. لقد استلهم أسلوبه في إخفاء جريمته!

- تقول هنكر؟ كيف عرفت؟! أتتقابل مع كيليرمان؟!

- لا، من هي كيليرمان؟!

- لا تكذب عليّ. لقد تحدثت معها. أنا متأكد من ذلك؛ هي فقط التي تعتقد أن هنكر هو محرك الدمى؛ إنها مهووسة بهذا الرجل!

- ما شأنك أنت بمتابعتي لها؟! لدي حزمة من القرائن ترقى إلى درجة اليقين وتُدين أندرسن.

- لا أعرف ما الذي قالته لك. هل أنت على علاقة بها أو أي شيء من هذا القبيل؟! أعتقد أنها أفسدت عقلك يا عزيزي!

نصيحتي المخلصة لك: ابتعد عن تلك الفتاة، وتوقف عن ارتكاب هذه الحماقات، وذكّر كيليرمان بوعيدي لها: إذا وقفت في طريقي، فسوف أمحو اسمها من الوجود.

## 25

هناك أناس يتركون أثراً راسخاً لا ينمحي، وعندما يغادرون يغادر جزء منا معهم!

ما تزال الكلمات، التي قالها القسّ خلال مراسم تشييع الجنازة، تتردد في ذهنه. ينظر من بعيد إلى العمال وهم يعيدون إغلاق القبر الخاص بعائلة دوجسون. يقف أندرسن على بعد عشرة أمتار بالقرب من حافة أحد الممرات المرصوفة بالحصى في مقبرة رابلي. ينظر إلى والد زوجته وهو ينتصب على قدميه، وجهه شاحب مثل ضوء الشمعة. يقف شارل دوجسون أمام قبر زوجته وابنته. يبدو أنه مستغرق في عبادته الصامتة. ينتبه أندرسن إلى دوجسون وقد بدت عليه أعراض التّقدم في العمر وعلامات الإجهاد، وكأن عشر سنوات مرت على وفاتها وليس ثلاث سنوات!

انتهى دوجسون من تفكيره الصامت. بدأ السير في الممر ومنه إلى الباب الخارجي، وما إن مرّ من أمامه حتى تبعه أندرسن بسرعة؛ فمنذ بداية مراسم تشييع الجنازة وهو يحاول اغتنام اللحظة المناسبة للاقتراب منه.

- يسأله دوجسون بصوت بارد:

- ماذا تريد؟!

- أُمنّي نفسي بتناول القهوة معك.

- لماذا هذه الدعوة؟!

يخلع دوجسون نظارته الشمسية، التي كان يرتديها طوال مراسم تشييع الجنازة؛ حيث كان يعاني من جفاف عينيه الزرقاوين.

- أريد أن أتحدث معك عن أليس.

- ليس لدي ما أقوله لك يا كريستيان لا الآن ولا في أي وقت.

يعاود دوجسون السير مرة أخرى بسرعة، بينما يغلق أندرسن قبضة يده بعصبية.

- لكن وبحق الله يا شارل، ما الذي اجترّ عليّ سخطك وغضبك على هذا النحو؟!

يلتفت دوجسون، وينظر إليه بحدة، ثم يلوّح بسبابته كما لو أنه يوبّخ طفلاً!

- لا تقسم ونحن في هذه المقبرة يا أندرسن.

بدا وجه الطبيب باهتًا كأنه مصبوغٌ باللونِ الأرجواني، وصوته يرتعش من شدة الغضب!

- أتريد أن تعرف ما الذي فعلته بي؟ لقد أقسمت لابنتي أمام مذبح الكنيسة أن تحبها، وتحنو عليها، وتحميها مهما حدث؛ لكنك لم تحترم قسمك!

ينظر أندرسن إلى أسفل منه نحو الحصى الأبيض والأعشاب التي تنبت في الممر دون تدخل من أحد، بينما يشير دوجسون بيأس إلى شواهد القبور المصطفة.

- استغرق العثور على الجثة ثلاث سنوات... يستكمل دوجسون حديثه.. ثلاث سنوات.. نعم ثلاث سنوات وأنا أنتظر العثور عليها، أتتخيل ما كنت أعانيه؟!

- ماذا تظن يا شارل؟ ألم يكن الأمر صعباً بالنسبة إلي أيضاً؟! كنتُ أعتقد دائماً أنها على قيد الحياة طوال هذه المدة.

- يكاد يجن جنوني من هذا الحديث الممل. كنت أرسل إليها رسالة كل أسبوع. فعلت كل شيء... كل ما كان بوسعي، والآن لا أستطيع فعل شيء. انقطع الأمل!

- بعد كل ما حصل، كيف كانت ستستمر هذه العلاقة يا شارل؟

ظل الرجل الكبير صامتاً. لصفير الريح صوت مسموع بين القبور. يتحرك الغبار فتتّسخ أثوابهم.

يواصل أندرسن كلامه:

- ولأنني أعتقد أن هناك قاتلاً حرّاً طليقاً، ولأن هناك شخصاً ما ملطخة يداه بدماء أليس، ولأنني أضعتُ ثلاث سنوات في البحث عنها، أصبح لزاماً عليّ أن أقتفي أثره.

الأفكار تغزو رأس الرجل الكبير، وبعينين باردتين دامعتين، يحدق دوجسون النظر إلى أندرسن...

- ابتعد عن هذا الطريق يا كريستيان. لن تحصل على أي نتيجة مفيدة!

- ألا تريد أن تعرف من الذي قتل ابنتك؟! ألا تحب أن تجلس في الغرفة نفسها التي يعيش فيها، ولو حتى لخمس دقائق فقط؟!

- الانتقام لن يوصلك إلى أي نتيجة. أليس لم تطلب ذلك!

- وما الذي تريده أليس في رأيك؟!

أدار دوجسون ظهره له، وذهب ناحية بوابات المقبرة.

- قل لي ما الذي تريده أليس؟! يصرخ أندرسن في وجهه.

يرد دوجسون دون أن يلتفت إليه:

- ارجع إلى المنزل. دع الشرطة تقوم بعملها. ابدأ حياة جديدة مع سيدة أخرى، ولا تسعَ لرؤيتي مرة أخرى.

ينظر أندرسن إلى والد زوجته يمشي بعيداً ويغادر المقبرة.

وما هي إلا بضع خطوات متتابعة حتى ترك أليس إلى حيث مثواها الأخير، ثم توجّه إلى سيارة باتيستي.

يبدو وجه صديقه منتفخاً وعيناه حمراوين بسبب البكاء؛ فكلاهما يعرف أليس منذ مسابقة الخطابة التي أقيمت في مؤتمر المحامين في نقابة المحامين في باريس. حاول باتيستي التودد إلى أليس أثناء الاحتفال بنجاحهما؛ لكنها تجاهلته، ورغم ذلك ظلا صديقين، ولأنه لم يغضب، ساعدها في الحصول على عمل ضمن فريق مكتب فينيول للمحاماة عن طريق صديقة له تعمل مشرفة هناك؛ حيث أخبرته أنهم يبحثون عن متدرب في قانون الضرائب، وعندما عرَض باتيستي على أليس هذه الوظيفة وافقت على الفور، وتقدمت بطلب للعمل بنجاح.

استمرا في السير معاً عدة كيلومترات قبل أن يكسر باتيستي حاجز الصمت في نهاية المطاف.

- وماذا بعد؟! هل تحدثت مع والد زوجتك؟

يعرف باتيستي أن العلاقة بينه وبين دوجسون متوترة دائماً. لم يكن أندرسن هو زوج البنت الذي يحلم به الطبيب؛ على العكس تماماً، كان يفضل لابنته زوجاً من أسرة عريقة، زوجاً وقوراً يذهب إلى القداس يوم الأحد، وأن يكون طبيب أسنان، أو مديراً عاماً تنفيذياً، أو كاتب عدل، لا أن يكون محامياً معيناً من قِبل المحكمة يتيماً وليس لديه ثروة.

يرد أندرسن عليه وهو حزين:

- إنه يحملني مسؤولية موتها!

يفرك جانب وجهه من العين إلى الأذن. كان يود أن يشرب شيئاً ما لتهدئة الصداع النصفي الذي أصابه؛ لكنه بَلَع مجموعة من الحبوب المسموح بها في اليوم الواحد.

- ماتت بسبب هذا السّفاح النذل يا كريستيان. أخبرك بذلك لأنه يتألم. الحقيقة أنه يعرف جيداً أنك غير مسؤول عن موتها.

تقول إنه يتألم؟ أنت لا تعرفه، إنه بارد كالجليد؛ هذا الرجل لم يذرف دمعة خلال مراسم الجنازة. هل تعتقد أن من الطبيعي ألا يبكي الأب أثناء دفن ابنته؟!

يهز باتيستي كتفيه وهو منزعج مما حدث.

يتابع أندرسن كلامه:

- يبدو كما لو أن قلبه محاط بجدار زجاجي. لم يعد لي مكان في حياته. يتخلّص مني كما يتخلص الإنسان من الورم. لم يذرف دمعة

واحدة؛ بينما أنا..! أنا لا أستطيع ألا أبكي، لا أستطيع أن أقبل أن الأمر قد انتهى، وأنني لن أراها مرة أخرى!

تحول ربطة العنق بين أندرسن وبين التّنفس بسهوله، فيحلّها بحركة حادة.

- اهدأ يا كريستيان. لقد أقام المأتم بالفعل منذ ثلاث سنوات. كان يعلم أنها لن تعود.

زادت المسافة التي قطعاها نحو كيلومتراً واحداً أو كيلومترين دون أن يتكلما كلمة واحدة! عندما أمعن النظر في كلمات باتيستي الأخيرة، أدرك أندرسن إلى أي درجة كان يعيش في وهم. نعم يشعر الناس خلال مراسم الجنازة بالألم؛ لكنهم لا يعيشون حالة من الحزن الشديد. إنهم يتفهمون منذ فترة طويلة أن أليس لم تعد أليس من ساكني هذا العالم!

مرة أخرى، يبدأ باتيستي الكلام:

- لماذا ذهبت لمقابلة ذلك المدعو هنكر في السجن؟!

يحرك أندرسن نافذة السيارة إلى الأسفل؛ لأنه بحاجة إلى أن يتنفس الهواء النقي. تسيل حبات العرق على قميصه وتلامس جلده!

ولأن الشرطة ما تزال تشتبه في أنه هو محرك الدمى، يجب عليه إذاً أن يبدأ تتبع مسار هذا الخط. ربما الشرطة تعتقد أنه هو من قتل أليس.

فالعظام البيضاء اللامعة والأرض الموحلة البنية وصورة جثة أليس لا تفارق خياله! يقترب برأسه قليلاً بالقرب من نافذة السيارة لكي يشعر بأن تيّار الهواء شديد البرودة يلامس وجهه!

- وهل تعتقد حقاً أنه سيعترف لك باسم القاتل حتى ولو كان هو الذي قتلها؟

يتجنب أندرسن الردّ على السؤال.

- لا يهمني سؤالك. على أي حال، هناك خطأ؛ حيث تم سجنه قبل اختفاء أليس بشهرين. كما أن موريس نسي ذكر هذه التفاصيل لي.

- ومن يكون موريس؟

- هو الذي يساعدني من أجل العثور على أليس.

- لماذا لم تخبرني بهذا الأمر؟!

لا أجد في صوت باتيستي ما يدل على أنه نادم! لم يكن في وضع يسمح له بإعطاء دروس في الشفافية، وكان يعرف ذلك جيداً.

- كان من الضروري أن أخبرك بهذا الأمر منذ فترة.. هكذا يعتذر أندرسن.

- الجو حار جداً هنا أم أنه مجرد شعور زائد على الحد؟! على أي حال، الرياح التي تداعب وجهه تجعله يشعر بالراحة، وعندما يغلق عينيه يتخيل صورة جثة زوجته من جديد؛ لكن جسده هذه المرة كان يرتعد بعنف، ومعدته ترتجّ، ويشعر بطعم سائل شديد المرارة في حلقه!

يصرخ في وجه باتيستي:

- توقف على الفور.

صوت احتكاك المكابح يزداد قوة، فتقف السيارة، وتهتز بشدة. يقفز أندرسن منها.

وما إن سار ثلاث خطوات على العشب الموحل حتى تقيأ كمية كبيرة من حمض المعدة. يستند بكفيه على ركبتيه، ويشعر بغثيان شديد. يقف إلى جانبه باتيستي ويضع يده على كتفه.

بعد فترة وجيزة، تهدأ التقلصات التي أصابت معدته، ويتمكن من الوقوف. يملأ أندرسن صدره من الهواء البارد، ويضبط شعره المبلل بالعرق، وتتوقف ساقاه عن الارتعاش. يسير نحو السيارة، ويتبعه باتيستي

الذي يبدو عليه القلق، ويقترح عليه أن يقضيا معاً بقية اليوم لكيلا يكون بمفرده في شقته، فيرفض أندرسن بأدب؛ لأن لديه فكرة أخرى تدور في رأسه؛ فمنذ يومين طلب من موريس البحث عن عنوان فاليري التي تعمل في مستشفى أوتيل دو ديو، والتي تشبه أليس كثيراً، ولأنه أثناء مراسم الجنازة أعطاه المحقق الخاص مظروفاً مدوناً عليه عنوانها، وكان أندرسن مصمماً على الذهاب لمقابلتها بعد ظهر ذلك اليوم.

## 26

تعيش مدينة بورنيل الصغيرة، التي تقع ضمن حيز منطقة بيكار في محيط منطقة التاج الباريسي الثالث، على إيقاع حركات سكانها التّذبذبية ذهاباً وجيئة. في الصباح، يحتشد الركاب النائمون على أرصفة المحطة، وفي المساء، تتحرك موجات طويلة من سكان الضواحي المتعبين في طريق عودتهم إلى مساكنهم الكئيبة المنتشرة وسط الحقول.

تعيش فاليري رومر في مبنى بالقرب من وسط المدينة عبارة عن مكعب من الخرسانة لا جمال فيه. توجد حديقة فيها عشب يابس وتتناثر على أرضها الألعاب البلاستيكية التي أهلكتها حرارة الشمس. الجلبة المبهجة التي أحدثتها أصوات الأطفال ترتفع من خلف البيوت الصغيرة. يطرق الباب فتفتح فاليري رومر الباب. تلاشت الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها عندما عرفته!

- تتساءل بصوت بارد: ما الذي تفعله هنا؟!

كانت ترتدي فستاناً أحمر وجوارب داكنة تخفي ما أصابها من أورام دموية، وبسبب الحمرة التي تظهر في الأفقِ حين غربت شمس ذلك

اليوم، بدت أجمل بكثير من كيس العظام الباهت الذي أخذه لزوجته في مستشفى أوتيل دو ديو.

لم يندهش من رؤية تراكم طبقات مُورِّد الخدود والماسكارا على وجهها؛ بينما كانت يدها مغطاة بضمادات، وينتشر على جلدها قليل من العلامات الزرقاء، الأمر الذي جعله يعتقد بأنها تعرضت للضرب منذ فترة قريبة!

يقول لها:

- يجب أن أتحدث معك.

ترفض طلبه، وتقول:

- كيف وجدت عنواني؟!

لم يرد أندرسن على سؤالها؛ لكنه أخرج صورة ناتاشا تشيرفونا، ففوجئت فاليري عندما لاحظت التشابه الشديد بينهما.

يسألها أندرسن:

- أتعرفين هذه المرأة؟

- لا، لماذا؟

- لقد تم قتلها، تماماً مثلما قُتِلت زوجتي التي تشبهها شبهاً قوياً، ومن المحتمل أن تكوني أنت الضحية التالية يا فاليري.

- أيعقل هذا؟! تغمغم فاليري وهي تمسك بقوة عقد اللؤلؤ الذي يحيط برقبتها.

تطلب منه الدخول. يمرّان عبر البهو المليء بالأحذية الصغيرة، ومنه إلى الممر، وهي تقول له هذا عيد ميلاد ابنتي. يدخلان القاعة. كانت الأرضية المبلطة مغطاة بقصاصات الورق الملون، وكانت بقايا الحلوى متناثرة على الأطباق الورقية فوق الطاولة في الصالون.

- سأطلب من الأطفال ألا يدخلوا المنزل ونحن نتحدث.

عندما فتحت فاليري النافذة الزجاجية التي تطل على الحديقة، عمّت في الصالون الأصوات المبهجة للأطفال، الذين كانوا يلعبون في الخارج. وفي أثناء انتظار عودتها، ألقى أندرسن نظرة على صور ابنتها وعائلتها التي توجد داخل ألبومات فوق المدفأة.

تسأله بصوت ضعيف:

- من أنت؟

تظهر إلى جواره بنت تبدو كالأميرة تبلغ من العمر ثماني سنوات؛ فستانها الشفاف المطرز بالخرز اللامع يتدلى خلفها. بدت مثل كل ملكات المستقبل، تضع تاجاً على رأسها، وتتزين بمجوهرات لامعة في يدها.

- أنا كريستيان (هكذا يرد عليها أندرسن وهو ينزل إلى مستوى طولها ويجلس القرفصاء) وأنتِ؟ ما اسمكِ؟

تقطب صاحبة الرأس الصغير المتوج بالتاج جبينها، الذي تفوح منه رائحة مسحوق الغسيل المنعش، وحلوى الفراولة، وتردّ عليه:

- ما هكذا يكون السؤال. يجب عليك أن تقول:

وأنت يا صاحبة السّمو. ما اسمكِ؟

عيونها كأنها كرة مضيئة شفافة تتصنّع البراءة.

ثم قالت:

- أنت لست أبي. إذاً، لماذا أنت هنا؟!

ماذا أقول لها؟!إنني جئت لمقابلة والدتها لطلب مساعدتها في تعقب سفاح النساء؟!سأرتجل الكلام قدر استطاعتي.

يقول:

- أنا أعمل مراقباً.

- وماذا يعني مراقب؟

- نعم، أراقب الحلوى. يجب أن أتحقق من أن لون وشكل جميع الحلوى مطابقان للمواصفات.

- ماذا لو لم تكن كذلك؟

- آكلها كلها.

- لا، لا تأكلها. تندهش الأميرة الصغيرة!

عندما رجعت فاليري رومر إلى الصالون، شعرت بالقلق لأنها رأت أندرسن يجلس القرفصاء بجانب ابنتها.

- ابنتي حبيبتي اذهبي إلى هناك. لا تزعجي الضيف. يجب أن أتحدث معه في موضوعات مهمة.

تمسك ابنتها من كتفيها وتأخذها إلى الحديقة. تشاهد الأميرة الصغيرة وهي تلعب مع مجموعة من الأطفال يرتدون زي الفرسان. تغلق النافذة الزجاجية، وتسحب الستارة، فتحجب أشعة الشمس، ويخيّم على الصالون الظلام والسكون بشكل نسبي.

تسأله وهي تضع خصلة من شعرها خلف الأذن:

- هل تدخن السجائر؟

يرد عليها:

- أنا لا أدخن.

تفتح فاليري رومر درج الخزانة بجوارها، وتسحب منه علبة سجائر مارلبورو، ثم أشعلت سيجارة، وبدأت تدخّن بعصبية!

- قلت لي ما اسمك إذا سمحت؟

- كريستيان أندرسن.

- وما موضوع القتل هذا يا كريستيان؟ ولماذا أتيت لمقابلتي؟

يحكي لها عن اغتيال ناتاشا في غابة فانسان، وعن اكتشاف جثة زوجته في غابة نوتر دام. تسمح له فاليري بالاسترسال في الكلام دون مقاطعة. يغمض عينيه، وهو يتحدث مثل الجندي الذي يتفاجأ بانفجار قنبلة يدوية، وما إن أمسك عن الكلام حتى سألته بصوت جاف:

- هل تعتقد أنني الضحية التالية؟ أن هذا القاتل سيلاحقني؟

ساد الصمت برهة من الزمن..

- في واقع الأمر، أعتقد أنه اعتدى عليك من قبل في الليلة التي التقينا فيها، وكنت تعانين من آثار تجمع دموي كثيف، إلا أنك قلت إنه بسبب السقوط على الدَّرج؛ لكن كلانا يعرف أنك تكذبين.

أشاحت فاليري رومير عنه وجهها.

- لم أتعرض للاعتداء، بل كان حادثاً.

- أنا لا أصدقك. فيك هو الذي ضربك، أليس كذلك؟ في الليلة التي التقيناه فيها، وأنت سألتني: هل فيك هو الذي أرسلك؟ إنه هو الذي هاجمك. أليس كذلك؟

أطفأت سيجارتها بعصبية في صحن يستعمل مطفأةً للسجائر!

ردّت عليه وهي تهز رأسها:

- من الأفضل لنا أن نتوقف عن الحديث في هذا الموضوع عند هذا الحد. أنت لستَ شرطياً، وأنا لستُ مجبرة على الإجابة عن أي سؤال.

يقاطعها أندرسن بحدة ويقول:

- إذا لم تخبريني عن التفاصيل، فسأتصل بالشرطة بمجرد خروجي، وسنرى المدة التي يستغرقونها في تناول الحلوى قبل أن يأخذوك إلى مركز الشرطة لسماع أقوالك.

تبدو علامات الاندهاش غير المتوقعة على محيّا فاليري رومر.

- لا تخبر الشرطة بذلك.

يرد عليها أندرسن بصوت جاف:

- إن زوجتي ماتت، وحضرتُ مراسم الدفن منذ أقل من ساعتين. نعم، إذا تطلّب الأمر إفساد حفلة عيد ميلاد ابنتك من أجل اعتقال قاتل زوجتي سأفعل ذلك من دون تردد. أسألك للمرة الثانية: من فعل هذا بك؟

صمت القبور يعمّ جنبات الصالون. تحدق فاليري رومر النظر إليه مدة طويلة، ويبدو عليها القلق!

- أنا...هذا صحيح؛ إنه فيكتور. أخيراً صرّحت باسمه. كان هذا بسبب الحادث؛ كنت في السيارة عندما مرّ بي ليوصلني في نهاية الدوام؛ لكننا تشاجرنا لأنني رقصت مع زميل لي في العمل. كنت أرغب في النزول من السيارة. نزعتُ حزام المقعد، وفتحتُ الباب؛ لكنه سار بالسيارة، ففقدتُ توازني وسقطتُ على ركبتي ويديّ، وارتَطَم رأسي بالباب. كرّرت كلامها بأن الواقعة عبارة عن حادث ليس إلا.

- لماذا ذهبت إلى المستشفى بمفردك، إذا كانت الواقعة حدثت عن طريق المصادفة؟!

- كان عليه أن يذهب إلى العمل. إنه يعمل حارساً ليلياً في متجر كبير. أضف إلى ذلك أن الخطأ كان بسببي أنا.

- وبالنسبة إلى اسمك؟ لماذا لم تعط الطبيب إياه؟!

لا تردّ على السؤال!

- هل بسبب المخدرات؟ يصرّ أندرسن على طرح السؤال.

تحدق فاليري رومر النظر إليه بحدة.

يستمر أندرسن في حديثه:

- قرأت سجلك الجنائي. أنت خرقت القانون بسبب حيازة المخدرات وتعاطيها، وإذا كنت أتذكّر جيداً: الكوكايين.

تعترض على كلامه، وتقول وهي تحكّ ذراعها بطريقة آلية:

- سجلّي نظيف منذ سنوات.

- لا تكذبي عليّ يا فاليري. أنا لست بحاجة إلى أن أكون عبقرياً كي أدرك أنك تخشين العثور على آثار لمخدرات في الدم عندما ذهبتِ إلى المستشفى. هذا هو سبب رغبتك في مغادرة المستشفى عندما تحدثت الممرضة عن إمكانية استدعاء الشرطة؟

سالت الدموع من عيون فاليري رومر، وبدا صوتها يرتعش.

يَصدُر صوت من أنفها وهي ترد عليه:

- كنت أخشى أن يأخذوا ابنتي مني. أنا لست أمّاً سيئة. كنا في احتفال، وكان فيكتور يحمل الكوكايين.

- أنتِ ذكرتِ اسم فيكتور من قبل؟

- نعم. لكنني لست أمّاً سيئة. لا يجب أن تتحدث مع الشرطة حول هذا الموضوع.

أخفت وجهها في راحة يديها، وظلت تبكي. ينتظر أندرسن أن تهدأ قبل يتابع كلامه.

- لم تكن هذه المرة الأولى التي يكون فيها عنيفاً معك. أليس كذلك؟

ما إن رفعت فاليري رومر رأسها حتى سال ملمع الرموش على شكل خطوط على خديها.

- إن فيك ليس سيئاً. في بعض الأحيان يكون عصبياً؛ لكنه لم يقتل زوجتك أو تلك المرأة. أنا أعرف ذلك.

- هذا ما سنتحقق منه. أريد اسمه بالكامل من فضلك.

أخبرته وهي مستاءة:

- اسمه فيكتور فورنيي.

- هل هذه الفتاة الصغيرة ابنته؟

تنظر إلى الأطفال الذين يلعبون في الحديقة:

- لا، لقد سافر والدها عندما كنت حاملاً.

- منذ متى وأنتِ تعرفين فيكتور؟

تتنهد وكأن هذا الحوار يجعلها متعبة إلى درجة كبيرة!

- منذ بضعة شهور قليلة.

- كيف التقيتما؟

- ما الفائدة المرجوة من هذا السؤال؟

- أريد أن أعرف من الذي لفت انتباه الآخر؛ هو أم أنت؟

- أنا التي كلمته أولاً. التقينا في حفلة، وكنت أبحث عن الكوكايين. تحدثنا وقدم لي جرعة.

- هل قضى فترة في السجن؟

- نعم.

- هل تعرفين أين يوجد فيكتور؟

- لديه منزل بالقرب من مدينة ليل.

أعطته العنوان، وكتبه على منديل ورقي بقلم ألوان من نوع باستيل موضوع على طاولة الصالون.

- هل ما زلت تحتفظين ببطاقة عمل؟ يسألها وهو يضع المنديل الورقي في جيبه. أومأت برأسها.

- اتصلي بي إذا تعرضت لأي مشكلة. عندما تنتهي الحفلة اتصلي بالشرطة، وأخبريهم بما قلته لك. قد يوفرون لك الحماية اللازمة.

ردّت عليه مؤكدة له أنها ستفعل.

- أنت معرضة لخطر يا فاليري. هناك سيدتان تشبهانك قتلتا بالفعل.

- لا أريد للشرطة أن تأتي إلى منزلي. صرخت في وجهه بشكل هستيري!

أشعلت سيجارة بيد ترتعش.

تغمغم بصوت خفيض وتقول:

- يمكن أن تكون كل هذه الأحداث من قبيل المصادفة. هذا الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مصادفة.

يرد عليها أندرسن:

- خذي إجازة لبضعة أيام على الأقل، وانتقلي للعيش مع أحد أفراد عائلتك حتى تهدأ الأمور.

أومأت فاليري رومر برأسها. لم يعد لديه أي أسئلة أخرى يطرحها عليها. يستأذن منها كي يغادر؛ لكنه حذرها للمرة الأخيرة أن تكون حريصة، وألا تتصل بفورنيي مرة ثانية، وبمجرد أن خرج من عندها اتصل بموريس.

يطلب أندرسن بلهجة آمرة من المحقق الخاص أن يتحرَى بالتفصيل عن شخص يُدعى فيكتور فورنيي؛ إنه صديق فاليري رومر.

يسأله موريس بصوت مرتفع:

- أهو الذي ضربها؟

- أعتقد ذلك؛ لكنها تقول إن الأمر يتعلق بحادث. عندي انطباع بأنها تحاول حمايته.

يلاحظ أندرسن وجود سيارة سوداء في الجانب الآخر من الشارع. يكاد يقسم إنه رآه خلفه في منطقة سان مور منذ ساعات قليلة.

- أريد منك أيضاً أن تأخذ تسجيلات المراقبة التي ظهرت فيها ناتاشا في المترو. تأكّد من أنها لم يتم تعقبها من قِبل أي شخص؛ ربما يكون القاتل قد اقتفى أثرها قبل قتلها.

يقترب من السيارة، وهو يتحدث معه، ويلاحظ أن شعر السائقة أحمر، لكن قبل أن يقترب بما يكفي لرؤية وجهها، أدارت السيارة وانطلقت بعيداً في شارع رئيس. استطاع أندرسن حفظ رقم اللوحة.

- لدي انطباع بأن الشرطة تلاحقني يا موريس. هذه السائقة محقق خاص، ولا أعتقد أنني لا أعرفها!

- لو كنت أحقق بدلاً منهم كنت سأفعل الشيء نفسه؛ إنهم يشتبهون في أنك قتلت زوجتك. كما أن هناك سيدة تشبهها تماماً ماتت فعلاً.

- هل تعتقد أن هاتفي يخضع للمراقبة؟

يرد عليه موريس:

- ممكن... بطبيعة الحال.

يقول له أندرسن:

- في هذه الحالة علينا أن نتجنب المحادثات الهاتفية مستقبلاً.

- كما ترغب يا سيدي. سأتصل بك بمجرد أن تكون لدي معلومة جديدة، وبالتالي لا تحاول أن تغيّر من عاداتك، ولا تفعل أيّ شيء يثير الشكوك حولك.

## 27

يستأنف أندرسن العمل في مكتب المحاماة بعد ثلاثة أيام من مراسم الدفن. ما تزال صورة زوجته توجد على مكتبه كما أن الملف الخاص بالبحث عن أليس تمّ وضعه بعيداً في الدرج المغلق بالمفتاح. كما يبدو، لم يتغيّر أيّ شيء؛ غير أنه لم يعد يبحث عن زوجته، بل عن القاتل، وبمجرد أن يجده...

ماذا سيحدث بعد ذلك؟ سيتجاهله، أو، بالأحرى، لا يريد أن يشغل باله بهذا الأمر حالياً. هو على عِلم بأنه يلعب لعبة خطيرة بتعقبه قاتل أليس؛ لكنه يحتاج إلى أن يتعلق بهدف جديد. خلال ثلاث سنوات مضت، كان العثور عليها نوعاً من أنواع الجنون وكان بمنزلة المرض الجلدي الذي لا يبرأ أبداً؛ إنه على يقين بأنها ما تزال على قيد الحياة في مكان ما، وبإمكانه العثور عليها. واليوم، لم يعد يصنع أي شيء سوى إهداره الوقت والموارد، والجري وراء السراب لن يقوده إلا إلى شعور بخيبة أمل. إذاً سبر غور هذه القصة يقودنا حتماً إلى معرفة القاتل.

في منتصف النهار، وبينما يعمل أندرسن في مكتبه؛ تدخل عليه جوديث (كانت ترتدي قميصًا من الدانتيل، وحذاءً أحمر ذا كعبٍ عالٍ، وتنورة سوداء اللون تُخفي ركبتيها ) لتخبره أن أحد العملاء ينتظره في الاستقبال.

دعيه يدخل. يرد عليها وهو يرتّب الأوراق أمامه على المكتب.

بعد وقت قصير، يدخل إليه ميكائيل بكاري، وهو بكامل هيئته، أفضل كثيراً مما كان عليه سابقاً في أول لقاء تم بينهما في مكتب المدعي العام القسم باء 12، إلا أن وزنه زاد بوضوح. يبدو عليه الاضطراب الشديد؛ ينظر إلى أدق الأشياء في الغرفة بتمعن! يبدو أنه نوع من الانفعال الزائد والقلق الشديد، وبمجرد أن أُغلق الباب أخرج من سترته لفافة كبيرة تتصل بغطاء رأس.

بدأ يتكلم، وقال:

- الجو حار يا سيدي. ثم وضع اللفافة على المكتب، وقال أيضاً: لقد اشتدّت ثورة إيميلي عليّ عندما أخرجت هذه اللفافة من منزلنا.

يسأله أندرسن بصوت خفيض:

- أهذا الذي تحدثنا بشأنه سابقاً؟

يردّ عليه بكاري:

- نعم، وهو يضع زوجاً من القفازات المصنوعة من مادة اللاتكس المطاطية؛ كان يحتفظ بهما في جيب سرواله الخلفي المصنوع من الجينز ذي الوسط المنخفض. أيعقل هذا؟! طوال الطريق وأنا أشعر بالإحباط. الأمر لا يتعلق بك، لم يحدث أن سرت في الطريق ومعي هذه اللفافة من قبل.

يفك بكاري قطعة القماش التي تمزقت، والتي تحتوي على صندوق مشوّه، ومسدس صغير بفوهة قصيرة ظهرت من خلال هذه اللفافة. بدا لون قاعدة المسدس بنياً، وكانت هناك نجمة خماسية في الوسط. كان السلاح قديماً وكأنه يرجع إلى عصر الحروب الفائتة!

يقول بكاري:

- المسدس من طراز ماكاروف؛ لكن رقمه التسلسلي غير موجود، لهذا لا يمكن تعقبه مهما كان.

هذا مسدس روسي، لم يستخدم في فرنسا من قبل. أخذته من شخص صربي يسافر بسيارته العائلية إلى حيث تقيم أسرته؛ مرتين في السنة، ويتاجر في هذه الأسلحة دائماً لتغطية مصاريف رحلته.

ينظر أندرسن إليه، وهو يتحكم في المسدس الذي يشبه الوحش المعدني كما لو أنه يمسك لعبة. يشرح بكاري كيف يعمل المسدس؛ كيف يتم شحنه، وكيف يطلق النار، وأندرسن يستمع إليه. لم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال عما إذا كان قد تم استخدامه سابقاً في عملية قتل. إن فرضية أن يكون هذا السلاح مملوكاً لمجرم يجعله في حالة نفسية سيئة.

- إنني مدين لك بالفضل؟

- الصربي يبيع المسدس بثلاثة آلاف، أما عن الطلقات فسعر الطلقة الواحدة 2 يورو؛ لكن الطلقات الموجودة حالياً في الخزنة من دون مقابل.

هذا ثمن حياة الإنسان. يمعن أندرسن التفكير.. هذه الحياة ليست غالية إذاً!

- يمكنني إحضار المزيد من طلقات الرصاص لك إذا أردت ذلك.

- اتفقنا؛ لكنني أحتاج مزيداً من الوقت لتوفير النقود. ليس لدي هنا ما يكفي.

يرفع الرجل يديه في الهواء كما لو أن أندرسن يصوّب المسدس إلى رأسه!

- عفواً يا سيدي. النقود لا تمثل مشكلة لدي. لقد أنقذتني من السجن، وأنا أردّ لك الجميل كما يقولون. أعدك بأن تكون هذه المرة الأخيرة لي في ممارسة العمليات الإجرامية. لا تستخدم هذا السلاح استخداماً سيئاً.

- استخدمه من أجل حمايتك الشخصية فقط.

- هذا ما يقوله الجميع؛ حتى رجال الشرطة وتجار المجوهرات واللصوص، وفي نهاية المطاف يموت أحدهما ويذهب الآخر إلى السجن!

يردد بكاري هذه الكلمات بطريقة مضطربة كما لو أنه يغني أغاني الراب. ينظر أندرسن إلى المسدس في يده، ويقول موريس لا تفعل أي شيء يثير الريبة. هذا مؤشر سيئ.

يرافق بكاري إلى الباب، ثم يعود إلى مكتبه. يقرر وضع المسدس في الدرج الذي يوجد فيه ملف أليس، ويستأنف العمل...

بعد نحو ثلاث ساعات، وهو على وشك مغادرة المكتب، يتلقى رسالة تعزية على هاتفه المحمول:

«أشعر بالحزن لما حدث لك».

بعد ثوانٍ قليلة، تصله رسالة جديدة من المرسِل نفسه:

«كيف يبدو الغراب؟»

- أهذا معقول؟ يبدو على أندرسن الاندهاش!

لا أرغب في قذف الحائط بهذا الهاتف. لقد غير هذا الغراب الحقير رقمه.

- لما تفعل ما تفعلهُ بي؟!هل تستمتع بذلك الأمر؟!

- أبداً على الإطلاق. أنا فقط أحاول مساعدتك.

- تساعدني في ماذا؟

- على أن تستعيد ذاكرتك.

- ما هدفك؟

- ستعرف عندما تستعيد ذاكرتك.

- أنت مجنون؟!

يستغرق الغراب وقتاً طويلاً للرّد هذه المرة!

- كما يقول صديق لي: كلنا مجانين هنا.

وأضاف بسرعة:

- إن ما يحدث هو مجرد خيال في رأسك يا كريستيان.

## 28

يتراقص كيس الملاكمة الذي تضربه كما لو أنه يحاول أن يتفادى ضرباتها، ولأن الضربات كانت بشكل مباشر ونافذة وقوية لم يتمكن من تفاديها. كانت ديان تستهدف الشقوق في جلد الكيس، وتضرب في مستوى الوجه بقوة إلى درجة أنها أعطت الانطباع بأنها تريد قطع هذا الكيس الكئيب!

أطلقت ساعة الإيقاف صوتاً مرتفعاً يصمّ الآذان. نفد الوقت ولم يتبقَّ إلا دقيقة واحدة. الدماء تغلي في عروقها منذ وقت قليل، وكلما مرّ الوقت تشعر بوزن القفازات أثقل قليلاً مما كانت عليه؛ لكنها لا تستطيع أن تتوقف قبل نهاية العد التنازلي، ليس لأن وول يصرخ في وجهها كما هو المعتاد، بل لأنها أهملت تدريباتها منذ زمن بعيد، وكانت تعرف إلى أين يقودها هذا الإهمال؛ فالخمول يولّد الضعف،

ففي غضون أسابيع قليلة، شهر أو شهرين على أكثر تقدير، يمكن أن تخسر كل شيء؛ سرعتها وقوتها والمادة التي تمنح جسدها القوة اللازمة. قد تصبح ضعيفة مرة أخرى، وهذا أمر غير وارد التفكير فيه الآن! يجب عليها أن تستمر في التدريب حتى يتم سحق كل من يقف ضدها. لا أحد يمكنه أن يصل إلى مستواها.

بينما تدقّ ساعة الإيقاف ثلاث مرات، ويتم الإعلان عن نهاية الجولة، تنزع الجلد الخارجي من على القفازات، وتلقي به في إحدى الزوايا. تشرب القليل من الماء. تنظر إلى نفسها في المرآة الكبيرة الموجودة بالقرب من الرّف الذي توضع عليه معدات رفع الأثقال، وعلى الرغم من أن عضلات كتفيها وذراعيها متورمة وتؤلمها، كانت راضية عن نفسها، وتقول إن العضلة التي تعاني من الألم هي العضلة التي تزداد صلابة.

فجأة يظهر وجه وول الكئيب في المرآة!

- أخبريي يا ديان، أهذه صالة للألعاب الرياضية أم مركز شرطة سيئ؟!

كان أنف وول يصدر صوتاً كالصفير.

- أعتذر لك.

- يوجد شرطي يسأل عنك عند الباب يقول إن اسمه بيرجر.

ردّت عليه وهي تجفف العرق من على جبينها بمنشفة:

- سأذهب لمقابلته.

فجذبها وول من ملابسها وهي تمر أمامه وقال:

- ستلعبين مباراة في غضون أسابيع قليلة.

يصرخ في وجهها ويقول:

- حافظي على تركيزك على هدفك.

- أنا أعرف هدفي.

يعبّر وول عن شكوكه بصوت عالٍ يصدر من أنفه، وانطلق يصرخ في وجه ملاكم آخر قوي؛ لأنه يضرب كيس الملاكمة برخاوة شديدة. مشّطت ديان شعرها وذهبت لمقابلة بيرجر، الذي كان ينتظرها في الردهة بالقرب من الرفوف التي توجد عليها علب مسحوق البروتين.

تسأله ديان:

- كيف عرفت أنني أتدرب هنا؟

ردّ عليها وهو يبتسم:

- من مهمات وظيفتي العثور على الناس.

وما إن قطبت جبينها حتى شعر بأنه مضطرّ إلى توضيح الأمر.

- تذكرت اسم الصالة الرياضية المدونة على حقيبتك عندما أتيت لمقابلتي أمس الأول. باختصار: اتصل بي دوكلير، ولهذا كنت أحاول أن أتصل بك منذ ساعتين.

تبدأ فكّ الضمادات الواقية حول يديها بطريقة آلية.

- ماذا قال لك بالضبط؟

- يقول إنه وجد معلومات مهمة جداً، ولهذا هو يريد أن نجتمع معاً نحن الثلاثة. هل ستبقين هنا وقتاً طويلاً؟

- أنهيت التدريب، سأغتسل بسرعة، وأبدل ملابسي.

بعد عشر دقائق، التقت به خارج الصالة الرياضية؛ حيث كان يدخّن السجائر، ويستند على صندوق سيارته الكبيرة الخلفي.

تقف أمامه وتقول:

- اعتقدت أنك تحاول الإقلاع عن التدخين!

ألقى السيجارة على الأرض قبل أن ينتهي من تدخينها بالكامل.

- لم يكن ضمن مخططي مطاردة السّفاح ومعارضة رؤسائي في العمل قبل أن أقابلك.

على الرغم من سحب ملف القضية منه؛ قرّر مواصلة التحقيق سراً في سبب وفاة أليس أندرسن.

- هل لديك معلومات جديدة عن جيريكو؟

تركب ديان سيارة بيرجر وينطلقان معاً.

- نعم. ردّ عليها وهو متضايق. هناك من يؤكد لي أنه لم يوجه اتهاماً إلى كريستيان أندرسن.

ولأنه يعلم أن أندرسن يخدعه بشأن عينات الحمض النووي، يعدّه المشتبه فيه الرئيس في قتل زوجته.

يتابع حديثه وهو متقزّز:

- إن كل ما يهتم به هو إلقاء القبض على محرك الدمى. لقد قدم أندرسن ذرائع تتعلق بقتل كلّ واحدة من هؤلاء الفتيات اللائي تم العثور عليهنّ في غابة نوتردام، ويبدو أن سكرتيرته أقسمت إنه كان يعمل معها يوم اختفاء ناتاشا نفسه. وبالنسبة إلى ثيو، إن أندرسن مجرد شاهد.

يقود بيرجر سيارته عدة كيلومترات قليلة وهما صامتان قبل أن يخبرها أن لديه شيئاً ما في صندوق القفازات أمام مقعد السيارة الأمامي. تفتح ديان الصندوق، وتخرج منه ورقة مطوية أربع طيات مكتوباً عليها اسمها الأول بوساطة ملصقات متعددة الألوان.

- هذه هدية من كلوي. يشرح لها كما لو أن الأمر بحاجة إلى توضيح.

بعدما فضَّت الورقة وجدت رسمًا لثلاثة أشخاص، رسمٌ لشخصٍ عملاق وآخر ضئيل الحجم وثالث ذا شعر أحمر، واستطاعت رؤية تلفاز أمامهم وأريكة خلفهم؛ عندما ذهبت لمقابلة بيرجر منذ يومين للوقوف على مجريات التحقيق، أخبرها أنهما لن يستطيعا التحدث في هذا الموضوع طالما أن مربية كلوي غير موجودة مع ابنته، وأنه لا يريد أن يخاطر بابنته لو سمعت مثل هذه القصص التي تحكي عن عمليات الاعتداء والقتل، ورغم ذلك ظلّت ديان معهما، وصنعا الفشار، وشاهدا فيلماً تلفزيونياً.

تسأله ديان فجأة:

- توجد بعض العبارات المكتوبة أسفل هذه الشخصيات!

- هل رأيت الصورة؟

- لا، لماذا؟

مكتوب: أنا وأبي وصديقته الجديدة.

تردّ عليه وهي تطوي الورقة:

- لا شيء.

بعد أقل من نصف ساعة، سيصلان إلى مقهى لوتيتيا في فندق لوكس الواقع في منطقة نوتردام دي شو. يتميز ببابه الدوّار ونوافذ ذات زجاج شفاف وثريات في السقف وسجادة سميكة تسمح بحركة أرجل الكراسي الخشبية؛ علما بأن ذراعي الكراسي مغطاة بقماش القطيفة. يختار الصحفي الخزانة الأكثر فخامة للقاء الذين سيشاركون في المؤامرة. تشعر ديان بعدم الارتياح لأنها كانت ترتدي سروالاً باليًا وحذاءً رياضيًا مُهترئًا؛ بينما ترتدي النساء الأخريات الفساتين والأحذية ذات الكعب العالي.

لم يصل دوكلير في الموعد. جلسا معاً على الطاولة، وبدا لهما أن يتحدثا عن أندرسن. لا ترغب ديان في إخبار بيرجر بأنها كانت تراقبه في الأيام السابقة كما كانت تفعل مع هنكر، وأن المحامي كاد يراها في منطقة بورنيل؛ إلا أنه، وبشكل تدريجي، تغير الكلام إلى منطقة بعيدة عن الرسميات، فيطلب إريك مشروبين؛ تختار ديان مشروباً من دون كحول كي تحافظ على نظامها الغذائي، وتحدثا معاً في كل الموضوعات، الأمر الذي جعلها تضحك في بعض الأحيان؛ لكنها تشعر فجأة كأنها تجلس مع شخص غريب لأول مرة، وتشعر بتنميل في عضلات الوجه، وتقلصات في المعدة!

مكتوب: أنا وأبي وصديقته الجديدة!

عندما يلاحظ بيرجر ارتباكها يسألها إذا كان كل شيء على ما يرام. ردّت عليه:

- أنا بخير. ثم قالت وهي تنظر بتمعن إلى أسفل الكوب: آمل ألا يتأخر دوكلير.

- أنا أيضاً. لقد وعدت المربية بأنني سأعود مع كلوي بعد ساعة.

تتجرأ ديان وتقول له:

- ألا تستطيع زوجتك أن تعود بها؟

لم تتكلم بصوت يتّسم بالجدّية المعتادة، وكأنها لا ترغب في الحديث عن هذا الموضوع؛ فلأول مرة تتعرّض له بشكل مباشر، حيث كانت والدة كلوي عبارة عن خيال يظهر لها من خلال ما تفهمه من كلمات الشرطي الضمنية.

- تقولين زوجتي؟!

يحدّق بيرجر النظر بعينين زائغتين إلى الزيتونة، التي تطفو في أعلى كوب ديان أمامه، وهي تحاول أن تلتقطها. يتذكر ثورته عندما أزعجته يوم السبت في الحديقة، ويتذكر رسومات كلوي مع والدها. يتذكر جليسة الأطفال. الآن يتضح كل شيء.

- هل ماتت؟

- نعم، ماتت منذ أكثر من ثلاث سنوات.

- أنا آسفة، أنا... اعتقدت أنكما مطلقان.

أخبرها إريك عن لقائهما في المطعم الفيتنامي الذي يمتلكه والداها، والذي لا يبعد كثيراً عن مركز الشرطة في منطقة بلان ميسنيل؛ حيث كان يعمل هناك لأول مرة. بعد حفل الزفاف على الطريقة الفيتنامية، حسب طلب زوج أمها، وبعد الفحص الروتيني الذي كانت تجريه بعد ولادة كلوي، وأخيراً بعد تشخيص الطبيب الذي سقط كالصاعقة عليهما، علِم بإصابتها بسرطان الثدي من نوع Her2 + إيجابي البروتين. الأمر أشبه بدويّ الرعد في السماء الزرقاء الصافية! كنا نخطط لإنجاب طفل آخر، وكنا سعداء، وكنا نعتقد أنها بصحة جيدة، لكن لا يوجد أسوأ من سرطان الثدي من نوع Her2 + إيجابي البروتين. لم يتمكن الجراحون من إجراء العملية؛ حيث انتشر المرض على نطاق واسع، وأجهز عليها بسرعة.

لم تعد لها فرصة للبقاء على قيد الحياة حتى مع العلاج الكيميائي والأدوية. أخبرها كيف تدهورت صحتها؛ حيث تساقط شعرها، وضعف جسدها، وبسرعة أحكم السرطان سيطرته عليها، وانتصر عليها في أقل من شهرين.

- إذاً، أنت بمفردك تقوم على تربية ابنتك؟

- نعم.

- أعتقد أن الأمر أكثر تعقيداً مع ظروف عملك.

- أجتهد في ترتيب أولوياتي. يتطلب الأمر تنظيماً جيداً؛ لكنني أحاول.

- أهذا الأمر جعلك تترك العمل في فرقة البحث والتدخل؟

يتنهد...

- أنا بحاجة إلى مزيد من الوقت من أجل كلوي؛ لكن، ما الذي سيحدث لها لو أصابتني رصاصة؟!

تلاحظ ديان نظرات الحزن في عينيه.

- ألا تشعر بأنك تفتقد إلى العمل هناك؟

- سأكذب إذا قلت غير ذلك.

يشرب بيرجر الكأس إلى نهايتها. يظل صامتاً كما لو أنه يجلس بمفرده على الطاولة. تشعر ديان بالضيق الشديد. ترتشف ما في إنائها على مهل، وهي تنظر إلى زوجين يجلسان على كراسي مبطّنة بقماش من القطيفة. ولحسن الحظ، يصل دوكلير إلى المكان. من الملاحظ أن هذا الصحفي ازداد وزنه؛ لهذا استبدل بسترته المصنوعة من الصوف، التي يرتديها باستمرار، معطفاً رمادياً واقياً من المطر، وزوجاً من أحذية من دون كعب. أخرج من معطفه مظروفاً، وظل يستعمله كمروحة لتحريك الهواء.

- تسأله ديان: ما هذا؟

- خلاصة أسبوع من البحث في أرشيفي. العمل ضخم جداً.

وما إن أعطاها المظروف، حتى وجدت في داخله صورة لامرأة.

بيضاء،

شقراء،

عيناها زرقاوان.

الصورة تشبه أليس إلى حدّ كبير جداً!

تندهش ديان وتقول:

- ضحية جديدة.

يصحح دوكلير لها الكلام، ويقول:

- بل ضحية قديمة.

يبدو على ديان الاندهاش الشديد من هول المفاجأة!

- اسمها ماري آن بيلاي. ماتت منذ شهرين في قرية صغيرة بالقرب من ستراسبورج. تم العثور عليها وهي عارية على حافة خط سكة حديد؛ حيث قطع القطار النصف الأسفل منها.

تسأله ديان:

- وماذا فعلتَ من أجل الحصول على هذه المعلومات؟

- بعد مغادرتك المكان، بدأت في إعداد ملف خاص يدور حول الجرائم التي لم يتم فكّ شفرتها، ومن أجل وضع قصة أليس أندرسن ضمن سياق شامل، كما تعلمين، عمِلت على حالات الاختفاء وجرائم قتل الشابات الشقراوات، وبهذه الطريقة استطعت استنباط المعلومات.

لا يمكن تصديق ما تقوله. إن لدى الشرطة قاعدة بيانات لتعقب السفاحين عن طريق نظام تحليل الجرائم المرتبطة بالعنف؛ ففي حالة ارتكاب جريمة قتل، أو اعتداء جنسي خطير على الأراضي الوطنية، إن المجموعة المسؤولة عن نظام تحليل الجرائم المرتبطة بالعنف، التابعة للمكتب المركزي المتخصص في مكافحة العنف ضد الأشخاص،

ومقره في مدينة نونتير، تخاطب بشكل تلقائي الأجهزة المكلفة بإجراء تحقيق من خلال طرح استبيان يشتمل على 152 سؤالاً قياسياً حول الضحية والشخص المعتدِي وملابسات الواقعة، كتلك المتعلقة

بالنوع، ولون الشعر، وطريقة نقل الجسد، وطبيعة التضاريس، التي وقع فيها الهجوم. قبل جلسة الاستماع إلى أندرسن، اتصل بيرجر بالمجموعة المسؤولة عن نظام تحليل الجرائم المرتبطة بالعنف من أجل التحقق ممّا إذا كانت هناك جريمة قتل مماثلة لجريمة أليس وناتاشا لم يتم ارتكابها في مكان ما في فرنسا؛ لكنهم لم يعثروا على أي شيء، بخلاف الضحايا المعروفين بضحايا محرك الدمى، ولهذا أثبت دوكلير أنه أكثر كفاءة منهم، أو على الأقل الأكثر حظاً.

يسأله بيرجر:

- هل تعرف ما إذا كان جيريكو على علم بذلك؟

- هذا الأمر يدهشني!

يوضح دوكلير أن الفتاة قد اختفت قبل ثلاثة أيام من العثور عليها مقتولة، ولأنها كانت تعاني من الاكتئاب، خلُص تحقيق الشرطة إلى أنه انتحار، وهو ما اعترضت عليه بشدة عائلة بيلاي؛ علماً بأنهم ينتمون إلى الكاثوليك المتدينين الذين يقولون إن الانتحار أمر لا يمكن تصوره!

ويؤكد دوكلير ضرورة الحديث معهم؛ حيث إنهم يعيشون في ضواحي ستراسبورج.

- يبدو أن بيرجر لا يقبل بهذا الاقتراح.

-لا أستطيع، لأن جيريكو سيشك في أنني أقتفي أثره. أعتقد أن أحد زملائي أخبره عندما كنت أحقق مع أندرسن. لدي زملاء يرغبون في الانتقال إلى فرقة مكافحة الجريمة، كما أن جيريكو في وضع جيد يسمح له بأن يكون القائد الجديد لهذه الفرقة؛ ربما يتسرب الخبر من هناك.

تقول ديان:

- في هذه الحالة، سوف أذهب إليهم؛ لكن إلى حين عودتي يجب عليكما أن تتحققا من عدم وجود ضحايا آخرين.

يغمغم بيرجر بصوت خفيض:

- تقولين ضحايا آخرين! إذاً كم عدد كل الضحايا الذين قتلهم هذا الرجل؟!

## 29

ما يزال هذا السؤال يطارد ديان خلال رحلة القطار، التي استغرقت ساعتين بين باريس وستراسبورج، ولكي تتجنب التفكير في هذا السؤال أكثر من اللازم، ظلت تدقِّق النظر في المستندات التي تركها لها دوكلير؛ لكن بين الفينة والأخرى، كانت تشاهد رسمة كلوي، وتسأل نفسها أسئلة غريبة لا معنى لها، في حين يجب عليها أن تقتفي أثر هذا المختل عقلياً الخطير، كما يجب عليها أن تصرف كل طاقتها نحو هدف واحد؛ إلقاء القبض عليه قبل أن يقتل شخصاً آخر.

لم تعد ديان تعرف ما الذي يجب عليها أن تفعله في هذه القضية برمتها! فهنكر هو محرك الدمى، وهي تعرف ذلك، لكن يوجد قاتل آخر حرّ طليق تتضاعف جرائمه؛ لأنه يتّبع أساليب محرك الدمى نفسها! هل هنكر هو الذي كان يتحكم في تحركاتها وهو في السجن؟! هناك ضحيتان توجد عليهما علامة تتعلق بمحرك الدمى: الضحية الأولى ناتاشا، والضحية الثانية ربما تكون أليس أندرسن، ولكن بما أن أليس قُتلت قبل مقتل ناتاشا بوقت طويل؛ فإذاً يمكن أن نفترض أن القاتل قليل الخبرة، وربما قاومته، ولشدة خوفه تحتّم عليه استخدام السكين لقتلها!

وماذا عن مقتل ماري آن؟! لقد تم إلقاؤها تحت عجلات القطار، وبالتالي لم تُدفن. علاوة على ذلك، لم تكن هناك آثار أربطة حسب تشريح الجثة؛ لماذا كانت طريقة التشريح مختلفة؟!هل ينأى الطالب بنفسه عن أسلوب أستاذه؟! هل واجه القاتل مشكلة؟ وهل القاتل هو كريستيان أندرسن كما يعتقد بيرجر؟

عند وصولها إلى محطة ستراسبورج، استقلت سيارة أجرة، وتوجهت إلى الضاحية الجنوبية؛ حيث تقيم عائلة بيلاي. ها هي والدة ماري آن هيلين بيلاي؛ إنها تشبه ابنتها، لكن يبدو عليها الذبول. تفتح السيدة الباب، وتبلغ من العمر ستين عاماً تقريباً، طويلة ونحيفة، ترتدي فستاناً طويلاً مصنوعاً من الكتان. تنتعل صندلاً، وتتزين بحلي بسيط على شكل صليب مصنوع من الفضة حول العنق.

تحاول ديان أن تتذكر الكلمات التي أعدّتها في القطار لشرح سبب زيارتها، وما إن تكلمت حتى بدت هذه الكلمات جافة وباردة أكثر مما كانت تتخيل!

- صباح الخير يا سيدة بيلاي. اسمي ديان كيليرمان، وأعمل في شرطة باريس حول قضية قتل، وأودّ أن أتحدّث معك عن ابنتك.

تتحرك جفون هيلين بيلاي حركات لا إرادية بسرعة، وبدأت شفتاها ترتعشان. تعتقد ديان أنها باشرت معها الموضوع بشكل غير لائق. أصيبت هيلين بيلاي بدوار خفيف. تخشى ديان من أن تكون قد تسببت في إيذائها؛ لكن السيدة تنحّت جانباً وفتحت الباب على مصراعيه، وقالت:

- تفضلي يا سيدة كيليرمان.

استقبلتها هيلين بيلاي في صالون نظيف تنتشر فيه رائحة الصنوبر، وهناك بعض التحف الفنية التي تم تثبيتها على الجدران والأرفف. توجد في زوايا الصالون دمى مصنوعة من البورسلين ومراوح وأقنعة من منتجات مدينة البندقية الإيطالية. تلاحظ ديان مجموعة صور لماري آن مع شمعة نصف محترقة فوق طاولة صغيرة؛ إنها تحتفظ بهذه الأشياء للذكرى.

تسألها والدة ماري آن إذا كانت تريد شرب قهوة، فتعتذر ديان بأدب. تجلس كل واحدة منهما في مقابل الأخرى، بينما ديان تجلس على كرسي بلا ظهر ولا ذراعين. كانت هيلين بيلاي تسترخي على كرسي خشبي بذراعين؛ حيث كانت تحيك مربعات من الصوف الأحمر، قبل أن تطرق ديان الباب، وهناك عدة مربعات أخرى مختلفة الألوان مكدّسة في حِزم مكونة من عشر قطع وموضوعة في سلة مصنوعة من الخوص. تقوم هيلين رومر بلفّ كل حزمة بشريط من الحرير، وتضع أسفل منها دمى من الصوف.

- أنا أحيك هذه الأشياء، وأقدمها إلى جمعية خيرية معنية بهذا الأمر. نتبرع بها إلى جنوب أفريقيا؛ حيث تتم صناعة بطانيات على شكل مربعات من الصوف، ويقدمونها للأيتام المصابين بفيروس نقص المناعة البشرية. لا يمكننا أن نتخيل الوضع هناك حيث تنخفض الحرارة إلى أقل من عشر درجات، وربما تكون أسوأ من ذلك في الشتاء. قمت بحياكة ما يقرب من ثمانين مربعاً وهو ما يكفي لصناعة عشر بطانيات على الأقل.

تنظر هيلين بيلاي إلى الصور على الطاولة الصغيرة. تنهمر الدموع من عينيها، وتسأل بصوت مرتعش:

- ما الذي تريدين أن تقوليه عن ابنتي يا سيدة كيليرمان؟

- قيل لي إنك لا تصدقين أبداً أنها انتحرت، وأنا على يقين بأنك محقة في ذلك. 

توضح ديان أن ملف ابنتها سيعاد فتحه من جديد؛ حيث إنه تتوافر الآن معلومات جديدة تشير إلى أن وفاة ماري آن كانت على يد سفاح، ويبدو على وجه هيلين بيلاي الارتياح إلى حدّ ما؛ لكنه ارتياح غير محسوس تقريباً؛ لأنه يمثل نسبة ضئيلة من حزنها الذي يتلاشى في الهواء.

تقول هيلين بيلاي وهي تهز رأسها بحزن:

- أنا متأكدة من هذا الأمر على الدوام. نعم، تعرضت ماري آن لمشاكل؛ لكنها لا تقدم على الانتحار أبداً!

تنهض من على الكرسي، وتُخرج علبة أعواد ثقاب من درج خزانة مصنوع من خشب الماهوجني الأحمر، وما إن تشعل الشمعة نصف المذابة حتى يتوهج فتيل الشمعة باللون البرتقالي، ويتراقص فوق ورق الصور اللامع.

- ما المشاكل التي واجهتها ابنتك يا مدام بيلاي؟

تبلّل والدة ماري آن سبابتها وتفركها بإبهامها، وتحاول إطفاء فتيل الشمعة المتوهج بأصابعها. تنظر نظرات متشتتة إلى اللون الأسود الدهني الذي جعل أصابعها وسخة، ثم تقول:

- هل تؤمنين بالله يا سيدة كيليرمان؟

تتردد ديان لبضع ثوان قبل أن ترد:

- نعم.

نعم، ولكنني لست مثلك في درجة الإيمان. هكذا تعتقد ديان، فإذا كانت تؤمن بالله الآن، فلأنها كانت تعمل أعمال الشياطين طوال حياتها السابقة؛ إذاً لنفترض أن لها مبادئ لا تتوافق مع الآخرين.

تقول هيلين بيلاي:

- عندما كنت في العشرين من عمري سافرت إلى مدينة القدس. لم أكن متدينة بشكل قوي قبل سفري، ولكن عندما رأيت المدينة وطريق العائلة المقدسة، وقبر السيد المسيح، والضوء الساطعُ في الفيافي وقت الغسق، هُنا وحسب تيقنت بوجود الإله، ولم يعد الشك يُخامرني، ومنذ ذلك الحين، أعلم أن هناك أماكن يمكن أن تغير حالك إلى الأفضل، أو إلى الأسوأ.

تُسلّط على ديان نظرتها الباردة.

- ذهبت ماري آن إلى باريس لتدرس في كلية التجارة المرموقة؛ لكنها لم تنجح في السنة الأولى، ولم نستطع أن نتحمل مزيداً من الأعباء المالية، لذلك كان عليها أن تعمل في وظائف بسيطة لدفع تكاليف دراستها. فشلت في الجمع بين العمل والدراسة، ورسبت في امتحاناتها، واعتباراً من هذه اللحظة لم تعد ماري آن كما كانت؛ تخرج كثيراً مع صديقاتها، وتشرب المسكرات بإفراط، أصبحت حياتها على هذا الشكل. وفي نهاية المطاف، انصرفت ابنتي عن الدراسة واتجهت للعمل في مجال الترفيه حيث كانت من أولئك الفتيات اللائي كُنّ يستقبلن الزبائن ويُجالسنهنّ في الحوانيت. لقد كانت تعمل بهذا الشكل.

تشعر ديان بالإحباط في صوت هيلين بيلاي؛ لأن ابنتها أهدرت الفرص التي كانت متاحة لها.

تسألها ديان:

- أكان هناك شيء ما يشغل حياتها؟

- أحضرت بعض صديقاتها إلى هنا، لكن ذلك لم يدم طويلاً.

تُخرج ديان دفتر ملاحظاتها، وتسحب صورة كريستيان وأليس أندرسن، التي أخذتها من عدد خاص من مجلة المخبر الفرنسي:

- أكانت تعرف هذا الرجل؟

وضعت والدة ماري آن نظارتها، ونظرت إلى الصورة بتركيز شديد.

- لا أعرفه. لم يأتِ إلى هنا أبداً! على أي حال -تتنهد ديان- لا بأس. لكن فجأة تشير هيلين بيلاي بإصبعها إلى أليس أندرسن.

- أعرف المرأة التي بجانبه.

ظلّت ديان مذهولة للحظة..

تسألها:

- هل تعرفين من تكون؟

- اسمها أليس.

- كيف عرفتها؟

- جاء شرطي إلى المنزل، وأظهر لي صورتها. أدهشني التشابه الشديد مع ابنتي!

- هل جاء بعد أو قبل اختفاء ماري آن؟

- جاء قبل أسابيع قليلة من اختفائها.

- هل تتذكرين اسمه؟

- لا أتذكره نهائياً.

- هل يمكنك وصفه لي؟

- كان سميناً جداً، وأعتقد أن بشرته كانت تميل إلى اللون الأسود الفاتح، وأتذكر أيضاً أنه لم يتوقف عن التدخين أثناء حديثنا معاً.

تدون ديان هذه الملاحظات في دفترها...

- ما الذي كان يريد معرفته بالضبط؟

- كان يبحث عن أَلِيس. يقول إنها اختفت، وإن الشهود رأوها تمرّ من هنا. قلت له أتوجد مشكلة بسبب التشابه بينها وبين ابنتي، ولأنه توجد صور منذ العطلة معلقة على الحائط في المدخل، قام بتصويرها بهاتفه ليحتفظ بملامح وجه ماري آن، ثم غادر المنزل.

- هل أظهر لك بطاقة عمله؟

- نعم، أعتقد، وأتذكر أنه كان يثبّت مسدساً في حزامه. كان شديد الثقة بنفسه، ويتحدث كما لو كان أحد رجال الشرطة.

- أأخبرك عن الفرقة التي يعمل فيها؟

- لا أتذكر.

- هل كان من مدينة ستراسبورج؟

- أنا... لا أعرف، ولم أفكر في طرح هذا السؤال في حينها!

يرن الهاتف في المطبخ. تعتذر هيلين بيلاي وتذهب للرد عليه. تجاذبت أطراف الحديث باللغة الألمانية مع الطرف الآخر، فترجمت ديان كلماتها على الفور؛ أحد أفراد عائلتها سيأتي من ناحية نهر الراين الواقع على أطراف مدينة فولفسبورج الألمانية. لقد أجبرها والدها على دراسة اللغة الألمانية عندما كانت صغيرة. لم تكن لديها مشكلة في فهم أن هيلين بيلاي كانت متورطة في قصة استبدال طفل صغير في قسم الولادة، حيث كانت تعمل في ألمانيا.

تُخرج ديان هاتفها، وتتصل ببرجر.. تسأله:

- هل ذهب أحد رجالك إلى ماري آن بيلاي أثناء التحقيق في قضية أليس؟

- لا. كنت سأخبرك بذلك قبل مغادرتك. ما الذي حدث؟!

- ذهب شرطي إلى منزل والدَي ماري آن قبل مقتلها.

- هل تعتقدين أنه كريستيان أندرسن؟

- لا، هو رجل ضخم نوعاً ما، يبحث عن معلومات عن أليس أندرسن. من فضلك، تأكد من عدم تجاوز أي شخص في فريقك المهمات المكلف بها. سأعاود الاتصال بك عندما يكون لدي شيء جديد.

تغلق ديان الخط، وتسحب دفتر ملاحظاتها، وتفتح صفحة جديدة، وتكتب ملخصاً لأسلوب عمل السفاح مع الضحايا الثلاث.

الضحية الأولى أليس: طعنات بالسكين، لا توجد آثار خنق؟ تم إخفاء الجثة في الغابة، حيث يدفن محرك الدمى ضحاياه.

الضحية الثانية ناتاشا: خنق يدوي، ضرب بالسياط، جثة عارية، نمط محرك الدمى في القتل نفسه.

الضحية الثالثة ماري آن: غير معروف سبب القتل، انتحار كاذب؟ تم إلقاؤها على خطوط السكك الحديد، شرطي مزيف (؟) يذهب إلى منزل الأم.

على الرغم من وجود اختلافات كثيرة بين جرائم القتل؛ نستطيع أن نستشف عاملاً مشتركاً بين جرائم القتل الثلاث ألا وهو الرغبة في جعل الشرطة تسير في المسار الخطأ! أما عن الأحاديث الكثيرة التي تروَى عن القاتل، فمنها أنه يتمتع بقدرات فائقة، ولا يترك إلا أثراً بسيطاً؛ شخصية ذكية ولديه معرفة كاملة بعمل الشرطة، كما أنه يدرك أن الجرائم يجب أن تبدو مختلفة حتى لا يتم ربط بعضها ببعض.

رجعت هيلين بيلاي إلى الصالون مرة أخرى. تغلق ديان دفتر ملاحظاتها، وتقف: سأتركك الآن يا سيدة بيلاي، وسأجعلك على اطلاع على سير التحقيق.

بينما ديان تقف على الدَّرج الصغير قبل أن تغادر. تسألها والدة ماري آن السؤال الذي كانت تخشى سماعه.

- هل كانت... هل أصابها أحدهم بمكروه؟

لم تنخدع ديان بمضمون سؤالها؛ إنها تريد أن يعرف ما إذا كانت ابنتها قد تعرضت للاعتداء.

نعم. كانت تُمني نفسها ألا تتحدث والدة ماري آن عن هذا الموضوع.

تحاول أن تتجنّب الردّ على هذا التساؤل:

- لا أستطيع أن أتحدث معك عن هذا الأمر في الوقت الحالي يا سيدة بيلاي؛ كل ما يمكنني التأكيد عليه هو أننا سنعتقل الرجل الذي قتلها. أعدك بذلك.

## 30

تم العثور على بطاقة المترو الخاصة بك في محطة مترو تروكاديرو.

عن طريق هذه الرسالة الموجودة على مكتبه، والتي نقلتها جوديث، يوضِّح موريس لأندرسن أنه يريد مقابلته في مكتبه، في شارع موليتور، الذي تفوح منه رائحة بقايا السجائر النتنة. كانت الرائحة تتخلل كلّ شيء، فالسقف تحوّل لونه إلى لون النيكوتين الأصفر، وأيضا السجادة امتلأت برماد التبغ!

يسأل أندرسن بإلحاح عن الذي عثر عليه موريس. تبدو ابتسامته المفتعلة على مُحياه. يشغّل المحقق التلفزيون الكبير في مكتبه، ويُدخل القرص المدمج في مشغِّل الأقراص الرقمي الخارجي الموجود أسفل المكتب، ويبدأ عرض الصور التي التقطتها كاميرات المراقبة على الشاشة. يضغط موريس على زر التشغيل، فتتوقف الشاشة، وهنا يشير إلى منطقة على رصيف المترو.

- ستخرج ناتاشا من هنا. انتبه جيداً.

يتوقف القطار، وتنزل ناتاشا من المترو. يلاحظ أندرسن أنها جميلة ورشيقة. يقشعرّ جلده عندما يتذكّر صورتها وهي ميتة، كما لو أن عنكبوتاً صغيراً يتحرك على رقبته.

- هل رأيت الرجل الذي يسير خلفها؟

- لا، لم أره مطلقاً!

- ستتّضح صورته في الفيديو التالي.

يحرك موريس تسجيل الفيديو إلى يوم آخر من أيام الأسبوع. عادت ناتاشا إلى الظهور على الرصيف. ها هي ترتدي الآن سترة مختلفة.

يقول له موريس:

- انظر جيداً.

يتفحص أندرسن الناس حول ناتاشا..

- ما الذي يحدث؟ هل رأيته؟

- ليس بعد!

يضغط موريس على زر التشغيل مرة أخرى. يبدأ الناس السير إلى الخلف. يتوقف الفيديو عندما تنزل ناتاشا من المترو.

- هنا، يتحدث وهو يشير إلى إحدى العربات.

يشغّل المحقق الفيديو مرة أخرى. يترك الرجل عربة القطار، ويسير خلف ناتاشا في المكان الذي يشير إليه موريس. كان يرتدي معطف باركا طويل بلونٍ زيتونيّ، وكان غطاء الرأس يُغطي وجهه.

- يمكن أن نراه في جميع التسجيلات التي تظهر فيها ناتاشا. يدخل باستمرار إلى عربة القطار الذي تستقله، إنه يطاردها..

- هل هو فيكتور فورنيي؟

يُخرج موريس ملفاً يحتوي على صور صديق فاليري رومر السابق، وبعض المستندات الأخرى التي تتعلق بسجله الجنائي كالاعتداء والإيذاء الجسدي وحيازة المخدرات وبيعها والتستر على المجرمين. من المحتمل أن يكون فورنيي من النوع الذي يمكن له أن يتبع امرأة ويقتلها، ولكن توجد مشكلة!

يضع المحقق إصبعه على المكان الذي يوجد فيه الرجل على الشاشة.

- لم أستطع رؤية وجهه في أي من هذه الصور. إنه يتحرك بزاوية معينة لكيلا يظهر وجهه في مجال رؤية الكاميرا، لكن الأمر المؤكد هو أن طول الرجل لا يتوافق مع طول فيكتور فورنيي؛ فالرجل أقصر بكثير، يبلغ طوله نحو متر وسبعين سنتيمتراً، وربما أقل من ذلك.

يتنهد أندرسن..

- إذاً، ألا يمكننا التعرف عليه؟!

- أنا لم أقل هذا الكلام!

يُخرج المحقق القرص المدمج، ويضع قرصاً آخر في الجهاز. يظهر فيديو جديد على شاشة التلفزيون، بينما يتذكر أندرسن محطة الوقود الواقعة بالقرب من مطار أورلي، وإذ به يشعر بتقلصات في معدته؛ لأنه سيرى الصور الأخيرة لأليس وهي ما تزال على قيد الحياة!

- بمجرد مشاهدتي هذا الرجل، أشعر كأنني رأيته من قبل! إنني على قناعة بأنني قابلته في مكان ما؛ فصورته عالقة في رأسي منذ فترة طويلة قبل أن أضع أصبعي على الشاشة.

يزيد موريس من سرعة الفيلم حتى وصل إلى اللحظة التي تتحرك فيها أليس بسيارتها، وتترك محطة الوقود؛ ستقف بالقرب من متجر يوجد في المحطة. يوقف المحقق التسجيل لحظةً، فتظهر دراجة نارية في مجال رؤية الكاميرا.

- انظر هناك. يصرخ بصوت المنتصر.

يشير موريس إلى راكب الدراجة النارية، وهو يرتدي السترة خضراء اللون نفسها التي كان يرتديها الرجل في المترو، فيظل أندرسن صامتاً من هول المفاجأة. يستمر المحقق في حديثه...

- بناءً على العناصر المحيطة بهذا الرجل، أستطيع أن أقول إن السائق والرجل الذي كان يتبع ناتاشا يتمتعان بالطول نفسه والبنية الجسدية نفسها. يا للأسف.. لا نستطيع رؤية وجهه بسبب الخوذة؛ لكن يمكننا رؤية جلده بين القفازات وأكمام سترته، كما أنني لاحظت أن...

يعطيه المحقق الانطباع الذي استشفه من رؤية الفيديو.

يقول موريس:

- أعتقد أنه وشم.

يدقق أندرسن النظر في الصورة؛ لكنها سيئة للغاية إلى درجة أنه لم يستطع معرفة ما إذا كانت وشماً أم بقعة دهون!

- ألا يمكننا الحصول على صورة كبيرة واضحة؟

- لا يمكن مع البرنامج الذي بحوزتي؛ لكن القسم المتخصص في مكافحة الجرائم يستطيع التعامل مع مثل هذه الأمور بوسائل أقوى بكثير.

- ماذا لو أردت الحصول على صورة أوضح؟ هل تعرف متخصصاً يمكنه أن يساعدنا في هذا الشأن؟

يقطّب موريس جبينه:

- يا كريستيان، يكفي إلى هذا الحد. لقد فعلنا كلّ ما في وسعنا، وسنترك زمام المبادرة لفرقة مكافحة الجريمة. ما الذي تتمناه أكثر من ذلك؟!

- إذا قدمنا لهم معلومات سرية، فسوف يتساءلون كيف حصلنا على مقاطع الفيديو؟! نعم، قمنا برشوة موظف للحصول عليها. بالنسبة إلى الرجل الذي يعمل في شرطة النقل، ألن يتهمنا؟!

- لا داعي للقلق بشأن ذلك. اتصلت به، ولن يتحدث. ألا تعلم أن السفاح ما يزال حراً طليقاً، وأن المعلومات التي نخفيها يمكن أن تساعد زملائي السابقين في القبض عليه؟!

- زملاؤك السابقون أم الحاليون؟ إن رجال الشرطة سيضعون القيود بأيدينا أنا وأنت إذا عرضنا عليهم هذا الفيديو. ألا تريد أن يتم توقيف هذا المجرم؟ ألا تحترق شوقاً إلى مثل هذه الأيام السابقة؟!

يخرج المحقق علبة سجائر جديدة، ويشعل سيجارة مغلفة برقائق بيضاء، وبعد أن نفث الدخان من أنفه مرتين أو ثلاث مرات، ترك السيجارة تشتعل في مطفأة السجائر، وظلّ يحدق النظر فترةً طويلة في جزيئات الدخان البيضاء وهي تتصاعد إلى السقف، وبدا مستغرقاً في التفكير..

هنا يقول موريس:

- يمكننا أن نوجههم في الاتجاه الصحيح. مثلاً: مكالمة من مجهول... سأقوم بهذا الأمر إذا رغبت في ذلك.

- أنت لا تفهم يا موريس؟! أنا أريد هذا الرجل.

- وماذا ستفعل بمجرد تحديد هويته؟!

يحدق أندرسن النظر في عينيه بقوة.

- ماذا ستفعل أنت لو كنت مكاني؟!

لم ينبس موريس ببنت شفة. يزيغ بصره في مطفأة السجائر التي ما تزال أعقاب السجائر مشتعلة فيها.

- أعدك بأنك لن تتعرّض إلى مشكلة يا موريس. وبالنظر إلى المخاطر، سأدفع لك ضعف الأتعاب. لا، بل ثلاثة أضعاف الأتعاب.

إلا أن هذه الوعود الأخيرة لم تبدّد حيرة موريس، على عكس ما كان يؤمّله.

- بعد ثلاثة أيام، سأذهب إلى حفلة عيد ميلاد أحد زملائي القدامى، وسيكون هناك كل الفريق القديم في الشرطة القضائية... لا يمكنني الذهاب هناك، وأنا أعلم أني سأصمت عن الإبلاغ عن سفاح، وسأتركه حراً طليقاً.

- لهذا، سأقوم بإجراء تلك المكالمة من مجهول التي أخبرتك عنها، أما إذا كنت تريد مني أن أبحث عن الرجل الذي يرتدي السترة، فسأفعل ذلك؛ لكنني لن أحتفظ بمعلومات مهمة كهذه. حياة امرأة أخرى في خطر طالما أن هذا الرجل يتحرك بحرية في الخارج؛ كيف يمكنك أن تنظر في المرآة إذا ماتت لأننا لم نشارك معلوماتنا مع الشرطة؟

يضع أندرسن، بطريقة ميكانيكية، يده على كامل الندبة الموجودة على خده. لقد كان يتجنب النظر في المرايا منذ فترة طويلة، ولهذا إن موريس كان على صواب.

- هذا جيد. سنستخدم طريقتك إذاً. هل تعرف شخصاً ما يمكنه تحسين جودة الصورة؟

يشعر موريس بالارتياح. يسترخي على الكرسي ذي الذراعين بكل اطمئنان ليجعل نفسه أكثر راحة.

- نعم، لكن هذا الأمر قد يستغرق وقتا طويلاً.

- هل يمكننا تقليل المدة بدفع مبلغ جيد من المال؟

- أعتقد ذلك.

- في هذه الحالة، ابدأ العمل. المال ليس مشكلة. سأحصل على التأمين على حياة أليس قريباً.

يجب أن تحاسبني على خمس وعشرين ساعة عمل في اليوم.

لا مشكلة لدي؛ لكن أعطني صورة واضحة للوشم الذي عليه، و-إذا أمكن- صورة لوجهه، وبمجرد الانتهاء من ذلك، قم بإعطاء جميع جهات الاتصال الخاصة بك الصورَ؛ ربما يتم بالفعل إلقاء القبض على هذا الرجل.

يهز المحقق كتفيه...

- هذا الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش!

- إذاً، سنحتاج أيضاً إلى نسخة من ملف التحقيق في مقتل ناتاشا؛ ربما يوجد لديهم مشتبه فيهم.

- سيكون الأمر معقداً. ليس لدي جهات اتصال في مجموعة جيريكو.

يفكر موريس وهو يضع ذراعيه المتشابكتين على بطنه الكبير.

- من ناحية أخرى، أعرف شخصاً يمكنه مساعدتنا؛ هو صحفي، لا يأخذ نقوداً؛ لكنه سيطلب منك إجراء مقابلة مقابل ذلك.

- سأفعل كل ما هو ضروري. اتصل بي بمجرد معرفتك بأي جديد.

ينهض أندرسن من على الكرسي. يصطحبه موريس إلى الباب؛ لكن قبل أن يخرج أندرسن يقول المحقق له معلومة أخيرة:

- تحدثتُ إلى شرطي حضر عملية استخراج جثة زوجتك في الغابة. أخبرني أنها كانت ترتدي فستاناً جميلاً لونه أزرق. يبدو أنه مخصص لحفلة تنكرية.

يندهش أندرسن عند سماعه هذه المعلومة. لا يتذكر أن أليس كان لديها فستان من هذا النوع في خزانة الملابس! على أي حال، كانت ترتدي الزي الخاص بالعمل يوم اختفائها. هل يعني ذلك أن القاتل أجبرها على تغيير ملابسها قبل أن يقتلها؟! إنه يفضل عدم التفكير في هذا الأمر في الوقت الحالي.

يسأل أندرسن فجأة:

- وبالنسبة إلى رقم الغراب الجديد، هل حصلت عليه؟

- اسم صاحب الخط غير حقيقي. الخط يعود إلى رجل يُدعى لويس كارول، مؤلِف كتاب «أليس في بلاد العجائب».

رجل الشرطة والطبيب الشرعي والمدعي العام.

في سيارة الأجرة التي يستقلها من أجل الذهاب إلى عيادة هاليزيدوت، يحاول أندرسن أن يطلق لخياله العنان وهو يفكر في لقائه مع بيرجر، الذي بدا مقتنعاً بأنه كان يقلّد أسلوب محرك الدمى في خداع فرقة مكافحة الجريمة. فجأة، يرفض تماماً كل ذرائعه بما أنها ستقود إلى اتهامه. ماذا لو كان بيرجر على صواب؟ ماذا لو أنه أصاب الهدف الخطأ؟

إن محرك الدمى لم يقتل منذ سنوات، وربما مات. هل كان يخفي الجثث بشكل متقن؟ هل هو فعلاً هنكر؟ إذا تجاهلنا فرضية القاتل الذي يسترشد بهذا الأخير، فلن يكون القاتل إلا رجل الشرطة، أو الطبيب الشرعي، أو المدعي العام.

وهو الآن مقتنع بأن هذا الشخص هو الذي أرسل إليه الرسائل المجهولة.

كيف يبدو الغراب؟

ما تزال الرسالة على هاتفه النقال تبدو غير طبيعية.

كيف يبدو الغراب... هل يشبه المحامي؟!

لمّا كانوا يرتدون عباءة المحاماة السوداء الطويلة، يمكن للمرء أن يظن أن المحامين يشبهون الغربان! المصادفة جعلته يرسل رسالة نصية بهذه الإجابة.

بعد خمس عشرة دقيقة، وبينما كان يقف عل باب عيادة هاليزيدوت، رنّ جرس هاتفه.

إجابة سيئة.

ينتظر هاليزيدوت عند النافذة، وهو يدخّن التبغ باستخدام أنبوب طويل فيه ماء يضعه بين أطراف أسنانه، وتفوح منه رائحة التفاح والقرفة. كانت أسطوانة البلاتين الخاصة به تعزف لحن أوبرا باللغة الألمانية.

يبدي الطبيب ملاحظة:

- لقد تأخرت.

- كان من الضروري إنهاء شيء مستعجل.

جلس الاثنان، وأعطاه هاليزيدوت الدواء عن طريق الحقن.

- سنجرب هذا الصباح طريقة جديدة.

- دائماً تجارب؟

يقول هاليزيدوت مازحاً:

- يجب عليك أن تعرف كيف يتغير طعم كل دواء.

أخرج الطبيب حقيبة مليئة بالقوارير ذات ألوان مختلفة؛ منها الأصفر والبرتقالي والأزرق والأحمر؛ أغطية القوارير كلها ملوّنة، ويوجد عليها ملصق يشير إلى العطر الذي في داخلها.

يشرح له هاليزيدوت الخطوات التي سيتّبعها خلال الجلسة.

يحرك قطعة رقيقة من الورق المقطوع على شكل مثلث ويقول:

- سأفتح إحدى هذه القوارير، ثم أغمس فيها قطعة قماش، وعندما تشم الرائحة ستخبرني ما الذي تتذكره.

يضع المتخصص في علم النفس على عينيه قناعاً، وبعد بضع دقائق، يبدأ الدواء يؤتي ثماره. يشعر بحرارة تجعل الدم يجري في عروقه.

أعلمه الطبيب بالقرار. سوف نبدأ الآن.

مع قطعة القماش الأولى، يشعر أندرسن برائحة حلوة تدغدغ أنفه؛ إنها رائحة الكراميل. يحكي للمتخصص النفسي عندما كان يتجول

في ممرات دار الأيتام داخل مبنى المستقبل الاجتماعي لأورجيمون. تسقط منه حشوة السنّ بسبب تناول الكراميل الرخو.

- أنت الآن تفهم أساس عملنا؛ لنستمر.

فرائحة الحبر تعيد إحياء ذكرى مؤلمة فرضت عليك منذ سنّ المراهقة. أنت كريستيان أندرسن، حصلت على ثلاثة من أصل عشرين، أنت غير جدير بالاسم الذي تحمله.

قطعة قماش جديدة. يشم رائحة عشب ناضج، مباريات كرة القدم بعد ظهر يوم الأحد؛ عطلة نهاية أسبوع في الريف، نزهة على أرض حدائق لوكسمبورج، صباح أحد أيام شهر مايو عندما قال لأليس أنا أحبك، وردّت عليه بالعبارة نفسها.

يعتقد أنه عصير الليمون. يسير وسط حديقة في مواجهة البحر في مكان ما في جنوبي إيطاليا. إنها رائحة تفاح. يرجع إلى هنا قبل عشرين دقيقة، عندما ينفث هاليزيدوت الدخان ذي الرائحة العطرة من أنفه مستعيناً بأنبوب الماء الخاص به.

أليست هذه رائحة الباركيه المشمّع؟ المسرح، الكراسي الحمراء. إن أليس ترتدي ثوباً أزرق باهظ الثمن.

يشعر بتقلبات معوية في بطنه، كأن عروقه ترتعش من صعقة كهربية. يقول موريس إنه شاهد أليس وهي ترتدي فستاناً غريباً. أهذا هو الفستان نفسه؟!

يشم رائحة الفراولة؛ إنها الحلوى التي تم شراؤها في شارع الشانزليزيه. يشاهد أليس في العرض المسرحي، تتلقي الدروس منذ بضعة أسابيع. كيف استطاع أن ينسى ذلك؟

رائحة العلكة الساخنة سيئة جداً؛ ربما هي رائحة إطار السيارة بسبب الاحتكاك عند الضغط على المكابح، ستنفجر السيارة. تترك أليس العرض المسرحي، ويتبعها خلف الكواليس.

رائحة الخبز تنبعث من المخبز؛ خبز هشّ، طعام الإفطار، مربى وزبدة مملحة. يشاهد رجلاً يذهب إليها في غرفتها. يراقبها عن بعد كما لو كان خائفاً من أن يراه أحد؛ الدماء تغلي في عروقه، يشعر بالغضب!

مسحوق الكاري يباع في أفريقيا أو في المشرق ضمن أكياس مليئة بالتوابل الحمراء والصفراء والبنية. توجد هناك أوراق مجففة وثمر التوت. ذهبت إلى المسرح يومي الثلاثاء والخميس، لكنها لم تتلق دروسها الرياضية، ولم تخبره بذلك! بات مُلمًّا بالأمر لمّا هاتفه النادي الرياضي يسأله أن يُجدد اشتراك أليس لمدة عام آخر.

زفرات أنفاسه الملتهبة تكاد تخنقه؛ رائحة هواء منعش، أبخرة عوادم السيارات، الاختناقات المرورية طوال اليوم، هو الآن في الخارج أمام المسرح.

يشم رائحة الخشب، شجرة الصنوبر، الغابة، يجلس وهو يستند إلى شجرة. لا يشعر أنه على ما يرام. توجد مجرفة بالقرب من قدميه، كالحجر الكريم الصغير جداً الذي يخدش أسطوانة مدمجة قديمة. يتذكر شيئاً آخر يستقر في عقله. عندما خرج من المسرح كانت أليس عصبية تسير بمفردها، وكنت أسمع قرع نعلها على الأرض، وعند مفترق الطرق، اتجهت نحو سيارة ثم...،

ينزع القناع من على عينيه. يجلس على الأريكة بارتياح..

يتنهد ثم يقول:

- ثيوفيل كارتر.

- ماذا رأيت؟ من هذا؟

- المخرج الذي تعمل معه أليس. كانت تمثل في مسرحية. نسيت تماماً.

- هذا أمر جيد. يبدو هاليزيدوت متحمساً. ألا تعتقد أنك تستعيد ذاكرتك شيئاً فشيئاً؟

يشعر أندرسن كأنه لا يرى شيئاً قبل أن يتذكر اسم المخرج؛ لكنه يتذكر بسرعة وجه سائق السيارة المتوقفة عند مفترق الطرق، إنه الرجل الذي ذهب إلى أليس في غرفتها، فبينما كانت تستقل السيارة؛ إذ بأندرسن يشاهدهما وهما يختفيان وسط الزحام المروري. ما هذه الرائحة التي كانت تنتشر في الهواء في تلك الآونة؟ لم يعد يتذكر أندرسن. لا ريب أنها رائحة الكراهية والغضب!

## 32

في اليوم التالي للقائها هيلين بيلاي، تمرّ ديان على دوكلير لاستعراض الجديد بشأن القضية. ما إن طرقت الباب حتى طلب منها الدخول بسرعة، وهو يلقي نظرة قلقة مرتابة على الدَّرج!

- انكشف أمري. سيصل جيريكو في غضون بضع دقائق.

- ماذا تقول؟ كيف حدث ذلك؟

- استطاع معرفة أحد المخبرين الذين يعملون لمصلحتي. اعترف الرجل بكل شيء. اتبعيني. ليس لدينا الكثير من الوقت!

مسكها من ذراعها، وذهب بها إلى الصالون.

- لدي معلومات جديدة تتعلق بماري آن بيلاي.

يُخرج ملفاً من خزانته المصفحة يحتوي على السجل الإجرامي، وصورة لماري آن بشعرها شديد السواد.

تندهش ديان وتسأل:

- هل هي من ذوي البشرة البنيَّة؟

- كان يُمكنها أن تكون بأي هويَّة، إن هذهِ فتاةٌ اعتادت العمل في المراقص، فهي تعمل بملهىٍ للتعرّي بالتوازي مع كونها طالبة.

تفكر ديان في هيلين بيلاي، كيف استطاعت التكيف مع هذا الوضع؟!أعطاها دوكلير حقيبة تحمل على الظهر.

- أود أن أطلب منك خدمة. خذي هذه الحقيبة معك. لا يجب أن يراها جيريكو هنا.

- ماذا يوجد في داخلها؟

- ملفات تتعلق بالقضايا الجنائية الكبيرة من القرن الماضي. هذه السلسلة من الملفات تخصني أنا، ولا أريد أن يستولوا عليها أثناء مداهمة الشقة.

لم تعلّق ديان. في واقع الأمر، تعدّ طلبه أمراً طبيعياً تقريباً بالنظر إلى أن هذه السلسلة من الملفات تخص دوكلير.

- هذه الأشياء التي معي مهمة للغاية؛ جرائم قتل ارتكبها سفاح. القسم المتخصص في مكافحة الجرائم هو الذي يعترض طريقنا. لو كنا نعيش في الولايات المتحدة الأمريكية لفاز المقال الذي سأكتبه عن هذه القضية بجائزة بوليتزر المهمة جداً.

تفكر في الأمر، وتقول: لماذا لا أفوز بجائزة نوبل، بما أنني أعيش هنا؟!

- يجب أن أحذرك يا أوسكار. ربما جاء شرطي لمقابلة ماري آن قبل أسابيع قليلة من وفاتها. ربما لا يتعلق الأمر بالسفاح الذي نتحدث عنه.

يشحب وجهه إلى درجة أن حواجبه بدت كالفاصلة التي تستعمل في الكتابة على ورق أبيض!

- تقولين شرطي؟ ماذا لو كان هذا الشرطي ضمن فريق جيريكو؟!

- هذا سبب إضافي لعدم التخلص من أي شيء. يستحسن ألا تتحدث في هذا الأمر.

- لا داعي للقلق. لن أصرّح بأي شيء في الحبس الاحتياطي؛ لكن لا تنسي اتفاقنا. أنت مدينة لي بهذا الخبر الحصري.

- أعرف هذا.

- وسأحتفظ بحقوق المؤلف عندما يتم نشر الكتب والأفلام والمسلسلات وألعاب الفيديو. النموذج الذي يتم إعداده مسبقاً يجب أن يكون معي من أجل التوقيع وحسب.

- هذا أمر جيد يا أوسكار. هل تعتقد أنني لا أهتم بالمال؟!

تحمل حقيبة الظهر. تقريباً وزنها نفسه. يترك حزام الحقيبة علامات على كتفيها.

هناك من يطرق الباب.

- نحن رجال الشرطة. افتح الباب.

- هذا صوت جيريكو.

صوت دوكلير يرتفع:

- أيعقل هذا، أيعقل هذا، أيعقل هذا...؟!

- أيوجد مخرج آخر؟

- نحن في الطابق الخامس. مؤكدٌ أنه لا يوجد مخرج!

- وهل توجد وسيلة للخروج عن طريق الشرفة؟ (يتحدثان مع الجيران)

- نعم؛ لكن توجد شبكة حديد تسد الطريق.

- سأتدبر الوضع. حاول أن تشغلهم.

يسير دوكلير في الممر، ويطلب من رجال الشرطة الموجودين على الدّرج أن يمرروا له بطاقة الشرطة تحت الباب، وعلى الجانب الآخر، أصواتهم تزداد علواً؛ إنهم يسبونه ويهددونه؛ لكن دوكلير لن يستسلم، ويدعي أن ثقب الباب الذي يُرَى من خلاله الطارق لا يعمل، وأنه لا يستطيع أن يعرف ما إذا كان يتعامل بالفعل مع ممثلي الشرطة؛ حتى إنه يبالغ بقوله في أنه سيتصل بقسم الشرطة في الحي للتحقق من هويتهم!

في هذه الأثناء، تدخل ديان إحدى غرف النوم في الشقة، وعلى عجل تزيح من أمامها كومة من المجلات تسدّ النافذة، وتتمكن من فتحها بما يكفي للوصول إلى الشرفة، وكما قال الصحفي، إن شبكة معدنية على شكل نصف دائرة مثبت بها أسلاك شائكة تمنع التواصل بين شقة دوكلير وشقة الجار.

كان عليها أن تعبر إلى الجانب الآخر من الحاجز الموضوع على جوانب الشرفة، وأن تتعلق في الهواء للالتفاف حوله.

الصخب الشديد يُسمع في كل مكان في الشقة! الآن يتم فتح باب الشقة بالقوة. يقتحم دوكلير غرفة النوم. يغلق النافذة، ويبدأ جمع الصحف التي ألقتها على الأرض بقدر ما تستطيع أصابعه الصغيرة والقصيرة. خطوات سريعة ترددت أصداؤها في الممر. يشير أوسكار إليها كأنه يريد أن يقول حظاً سعيداً. وبعد لحظة، يظهر ظل شرطي فوق

عتبة الغرفة، فتستند ديان إلى الحائط، وتستمع إلى ما يقال دون أن تجرؤ على إلقاء نظرة داخل الشقة.

- أين أنت يا أوسكار دوكلير؟ (يعلو صوت جيريكو). هذا إخطار باعتقالك على ذمة الحبس الاحتياطي للأسباب التالية: عرقلة سير العدالة، والضلوع بارتكاب ممارسات فاسدة، وانتهاك سرية التحقيق، والتستر على الجرائم.

- أنا لا أفهم ما الذي تتحدث عنه؟!

- احتفظ لنفسك بهذا الكلام أيها الوغد. لقد تخلى عنك المخبر السري الخاص بك. وقمت بسرقة مواد ومعلومات سرية من عدة ملفات جنائية. سنفتش منزلك للعثور عليها. هل تعترف قبل أن نبدأ التفتيش؟

يقف على حافة الشرفة، وينادي دوكلير بأعلى صوته في تحدٍّ شديد: خبّأتَها وسط النباتات في الغابة. لا تدعي الذكاء المفرط يا دوكلير، وإلا فإننا سنتلف كل ملفاتك القذرة هذه، وستقضي عاماً كاملاً لإعادتها كما كانت وفقاً للأحداث الزمنية.

أحد رجال الشرطية ينادي على جيريكو من الصالون:

- وجدنا خزانة مصفحة أيها المأمور.

- إذاً سنبدأ بتفتيشها. أعطني المفتاح يا دوكلير.

- لا. لن أعطيكم. هذا التفتيش غير قانوني!

- أعطني المفتاح أو سأفتحها بمشعل قاطع يعمل بالأوكسجين؛ غير أنني لست متأكداً من مدى أهمية الوثائق الموجودة داخل الخزانة.

- لن تجرؤ على فتحها.

- يشتدّ غضبي.

- حسناً، حسناً، اتبعني.

يُسمع قرع خطوات قوية فوق الأرض، يتبعه صمت نسبي. تنظر ديان بسرعة إلى داخل الغرفة. لا أحد هناك، يحين الوقت لاتخاذ إجراء مناسب قبل أن يفكر أحد زملائها السابقين في فتح النافذة.

تقفز على الحاجز الحديدي المطلي باللون الأحمر. تنظر إلى أسفل منها، فاذا الشارع وعشرات السيارات التي تسير وهي تطلق أبواقها. تتحرك بحذر شديد؛ لكنها تعلق بالأسلاك الشائكة التي تغلق الشرفة. ينزلق من على كتفها أحد أحزمة حقيبة الظهر التي تخص دوكلير بسبب وزنها الثقيل ومحاولتها التماسك، إلا أنها تفقد توازنها، وتفلت ساقها اليمنى في الفراغ، وسرعان ما تبعتها الساق اليسرى؛ لكنها تقبض بيديها على الحاجز الحديدي بإحكام شديد.

تحدق النظر إلى الفراغ أسفل منها لبضع ثوان؛ إلى الأسفلت المخيف، والطيور التي تحلّق بعيداً، وإلى سيارات الدوريات الأمنية، وإلى المصابيح المضاءة أعلى سيارات الشرطة وهي تقف بشكل غير مستقيم على الرصيف، وإلى قوس النصر في نهاية الشارع. يزداد معدل ضربات قلبها بسرعة شديدة...! لا تستطيع أن تقف بقدميها على أي شيء. أصاب الخوف الشديد ذراعيها بالشلل فلا تستطيع تحريكهما! على الرغم من ذلك، هي على يقين بأنها ستحاول مرة أخرى. كان الأمر بالنسبة إليها أشبه بسلسلة من عمليات السحب والجر في صالة الألعاب الرياضية.

يبتعد عمود النافذة الحديدي عنها عشرات الأمتار. أوقفت تحريك ساقيها. ستأخذ نفساً عميقاً. تمد ذراعيها كما هو الحال في الألعاب الرياضية إلى أن وصلت إلى أقصى استطاعتها. تعيد قدميها إلى الحاجز الحديدي. بعد عدة محاولات تقفز ناحية شرفة الجار، ثم تدخل الشقة من النافذة المفتوحة وهي تلهث... لا أحد يوجد في الداخل.

لحسن الحظ أن مالك الشقة لم يكن موجوداً طوال وقت التفتيش في شقة دوكلير. ظلت هناك ما يقرب من ساعتين، وخلال هذه المدة استطاعت ديان قراءة الملف الذي أعدّه الصحفي، وما إن قلبت الصفحة حتى عرفت اسم رئيس النادي الذي كانت تعمل فيه ماري آن، اسمه معلوش؛ يبدو شاباً وسيماً، ينتمي إلى الجيل الثاني، سيئ السمعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى... اهتمت ديان بقضيته بالفعل عندما كانت تعمل في فرقة مكافحة القوادة.

اتصلت ببرجر وهي في طريقها للخروج من المبنى الذي يقيم فيه دوكلير:

- أريد مقابلتك في منطقة بيجال. اقتفيت أثر شخصية مهمة.

## 33

إنه تيوفيل كارتر. ظلّ أندرسن لساعات يتعقب المخرج الذي أخرج المسرحية التي تمثل فيها أليس. انتهى به الأمر إلى مقابلة أحد أطفاله الذي أخبره، بالحرف الواحد، أنه كان محتجزاً في مستشفى سانت آن للأمراض النفسية منذ أكثر من عام بسبب مرض التنكس العصبي، وأنه بفضل الدكتور هاليزيدوت تمكن أندرسن من الحصول على تصريح بزيارة استثنائية.

تصطحبه الممرضة عبر ممرات المصحة المظلمة. يشاهد رجالاً ونساء يرتدون بيجاما زرقاء يسيرون في كل الاتجاهات، ويحدّقون النظر إليه ببرود... يسمع أصواتاً تئنّ وتملأ الأجواء..

تحذره الممرضة:

- كن صبوراً مع السيد كارتر. لا تكن عصبياً. ترفّق به، وقبل كل شيء، لا تقاطعه وهو يتكلم، وإلا فسيغضب ولن يقول أي شيء آخر.

أومأ أندرسن برأسه؛ ربما كارتر هو الشخص الوحيد الذي سيخبره بقاتل أليس، فلا يرغب في إيذائه.

ذهبا للجلوس في صالة الانتظار الجماعية. يجلس كارتر في نهاية طاولة يوجد عليها إبريق كبير وأكواب شاي تتناثر فوقها أعمدة من البخار وكميات من البسكويت ملفوفة بأكياس بلاستيكية. يبدو جلده جافاً ومتجعداً يشبه الورق البردي القديم. يقف بإباءٍ وأنفة ورأسه مرفوع إلى أعلى؛ الأمر الذي يوحي بأنه من الطبقة الأرستقراطية التي جار عليها الزمان، والتي لا تناسب القبعة الوردية المشدودة على رأسه، وبينما يجلس أندرسن أمامه ينظر الرجل الكبير إليه باستغراب من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه!

- من أنت؟

- أنا كريستيان أندرسن.

يسلّم عليه كارتر:

- أنت كريستيان أندرسن ؟

- بكل تأكيد.

- تفضل اجلس.

يتساءل أندرسن في نفسه عن الروح الطيبة التي يتمتع بها المخرج. هل تقابلا من قبل في مكان ما؟!

- تبدو شاباً يا كريستيان. أصغر بكثير مما تبدو عليه في هذه الصور بالأبيض والأسود.

- تقول صوراً بالأبيض والأسود؟!
- كيف هي الأحوال في الدانمارك؟
- تقول الدانمارك؟
- نعم! ألم تعد تعش هناك؟!
- لا، نهائياً!
- أفضل. على أي حال، توجد أشياء غير طيبة هناك. هذه الأمور معروفة جيداً.

الآن يدرك كريستيان أندرسن أن الرجل الكبير يعتقد أنه مؤلف الروايات. يساوره قلق شديد. يعتقد أنه سيكون من الصعب عليه جعله يتكلم.

يعرض عليه المخرج كوباً من الشاي.

- لا، أشكرك يا سيد كارتر. أنا بحاجة إلى أن تساعدني في أمر ما.. زوجتي ماتت.
- تقبل عزائي. كم هو محزن هذا الخبر؛ لكنني لا أستطيع مساعدتك، أنا لست قسيساً ولا متعهد دفن الموتى!

يبتسم المخرج ابتسامة باردة.

يقول له أندرسن:

- أنا فقط أبحث عن إجابات لأسئلتي.

القساوسة لديهم الكثير من الإجابات، أكثر من متعهدي دفن الموتى.

يمسك كارتر بكوب بلاستيكي، ويضعه أمام أندرسن.

- هل تريد مزيداً من السكر مع الشاي؟

يكرر أندرسن كلامه:

- لا أرغب في شرب الشاي.

يسحب أندرسن صورة لأليس من جيبه، ويعرضها على المخرج.

- أود أن أستعلم عن شيء. هل تستطيع أن تتعرف على زوجتي؟

-نعم بكل تأكيد، إنها أليس الصغيرة؛ كانت ترتدي دائماً هذا الفستان الجميل باللونين الأزرق والأبيض، هذا الفستان يحمل ذكرياتها، هو على الطريق الصحيح إذاً.

- هذا ما أريد معرفته. كانت تمثل في مسرحيتك دوراً مقتبساً من «أليس في بلاد العجائب». هل تتذكر؟

- بكل وضوح أقول لك إنني لست فاقداً للوعي؛ لكن هذا الأمر كان قبل ثلاث سنوات، وكان اسم المسرحية «مغادرة بلاد العجائب». هذه المسرحية تتكلم عن الخوف من الشيخوخة والحنين إلى الطفولة، وفي هذه القصة تريد أليس العودة إلى بلاد العجائب؛ لكنها كبرت، وتغير كل شيء في المملكة. لم يعد هناك أي شيء في الوقت الحاضر يشبه ما كان في الزمن الماضي! أصيبت أليس بالإحباط. أنا أحفظ عن ظهر قلب جميع الحوارات. يمكنني أن أذكرها لك.

لم يستطع أندرسن أن يخفي ابتسامته عندما رفع كارتر يده، وهو يتكلم بشكل مبالغ فيه على طريقة ممثلي المسرح. ظلت شفتاه فترة طويلة متباعدتين. لم يكتف المخرج الكبير بإلقاء بعض حواراته التي لم تتوقف، لكنه استمر في حواره مع نفسه مدة طويلة مع بعض الإيماءات التي استغرقت نحو عشر دقائق، وما يزال أندرسن يستمع بأدب إلى حوارات المخرج الذي قال هذه الكلمات.

- وسألت أليس الصغيرة بطريقة ماكرة: كيف يبدو الغراب؟

ينهض أندرسن واقفاً من على الكرسي فجأة:

- هل هذه الجملة مقطع من مسرحيتك؟

يتعصب كارتر، ويقول:

- لا تقاطع الممثل الذي يقوم بالتمثيل.

- أعتذر إليك. هل أنت من كتب هذه الجملة؟

- نعم، لكنها مستوحاة من خطاب السير لويس كارول.

- مؤلف كتاب «أليس في بلاد العجائب» ؟

- إذاً، من الشخص الآخر الذي تريد أن أحدثك عنه؟ كما تعلم، لا أحب أن يقاطعني أحد وأنا متحمس في أداء الدور. دعنا نتحدث عن كارول. هذا أمر مختلف. هل تريد حلوى مع الشاي؟

- لا، شكراً. متى سيتم عرض المسرحية؟

- في شهر يوليو، عندما يذهب الأطفال الصغار إلى حمام السباحة؛ لكننا اضطررنا إلى إلغاء كلّ شيء في اللحظة الأخيرة.

- لأي سبب؟

- بكل تأكيد، بسبب اختفاء أليس، لا بد أنها اختفت في مكان ما.

- لقد ماتت.

- أحقاً ما تقول؟ لا بد أن زوجها حزين للغاية.

- أنا زوجها.

وضع المخرج الكبير ساقيه النحيفتين الواحدة فوق الأخرى.

- المشاكل تتراكم فوق هذه المسرحية! لا يمكن قبول الأمر الواقع! بعد أسبوع من مغادرة أليس، فقدنا أيضاً الشخصية الخيالية التي تؤدي دور أرنب مارس؛ خرج ولم يعد يأتِ إلى البروفات، ولم تعد تصلنا

منه أخبار! كان الموسم موسم الصيد؛ طلبت منه أن يكون حذراً عند خروجه من المسرح. هل تريد المزيد من الشاي؟

- لن آخذ أي شيء، ولا أريد المزيد!

- تقصد أنه لا يمكنك أن تأخذ كمية أقل. من السهل جداً أن تأخذ أكثر من لا شيء.

أندرسن لا يرد. تستحيل عليه مناقشة منطق المخرج المجنون!

- هل كان أرنب مارس قريباً من أليس؟

- نعم بكل تأكيد. كانا يمثلان على المسرح نفسه، على بعد أمتار قليلة، وفي بعض الأحيان أقرب من ذلك بكثير.

يبذل أندرسن جهداً كبيراً للحفاظ على هدوئه.

- ألا تفهمني؟! أخبرني هل كانا يتحدثان معا كثيراً؟ أكانا مثل الأصدقاء أو أي شيء من هذا القبيل؟

يردّ عليه الرجل الكبير باستخفاف:

- أعتقد أيّ شيء من هذا القبيل.

- ماذا يعني هذا الكلام؟!

- لا شيء، أعني عبارة أيّ شيء من هذا القبيل، وليس سؤالك: ماذا يعني هذا الكلام؟

يفقد أندرسن أعصابه، ويقول:

- أريد فقط أن أعرف طبيعة العلاقة بينهما.

- أنت تقصد ذلك. نعم كانا أصدقاء إلى حد بعيد؛ وخاصة خارج المسرح.

ينحني الرجل الكبير، ويتحدث إليه بصوت خفيض، وكأنه يُسرّ إليه سراً:

- كانا يقضيان وقتاً طويلاً وهما يتحدثان حتى بعد انتهاء العرض المسرحي.

يضحك بملء شدقيه، وهو يضع شيئاً على فمه.

- هذا الزوج مسكين. ألم يكتشف ذلك؟!

وما إن يرفع قبعته ليحك رأسه حتى تسقط قطعة كبيرة من الورق.

- لماذا هذ ه الورقة هنا؟!

- يا سيد كارتر، من هو أرنب مارس؟

- تقصد الأرنب؟ شخص لطيف يؤدي دور الأرنب؛ لكنه أحياناً يكون كالمجنون إلى حد ما. هل تفهم ما الذي أعنيه بذلك؟! إنه يهوى المغامرات.

يتنهد أندرسن..

- لا، أريد أن أعرف من الذي يؤدي دور أرنب مارس؟

- نعم، الممثل الذي يؤدي هذا الدور يختلف حسب اليوم، أو اعتماداً على ما إذا كان سيؤديه وهو على خشبة المسرح أو خلف الكواليس. في حال التمثيل على خشبة المسرح، إنه يكرّر الجُمل، وهو من دون رأس أو ذيل، أما إذا كان الدور من وراء الكواليس، فإنه يظهر بصورة مختلفة تماماً؛ يكون صامتاً وكتوماً إلى حد كبير، لكننا جميعاً نمثل أدواراً مختلفة في الوقت نفسه؛ حتى إن زوجتي تمثل أدوار سبعة أشخاص؛ شخصية واحدة كل يوم. هل تصدق ذلك؟

- ما اسمه وهو وراء الكواليس؟

- له اسمان، أحدهما حقيقي والآخر غير حقيقي. ذات يوم، طلبت منه أن يعطيني سيرته الذاتية لأعطيها إلى صديق لي ممثل. من هو..؟؟

شارل شابلن؛ لكنه توقف عن التمثيل بسبب استخدام الألوان في التصوير. ماذا كنت أقول منذ قليل؟ هل تريد أن تشرب شاياً؟

- لا!

- أتريد مزيداً من السكر؟

- لا أريد سكر!!

- هل تريد حلوى؟

- لا أريد شيئاً. أشكرك... ستخبرني عن الاسم الحقيقي للأرنب.

- نعم، كتب اسمه الحقيقي في سيرته الذاتية، أتذكر ذلك، اسمه له مدلول ديني، اسمه توما تارديو.

- تقول توما تارديو. هل أنت واثق من الاسم، لأنني أود العثور عليه؟

- بالتأكيد، أنا واثق من ذلك. أنا أعرف حتى أين يختبئ، كما أنه لم يغيّر مكانه منذ ذلك الوقت. سأكتب ذلك من أجلك.

يمسك المخرج قلم رصاص لا أدري أين وجده! يكتب العنوان على طرف الورقة التي سقطت من قبعته.

- هل هذا الرجل يضع وشمًا في جزءٍ ظاهرٍ من جسدهِ؟

- أين مثلاً؟

- على الذراع.

- تقصد على الرجل، أليس كذلك؟ لا أتذكر.

- وهل يرتدي سترة خضراء بلون الزيتون؟

- سترة بلون الزيتون؟

- لا، الزيتون، أقصد لون الزيتون.

- وهذا الزيتون ما لونه؟

- لونه أخضر.

- أيعقل هذا؟!

ينهض كارتر من على الكرسي، ويقفز عليه بكلتا قدميه.

- ألا تعرف هذا اللون؟! هذا اللون يجلب الحظ السيئ في المسرح؛ غير مسموح أن يدخل المسرح شخص يرتدي أي شيء لونه أخضر. هل أنت مجنون؟!

يضم الرجل الكبير كتفيه بعضهما إلى بعض، ويجلس القرفصاء. ينهض أندرسن من الكرسي.

- يجب أن أتركك يا سيد كارتر.

- ألا تشرب الشاي قبل أن تغادر؟

- لا، أشكرك. سؤال أخير: كيف يبدو الغراب من فضلك؟

- تقول غراب؟ إنه يشبه المكتب بالتأكيد.

- شكراً لك على مساعدتي يا سيد كارتر.

- العفو، أتمنى أن يكون كل شيء واضحاً الآن. بلغ تحياتي للإخوة جريم.

## 34

بمجرد أن خرج من المصحة، أرسل أندرسن رسالة نصية إلى كاتب هذه الرسائل النصية الغامضة.

الغراب يشبه المكتب.

يبدو الجو حاراً وكئيباً في الخارج. يجلس في شرفة مقهى يُقدَّم فيه الطعام والمشروبات، يقوم بتوصيل هاتفه بالإنترنت لتحميل نسخة من كتاب «أليس في بلاد العجائب»، ولديه الوقت الكافي لشرب كوبين من القهوة، أو ليتصفح ثلثي الكتاب. يبدأ هاتفه بالاهتزاز على الطاولة.

رائع جداً. كيف عرفت الإجابة؟
في المسرحية التي كانت زوجتي تمثل فيها.
أهنّئك، أنت تستعيد الذاكرة.
لماذا ترسل إلي هذا اللغز؟
لكي أساعدك على أن تتذكر المسرحية.
ما السبب؟
ألديك أي فكرة بسيطة عنها؟
الأمر مرتبط بوفاتها.
أهكذا؟
كيف عرفته؟ من أنت؟
تصل رسالة نصية على الهاتف.



يعتقد أندرسن أن الغراب ربما كان أحد أعضاء الفرقة المسرحية؛ ربما هو توما تارديو الذي تحدث عنه كارتر. يرتعش جسده عندما يدرك أنه قد يكون أيضاً ذلك الرجل الذي يرتدي السترة الخضراء بلون الزيتون.

من قتل أليس؟
أنت تعرف الإجابة.
لا أفهم!
لماذا اقتفت أليس أثر الأرنب حتى مكان إقامته؟
من هو الأرنب؟ وماذا تقصد بمكان إقامته؟
لم يصله ردّ! ينتظر خمس أو عشر أو عشرين دقيقة، من دون جدوى.
لا وجود لرسائل نصية! يراسله هو،
لماذا قتلتَ ناتاشا شيرفونا؟

الأرنب...، يُفترض أن الرجل غير المعروفة هويته يتحدث عن الأرنب الأبيض وفقاً لما قرأه في الكتاب؛ حيث تبعته أليس إلى جُحره، ودخلت بلاد العجائب. يتساءل:

ما بلاد العجائب؟

يهتز الهاتف...

كل شيء يدور في رأسك أنت.

كانت هذه آخر رسالة من الرجل مجهول الهوية. يتصل أندرسن بموريس، فيردّ المحقق عليه بسرعة.

- كريستيان، أنا.

- موريس، أنا مستعجل، أحتاج إلى تحديد موقع هاتف الغراب على الفور؛ كنا نتحدث معاً عن طريق الرسائل النصية مدة نصف ساعة. أيمكن تتبع هذا الرقم؟

- لكن...

- أحتاج عنوان توما تارديو.

- دعني أتحدث إليك يا أندرسن. اكتشفت كل شيء. تعال عندي بمفردك، وأعدّ دفتر شيكاتك.

كل من يتعامل معه ويعرفه يقول يجب التسليم بالأمر الواقع، يضاف إلى ذلك التعريف المعجمي لكلمة رجل حقير عندما تشاهد صورة معلوش!

يمتلك هذا الرجل الحقير مؤسسة في حي بيجال، ليست بعيدة عن مسرح مولان روج، كما أنه يمتلك مقهى تباع فيه المشروبات بأسعار تتناسب عكسياً مع مقاسات الأقمشة التي ترتديها الفتيات المسؤولات عن تشجيع العملاء على شرب كؤوس من الشمبانيا بثمن باهظ. هنا تبدو أضواء لمبات النيون حمراء، الكؤوس قديمة، الأرائك مغطاة بقماش من القطيفة الرثة، المسرح ضيق بأعمدته المخصصة للراقصات، الدلاء التي توضع فيها زجاجات الشمبانيا مستهلكة، هذا المكان لا يشجع على المجيء إليه، ورغم ذلك معلوش لا يضعه على جدول أعماله المهمة؛ لأن عمله التجاري الحقيقي يُدار في الخارج؛ حيث تعمل الفتيات لديه في مجالات غير أخلاقية، وكانت المؤسسة مجرد واجهة قانونية لأعماله المشبوهة!

تجلس فتاتان منهكتا القوى على كراسي عالية بلا ظهر أو ذراعين. ينقرنَ على هواتفهنّ في انتظار وصول العملاء الجدد؛ لكن يدخل كل من ديان وبيرجر.

كان من العسير التكُّهنِ ما إذا كانت تلك الفتيات من بنات السادسة عشرة أو نساءً في عمر الثلاثين بسبب هيئتهن. على أي حال لديهن الخبرة الكافية كي يدركن أن الزائرين ليسا كغيرهما من الزبائن. الآن تقع مشكلة، صفارات الإنذار تُسمع في كل مكان، تنهض الفتاتان

بسرعة، وتتجهان إلى غرف خلع الملابس الخاصة بالفنانات في الجزء الخلفي من المؤسسة.

حل محلهما رجلان آخران يشبهان خزانتين مثبتةً فيهما مرآتان مصنوعتان في مدينة أسطنبول؛ إنهما يشبهان الأطفال الكبار الذين لا يندهشون من سماع عبارة أقوياء كالأتراك، كما أنهما يشبهان الأشخاص الذين لا يبتسمون أبداً طوال حياتهم!

- يسألهما أحد الحراس الشخصيين: هل تريدان شيئاً ما؟

يرد عليه بيرجر وهو يبرز البطاقة التي تسمح له بمداهمة مثل هذه الأماكن:

- هذه الزيارة من باب المجاملة. نريد مقابلة معلوش.

- ليس هنا.

- في هذه الحالة، سننتظره، وسنتحقق من هوية جميع العاملين هنا.

بدا أن الرجلين مستاءان، وذهبا لإحضار أوراقهما الثبوتية.

تقول ديان:

- سأذهب إلى القاعة الخلفية. معلوش موجود هناك، أنا متأكدة.

-انتظري، سأصطحبك.

- لا داعي لذلك، أنا ومعلوش نعرف بعضنا بعضاً جيداً، وأعرف كيف أتحدث معه. لا تقلق بشأني. اعتنِ بالحارسين.

تدخل ديان من الباب الخلفي الذي يفتح على ممر يؤدي إلى غرف الملابس، ومكتب معلوش والغرف الخلفية المُعبقة بروائح العرق وعدد من السوائل الجسمانية الأخرى نفاذة الرائحة. تقابل فتاة تبكي وقد تحول جانب وجهها إلى اللون الأحمر! تكاد تخمن شكل يد معلوش اليمنى التي صفعها بها. تفوح من داخل هذه الغرفة القذرة رائحة

الحيوانات على الرغم من وجود مروحة تعمل في أحد أركان الغرفة، ويبدو أن الجدران بلونها الوردي الضارب إلى الصفرة، والأريكة القديمة التي وضع عليها حزامه، قد تشرّبت جميعها تلك الرائحة النّتنة.

- كيليرمان، لم تأتِ لتزعجيني منذ وقت طويل!

يستقبلها معلوش بوجه عبوس ظهرت فيه ندوب ونتوءات ذات رؤوس مفتوحة بسبب مرض جلدي ناتج عن عامل وراثي؛ معلوم أن التحريات التي أجرتها ديان جعلته يقضى ثلاث سنوات في سجن مدينة فلوري ميروجي بسبب انتهاكه القانون، وتعلم ديان أنه لن يخبرها بأي شيء طواعية منه، ولهذا السبب رفضت أن يأتي بيرجر معها لمقابلته، فلم تكن تريد أن تجعله يتحمل عبء ما سيحدث.

- تسأله ديان: أين هي؟

- ماذا تقصدين؟

- كاميرتك؟

- ليس عندي كاميرا.

تنظر بسرعة ناحية رف توجد عليه أقراصا مدمجة بها موادًا إباحيَّة. تلاحظ ديان وجود كاميرا لا سلكية صغيرة مختبئة خلف إناء للزهور. أوقفت ديان الكاميرا عن العمل.

- ماذا تفعلين؟!

- لدي بعض الأسئلة التي أود أن أطرحها عليك.

- لا أريد أن أتحدث معك. أعرف أنك لا تعملين الآن ضمن فريق الشرطة يا كيليرمان، فلست مضطراً إلى الرد على أسئلتك.

- مصدر معلوماتك يجانبه الصواب.

- أحقاً ما تقولين؟ هل يمكنني رؤية بطاقة هويتك؟

بينما يبتسم بسخرية شديدة، تكشف شفتاه النحيلتان عن كامل أسنانه القذرة على الرغم من وجود تركيب لأضراس اصطناعية ملونة بلون الذهب.

- لا تدّعي أنك أبله! أنا لم آت إلى هنا من أجلك. أنا أبحث عن رجل قتل إحدى فتياتك اسمها ماري آن بيلاي.

- ما الذي تريدين أن أفعله لأجلك؟ لن أبكي من أجل هذه الفتاة.

يشير إلى الباب خلفها لتخرج.

- الآن تخرجين بهدوء، أو أتصل بالشرطة، برجال الشرطة الحقيقيين.

تسير خطوتين نحو معلوش، وتصفعه صفعة على طريقة الممثل والمخرج الأمريكي جون واين في أفلام رعاة البقر، بينما يحدّق النظر فيها من الذهول الذي أصابه، ويجن جنونه!

يصرخ في وجهها، ويقول بصوت عالٍ:

- ما هذا؟! ما الذي تفعلينه؟!

تصفعه على وجهه للمرة الثانية بقوة بظاهر كفّ يدها. تشعر ديان كأنها تتحدث مثل والتر أثناء التمرينات الرياضية.

- أتؤلمك هذه الصفعة؟ هذه لطمة خفيفة على الوجه؛ لكنها لا تشبه صفعاتك على وجوه العاملات عندك! إنها لتدفئة خديك قبل أن أصفعك ببذيء الكلام.

جنّ جنون هذا اللئيم؛ فسحب سكيناً صغيرة من جيبه، لكن بحركة تلقائية تندفع ديان إلى الأمام، وتمسك بمعصم معلوش، وتلقي به على الأرض، وتركلة ركلة حادة في ساقه، ثم تقفز فوقه وتلف يده بطريقة تحاول من خلالها توجيه السكين ناحيته، وبينما يقترب نصل السكين من رقبته بدرجة خطيرة يرتعش معلوش، وهو يتنفس بصعوبة شديدة بسبب حالة الذعر التي أصابته!

- توقفي. لا يمكنك فعل هذا الأمر. أنت شرطية!

- شرطية سابقة. أنت قلت ذلك من قبل!

يتغير لون وجهه، وهو يرى الإصرار في عيني ديان:

- حسناً، حسناً، حسناً، ماذا تريدين؟

- هل أتى شرطي إلى هنا ليحدثك عن ماري آن قبل موتها؟

تتحرك جفون معلوش بسرعة حركة لا إرادية،

- وماذا بعد؟

- نعم، أتى رجل إلى هنا.

- صفه لي.

ظل صامتاً. تضغط ديان على حلقه؛ الألم والمفاجأة جعلاه يصرخ بصوت عالٍ.

- صفه لي.

- يبدو ضخم البنيان، ويدخن كثيراً..

إنه هو. تطلق ديان العنان لتفكيرها... من المؤكد أنه هو الرجل نفسه.

- ما اسمه؟

- كيف لي أن أعرف؟ لم أتحقق من جواز سفره، ولم أكترث لمعرفة اسمه، هذا اللعين..

- ما الذي كان يريده منك؟

- أراني صورة لفتاة شقراء، وسألني عما إذا كانت تعمل هنا. أخبرته عن ماري آن؛ لأنها تشبه تلك الفتاة، وقلت له إنها لم تكن شقراء في هذه الفترة؛ لكن يمكن شراء شعر مستعار لها إذا أراد.

- وماذا بعد؟

- لم تكن تعمل عندي في هذه الآونة، ولهذا سألني أين يمكن أن يجدها.

- هل أخبرته أين تعيش؟

- لا، لم أخبره، ولا أقبل أن أخبر أي أحد بعناوين الفتيات اللاتي يعملنَ عندي؛ لكنه دفع لي مئتي يورو، ووعدني بمئتي يورو أخريين من أجل أن يتحدث معها فقط؛ لذلك اتصلت بها لتأتي وتتحدث إليه، فلم تتردد وجاءت على الفور.

- وماذا بعد؟

- ذهبا إلى الصالون، فلا أسمع حديثهما.

- ألم تضع كاميرات هناك؟

- لا، لم يحدث، عندئذٍ وضعت ديان السكين على عنق معلوش مثلما يصنع الحلاق مع زبائنه. يسقط شعر لحيته على الأرض، يصرخ مرة أخرى بصوت عالٍ:

- نعم، نعم، نقوم بتصوير المكان، فقط للتأكد من أن الفتيات بخير؛ لكننا لا نحتفظ بالتسجيلات. لقد مضى وقت طويل على هذا اللقاء، وقد تم حذفه منذ ذلك الحين.

تخفّف ديان الضغط على معصمه قليلاً.

- سنرى ذلك. أما زلت تحتفظ بخزانتك؟ ينظر إلى لوحة معلقة على الحائط تجسّد مفهوم الاعترافات أمام الكهنة. أجبرت ديان معلوش على النهوض، وعدّلت من قبضة يدها لتجعله يستطيع السير، وبينما تنقل اللوحة القماشية إلى زاوية أخرى من الغرفة، إذ بالخزنة توجد داخل الحائط.

- أعطني الرقم السري.

- لا أعرفه.

تدفع ديان معلوش إلى الأمام. تضرب رأسه في الحائط، فيدخل جزء منه في الجص بمقدار نصف سنتيمتر. قد يكفي هذا الضرب لإسكاته لكنه لا يكفي لمنعه من التفكير. هنا يضطر إلى إعطائها الرقم السريّ.

تعثر ديان داخل الخزنة على رزم كبيرة من النقود فئة الخمسين، وعلى مسدس نصف آلي طراز كولت 1911، وعلى سلاح ثقيل يصدر صوتاً مزعجاً. هذه الأشياء مثالية لتصفية الحسابات عندما لا يرغب في منح الرجل الذي أمامه فرصة للرد. أمسكت المسدس، وتركت هذا الرجل الخبيث يضع يده على وجهه. لقد تم كسر عظمة الأنف، وبدا أنفه كالخيمة التي سقطت بسقوط عمودها!

تقول له ديان، وهي تضع الطلقات في خزنة المسدس: ضع يديك على الطاولة.

يستجيب للأمر. تطبع راحة يده الملطخة بالدماء بصمتها على الطاولة. لاحت في عبوسته بوادر الانفجار، وهي تفتش الخزانة.

- أيتها المجنونة. أنت كسرت أنفي. أقسم لك إنك ستدفعين الثمن باهظاً.

- ربما سيكون من الأفضل أن أقتلك؟

يغلق معلوش فمه. تلاحظ وجود كومة من الأقراص المدمجة أسفل الخزنة. تمسك أحد الأقراص وتضعه أمام معلوش.

- ما هذا؟

يصمت هذا الخبيث. تلاحظ وجود تواريخ مدونة عليها. تعتقد أن هذه الأقراص تحتوي على تسجيلات لما يدور بين عملائه.

- أيها الخبيث، لم تمسح أي شيء من هذه التسجيلات. أخبرني عن القرص الذي يحتوي على تسجيل الشرطي؟

يشير معلوش على مضض إلى تاريخ القرص المدمج الذي تبحث عنه. تضع القرص في كمبيوتر هذا الخبيث، يظهر الجزء الداخلي من الصالون على الشاشة، وبينما نرى معلوش في هذا القرص، وهو يتكئ على طاولة منخفضة ويستنشق الكوكايين، إذ بسرواله يكاد يسقط من عليه.

تحاول ديان تسريع حركة الفيديو إلى الأمام إلى أن يخرج معلوش، ويحل محله رجل آخر برفقة ماري آن.

إنه الشرطي الذي يعاني من السمنة المفرطة، ويدخن كثيراً.

- تسأل ديان معلوش وهي توجه شاشة الكمبيوتر نحوه: أهو ذلك الرجل؟

يومأ برأسه. تُخرج ديان القرص وتضعه في جيبها.

- ألا يكفي هذا؟! ألا تجدين كل شيء؟! ألديك الآن كل ما تريدينه؟!

- تقريباً.

تضع ديان الجزء الخلفي للمسدس على أصابع يد معلوش اليمنى بقوة؛ مفاصل أصابعه تصدر صوتاً قوياً. يهتز المكتب، ويصرخ من شدة الألم!

تمسكه من رقبته،

- تهدده ديان وتقول: إذا واصلت ضرب فتياتك، فسأرجع في نهاية فترة إعادة تأهيلك لأكرّر ما فعلته بك الآن.

يسقط على الأرض ويمسك يده. تضع ديان المسدس جانباً. تنزع فيلم التسجيل من الكاميرا الصغيرة، وتغادر. في إحدى قاعات المقهى يجلس بيرجر على طاولة مع الحارسين الشخصيين، ويفحص أوراقهما الثبوتية. تقترب ديان منه، وتقول له: لقد تشاجرنا، فينهض بيرجر ويسرعان بالخروج. خارج المقهى، كانت الحرارة الشديدة، التي خيمت على العاصمة منذ الصباح الباكر، قد تركت تأثيراً ملحوظاً على وجهيهما. انعكس ذلك على السماء فتحوّل لونها إلى اللون الرمادي، وأنذرت بهطول الأمطار.

- يسألها بيرجر: ما الذي حدث؟

ألقت بتسجيلات معلوش في سلة المهملات.

- وقالت: حصلت على المعلومات التي أبحث عنها. لقد جاء الشرطي بالفعل لمقابلة ماري آن.

أطلعته على القرص المدمج الذي أخذته من الخزانة.

- هل يستخدم آلة التصوير؟

- كيف اقتنع بأن يعطيك القرص؟!

- أخبرتك من قبل أننا نعرف بعضنا بعضاً.

- لا تعدّيني كالأحمق يا ديان! كيف حصلت على هذا التسجيل؟

- أجبرته على ذلك.

يصمت برهة بيرجر، ثم يقول:

- هل ضربته؟ أهذا الذي كنت تنوين فعله منذ البداية؟!

- ليس مناسباً الآن الحديث عن هذا الأمر يا إريك.

يجول حراس معلوش الشخصيون في الشارع، ومعهم مضارب البيسبول.

- يصرخ بيرجر بصوت عالٍ، وهو يركب سيارته، ويقول ابتعدوا عن طريقي.

وبينما يحرك مفتاح السيارة لينطلق بسرعة، يضرب أحد هؤلاء المنحرفين النافذة الخلفية للسيارة بمضربه، فيتهشّم الزجاج، ويتفرّق إلى قطع صغيرة. يضغط بيرجر على دواسة البنزين بقوة، فتنطلق سيارته العائلية الكبيرة إلى الأمام، وتصطدم بصناديق القمامة الموجودة على الرصيف. يركض الحراس الشخصيون وراءهما، وهم يصرخون باللغة التركية؛ لكن بيرجر سرعان ما يبتعد عنهم، وبعد نحو خمسمئة متر، وعندما تأكد من أن رجال معلوش لم يسيروا خلفهما، يوقف بيرجر السيارة على جانب الطريق، ويبدأ الصراخ في وجه ديان:

- أأنت حمقاء أم ماذا؟!ما الفائدة من ضرب معلوش؟! كان يكفي وضعه قيد الحبس الاحتياطي ليخبرنا بما نريد أن نعرفه.

تحمّلت ديان توبيخه لها دون أن تنطق بكلمة واحدة.

- ما كان ليخبرنا بأي شيء، وربما نفد الوقت قبل أن يعطينا القرص المدمج. تعلم أن هؤلاء الرجال وأمثالهم لا يفهمون إلا لغة القوة.

- هل تتذكرين بداياتك في العمل منذ ثلاث سنوات؟

أساءت إليها هذه الملاحظة.

- لقد فعلتُ ما يجب القيام به. هو رجل خبيث؛ لأنه يقوم بتصوير عملائه من دون علمهم.

- يمكن أن يقود تصرفكِ معه إلى ما لا تحمد عقباه.

- إذا كنت تخشى من عواقب هذا الأمر، يمكنك أن تجلس في مكتبك، والقيام بالأعمال الورقية كما هو معتاد.

يفور الدم في عروق بيرجر، وتلتفت ديان نحو النافذة حتى لا تشاهد نظراته الغاضبة.

- أعتذر إليك. ليس هذا ما قصدته.

- حسناً؛ لكنك تلفظتِ بهذا الكلام على أي حال.

يقسم بيرجر، ويُخرج من جيبه الجانبي قارئ القرص المدمج على شكل درع سلحفاة يستخدمه لإلهاء ابنته أثناء الرحلات الطويلة في السيارة.

- يطلب من ديان أن تضع القرص الذي بحوزتها داخل قارئ الأقراص الموجود معه. بينما تُدخل ديان القرص وتُشغل الفيديو يظهر الرجل السمين على الشاشة مع ماري آن بيلاي. يشحب وجه بيرجر، وهو يصيح بصوت عالٍ:

- هذا الحيوان القذر أنا أعرفه! ليس من رجال الشرطة؛ إنه موريس لو درونت المحقق الذي رشحته للعمل مع أندرسن.

## 36

يتوالى صوت الرعد في سماء باريس، وفي حديقة مونسيو، وفي ساحة دو ليتوال، وفي غابة بولوني. يسير بيرجر في طريق ممرات الحافلات في الاتجاه المعاكس. يوقف سيارته في زاوية بين شارع موليتور وشارع بوالو على بعد عشرات الأمتار من المبنى الذي يوجد فيه موريس لو درونت. يصل كل من بيرجر وديان أمام شقة المحقق الخاص في غضون خمس دقائق. الباب موارب، يدفعه بيرجر بمقدمة قدمه. مدخل الشقة مليء بالملابس الملقاة على الأرض. ينظر بيرجر إلى ديان نظرة المتوجّس. تسحب ديان مسدس مالوش الذي خبّأته تحت معطفها.

- أين يوجد؟

- يحميان ظهري بعضهما بعضاً، ويتهامسان، ثم تخطو ديان خطوة نحو المدخل.

تتقدم وسلاحها مرفوع إلى الأعلى، وتقبض بكلتا يديها على المسدس. كان كل شيء مقلوباً رأساً على عقب داخل الغرف المطلة على المدخل. الدواليب مفتوحة والأدراج فارغة وملقاة على الأرض. تم تفتيش كل مكان. يُسمع صوت مكتوم في نهاية الممر. أحدثت الأرض صوتاً جافاً خلف ديان وهي تلتفت ناحية مصدر الصوت، فإذا بيرجر يضغط بقدميه الكبيرتين على الألواح الخشبية.

يرفع قدميه لأنه أدرك أنه بوزنه الذي يصل إلى مئة كيلوجرام لا يمكنه التقدم خطوة أخرى دون المخاطرة بلفت الانتباه إليهما؛ وبينما تتقدم ديان ببطء ناحية الباب الخلفي؛ إذ بالصوت يزداد قوة. تُحرك مقبض الباب، وتدخل إلى المكتب عنوة.

تشم رائحة العفن والبارود!

يبدو المشهد مرعباً!

يجلس المحقق على كرسي كبير بذراعين، وقد أصيب في أحد جوانب وجهه بطلقة رصاص. يتدلى فكه المكسور إلى أسفل، وتسيل الدماء منه، ومن خلفه كانت الكتب في المكتبة ملوثة بالدماء!

يأتي الصوت من سماعات مكبرات الصوت الخارجية؛ إنها أغنية عاطفية باللغة الألمانية؛ مستوى الصوت مرتفع جداً إلى درجة تؤذي الأذن. أطفأت ديان مفتاح التشغيل؛ لكن بمجرد أن انقطع الصوت حتى لفت انتباهها صوت صرير معدني في الغرفة المجاورة. المرحاض نافذته مفتوحة، تم تركيب سقالات لترميم واجهة المبنى.

هناك رجل ينزل من عليها بأقصى سرعة.

تقفز ديان على الألواح المعدنية من أجل اللحاق به. تهتز الأعمدة الحديد التي تدعم هذه الألواح بشكل خطير لكنها تبدو متينة. ينزل الرجل على الأرض في البداية، ويستدير عند زاوية الشارع الأول، وكادت قدماه تنزلقان وهو يسير على الخطوط البيضاء المخصصة لعبور للمشاة. وبعد أن دوى الرعد في السماء تساقطت الأمطار بغزارة شديدة على رؤوسهم وأكتافهم.

يركض الرجل وهو يحاول الهروب حتى محطة مترو بورت موليتور بأسرع ما يمكن. تقترب منه ديان مسافة بضعة أمتار قليلة، وما إن شعر الرجل أنها تقترب حتى أسرع في الركض، لكن من دون جدوى!

في ثانية تقطع ديان المزيد والمزيد من الأمتار. لن يستطع الرجل الإفلات منها. هي في طريقها لإلقاء القبض عليه، وفجأة تسقط دراجة. لم تنتبه ديان إلى طوقي الدراجة يجريان على الرصيف. يقع السائق، فيتدحرج الجميع على الأرض. يظل السائق على الأرض مذهولاً! تنهض ديان بصعوبة، وتبتعد عن الدراجة؛ لكن على بعد خمسين متراً أمامها يندفع الرجل الذي كانت تطارده نحو مجموعة من المراهقين، وهم يخرجون من مدرسة جون دو لا فونتان الثانوية. تريد ديان الركض خلفه، لكن ساقها اليمنى لم تعد قادرة على الحركة بسبب الصدمة، وبدت كأن بها عرجاً.

تسحب مسدسها وتقف في موضع الاستعداد لإطلاق النار.

- أندرسن.

يستدير؛ لكنها لم ترَ وجهه بسبب هطول المطر بغزارة. يبتعد عنها، تحكّ ديان ظهرها بالجزء المعدني من المسدس نصف الآلي طراز

كولت 1911، وبينما يلمس إصبعها الزناد تتذكر مشهد القتل الذي حصل... ترتجف يداها... يمتد لهيب النار بطول عشرة سنتيمترات من فوهة المسدس. تتجه الرصاصة من عيار 45 صوب طلاب الثانوي. ترى ديان الدماء على حقائب الظهر وخصلات الشعر التي أصبحت متلبدة.

ترفع ديان سلاحها. يدخل القاتل بين جموع المراهقين، ويختفي عن الأنظار!

- تبًا، تتكلم بخشونة وعصبية.

بعد أن تأكد لها أن سائق الدراجة بخير، ترجع وهي تعرج إلى شارع موليتور، لتكتشف عند مدخل مكتب موريس لو درونت أن بيرجر يجلس بجانب رجل في الستينيات من عمره يعاني من صعوبة في التنفس.

يقول لها:

- إن البواب شعر بضيق في التنفس عندما علم بوفاة المحقق.

يقف بيرجر، ثم يسألها:

- وأين الرجل الذي كنت تركضين خلفه؟!

- لم أستطع اللحاق به. حالفه الحظ!

- أهو أندرسن؟

تتردد في الرد، ثم تقول: إن هذا الشخص غير المعروفة هويته يتمتع بهيئة وحركة المحامي؛ لكنني لم أر وجهه، وغير متأكدة تماماً من أنه أندرسن، لكنني أشعر بأنه هو. وبينما تعاود ديان التفكير في جثة ناتاشا تشيرفونا تتلاشى وساوسها الأخيرة.

- نعم، إنه أندرسن.

يسعل الرجل الكبير. يمتلآ صدره بالهواء بصعوبة، ويتردد نفسه في حلقه، ويصدر صوتاً يشبه صوت آلة التنبيه المثقوبة.

يقول بيرجر: يجب الاتصال بسيارة الإسعاف لأنه يعاني من أزمة قلبية.

تتجه ديان نحو الغرفة التي يوجد فيها جسد المحقق.

- ماذا تفعلين؟

- أبحث عن الأدلة قبل وصول رجال الإنقاذ. سيصل بعد ذلك رجال الشرطة التابعون لجيريكو، ولن نتمكن من فعل أي شيء.

- غير مجدٍ ما تفعلينه يا ديان. أنت رأيت أندرسن. إنه مجنون فعلاً.

- إريك. توجد بصمات أصابعي بالفعل في الداخل، ولن يتغير من الأمر شيء.

- إريك؟ هل أنت... إريك بيرجر؟

يحاول البواب أن يتحدث على الرغم من مرضه بالربو وصوته المتقطع.

- كيف عرفت اسمي؟!

يشير إليه البواب كي يقترب. يتحدث ببطء، ويأخذ فترات توقف طويلة لا يُسمع خلالها إلا صوت أنفاسه...

- موريس... لقد ترك موريس هذا الطرد... من أجلك... في غرفة ملابسي...

يُخرج المفتاح من جيبه.

- وضعته على الطاولة. أعطاني هذا... منذ الصباح. يريد مني... إرسال هذا إليك وإلا... إذا كانت لديه مشكلة. يقول... ستعرف... ماذا تفعل به.

يشعر الرجل بالاختناق بسبب المجهود الذي يبذله. يتنفس بصعوبة شديدة..

تسأل بيرجر بلمحة من عينيها:

- تعال وانظر، أما أنا فسأظل معه.

وقبل أن تتركه أمسك بمرفقها.

- وقال أعطني مسدسك.

- لا، أنا..

- هذا يكفي. أنتَ في طريقك لارتكاب جريمة. في وقت ما سينتهي بكَ الأمر بإطلاق النار على شخص ما!

تعطيه المسدس على مضض. يثبته في حزامه. تركض ديان على الدرج بسرعة باتجاه غرفة الحارس. يتصاعد البخار من طبق حساء موضوع على طاولة الصالون، وبجانب الطبق يوجد خطاب من الورق المقوى مدوّن عليه اسم بيرجر وعنوانه.

تفتح ديان الخطاب، وتجد فيه رسالة طويلة مكتوبة بخط اليد، وتوجد أيضاً صور:

القائد بيرجر. في الوقت الذي تقرأ فيه هذه الرسالة، اِعلمْ أنني أصبحت في عداد الموتى، ولكيلا تموت الحقيقة معي في حال اختفائي، أترك لك هذه الوثائق وشهادتي:

بدأت العمل عند كريستيان أندرسن منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، وجدت العديد من النساء اللواتي يشبهنَ زوجته. ذهبت إلى كل واحدة منهنّ لكي أتأكد من أن الأمر يتعلق بملامح شديدة التشابه بها، وليس بأليس نفسها.

عندما أخبرني أن الشرطة عثرت على جثة زوجته، لم أتفاجأ بالأمر، أؤكد لك أنني لم أصدق أنها كانت على قيد الحياة؛ لكن عندما قال لي إن ناتاشا تشيرفونا قُتلت، شعرت بالخوف!

كنا نبحث عن هذه المرأة منذ فترة مضت. أخبرني أنه يخشى أن يكون محل شبهة في قضية القتل هذه، ووعدته بالتحقيق في القضية لأنني كنت أعتقد أنه بريء، وبينما أشاهد مقاطع فيديو المراقبة في المترو، وجدت أن هناك رجلاً يسير خلف ناتاشا، ويظهر أيضاً في لقطات أخرى في محطة الوقود حيث شوهدت أليس آخر مرة. اعتقدتُ أنه ربما يلاحق فتيات أخريات. أخذت ملف كل امرأة، وقمت بالتحقيق فيه، ولهذا السبب اكتشفت ما لا يمكن أن يتخيله عقل..!

تضع ديان يدها على فمها. تقرأ بقية الرسالة المكتوبة بخط مائل.

تم قتل ماري آن بعد ثلاثة أسابيع من زيارتي... لكن هذا لم يكن كل شيء... تم العثور على كارلا ميتة... جثتها محترقة... بعد مرور شهرين، عُثر على جثة أخرى... مذابة في الحمض... بعد مرور تسعة أشهر، تم العثور على ثلاثة جثث... الأولى بسبب الغرق... والثانية بسبب الخنق... والثالثة بسبب الطعن بسكين... كل هؤلاء الفتيات اللواتي كنت أحقّق في ملفهنّ كنّ في عداد الموتى!

أعتقد أنه مجنون... كريستيان أندرسن مجنون فعلاً.

تمسك ديان ملف الصور الذي يتكون من ثماني صور لنساء يشبهنَ بعضهن بعضاً تقريباً؛ أي إنهن يشبهن أليس أندرسن.

بعد نحو نصف ساعة، يقتحم جيريكو بيت المحقق، وما إن يرى بيرجر وديان حتى يحمرّ وجهه بشدة، ويقبض على أصابع يديه ويضغط على شفتيه. لقد استثاروا غضبه إلى درجة تشبه ثوران بركان جبل إيتنا!

يقول بصوت عالٍ:

- لم أكن أتخيل أنكما بهذا الغباء الشديد!

يأمر جيريكو اثنين من رجاله بوضع القيود في أيديهما؛ لكن بيرجر يعترض.

- انتظر. يجب أن تستمع إلينا يا ثيو؛ لدينا الدليل على أن أندرسن هو الذي قتل زوجته.

يحدق جريكو النظر إليه.

يشير إليه بسبابته، ويقول:

- لا أريد أن أسمع كلمة واحدة يا إريك. تم تكليفي بالتحقيق في هذه القضية. أنت تتدخل في عملي بما تفعله.

يقاطعه صوت جهوري:

- إن كريستيان أندرسن هو الذي قتل هذا الرجل؟

يلتفت الجميع إلى صاحب الصوت؛ فمن يتحدث حالياً يصعد الدرج ببطء شديد..

الشفاه حادة، البشرة شاحبة، العينان تتلصصان. تعرفت عليه ديان على الفور؛ إنه لولوار المدعي العام الذي التقت به في مكتب جيريكو.

يقول بيرجر:

- هذه أقوالي أيها المدعي العام، ولدي الدليل.

يسلمه الخطاب الذي تركه موريس لو درونت.

يسأله كلود لولوار:

- ما هذا؟!

- اعتراف مكتوب بخط يد المحقق الذي يعمل لحساب أندرسن، وصور ضحايا موكله؛ إن موريس لو درونت يعمل معه منذ سنوات. كان يعتقد أنه يساعده في العثور على زوجته؛ لكنه في الواقع كان يستخدمه من أجل الإيقاع بفريسته؛ إنه يشرح كل هذا في رسالته.

يصمت جيريكو، ويشبك ذراعيه إحداهما مع الأخرى. يبدو عليه الغضب، وبينما يتفحص لولوار كل صورة على حدة وهو يبتسم بسخرية ينظر إليه بيرجر.

- عندما أدرك أن المحقق الخاص به اكتشف كل شيء، قتله أندرسن لمنعه من الإفصاح عن هذا الأمر أو من ابتزازه، ومن ثم بحث في كل مكان لإزالة الأدلة التي تربطه بمقتل ضحاياه الثمانية!

- وكان ينوي أن يتوارى عن الأنظار بكل سهولة. يبدو على المدعي العام الاستغراب، ويقول: أيعتبرنا كالحمقى؟!

يقول بيرجر:

- المحقق الخاص له أعداء كثر، ومن كان سيشتبه في ارتكابه جريمة قتل كهذه غير المحامي البارز؟

يمرّر لولوار الصور إلى جيريكو الذي تثور ثائرته.

كيف أخفقت المجموعة المسؤولة عن نظام تحليل الجرائم المرتبطة بالعنف في تعقب هذه القضية؟! الشبه بينهنّ شديد جداً! أيعقل هذا؟!

يردّ بيرجر:

- أندرسن خبيث، ويعرف النظام القانوني. إنه يشوّش علينا! إما أنه يجعلنا نشكّ في شخص آخر بأنه هو من ارتكب الجريمة، وإما أنه يغيّر تماماً من أسلوبه؛ حتى لا يكون هناك رابط بين عمليات الاغتيالات بعضها ببعض!

يسأله المدعي العام فجأة:

- كيف دخلت هنا؟! الباب ليس مكسوراً!

يوضح بيرجر: عندما وصلنا إلى هنا، كان الباب مفتوحاً، والقاتل موجود في الداخل.

يرد عليه لولوار باستياء:

- ألم تحاول إلقاء القبض عليه؟!

يدافع بيرجر عن نفسه بقوله:

- لقد هرب عن طريق سقالات بسبب بعض أعمال الصيانة الخاصة بترميم واجهة المبنى، وتنقصنا السرعة الكافية.

- هل استطعت التعرف عليه بشكل جيد؟

يقول بيرجر:

- بالنسبة إلي، أنا لم أره.

يلتفت المدعي العام إلى ديان:

- السيدة كيليرمان، من فضلك أخبريني هل هو أندرسن؟

تتردد للحظة.

يكرّر لولوار سؤاله:

- وماذا بعد؟

تغمض ديان عينيها، وتردّ عليه:

- إنه هو.

- تمام، (يبتهج لولوار). أيها المأمور، إنني أعتمد على فطنتك. أريد أن أرى هذه الحشرة في الحجز الاحتياطي في أسرع وقت ممكن.

- نعم يا سيدي.

يحييهم المدعي العام، ويذهب لمعاينة الجثة، وهو يتكلف رسم ابتسامة ساخرة بشفتيه!

يقول جيريكو بصوت عالٍ:

- اذهبا أنتما للإدلاء بشهادتكما على الفور.

ترد عليه ديان:

- لكننا نريد أن نكون ضمن هيئة التحقيق.

- أنتِ تمزحين؟ أنتِ مدانة بالتعدي على ممتلكات الغير وعرقلة سير العدالة. أنتِ محظوظة لأننا لم نضع القيود في يديك. اذهبي وأدلي بشهادتك، وبعد ذلك سأرى ما الذي سأفعله معك.

قامت ديان بتهديدهِ قائلةً:

- أوامرك مرفوضة قولاً واحداً، إما أن يكونا ضمن فريق التحقيق أو أنها ستبوح للصحافةِ بكل شيء.

يقترب جيريكو منها مسافة بضعة سنتيمترات وهو في شدة الغضب:

- انتبهي يا كيليرمان. كلمة أخرى وسأضعك في الحجز الاحتياطي.

يحاول بيرجر أن يلطف من حدة الحوار، ويتدخل للفصل بينهما:

- تكذب ديان بقولها. لدي نسخة من محتوى هذا المظروف. سيتم نشره في الصحف بمجرد إصدار عفو عن أوسكار.

- وهل لديك الوقت الكافي للقيام بذلك؟

ترد عليه وهي تلوح بهاتفها الخلوي:

- معي الصور كافة. نحن في القرن الحادي والعشرين أيها المأمور.

يظل جيريكو صامتاً لحظةً لتحليل الوضع. تزداد تجاعيد جبهته غلظه، ويرتعش فكه..

- أنت مخادعة يا كيليرمان.

- هذا رأيك أنت. لن تفلت من ملاحقة أوسكار لك. العاملون في الوزارة سيساندونه؛ خاصة بعد إخفاقكم في قضية السفاح وارتباط ذلك الأمر بانعدام كفاءة الشرطة. لو كنت استمعت إلينا منذ البداية، لما استطاع أندرسن قتل المحقق الخاص الذي يعمل لحسابه.

يشتاط جيريكور غضباً، وينعكس ذلك على لون عينيه، وعلى حدة بصره، وتوقف جفونه عن الرمش، حتى استدارت ديان.

- وأنت يا إريك. اذهب وأدلي بشهادتك في قسم الشرطة عندي. سأتصل برؤسائك لإعفائك من الانضمام إلى هذا للتحقيق. أنت وكيليرمان تعالا معي. أريد أن أتحدث معكما.

يحاور بيرجر ديان بنظرات العيون فقط. عندئذٍ تضع يدها على كتفه:

- لا داعي للقلق. ستكون الأمور على ما يرام.

- أمتأكدة أنت من ذلك؟

- لا داعي للقلق.

ينزلون إلى الشارع، ويقفون على الرصيف أمام المبنى. ينطلق بيرجر في سيارة الشرطة المتجهة إلى مبنى مقر شرطة باريس. بينما تظل ديان بمفردها مع جيريكو.

- ماذا تريدين بالضبط يا كيليرمان؟

- اعتقال أندرسن، وأن أُوجَد معكم إلى أن يتمّ وضع القيود في يديه.

- هذا كل شيء؟

- بمجرد أن أتأكد من أنه لن يكون باستطاعته ارتكاب جرائم قتل أخرى، سأتوارى عن الأنظار.

يومئ جيريكو برأسه.

- لكن واضحين يا كيليرمان. لو كان الأمر بيدي، لوضعتك في السجن على الفور؛ لكن المدعي العام فخور بك، وأنا لا أريد أن تفشل عملية الاعتقال بسبب الصحفيين. حاولي أنتِ عرقلة هذا المتطفل دوكلير، ونحن سنوقف أندرسن.

تمتنع عن التصريح بأنه يخشى أن يؤثر ذلك في ترقيته في القسم المتخصص في مكافحة الجرائم.

- يمكن أن نتفق معاً؛ لكن وفقاً للشروط التي أضعها أنا. هذا يعني أنكِ ستراقبين من دون أن تقدِمي على أي إجراء. لا أريد من هذا المحامي أن يلجأ إلى النقض بسببك. الأمر واضح الآن؟

- مؤكد، واضح جداً.

يومئ برأسه.

- والآن يجب علنيا أن نضع أندرسن في الحجز قبل أن يفعل ذلك مرة أخرى.

يدقّ جرس الباب للمرة الثالثة. يتردد أندرسن فترةً طويلة، ثم يقرر أن يفتح الباب، ويواربه إلى درجة تكفي لكي نرى قطعة قماش مصنوعة من القطن على صدره، وأخرى وضعها حول جسده؛ لكن فتحة الباب لا تكفي لرؤية ما في داخل الصالون!

يتحدث باتيستي وهو غاضب:

- اعتقدت أنك لن تفتح الباب مطلقاً!

يرتدي باتيستي بذلة مخصصة للسهرات لمصمم الأزياء أرماني لونها رمادي فحْمي، وربطة عنقه لونها أحمر أرجواني، ويضع على شعره الكريم الناعم، ويمشطه بعناية إلى الخلف.

يرد عليه أندرسن:

- كنت في المرحاض. ماذا تريد مني؟

يرد عليه باتيستي باندهاش:

- أتمزح؟ هذه الليلة حفلة عيد ميلاد فينيول.

يتمتم أندرسن..

- نعم الحفلة.

نسيت هذا الموعد بسبب كل ما حدث خلال الأيام القليلة الماضية.

يرد عليه باتيستي:

- كيف يمكن أن تنسى ذلك؟! هيا أسرع وارتدِ البذلة المخصصة للسهرات. سنذهب معاً.

- أعتذر إليك. لا يمكنني حضور الحفلة.

يقطب باتيستي جبينه.

- أذكرك بأن هذه الدعوة موجهه إليك من فينيول، وليس إلي أنا!
يقف باتيستي على أطراف أصابعه لينظر داخل الشقة..
- هل معك أحد هنا؟
- لا، أنا بمفردي.
يعتقد أندرسن أن باتيستي يفكر بهذا الأسلوب؛ لأن طبيعته تنسجم مع تفسيرات كهذه.
- ما المشكلة إذاً؟!
- لا أرغب في الخروج. رأسي يؤلمني. اذهب من دوني هذه الليلة.
يعقد باتيستي ذراعيه إحداهما فوق الأخرى، وهو في غاية الضيق!
- سأتدبر الأمر، لكن ما الذي أقوله لفينيول عندما يسألني هل تقدم أندرسن بطلب للعمل في مكتبه؟
أيجب عليّ أن أمتنع عن الذهاب اليه حتى الأسبوع القادم؟
- أخبره ياباتيستي أنني أشكره؛ لكنني أرفض عرضه.
يضع باتيستي راحة يده على شعره.
- حسناً؛ لكن ربما يوجه فينيول أصابع الاتهام إلي. يمزح معه بغمزة عين، ويقول: إذا قررت المجيء اتصل بي، أو اتصل بجوديث. سنذهب معاً. أخشى ألا تصدقني؛ لكنني أعتقد أن الأمر جدّي.
- حسناً.
يقول باتيستي:
- فكّرفي الأمر جيداً قبل تغيير رأيك.
يغلق أندرسن الباب بالمفتاح مرتين، ثم يرجع إلى الصالون.

يوجد بالقرب من المدفأة كيس بلاستيكي كبير مليء بالملابس التي كان ينوي التخلص منها. يجب عليه التخلص من أيّ شيء يربطه بمقتل موريس، فرجال الشرطة سيأتون عاجلاً أم آجلاً إلى منزله، وسيفتشون كل شيء؛ لهذا السبب أيضاً قرر أن يغتسل ويقص أظفاره، وأن ينظف الحمّام جيداً باستخدام سائل التنظيف، ويمكنه أن يشرح بعد ذلك أسباب وجود بصمات أصابعه وآثار الحمض النووي في منزل موريس، بما أن المحقق الخاص يعمل في مكتبه، ولكن إذا تم العثور على دماء موريس على ملابسه أو في شقته، فإن هيئة المحلفين ستعتقد أنه كان في مسرح الجريمة وقت وفاته.

يجلس أمام المدفأة بملابس خفيفة، ويحاول أن تكون نبضات قلبه طبيعية، لهذا عندما سمع باتيستي وهو يدق الجرس خشي أن تكون الشرطة هي التي بالباب. الآن بعد أن أعاد التفكير في الأمر بهدوء، بدا الأمر سخيفاً بالنسبة إليه. لم تستطع الفتاة ذات الشعر الأحمر التعرف عليه بشكل جيد؛ ما يزال يحتفظ بهدوئه حتى الآن!

يبدو عليه الهدوء والسكينة بشكل مدهش! يأخذ المسدس من على الطاولة الموجودة في الصالون، ويذهب لتغيير ملابسه في غرفة نومه؛ لكن قبل أن يغادر ابتلع حبتي دواء. كذب على باتيستي لأنه كان يعاني من صداع شديد في الرأس.

بعد إلقاء كيس القمامة في صندوق قمامة يوجد على بعد ستة مبانٍ من منزله، استقلّ حافلة متوجهة إلى شارع روشكوارت، وعند المنعطف مع شارع بريكي لاحت له في الأفقِ أبراج كنيسة دي ساكرو كور، التي تعلو الواجهة المتهالكة لمبنى قديم أبيض اللون، وبغروب شمس ذلك اليوم، بدأ البرد يتسلل إلى جميع أنحاء باريس.

الضباب الكثيف يغطي بالكامل تلّ مونمارتر، وبدت الكنيسة بجمالها، وكأنها تشبه الحلوى الكبيرة التي تتم تغطيتها بالسكر المطحون المخصصة لحفلات الزواج، وعندما وصل إلى المبنى الذي كان يبحث عنه، اطّلع على الأسماء الموجودة على جهاز الاتصال الداخلي.

توما تارديو الشقة رقم26.

يدخل المبنى خلف أحد المستأجرين، الذي يصعد الدَّرج، وأثناء دخول المستأجر شقته يطرق باب شقة تارديو. يضع المسدس من طراز ماكاروف في جيب معطفه، ويمسك به في وضع الاستعداد ليطمئن نفسه.

يفتح الرجل الباب؛ شعره أسود، عيناه سوداوان، نظراته تبدو غير مريحة، في فمه نصف سيجارة مشتعلة، ذراعه اليمنى مغطاة من الكوع إلى اليد بجبيرة مرسوم عليها زخارف رائعة بقلم رفيع.

- أأنت توما تارديو؟

يتفحصه الرجل من أمّ رأسه إلى أخمص قدميه، ثم يرد عليه بقوله:

- العنوان خطأ.

- يوجد اسمك على جهاز الاتصال الداخلي على مدخل المبنى!

- وماذا بعد؟!توجد ساحة لويز ميشيل عند زاوية الشارع، والناس لا ينامون هناك، في حدود علمي!

يضع المسدس تحت أنفه. وجه الرجل بدا شاحباً. يدفعه إلى داخل الشقة.

- اجلس هنا، ولا تتحرك بشكل مفاجئ.

يشير إلى الأريكة. يطيعه الرجل كأنه مشلول. يفتش أندرسن الخزانة الموجودة في الصالة بيد واحدة في الوقت الذي يصوّب إليه مسدسه باليد الأخرى.

- أين هي؟!

- ماذا تقصد؟

- سترتك الخضراء.

- لا يوجد عندي معطف أخضر!

- لا ترهقني.

يتقدم أندرسن نحوه، ويهدده بمسدسه. يكاد يختفي الرجل في مقعده. يلقي إليه صورة أليس.

- أتعرف هذه السيدة؟

ينظر الرجل إليها..

- لا أعرفها.

- هذه زوجتي. كنت تدرس التمثيل معها قبل ثلاث سنوات.

- تقول المسرح؟ هل تعتقد أن لدي الموهبة للتمثيل على المسرح؟!

يُفتح الباب. تدخل امرأة ممتلئة قليلاً، في منتصف العمر، بشرتها شاحبة وشعرها بني، وتحمل طفلاً على إحدى ذراعيها، وحقيبة مليئة بالطعام بالذراع الأخرى، وما إن استدارت بعد إغلاق الباب حتى صوّب أندرسن المسدس في وجهها.

- ما الذي يحدث؟! تسقط حقيبتها، وتفرغ كل محتوياتها على الأرض.

يأمرها أندرسن، بصوت يرتعش، بأن تجلس على الأريكة.

لم يكن يتوقع وجود امرأة ولا طفل؛ صوت الطفل وهو يصرخ يشبه صوت الخنزير الصغير؛ لا جدوى من سماع أي أصوات أخرى خلف الحواجز الصغيرة في الشقة وسط صراخ الطفل، ويشعر أن سكان المبنى بأكمله يحبسون أنفاسهم.

تقول له المرأة وهي جالسة ترتجف:

- خذ النقود. خذ كل شيء..

-أبعدي الطفل عن هنا.

- لا، سيظل هنا.

يتصبب عرقاً من جبهته. نبضات قلبه تزداد قوة. يكاد ينزلق سلاحه من بين يديه بسبب العرق.

- أريد أن أعرف ما الذي كان بينك وبين زوجتي. لماذا كنت تلاحقها؟!

تلتفت إلى زوجها:

- ما الذي يعنيه بهذا الكلام؟! ما الذي يتحدث عنه؟!

- لا أعلم. ألا تعتقدين أن هذا الرجل مختلّ عقلياً!

- أنا لست مجنوناً. تقابلت مع تيوفيل كارتر المخرج، وعرفتُ منه أنكما كنتما تلتقيان أثناء البروفات، ولدي مقطع فيديو يثبت أنك كنت تلاحقها على دراجة نارية في محطة الوقود.

- ليس لدي رخصة قيادة!

- توقف عن المزاح. أنت الذي قتلت زوجتي.

- أنا! أنا لا أعرف ما الذي تتحدث عنه؟! أقسم لك.

يضع أندرسن فوهة المسدس فوق ركبة تارديو، ويقول له بكل برود:

- وأنا أقسم إنني سأطلق النار عليك إذا لم تتكلم!

- لا أعلم شيئاً!

- إنها فرصتك الأخيرة يا تارديو.

يضع إصبعه على الزناد، ويوشك أن يضغط عليه كي يطلق النار. يجب كسر عظام هذا الرجل الذي كان يلاحق زوجته، وانتهى به الأمر إلى قتلها.

تصرخ المرأة بصوت عالٍ:

- إنه ليس توما.

نزلت على أندرسن هذه الكلمة كالصاعقة!

- توما تارديو هو زوجي السابق الذي قُتل منذ ثلاث سنوات.

يسألها وهو يلهث...

- في أي يوم؟

- الثالث عشر من شهر أبريل.

أأخطأ في تحديد الهدف بعد نحو أسبوع من اختفاء أليس؟! طعم العصارة المعوية المرّ ينتقل من بطنه إلى فمه! لا، هذا مستحيل! فالرجل شعره أسود، وبنيته الجسدية تشبه بنية الرجل نفسه الذي كان في المترو؛ الأمر لا يحتمل الخطأ! إنها تكذب من أجل حماية زوجها.

يأمر الرجل بأن يقف.

تصيح المرأة وهي تبكي:

- ما الذي ستفعله؟!

- اخرسي. أريد صندوق المعدات.

يرد الرجل وهو يهمّ بالوقوف:

- تحت الحوض.

يذهبون إلى المطبخ الملاصق للصالون. يأخذ الصندوق، ويُخرج المطرقة.

- أيوجد وشم على ذراعك؟

- لا.

يضع أندرسن المطرقة على الطاولة.

- ما الدليل على ذلك؟! افتح الجبيرة.

- لكن يدي مكسورة.

يكرر الأمر بصوت خشن:

- افتح الجبيرة.

يمسك الرجل المطرقة. يرفعها مرة، ثم مرتين، ثم يضعها على الأرض.

- لا أستطيع! أيعقل هذا؟! لا أستطيع؛ أنت مختل عقلياً؟!

يضرب أندرسن بمؤخرة مسدسه بقوة على الجبيرة. يصرخ الرجل من الألم، ويسقط على ركبتيه.

تصرخ زوجته وهي تبكي:

- توقفا!

يمسك أندرسن الرجل، ويضع ساعده على الطاولة. يمزق بقوة طبقات الجبيرة الكبيرة العالقة بها. يقطع الضمادة الشفافة بسكين حادة.

- أيعقل هذا؟!

لا يوجد على ذراع الرجل وشم!

يُبعد أصابعه من فوق ذراعه. يسقط الرجل على الأرض، وهو يتلوى من الألم ويئن. يفقد أندرسن توازنه وكأنه في حالة سكر ويجلس على الكرسي.

تقول له المرأة وعيناها تدمعان:

- لماذا تفعل هذا بنا؟!

تضم سيندي تارديو طفلها بقوة إليها.

- أعتذر، وأكرر اعتذاري. كنت أعتقد أنه هو الذي قتل زوجتي. إن زوجتي قُتلت، وأعتقد أنها كانت تربطها علاقة ما بزوجك السابق، أعتذر، أعتذر..

يشعر بالإحباط. لقد أصبح واحداً من هؤلاء التعساء الذين كان يدافع عنهم، ويبحثون عن أعذار لتبرير أمور لا تغتفر.

يسألها أندرسن:

- وكيف قُتل زوجك؟

- وما الذي تستفيده من معرفة هذا الأمر؟! اخرج من منزلنا، واتركنا وشأننا!

تهز طفلها بعصبية... تتوقف ثم تستأنف الهزّ مرّة أخرى. تنظر بقلق إلى زوجها الذي يتلوّى على أرضية المطبخ من الألم.

- السيدة تارديو. اليوم تم قتل المحقق الذي كنت أدفع له أتعابه من أجل التحقيق في مقتل زوجتي. أنا متأكد من أنه اكتشف شيئاً يتعلق بالقاتل.

- وما علاقة ذلك بنا؟!

يئن الرجل على الأرض بصوت عال جداً... وجهه أبيض كقطعة قماش بيضاء.

- مات توما بعد أيام قليلة من اختفاء زوجتي. كانا يمثلان في المسرحية نفسها. إن مقتلهما مرتبط ببعض.

- إذا تحدثت معك، فهل سترحل من هنا؟ هل ستتركنا وشأننا؟

- نعم.

تجفف السيدة دموعها بكمها من الداخل.

- وجدناه في القبو. أصيب برصاصة في الرأس.

- ما نتيجة التحقيق؟

- يقولون... قالوا إن توما تعرض للتعذيب. لقد راجعوا جميع القضايا التي كان يحقق فيها؛ خشية أن يكون القتل للانتقام منه؛ لكنهم لم يجدوا شيئاً؟

- تقولين قضايا...، ما مهنة زوجك؟!

- يعمل في الشرطة.

- أهو شرطي أم محرك العرائس، أم مقلد، أم أنّ الأمر يتعلق بأسلاك متصلة بزاوية من دماغه؟!

- منذ فترة طويلة وهو يعمل المسرح؟

- لم يخبرني بعمله في المسرح نهائياً!

- يذهب إلى هناك مساء الثلاثاء والخميس.

- غير ممكن! كان يعمل دائماً حتى وقت متأخر جداً في تلك الأيام.

- من المؤكد أنه كان يكذب عليك.

- لا، لقد اختفى مساء الثلاثاء. لقد ترك العمل هناك. اسأل المحامي المكلف من قبل الشرطة للتحقيق في هذه القضية.

- تقولين محامي؟

- جاء المحامي بعد وفاة توما ليطرح مجموعة من الأسئلة عنه من أجل استيفاء ملف التعويضات.

يسمع أندرسن عن مجموعة من المحامين المتطوعين بشكل دائم لمساعدة الشرطة. هذه ظاهرة حديثة، ويعتقد أن العدد قد لا يتجاوز عشرة أشخاص على الأكثر.

- اسمه باستيان، على ما أعتقد. لا، انتظر، اسمه باتيستي، هو ذلك، فرانك باتيستي.

## 39

الرحلة في سيارة الأجرة تمرّ كالحلم. يشعر أندرسن كأن روحه تخرج من جسده. كيف يمكن لفرانك أن يتورط في موت أليس؟! إنهما يعرفان بعضهما بعضاً مذ كانا طالبين في الكلية، وكانا يساعدان بعضهما بعضاً دائماً! ألم يقف أندرسن إلى جواره مع كل حالة من حالات طلاقه؟! حتى عندما دخل المستشفى بعد تعرضه لحادث، ألم يكن فرانك هو الذي يهتم بشؤون المكتب بمفرده؟! ألم يستمر في دفع جزء من أتعابه كي يتمكن من تدبير التزاماته المالية؟! لا يستطع أندرسن قبول فكرة الدور الذي يمكن أن يؤديه في وفاة أليس!

إن احتفال القناع التقليدي لفصل الربيع سيتم في قصر ريفي يقع على مشارف باريس. المساحة المزروعة كبيرة مقارنة بالبنايات الخرسانية. توجد عند مدخل القصر الذئاب والنسور الصغيرة والفئران والأرانب بالإضافة إلى العديد من الحيوانات التي يتم عرضها في أماكن مخصوصة. يوضح أندرسن لأحد العاملين، الذي يلبس قناعاً على شكل وجه ضفدع، أنه نسي بطاقة الدعوة، فيقدم شريكه في المكتب بطاقته

التي تخصه. ينظر إليه الرجل الضفدع من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه (لم يكن أندرسن يرتدي البذلة المخصصة للسهرات: لن يخاطر بالعودة إلى شقته مرة أخرى)، ورغم ذلك لم يثر أي ضجة، وأعطاه قناع الثعلب الذي يسمح له بتغطية عينيه وأنفه فقط. تقبل الأمر بواقعية؛ لكن ما أزعجه بشكل خاص كان هذا القناع الذي يبدو كما لو أنه مصنوع من جلد حيوان محشو بالقش.

يضغط بالمسدس من طراز ماكاروف على صدره البارد كقلب ميت. يأمل ألا يضطر إلى استخدامه. فكر في إلقائه في نهر السين؛ لكنه قد يحتاج إليه ليجعل باتيستي يتحدث. أمور كثيرة سيئة... تدور في رأسه؛ مشهد الرّعب في عيون وقلب أرملة تارديو، شعوره بالوحدة وهو يقف أمام نعش أليس، جمجمة موريس التي تهشمت، وجه السيدة البغيض صاحبة الشعر الأحمر عندما صوّبت مسدسها نحوه، نظراتها القاتلة، اعتقاده بأنها حتماً ستطلق النار عليه عندما صوبت المسدس إليه أمام مدرسة جون دو لا فونتان الثانوية؛ كان على يقين بأنها ستطلق النار عليه لولا وجود كل هؤلاء الأطفال!

بعد خطوات معدودة سيكون في القاعة المخصصة لهذا الاحتفال الكبير؛ حيث توجد الأغلبية العظمى من المدعوين. يتوهج ضياء الثريات البرتقالية المصنوعة من الكريستال على الأثاث القديم. تضفي اللوحات الرائعة على الديكور جمالاً وحنيناً إلى الحفلات التي كانت تقام في العصر الذهبي، الذي يمتد من نهاية القرن التاسع عشر إلى بداية الحرب العالمية الأولى. يضع المدعوون أقنعة تشبه القنافذ وسرطان البحر والعقعق والكناري، ويتحلقون حول الطاولة الكبيرة، ويحتسون

المشروبات الملونة، ويضحكون بصوت عالٍ... يسمع صوتاً نسائياً خفيضاً خلف ظهره يقول:

- يأكل الثعلب.

يستدير إلى الخلف، فإذا المرأة التي تتكلم ترتدي قناعاً خفيفاً لونه أسود يخفي الجزء السفلي من وجهها. تمسك بيدها مروحة حمراء وترتدي ثوباً مخصصاً للسهرات، وتضع تاجاً على رأسها. تتناقض ألوان ملابسها مع لون وجهها الطبيعي، ويتباين لون ملابسها مع لون بشرتها الغارقة في مساحيق التجميل، والبيضاء بلونٍ فاتح يُشبه لون اللبن، على صدرها استوت علامة طابع حُسنٍ مُزيف يُخفي ماً تحته بين ثنايا فستان أسود براق يخطف الأنظار!

يرد عليها أندرسن بكلّ أدب:

- أشكرك يا صاحبة السمو.

تسحب صاحب القناع من وجهه. هنا يعرف أنها جوديث؛ فتبتسم سكرتيرته ابتسامة ساخرة.

- استطعت أخيراً المجيء إلى هنا، سيكون فرانك سعيداً.

يسألها فجأة:

- ما الزي الذي يتنكر فيه؟

- يرتدي قناع أرنب. ألا تعرف ذلك؟!

يتجول أندرسن في القاعة على الفور، ويبحث عن صاحب قناع الأرنب الذي يرتدي بذلة مخصصة للسهرات لمصمم الأزياء أرماني.

تقول جوديث:

- من الجنون أن تأتي هذه الشخصيات إلى الاحتفال هذا المساء!

يشير بإصبعه إلى اثنين يتراقصان وهما يرتديان قناعاً على شكل سرطان البحر.

- هذا سفير ألبانيا وزوجته. ألا ترى الشخص صاحب قناع حصان البحر؟ إنه الوزير، وهذا الذي يرتدي قناع الخنزير، ويقف بجانب الخزانة، إنه مدير إدارة الشرطة.

يشعر أندرسن بالعرق البارد يسيل على ظهره؛ لحسن الحظ أنه ملثم أيضاً.

- ومن صاحب قناع السلحفاة هناك؟

تضحك جوديث بصوت مرتفع، وتشير إلى امرأة نحيلة وطويلة جداً ترتدي ثوباً مزخرفاً بطبقات من دروع السلحفاة.

- هذا مُتحولٌ جنسيًا مشهور يقدم عروض أزياءٍ خاصة بالنساء، وإني لغيرانة من جمالِ ساقيهِ.

- يا جوديث، يجب أن أقابل فرانك بسرعة. هل تعرفين أين هو؟

عندما تفاجأت بسماع لهجته الفظة، وصوته الخشن، خفضت السكرتيرة رأسها، وتلاشت ابتسامتها.

- نعم، نعم بالتأكيد. كان يتحدث إلى السيد فينيول منذ خمس دقائق.

تشير إلى رجل يرتدي قناعاً لونه أسود وأحمر، ويرتدي بذلة تشبه ملابس فيجارو في مسرحية «حلاق إشبيلية».

- هناك مشكلة. يبدو على جوديث القلق!

يعتذر أندرسن ويقول:

- سأعود حالاً.

يتّجه إلى فينيول الرئيس السابق لأليس، ويعرفه على الفور، على الرغم من القناع على وجهه.

- يا كريستيان. لقد أتيت أخيراً!

- مساء الخير يا سيد فينيول.

- لا داعي لاستخدام الألقاب. نحن هنا كعائلة واحدة، وقريباً ستكون أحد أفرادها. هل أستطيع أن أمني نفسي بذلك؟

- هذا مؤكد يا إتيان. هل رأيت شريكي في المكتب فرانك باتيستي؟

يشير فينيول إلى درج كبير من خشب البلوط.

- تحدثنا معاً في الغرفة الخاصة بالمدخنين في الطابق العلوي. ربما هو يدخن سيجاراً من طراز هافانا هناك مع المدعوين الآخرين. يسعدني أن أقدم بات سيمون أحد المتخصصين في القانون الجنائي في فريقنا.

يقاطعه أندرسن قبل أن ينهي كلامه:

- أعتذر إليك يا إتيان. يجب أن أتحدث إلى شريكي في المكتب بسرعة.

يترك ضيفه، ويندفع نحو الدَرج. تنتشر في الطابق الأول صور لثمانية أجيال من عائلة فينيول مثبتة داخل ألبومات، ومعلقة على الجدران، كلما ذهب هنا أو هناك وجدها أمامه. يبحث في جميع الغرف الواحدة تلو الأخرى لتحديد موقع الغرفة المخصصة للتدخين؛ لكنه لم يجدها! يفعل الشيء نفسه في الطابقين الثاني والثالث إلى أن وصل إلى غرفة تشبه غرف الانتظار تطفو فيها السحب الزرقاء الكثيفة، وتنبعث منها رائحة السماد، وجوزة الطيب. لا يوجد أحد في هذه الغرفة المخصصة للتدخين! إلا أن باباً صغيراً كان مفتوحاً في نهايتها يشعرك بهواء لطيف يمر خلالها.

يخرج أندرسن مسدسه، ويفتح الباب.

يرتدي جيريكو قناعاً يشبه رأس سمكة، ويحرك في الهواء بطاقته الشرطية في وجه أحد العاملين في القصر.

يقرأ هذا الأخير اسم جيريكو على بطاقته، ثم يقول له:

- يا سيدي هذه حفلة خاصة، ولا يمكنني السماح لك بالدخول.

يرفع المأمور صوته عالياً:

- ألا تعرف القراءة؟! الشرطة الجنائية!

- السيد مدير إدارة الشرطة في الداخل. أعتقد أنه سيوافق على أن ينتظر عملك حتى الغد... سيدتي؟ ماذا تفعلين هنا؟!

ترتدي الآن ديان قناعاً يشبه رأس قط، وتتحدث مع الآخرين على الطاولة. يستبدل العاملون في القصر بالأقنعة بطاقات الدعوة

يشعر جيريكو بالضيق؛ لكنه يقول لها:

- ماذا تفعلين يا كيليرمان؟!

- أنت طلبتَ مني أن أراقب، وها أنا ذا أراقب الذي يحدث في الداخل.

- مستحيل يا سيدتي. اسمك غير مدرج على القائمة.

ترد عليه، وهي تضع القناع على وجهها:

- إذاً، اتصل بالشرطة.

تدفع العامل بكتفها، وتدخل القصر. القاعة هادئة بشكل غريب..! يقف المدعوون إلى جوار نوافذ الصالون المطلة على الحديقة؛ حيث يركض أمامها رجال يرتدون أقنعة تشبه الكلاب، ويضع الجميع في آذانهم سماعات أذن، ويثبتون مسدسات في أحزمتهم، وديان تلاحقهم؛

يتوجهون إلى الحديقة المغطاة، وهي عبارة عن هيكل زجاجي كبير بإطارات معدنية، ويوجد عدد كبير من الأشخاص في هذا المكان يلتفون حول امرأة ملقاة على العشب بلا حراك وفاقدة للوعي! تقترب منها ديان، وتقيس نبضها. القلب ينبض بشكل طبيعي؛ لكنها فقدت الوعي. يشير أحد المدعوين إلى خيمة زجاجية صغيرة تشبه الخزانة. تخمّن ديان شكل الجسد الموجود داخل هذه الخيمة الزجاجية، يرتدي قناعاً من البورسلين المكسور بفعل السقوط.

إنه قناع الأرنب.

# الجزء الخامس

## 41

الساعة الثانية عشرة ليلاً ودقيقة واحدة. ربما كان المدعوون في قصر فينيول يخططون للعودة إلى منازلهم قبل حلول الموعد الذي تتحول فيه العربات التي تجرها الخيول إلى عربات بخيمة مستديرة مخصصة للأفراح، وبينما يحتسي المدعوون كؤوس الشمبانيا، يسقط فرانك باتيستي من الطابق الثالث، وينحشر بين صناديق الخيار في الحديقة، وسرعان ما تم وضعه ضمن محيط أمني، وبدأ رجال الشرطة تفتيش كل مكان، وقد أصبح المدعوون شهوداً على الواقعة، ويجب استجوابهم؛ منهم المحامون والسياسيون ومسؤولون كبار في مجال الصناعة وصحفيون! يتعلق الأمر بعشّ الدبابير، وبأسوأ مسرح جريمة يمكن تخيله!

وبعيداً عن الحراك الدائر أسفل هذه الخيمة المهجورة، تلاحظ ديان المدعي العام لولوار مهتماً بتهدئة مدير إدارة الشرطة. نعم سنحاول قدر وسعنا أن نُقيِّد ما تنقله الصحافة. لا يا سيدي اسمك لن يظهر. مؤكد سيدي لن نحتفظ بالوزير أو بأصدقائه. بلغ تحياتي إلى الرئيس يا سعادة المدير.

بينما يغادر مدير إدارة الشرطة، تقف ديان بجوار المدعي العام؛ حيث ترتجف يداه، وتتساقط حبات العرق الكثيفة على جبهته!

- يبدو على المدعي العام أنه في غاية الضيق. العمل هنا غير منظم. أكان من الضروري إعدام شخص ما هنا؟!

- يسحب لولوار من جيبه منديلاً صغيراً رمادياً بلون الحمامة، ويجفف به جبهته.

تسأل ديان:

- أنحن متأكدون من أن باتيستي تم دفعه من أعلى؟ ربما كان في حالة سكر!

- يؤكد العديد من الشهود أنهم رأوا شخصاً يرتدي قناعاً يشبه الثعلب يتدلى من على النافذة التي سقط منها باتيستي. صاحب هذا القناع هو أندرسن وفقاً لقائمة المدعوين، ويقسم أحد العاملين إنه أعطاه هذا القناع.

- ورغم ذلك، تظل هذه القائمة مفيدة جداً؛ إلا أن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن حفلة تنكرية يتم فيها الاحتفاظ بسجل لما يرتديه الناس!

- يرد لولوار: الغرض من هذا السجل هو منع المدعوين من القدوم بالزيّ التنكري نفسه الذي قد يتسبب في إحراجهم.

- نعم سيتسبب في إحراجهم في واقع الأمر. إذاً لم يرتدِ أيّ شخص آخر قناع الثعلب؟

- لا، ليس حسب القائمة.

تتساءل ديان عن السبب الذي يدفع أندرسن لقتل شريكه الذكي بهذه الطريقة الدراماتيكية! أكان يعتقد أن الواقعة سيتم تمريرها على أنها حادثة؟! لكن ما الدافع الذي دفعه لقتله؟!

يقول لولوار بنبرة الواثق من نفسه:

- منذ ثلاث سنوات، كنت كمن يسير عكس الاتجاه، وأقول إن أندرسن هو القاتل، لو أنهم قبلوا واستمعوا إليّ لكان بالإمكان تفادي هذه المذبحة، مع الأسف!

يعود لولوار إلى القصر، وتتبعه ديان، ثم صعدا إلى الطابق الثالث حتى وصلا إلى الغرفة المخصصة للتدخين التي شمّعتها الشرطة. الأختام فوق مطفأة السجائر الكبيرة تم وضعها تحت إشراف رئيس نقابة المحامين، وهذا هو الإجراء المعتاد عند تفتيش منزل المحاميين، وفي الغرفة الصغيرة المجاورة للغرفة المخصصة للتدخين يوجد مكتب عليه ملفات تتعلق بالقضايا التي يعمل عليها فينيول، ويجب على رئيس نقابة المحامين عندئذٍ التأكد من احترام سرية العلاقة بين الزبون والمحامي.

بالقرب من هذه الخزانة، تم دفع باتيستي في الهواء. النافذة مفتوحة، وعندما يميل الواقف عليها يمكن رؤية جسد شريك أندرسن في الأسفل.

يتجه المدعي العام نحو جيريكو الذي يشرف على عملية التفتيش:

- ماذا لديك أيها المأمور؟

- بصمات الأصابع في كل مكان، وآثار الأحذية. سنعرف في أقل من ساعة ما إذا كان أندرسن قد دخل إلى هنا. يؤكّد العديد من الأشخاص أنه كان يبحث عن باتيستي، وإذا سألتني عن رأيي، فهو المتهم لا غير.

تعلّق ديان على كلامه بقولها:

- لا يبدو أن هناك عملية اغتيال واضحة. أعتقد أن أسلوب المحامين أذكى من ذلك!

ينظر إليها رئيس نقابة المحامين شزراً!

يرد لولوار:

- رأى المدعوون شخصاً يرتدي قناعاً يشبه الثعلب، ويستند على النافذة بعد سقوط باتيستي. هذه العناصر تعدّ كافية لإثارة الشك لدى هيئة المحلفين، وربما أندرسن يعتمد على هذا الاحتمال، كما أنه يجهل أن المحقق، الذي يعمل لحسابه، أعطانا طرداً صغيراً فيه كل الأدلة اللازمة لتوجيه أصابع الاتهام إليه، والحكم عليه بالسجن مدى الحياة؛ هذا في حال تم إلقاء القبض عليه أيها المأمور. كيف استطاع الهرب بالرغم من وجود الجهاز الأمني ووجود رجالك هنا؟!

- يحالفه الحظ دائماً. ربما استفاد من حالة الارتباك التي سادت ليخرج في الوقت نفسه الذي غادر فيه زوجان الاحتفال، وسمعه المسؤول عند مواقف سيارات العملاء وهو يطلب من السائق توصيله إلى باريس.

يغمغم لولوار:

- يا لها من فوضى!

يرد جيريكو بثقة:

- لن يهرب منا لوقت طويل. والآن إذا سمحت لي، لدي عمل كثير يجب عليّ إنجازه.

وما إن يستدير المأمور إلى الجهة الأخرى، وقبل أن يغادر الغرفة، ينادي بصوت عال قائلاً:

- اتبعيني يا كيليرمان، يحين الآن وقت الإدلاء بشهادتك.

يستجوبها رجال جيريكو في مبنى مقر شرطة باريس طوال الليل، ثم يطلقون سراحها قبل الفجر بقليل، وتستغل ديان عدم وجود أي أحد لمراقبتها فتصعد إلى «غرفة التجفيف»، وهي عبارة عن غرفة صغيرة تبلغ مساحتها عشرة أمتار مربعة، يتم فيها تخزين الملابس الرطبة، التي تم العثور عليها في مسرح الجريمة. يستمر بقاؤها هناك الوقت اللازم للتجفيف والتشميع بالأختام. منذ فترة كان تجفيف الملابس الملطخة بالدماء أو السائل المنوي أو البول يتم في مكاتب مسؤولي جمع الأدلة في مسرح الجريمة، وعندما تهبّ العواصف الرعدية تتكفل الرطوبة الزائدة بانتشار الروائح العفنة.

أما عن الفستان الموجود على الهيكل العظمي لأليس فقد تم وضعه على مجسّم لعرض الملابس مصنوع من البلاستيك؛ هذا الفستان عبارة عن مزيج من اللونين الأزرق والأبيض، وقد تمت حياكته من قماش لامع؛ حيث يمكن أن نرى بوضوح الأماكن التي تم تمزيقها عند مستوى الأضلاع بسبب استخدام آلة حادة، ويواصل رجال الشرطة المسؤولون عن كشف هوية الهيكل العظمي، منذ عام، مع معهد النسيج في فرنسا، من أجل تحديد مصدر هذا الفستان على أمل أن يسمح لهم ذلك معرفة اسم الضحية، ولم يتم التوصّل لأي شيء يذكر! والآن بعد معرفة أن الجثة تعود لأليس وأن القاتل هو أندرسن، سيتم طرح أسئلة جديدة: لماذا كانت ترتدي هذا الفستان؟ يضاف إلى ذلك: ما الدافع الحقيقي لارتكاب الجريمة؟!

هل الدافع لارتكاب الجريمة هو النقود؟ بالكشف عن حساب أندرسن المصرفي تبين أنه كان مديناً قبل اختفاء زوجته، كما أنه أنفق عشرات الآلاف من اليورو في نوادي القمار في العاصمة، وكان لدى أليس تأمين على الحياة بمبلغ مليون يورو.

أكانت الغريزة الجنسية هي الدافع لارتكاب الجريمة؟ ربما تكون هي الدافع. يوجد دائماً دافع جنسي وراء أفعال السفاح. لهذا قطع أندرسن أعضاء العديد من ضحاياه التناسلية. من المسلم به أن هذا الصنيع يرتكبه القتلة الذين يعانون من أزمات مع رمزية الأمومة، ومعلوم أنه تم التخلي عن كريستيان أندرسن عند ولادته، لهذا لا يجب إهمال المسار.

يتبلور في ذهنها، بشكل فظيع، سيناريو مجنون ومخيف يتعلق بأندرسن الذي قتل زوجته، وأخفى جثتها، وأعطى عينة الحمض النووي المزيفة للشرطة، وعرّض نفسه إلى حادث سيارة، وعندما استفاق من هذه الحادثة وجد نفسه شخصاً آخر. ليست سوى أوهام في داخله. إنه القاتل الذي يتلذذ بالقتل!

ولأنها تتمتع بذكاء حاد، تذهب ديان إلى المكتب الذي يعمل فيه بيرجر أثناء إجراء التحقيق. الكمبيوتر ما يزال في وضع التشغيل، تكتب في محرك البحث بضع كلمات من الأغنية المسجلة على القرص المدمج في مكتب موريس لو درونت، فتكتشف أن الأغنية بعنوان ملامح شديدة التشابه من ألحان موسيقى فرانز شوبرت. ترجمت كلماتها بسرعة:

الليل ساكن والشوارع هادئة

في هذا المنزل كانت تعيش حبيبتي

لكنها غادرت المدينة منذ فترة طويلة

على الرغم من أن منزلها ما يزال موجوداً هناك

يقف رجل يحدق في السماء

يداه تتثنى ويتلوّى ألماً من الوجع

تخيفني رؤية ملامحه

لمّا يسقط عليهِ ضوء القمر أبصر نفسي واقفًا في الناحيةِ الأخرى،

أنت يا قريني، يا صاحبي الشاحب، ورفيقي المُنهك،

ماليّ أراك مُغتمًا مدمى القلب

بطريقٍ يجعلني أختبر الألم في نفس الموضع الذي تتألم منه في جسدك

ألا تتابع الليالي تلو الليالي منذ زمن بعيد؟

فالملامح شديدة التشابه تعني الشبيه المكرر باللغة الألمانية. أكانت هذه آخر رسالة من المحقق؟ هل فهم أن أندرسن يمثل في حقيقة الأمر شخصين اثنين منذ تعرضه لهذا الحادث؟

من ناحية وجه العملة الأمامي؛ هو رجل عاشق يبحث عن زوجته الميتة، ومن جانب وجه العملة الخلفي؛ هاكم السيد هايد - نسبة إلى شخصية السيد هايد في رواية دكتور جيكل ومستر هايد - الذي لا يعيش سوى بهدف إراقة الدماء واستنساخ أسلوب القاتل، من خلال قتل الفتيات اللواتي يشبهن أليس، شبحاً يقتل زوجته مراراً وتكراراً مع اختلاف طرائق التعذيب!

تبتلع ديان ريقها بصعوبة، فإذا كان تفكيرها منطقياً فهذا يعني أنه أثناء الهروب كان أندرسن يخاطر بارتكاب جريمة قتل مرة أخرى.

يدخل جيريكو، وهو يمسك بيده صندوقاً من الورق المقوى يخرج منه أكياساً بلاستيكية محكمة الغلق، وبطبيعة الحال يندهش عندما يراها في هذا المكان!

- ما الذي تفعلينه هنا؟!

ترد عليه بطريقة ملتوية:

- أنا أراقب.

يحدق إليها جيريكو النظر طويلاً وهو صامت.

أخيراً يتكلم:

- أنتِ على صواب. إن ناتاشا تشيرفونا ليست ضحية من ضحايا محرك الدمى، لكنها ضحية شخص آخر يقلده.

- أخبرتك بهذا من قبل، وكان من الممكن أن يكون قاتلها وراء القضبان الآن لو كنت استمعت إليّ منذ البداية!

لم يتفاعل المأمور مع ديان.

- لم يكن لديك شكوك في السابق. لماذا أنت متأكدة من أن هنكر هو محرك الدمى الحقيقي؟!

- أهذه طريقتك في الاعتذار إلي لكي تبعدني عن المشاركة في التحقيق؟

- بالتأكيد لا. رأيي في ديان لم يتغير؛ فعملكِ وأنت بعيدة عن الشرطة أفضل حالاً مما كنت عليه وأنت تعملين داخل جهاز الشرطة.

- أما تزال تراقبني؟!

- أكثر من أي وقت مضى. كيف تأكدت من أن هنكر هو محرك الدمى؟

تدخل شرطية الغرفة بسرعة:

- مدير إدارة الشرطة والمدعي العام في انتظارك في مكتبك أيها المأمور.

يغمغم ثم يقول:

- أيعقل هذا؟!

قبل أن يغادر ومعه الأختام، يلتفت جيريكو، وينطر إليها، وهو غاضب:

- يا كيليرمان، أريدك خارج فريقي فوراً.

تعترض وتقول:

- وبالنسبة إلى اتفاقنا؟!

- لا شأن لي بكِ. تحدثت مع دوكلير وأقنعته بعدم نشر أي شيء يضرّ بالتحقيق.

- تقصد يضر بوظيفتك أم بالتحقيق؟!

لم يكلف جيريكو نفسه عناء الرد عليها. يستدير ويأمر مرؤوسيه بطرد ديان بمجرد أن تأخذ أغراضها، وما إن غادر المأمور الغرفة حتى طلبت من الشرطي أن يمهلها خمس دقائق لكتابة ملحوظة إلى بيرجر تدور حول اقتناعها بمرض أندرسن العقلي، وأثناء كتابتها الملحوظة، لفتت انتباهها مذكرةٌ ملقاة بجوار الكمبيوتر مدوّن عليها إحصاء يتعلق بجميع حالات الاختفاء المشتبه فيها لنساء تتراوح أعمارهنّ بين ثمانية عشر وأربعين عاماً في جميع أنحاء البلاد خلال الأسبوعين الماضيين، فقرأت ديان القائمة الموجودة بشكل مائل، وتوقفت عند الاسم الأخير لامرأة كانت قد اختفت منذ أيام قليلة بعد أن تركت ابنتها عند أجدادها، تعيش في مدينة بورنيل، واسمها فاليري رومر.

## 43

واحد

اثنان

ثلاثة

أربعة

## 44

تتحرك سيارة الأجرة ببطء. الشوارع مزدحمة. تهتز السيارة وتسير بهدوء. يحاول أندرسن جاهداً أن تظل عيونه مفتوحة. لقد قضى هذه الليلة الطويلة في مكان سيئ زاره منذ بضعة أسابيع عندما كان يقتفي آثار امرأة تشبه أليس. لم يستطع أن يخلد إلى النوم، ولهذا كان لديهِ متسعًا من الوقت للتفكير فيما سيفعله ليصرف فيهِ يومه، ولكن سرعان ما بدأ يفكّر في الاتصال بالغراب مرة ثانية. هذا هو التحدي الذي سيراهن عليه. لا يجب أن يتخذه عدواً، بل على العكس من ذلك ربما يكون حليفاً له. ألم يقل إنه يريد مساعدته في أن يستعيد ذاكرته؟ الحقيقة أنه تذكر دروس أليس في مجال المسرح بفضله هو.

يعيد أندرسن وضع البطارية في هاتفه؛ إذ إنه نزعها من الهاتف حتى يصعب تتبعه. وبمجرد تشغيله أرسل رسالة نصية إلى كاتب الرسائل غير المعروفة هويته، ويحدوه الأمل برد فعل منه.

مات الأرنب.

أدرك أندرس المضمون. إن باتيستي هو الذي سمح لأليس بالانضمام إلى مكتب فينيول عندما أعطاها معلومات حول وظيفة المتدرب. مضمون الرسالة يعني بلا شك بلاد العجائب التي تحدث عنها الغراب.

كان لدى أندرسن الوقت للذهاب من منطقة قوس النصر إلى متحف اللوفر قبل تلقِّي الرد، وبينما يراقب حركة المرور بتوتر تصطكّ أسنانه كلما مرت سيارة الأجرة بسيارة شرطة. إنه يعلم يقيناً أن هاتفه تحت المراقبة بالفعل، وأن الشرطة تحاول تحديد موقعه بمجرد تشغيله، ولكن لم يكن لديه خيار آخر، ولا يدري إذا كان الشخص غير المعروفة هويته سيرد على رسالته من رقم مختلف عن رقمه؟

أخيراً، تصل رسالة نصية.

أنتَ الذي قتلتها؟؟؟

يتنهد بارتياح لأنه اكتشف أن الغراب لم يقتل باتيستي.

لا، وأنت؟

يهتز الهاتف...

لم أقتل أحداً

في هذه الحالة، يحين الوقت الآن لوضع حد لهذه اللعبة التافهة!

يضيف على الفور:

أريد معرفة الحقيقة. أخبرني بكل ما تعرفه عن وفاة أليس.

غير ممكن، ربما الهاتف مراقب.

يجب إذاً أن نلتقي.

لا يرد، أمام متحف أورساي، تتوقف سيارة شرطة خلفه. يتردد في النزول عند الإشارة الحمراء والسير باتجاه مدخل مترو الأنفاق؛ لكنه يحافظ على رباطة جأشه.

اذهب إلى دوجسون.

تتحرك سيارة الأجرة مرة أخرى، وتسير سيارة الشرطة وراءهم دائماً.

لا، سيسلمني إلى الشرطة.

إنه يساعدك، ويعرف أشياء معينة.

ماذا؟

ستعرف، اذهب إليه.

لا أعرف مكانه.

تتجاوزه سيارة الشرطة عند جسر ديزار، أثناء مرورها، وبينما ينظر الشرطي إلى داخل سيارة الأجرة يتظاهر أندرسن بأنه يلتقط بهاتفه صورة لنهر السين، وبالقرب من منطقة سان ميشيل تتوقف سيارة الأجرة بسبب الاختناق المروري الذي نتج عن حادث، وينزل رجال الشرطة من السيارة. يحدق أحدهم النظر إليه، ثم ينضم إلى زملائه. يدفع أندرسن الأجرة للسائق، وينزل من سيارة الأجرة، ويرسل إليه الرجل غير المعروفة هويته عنواناً في رسالته النصية الأخيرة، وبينما ينعطف ناحية رصيف دي جرون أوجوستان وشارع جي لو كورو، يشاهد رجال الشرطة وهم يستديرون، فيبدأ الركض باتجاه شارع سان ميشيل.

بعد عشر دقائق، يسمع جميع أجهزة الراديو في سيارات الشرطة تذيع الرسالة نفسها؛ الرجل المطلوب البحث عنه في باريس يختفي للتو في الحي اللاتيني.

## 45

خمسة

ستة

سبعة

ثمانية

## 46

يصدر جهاز عرض الفيديوهات صوتاً ضعيفاً، ويرسل شعاعاً ضوئياً باتجاه الشاشة البيضاء المثبتة في غرفة الاجتماعات الرئيسة لفرقة مكافحة الجريمة. يحيي المأمور جيريكو رجال الشرطة الجالسين أمامه بنظرة من عينيه، ثم يضبط ربطة عنقه، ويتنحنح:

- أثبت زملاؤنا في فرقة (بي دي آر بي)، وهي الفرقة المتخصصة بمكافحة الاعتداء على الأشخاص، أن كريستيان أندرسن زار امرأة منذ أيام قليلة.

يبدو على وجه المأمور أنه هادئ الأعصاب؛ فهو يتحدث ببطء حتى تنفذ كل كلمة في أذهان المستمعين، وبينما يومئ برأسه يدرك الرجل المسؤول عن الكمبيوتر المتصل بجهاز عرض الفيديو أن الوقت قد حان لبدء عرض الشرائح؛ فتظهر صورة لامرأة شقراء على الحائط تتوجه كل عيون الحاضرين إليها.

- هذه فاليري رومر؛ تبلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً، وتعيش في منطقة بورنيل. ذهب أندرسن إلى منزلها في يوم عيد ميلاد ابنتها، ويقول الجيران الذين حضروا ذلك الاحتفال إنهما تحدثا معاً في الصالون، وبدا على فاليري بعد ذلك أنها غير مرتاحة.

تُظهِر صورة جديدة على الحائط خليطاً مكوناً من عشرات الوجوه؛ الصورة الأولى لأليس أندرسن، والصور الأخرى لضحايا يُفترض أن زوجها هو الذي قتلهنّ، وآخر صورة لفاليري رومر، وقد تم وضع علامة استفهام بجانبها.

- كما تلاحظون، التشابه بين الآنسة رومر وضحايا أندرسن الآخريات واضح جداً؛ لذلك نخشى أن يكون قد اختطفها.

توجد شريحة جديدة تتعلق بصور الضحايا، وتشير هذه الشريحة إلى رجل حليق الرأس وله عينان جامدتان مخيفتان تحدقان النظر إلى الحاضرين.

- هذا الرجل هو فيكتور فورنيي، الشخص الأخير الذي شوهدت معه فاليري رومر، واحتفلا معاً بهذه الليلة في ليلة اختفائها نفسها؛ علماً بأنه هو أيضاً مختفٍ، وفي هذه المرحلة من التحقيق، لا نعرف ما إذا كان هو ضحية أو متواطئاً مع أندرسن. الرجل لديه سجل جنائي، وهو معروف بالفعل بارتكابه أعمال العنف، بالإضافة إلى ذلك إنه يعيش في مدينة ليل، وتحديداً المنطقة التي تضم 400 منزل، وهي منطقة حضرية تتصاعد فيها حدة التوترات.

لا يحب جيريكو التعبيرات اللطيفة، ولهذا إنه يفضل استخدام العبارات الجافة إذا لم يكن مدير إدارة الشرطة مدعواً للاجتماع؛ مثل أحد الأوغاد القاطنين في الأحياء المعزولة، أو أصحاب شريعة الغاب في المناطق الحضرية! لكن وجود رئيسه في العمل يحتّم عليه أن يتكلم بسياسة وباستخدام العبارات المعمقة.

- إن فرقة مكافحة المخدرات التابعة لجهاز الأمن في المدينة أكدت لي عبر الهاتف أن الرجل يخضع للمراقبة كجزء من التحقيق في

شبكة الاتجار بالمخدرات، وأنه ربما تكون لديه أسلحة في منزله؛ لهذه الأسباب قررت، بعد موافقتهم، المضي قدماً في اعتقال فورنيي بعد ظهر اليوم عن طريق إحدى مجموعاتنا بمساعدة الرائد بيرجر.

يحدق النظر إلى مدير إدارة الشرطة، وهو يقول بإصرار؛ علماً بأنه يتمتع بخبرة واسعة في إلقاء القبض على العناصر الإجرامية:

- إحدى مجموعاتنا موجودة بالفعل في الموقع، وسيتم دعمهم بتعزيزات محلية بما في ذلك فرقة المهمات الخاصة التي فرضت طوقاً أمنياً حول منزل فورنيي، وستتكفل مجموعة التدخل التابعة للشرطة الوطنية بالهجوم بعد نحو... (ينظر جيريكو إلى ساعته) خمس وأربعين دقيقة.

## 47

تسعة

عشرة

أحد عشر

اثنا عشر

## 48

- لا أتحدث الفرنسية؟

يتنهد أندرسن، ويكرر الكلام نفسه:

- دوجسون. أبحث عن دوجسون.

العنوان الذي أرسله الرجل غير معروف الهوية على الهاتف هو عنوان أحد الأحياء العشوائية الموجودة في الضواحي الشمالية، وعندما دخل لم يعثر على أي شخص يعرف أكثر من ثلاث كلمات فرنسية، ورغم ذلك، إن ما يبحث عنه يعد أمراً بسيطاً. يضاف أيضاً أن الرجل يستخدم حمالة لذراعه، ويضع ضمادة نظيفة على وجهه.

يقول وهو يشير إلى جراحه:

- إنه الطبيب، نعم، الطبيب.

يحرك الرجل كتفه السليم، ويدير ظهره له. وهنا يشعر أندرسن بالخوف الشديد؛ ربما دوجسون غادر، وحتى لو كان هنا، فهو يعلم أنه متهم بقتل ابنته، فكيف سيكون ردّه حينئذٍ؟! هل سيكون لديه وقت للحديث معه قبل أن يصوّب قذيفتي بندقيته إلى قلبه؟! إنه لا يعرف حتى ما الذي يمكن أن يقوله له، وكيف يفسر له كل هذه الأحداث التي تتسم بالجنون!

وبينما يحاول أن يجرّب حظه على امتداد هذه السيارات المتنقلة الكثيرة، يأتيه رجل لمقابلته.

الشعر مقصوص وقصير جداً، واللحية محلوقة حديثاً. يوجد اختلاف في لون البشرة بين أعلى وأسفل خديه. يرتدي زوجاً من القفازات الخاصة بالحدائق، ومجهز للخدمة الشاقة، كما أن قميصه مصمم بدرجة تسمح لشعر صدره الأسود الخشن بالظهور:

- يبدو أنك تبحث عن دوجسون؟

- هل تعرف أين يمكن العثور عليه؟

- هل يمكن؟

يبدو أن الرجل يعرفه بشكل أو بآخر. تولّد لديه انطباع بأن هذا اللقاء ليس هو الأول بينهما.

يقول تاتا:

- ستقابله. اتبعني.

سارا باتجاه سيارة حمراء اللون؛ موديلها يتجاوز الثلاثين عاماً على الأرجح، من طراز رينو فويجو تفوح منها رائحة البنزين القوية، وقد تآكلت عتباتها بسبب الصدأ، وتحول لونها إلى خليط من اللون البني والأحمر! وبينما يفتح الرجل صندوق السيارة الخلفي يمكن رؤية مجموعة من الملابس المتسخة بداخله مكونة من بذلة للتدريب وسترة ممزّقة ومعطف، وتوجد أيضاً أدوات وكابل طويل متّسخ بالزيوت؛ مثبت به زوج من المشابك على شكل تمساح تُستخدم عند توصيلها بالبطاريات لإعادة شحنها.

يطلب منه الرجل أن يصعد السيارة.

- هنا بالداخل؟ لا يمكن؟

- شاهدتُ التلفزيون، وأعرف أن الشرطة تبحث عنك، لهذا أنت تفعل ما بوسعك كي تعثر على شارل بمفردك.

ينظر أندرسن إلى السجادة المتّسخة الموضوعة على أرضية صندوق السيارة!

أكان يائسا إلى درجة تجعله يدخل صندوق سيارة لا يعرف مالكها، أيحدوه الأمل في أن يلتقي بأحد الأشخاص الذين يكرهونه كراهية شديدة؟!

حتماً سيكون الردّ بـ نعم؛ لأنه سيتجاوز مِصدّ السيارة.

## 49

ثلاثة عشر

أربعة عشر

خمسة عشر

ستة عشر

## 50

مجموعة من رجال الشرطة المقنعين يحيطون، في هدوء، بمنزل فيكتور فورنيي. يقف بيرجر أمام الواجهة على بعد ثلاثة أمتار من المدخل، ويستعد فريق كوماندوز؛ مجموعة التدخل التابعة للشرطة الوطنية، ولم يكن بيرجر قريباً بدرجة كافية من موقع الأحداث كي يشعر بمادة الأدرينالين التي يفرزها الجسم عند الخوف، والتي تسبق الهجوم، لكنه كان قريباً بما يكفي كي يتصبّب عرقاً بالرغم من هذا الجو المنعش. يغلق بإحكام شديد سترته الواقية من الرصاص الفئة4، التي تصدّ مقذوفاً عياره 7.62 للبندقية الآلية الكلاشينكوف.

أمام الباب، ومن دون إحداث أيّ ضوضاء، يقوم أحد أفراد الأمن بتجميع الأسطوانات الهيدروليكية التي ستفجّر القفل أثناء الهجوم. يلقي بيرجر نظرة أخيرة على المدينة خلفه، وهناك يتجمع عدد قليل من الشباب تحت جدار مكتوب عليه شتائم ضد أفراد الشرطة، يأمل ألا يتسببوا في إفساد هذه العملية؛ فغالباً ما يقوم أطفال الحي بقذف رجال الشرطة بالحجارة أثناء الاعتقالات!

يشير الضابط المكلف بالهجوم التكتيكي، الذي يقود الفرقة الهجومية، بيده معلناً البدء في شنّ الهجوم..

يشعر بيرجر بإرهاق شديد، وبعد وقت قصير، تنفجر الأسطوانات الهيدروليكية في الباب، ويجتاح عشرات من رجال الشرطة منزل تاجر المخدرات. يدخل بيرجر بعدهم ببضع ثوانٍ، ويداه قابضتان على مؤخرة المسدس، وما إن يشم رائحة كريهة في الغرفة حتى يدرك على الفور أنهم سيجدون جثة داخل المنزل.

## 51

سبعة عشر

ثمانية عشر

تسعة عشر

عشرون

## 52

أشياء مدببة كثيرة تؤلم جنبيه كُلما ارتطم أحد جوانب السيارة رينو فويجو بمطب من المطبات. الهواء يشعره بالاختناق. زجاج السيارة فويجو الخلفي سميك جداً، ورغم ذلك يمكن معرفة محتويات الصندوق بمجرد إلقاء نظرة خاطفة، والرجل الذي يصطحبه يلقي على وجهه قطعة من القماش ليمنعه من النظر إلى خارج السيارة، وتفوح من أسفل الصندوق رائحة زيت المحرك، وشعر كلب رطب!

أخيراً، تتوقف هذه الآلة الغريبة عن الحركة! يصدر الحصى صوتاً أسفل قدمي السائق، ويُفتح صندوق السيارة فجأة!

- تنتهي الرحلة، ويتجشأ الرجل.

يسحبه ذلك الغجري من الغطاء الموجود على رأسه، ويكتشف أندرسن أنّ هذا المكان عبارة عن فضاء من الأرض محاط بسياج صدئ، تتناثر في محيطه أكوام النفايات؛ كغسّالات الملابس المفككة، وأنقاض مبانٍ، وأكياس بلاستيكية كبيرة، ولهذا تنتشر الحشرات في كل زاوية. يقف والد زوجته وسط كل هذه الأشياء مسلحاً ببندقية صيد.

يتوسل إليه، وهو يرفع ذراعيه بكل هدوء، ويقول:

- جئت للتو؛ للحديث معك!

- يرد عليه دوجسون ببرود:

- الشرطة تبحث عنك. يقولون إنك قتلتَ باتيستي.

- أعطني خمس دقائق؛ لأشرح لك يا شارل.

خمس دقائق فقط ليس أكثر.

- أنا لم أقتل ابنتك، ولم أقتل فرانك، هم الذين قتلوهما، وهم الذين يحاولون إلصاق جرائم القتل بي أنا!

استغرق كلامه ما يزيد قليلاً على أربع دقائق ليخبر والد زوجته عن سبب ذهابه إلى القصر الريفي، وعن الذي حدث هناك بالفعل.

يختتم كلامه قائلاً:

- عندما وصلت إلى مكتب فينيول كانت النافذة مفتوحة، وسمعت صراخاً في الخارج، وانحنيت على النافذة. هذا كل ما رأيته، ورأيت أن فرانك قد تم دفعه في الفراغ إلى الأسفل.

يسأله دوجسون:

- ما الذي يجعلك تعتقد أنني سأصدق قصتك؟!

- أعتقد أنك تعلم يقيناً أنني لم أقتل ابنتك.

لا يظهر على وجه دوجسون أيّ تعبير يدل على أي رد فعل!

باتت نظراته الباهتة أبرد من الماء الجليدي في قاع المضيق البحري في القطب الشمالي!

يقول له ببساطة:

- استمر في الحديث.

- أدركت كل ذلك عندما ذهبت لمقابلتك. أعدت التفكير في مشاعرك عندما كنا في المقبرة؛ فالأب يبكي دائماً عند دفن ابنته ما لم يكن قد أقام مراسم العزاء من قبل، كنتَ تعلم أنها ماتت منذ ثلاث سنوات، أليس كذلك؟ وكنتَ تعلم أنها قُتلت، ولهذا السبب أنتَ تعيش كأنك في حالة هروب مستمر. أنتَ خائف من أن يعتدوا عليك أنت أيضاً، أنت تعرف من الذي قتل أليس.

يتردد دوجسون لحظةً، ثم يرفع بندقيته في الهواء:

- لنذهب معاً إلى سيارتي المتنقلة.

## 53

واحد وعشرون

اثنان وعشرون

ثلاثة وعشرون

أربعة وعشرون

بعد أن أمضى ليله دون أن ينام، يعرب أندرسن عن امتنانه لدوجسون الذي قدم له كوب قهوة ساخن.

يسأله والد زوجته وهو يجلس أمامه على الطاولة في زاوية من الصالون في السيارة المتنقلة:

- هل تعرف من الذي تقاتله فعلاً يا كريستيان؟

يقف ستريجا بجانب دوجسون. يشبك ذراعيه على صدره. نظراته المتنمرة تلاحق أندرسن مع كل حركة من حركاته كما لو أنه يخشى أن يهاجم الطبيب فجأة.

- إتيان دو فينيول هو القاتل، وله نفوذ، ويمتلك الملايين من اليورو.

يرفع دوجسون عينيه إلى أعلى.

- لو كان ما تقوله هو كلّ ما في الأمر لما اختفت أليس، ولما كنتَ أنت في هذا الوضع، ولربما صارت الأمور إلى ما هو أبعد من ذلك.

ظلّ والد أليس يبلِّل شفتيه بلسانه قبل أن يتابع حديثه:

- لقد أنشأت أليس، عندما كانت تعمل في مكتب فينيول، شركات وهمية لتخفيض ضرائب عملائها.

- تقصد خفض نسبة الضريبة؟ أعرف ذلك.

يعلق دوجسون ويقول:

- هذه كلمة مهذبة جداً للتّعبير عن التهرب الضريبي. في أحد الأيام اكتشفت أليس أن ثلاثاً من الشركات التي أسّستها في جزر الباهاما كانت مستهدفة في محاكمات من قِبل ست شركات أوروبية، وأن هذه الشركات الأخيرة كانت تشتكي من عدم تسلّم المنتجات التي يطالبون بها.

يُعد دوجسون لنفسه الشاي، ويحرك كيس الشاي في الكوب.

- المشكلة، يا كريستيان، أنّ الشركات التي أنشأتها أليس عبارة عن شركات وهمية لا فائدة منها، لا تبيع ولا تشتري أي شيء، ولا تمارس أي أعمال بأي شكل من الأشكال؛ تم استخدامها لخداع مصلحة الضرائب في سياق توفيق الأوضاع المالية، وعندما سألت فينيول عما يحدث، أخبرها أنه مهتم بكل شيء، ولعلكَ تعرف أن ابنتي كانت ترغب في التّحقق من الوضع، لهذا أدركت أن جميع الشركات، سواء تلك الموجودة في أوروبا أم الموجودة في جزر الباهاما، مملوكة لشخص واحد يُدعى ألكسندر لورويز.

يومئ دودجسون برأسه وهو حزين.

- إن ابنتي لم تكن تعرف ذلك؛ لكنها كانت كمن ارتكب خطأً مميتاً. لم تدرك وقتها أن ألكسندر لورويز هو الاسم المستعار لفينيول! كما أنها لم تدرك اكتشافها عن غير قصد الأعمال غير المشروعة لمكتبه.

ينحنى دوجسون إلى الأمام، ويحدق بعيونه الزرقاء الجليدية النظر إلى أندرسن.

- الأصول التجارية لفينيول التي يجني منها ثروته ليست سوى غسل الأموال مجهولة المصدر!

بينما يواصل دوجسون كلامه، لا يعرف أندرسن ماذا يقول!

- إن فينيول يعمل منذ سنوات لمصلحة الجماعات الإجرامية كالمكسيكيين والكولومبيين على وجه الخصوص. لقد استحدث نظاماً ضخماً لإعادة تدوير أموالهم! الخطوة الأولى: يضخ عملاؤه أموالهم القذرة في الشركات الموجودة في الملاذات الضريبية في منطقة البحر

الكاريبي، حيث لا تهتم الشرطة هناك بهذه الأعمال. والخطوة الثانية: يرفع مكتب فينيول دعوى قضائية ضد هذه الشركات باستخدام شركات أخرى يسيطر عليها، ويقع مقرها في الاتحاد الأوروبي. والخطوة الثالثة: يذهب إلى المحكمة الدولية ويطالب بتعويضات عن عمليات التسليم المزعومة التي لم يتم الوفاء بها. وبانتهاء المحاكمة، تحصل الشركات الأوروبية على غرامات كبيرة، وتتحوّل الأموال القذرة من حساب إلى حساب آخر في صورة أموال نظيفة! تدفع المافيا الضرائب والرسوم على هذه الأموال، ويأخذ فينيول عمولة جيدة على هذه الصفقة، وهكذا تظل أموالهم نظيفة في نهاية المطاف!

- لماذا لم تخبرني أليس بهذا الأمر؟!

- الأمر بسيط للغاية: هذا من أجل حمايتك؛ لأن فينيول سيعلم عاجلاً أم آجلاً أن أليس ستفهم الهدف من عملها الصغير، ولذلك أصبحت محل ثقته، ووعدها بأن تكون شريكة له، ووعدها أنها ستحصل على حصة من الأرباح جرّاء صمتها عن جرائمهِ.

يتساءل أندرسن:

- أقَبِلت بهذا العرض؟

- نعم، لم يكن لديها خيار آخر. ماذا سيكون ردّ فعل فينيول إذا رفضت عرضه؟

يرتجف أندرسن.

- استمرت في العمل مع فينيول عدة شهور، وبدا كل شيء كأنه طبيعي إلى أن ظهر تارديو في الصورة يوماً ما.

يظن أندرسن أن علامات الغضب بدت في عيون دوجسون، ودليله استرساله في الحديث عن هذا الموضوع.

- كان تارديو يُجري تحرّيات عن فينيول منذ سنوات، وكان مقتنعاً بأن مكتبه متورط في بعض الأعمال المشبوهة، كما أنه أدرك أن ليرويز هو اسم مستعار مسجل على الورق فقط؛ اخترعه فينيول من اختصار لجميع العملات التي تتدفق في حساباته كالجنيه الإسترليني واليورو والين والدولار، أما أليس فهي آخر محامية انضمت إلى مكتبه، ولذلك أنا أعتقد أن تارديو شعر بأنها ستكون هدفاً أسهل من الآخرين، وتقديراته كانت في محلها؛ لكن ليس للأسباب التي دارت في رأسه.

يُحكِم دوجسون قبضتي يديه إحداهما على الأخرى.

يغمغم بكلمات:

- لم أقم على تربية ابنتي لتكون مجرمة! تدرك أليس أن الذي يحدث في المكتب هو من قبيل الخطأ؛ ضميرها يعذبها. تمكن تارديو من اكتشاف ذلك الخطأ، وطلب منها أن تتحدث معه، وأن تزوّده بالأدلة على أن فينيول يعمل في مجال غسل الأموال، وأن تزوّده أيضاً بأرقام الحسابات وبقوائم العملاء وبالمستندات السرية. تمت اللقاءات بينهما خلال التدريبات على المسرحية التي كانت تمثل فيها.

يظل دوجسون صامتاً برهةً، وهو يراقب المناظر الطبيعية من النافذة.

يغمغم أندرسن، ويقول:

- لهذا السبب لم تخبرني أليس أنها تمثل في المسرحية، ولهذا اعتقدتُ أن لديها صديقاً؛ إنه تارديو.

ما تزال ذاكرته تنطوي على زوبعة من العواطف. لم يفكر حتى في سؤال أرملة تارديو عن قسم الشرطة الذي يعمل فيه، ولو أنه طرح السؤال، لأدرك أن مدير زوجته السابق متورط في وفاة أليس، وربما كان باتيستي على قيد الحياة.

- هل كان فرانك على علم بذلك؟
- لماذا تطرح هذا السؤال؟
- لأنه ذهب لمقابلة أرملة تارديو.

يحتسي دوجسون قليلاً من الشاي قبل أن يردّ:

- لا بد أن أليس كانت تكذب عليك بشأن لقاءاتها مع تارديو. المصادفة فقط هي التي جعلت صديقك فرانك يشتبه في شيء ما؛ لكنه أساء فهم ما كان يجري، واعتقد أن أليس كانت تخونك.

يبدو على أندرسن الحزن وهو يبتسم؛ لقد قضى فرانك عمره كله وهو يخفي عنّا حياته الخاصة. ليس من المستغرب إذاً أن يفسر تصرّف أليس على أنه موقف يثير الريبة.

- ذات ليلة، اقتفى فرانك أثر أليس حتى وصل إلى المسرح الذي تمثل فيه، وهناك رأى تارديو قبل اختفائها بوقت قليل.

يلاحظ أندرسن أنه دائماً ما يستخدم التعبيرات اللطيفة عندما يتحدث عن وفاة أليس؛ إلا أنه بعد ثلاث سنوات من إنكاره معرفته بما حدث لها، لا بد من التصديق بأنه أصبح ذا طبيعة مختلفة.

- لكن هذا الأمر لا يفسّر السبب في ذهابه للقاء أرملته!
- في الواقع يا كريستيان، ألا ترى أن هناك سبباً وجيهاً يجعله يهتم بأرملة رجل يُفترض أنه صديق أليس؟!

والآن يدرك أندرسن ما الذي يرمي إليه والد زوجته.

- ربما يعتقد أنني قتلت أليس وتارديو.
- وربما يعتقد أن هذه الفرضية هي الأكثر احتمالاً. كان عليه إذاً أن يُجري تحقيقاً مبسطاً.

يعتقد أندرسن أن فرانك تخلى أخيراً عن هذه الفكرة؛ إلا أن صورة جسده المحشور داخل الصناديق الزجاجية للحديقة حاضرة في ذهنه. حينئذٍ يحاول أن يغلق عينيه.

- من يستطيع أن يعرف الحقيقة كاملة إلا أنت وهو؟

يرد عليه، وهو يشير إلى الغجري الذي ما يزال يقف بجانبه: إنه شارل.

يحدق أندرسن النظر إلى ستريجا، ويسأله:

- أأنت الذي أرسلت إليّ هذه الرسائل النصية حتى أتمكن من استعادة ذاكرتي؟

ينظر كل من دوجسون وستريجا بعضهما إلى بعضاً باندهاش!

يرد عليه الغجري بصوت عالٍ:

- ما الذي تتحدث عنه؟!

- رجل غير معروفة هويته أرسل إلي بعض الرسائل النصية الغريبة لمساعدتي على استعادة ذاكرتي، ولكي أتذكر أن أليس تمثل في المسرحية، وكان يرغب في أن أتذكر أيضاً الذي حدث لها.

يتجعد جبين دوجسون، ويبدو عليه القلق.

- أهو الرجل الذي طلب منك أن تأتي لمقابلتي؟ أهو الذي أعطاك عنواني؟

- نعم.

بدأ دوجسون يتحدث باللغة الرومانية إلى ستريجا الذي غادر السيارة المتنقلة على الفور.

يسأله أندرسن:

- ما الذي حدث؟

- أنا لم أرسل إليك أي رسائل؛ غير أنني كنت أريد ألا تقحم نفسك في هذه القصص، كما أن شارل ستريجا لا يعرف الكتابة.

إذاً، من الذي أرسلها؟!

يسمع أندرسن صوت محرك السيارة التي تجرّ السيارة المتنقلة، وتبدأ السيارة الحركة ببطء.

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- إلى أبعد مسافة ممكنة. أظنه يعمل لحساب فينيول ذلك الرجل الذي أرسل إليك هذه الرسائل. أما تزال تحتفظ بهاتفك؟

- لا، ألقيته بعيداً؛ لكن إذا كنت تعلم أن فينيول هو الذي قتل أليس، فلماذا إذاً عرضت تلك المكافأة منذ ثلاث سنوات؟

يتعكر مزاج الطبيب.

- لكي أجعل فينيول يصدق أنني لا أعرف شيئاً، ولو أنني كنت أتخيل في ذلك الوقت أنك ستخسر المليون والأدلة لما كانت هذه الفكرة وردت على بالي.

يندهش أندرسن!

- أتقول الأدلة؟!

كأن غشاوة اصابت عيني والد زوجته، عندئذ أدرك أندرسن أن دوجسون هو من سرّب المعلومات التي كان ينوي الاحتفاظ بها لنفسه.

- ما قصة الأدلة يا شارل؟

يرد دوجسون على مضض:

- إن أليس جمعت أدلة ضد فينيول، واحتفظت بمئات المستندات على قرص صلب.

- وما الذي يجعلك تعتقد أنّ لدي أي فكرة عن مكان هذه المستندات؟

يتردد دوجسون، وينظر أسفل منه ثم إلى أعلى، ثم يقول أخيراً:

- قبل أسابيع قليلة من اختفائها، قررت أليس أن تخبرك الحقيقة كاملة.

يصرخ أندرسن في وجهه:

- ما الذي تقوله؟!

يبدو عليه الاستغراب!

- كنت على دراية بما حدث. كنت تعرف أنني نسيت كما أنك اخترت عدم إخباري بأي شيء؟

- احتفظ بهدوئك يا كريستيان.

يفور الدم في عروقه، ويبدو رأسه كأنه على وشك الانفجار! ينهض بسرعة من على الكرسي، ويمسك ياقة قميص والد زوجته بقوة ويصرخ في وجهه:

- لا تطلب مني أن أظل هادئاً يا شارل! لمدة ثلاث سنوات وأنا أبحث عن أليس في جميع أنحاء الدولة، ورغم ذلك اعتقدتّ أن من المناسب ألا تخبرني أن الذي قتلها هو مديرها!والآن تأتي لتخبرني بأنها قالت لي كل شيء! لماذا لم تخبرني بأي شيء خلال تلك السنوات الثلاث التي مضت؟! لماذا سمحت لي بالبحث عنها بلا طائل؟! ليس لديك الحق في الاحتفاظ بكل هذا لنفسك!

لم يحاول دوجسون أن يُبعد يديه عنه، كما أنه يحاول أن يمتصّ غضبه بهدوء.

- أنا آسف يا كريستيان. اعتقدت أن هذه الطريقة هي الأفضل، وأنها ستكون لمصلحتك، وأيضاً لكيلا يهتم فينيول بك، وطالما أنه كان مقتنعاً بأن أليس على قيد الحياة فمن غير المحتمل أن يلاحقك.

- لا يحق لك أن تختار لي ما يناسبني، وما لا يناسبني!

تبدو على دودجسون جدية الجرَّاح المسؤول، وهو يتحدث:

- قراري هذا نبع من عمق مشاعري، ومن وحي وضميري. هذا أفضل شيء يمكن أن يفيد الجميع!

يعتصر الألم رأسه. يبذل جهداً كبيراً لكي يتخلى عن ياقة قميص دوجسون والجلوس مرة أخرى.

يصرخ في وجه شارل قائلاً:

- لا يحق لك أن تفعل بي هذا، ليس لديك الحق!

يصمت أندرسن، ثم يجلس مدة طويلة بجوار الرجلين، وكل ما كان يمكن سماعه هو صوت المكابح عندما تتوقف السيارة المتنقلة، وأيضاً صوت المحرك عندما تسير السيارة! فجأة، يفكر أندرسن في صور الحادث التي رآها عند بيرجر؛ كانت هناك مجرفة تستعمل مع كلّ أنواع الأراضي في صندوق السيارة في ذلك المساء. هل ذهب لإخفاء هذه الأدلة الشهيرة؟ لا يتذكر! لكنه يعتقد أنها فكرة سليمة تساعده في وضع تفسير لاختفاء النقود، وربما أخفاهما في مخبأ آمن في المكان نفسه.

- أحتاج إلى استعادة تلك المستندات؛ هذه هي الطريقة الوحيدة لإثبات أنني بريء، ولجعل فينيول يدفع ثمن خطئه.

يسأله دوجسون:

- وما خطتك للقيام بذلك؟

- عن طريق استعادة الذاكرة.

يعترض دوجسون قائلاً:

أنت تحاول استعادة الذاكرة منذ ثلاث سنوات. لا، الأفضل لنا هو أن نترك الدولة ونهاجر.

يفقد أندرسن أعصابه مرة ثانية، ويصرخ في وجهه قائلاً:

- لا يا شارل. سأتصل بالطبيب النفسي الخاص بي من أجل الحصول على الدواء الذي كنت أستخدمه خلال الجلسات، وبعد ذلك..

- هذا جنون!

يرفع أندرسن صوته:

- أنت مدين لي بذلك يا شارل؛ لأنك تخونني منذ ثلاث سنوات!

حدق كل من أندرسن ودوجسون النظر الى بعضهما البعض لفترة طويلة، ثم قال هذا الأخير:

- حسناً، سنفعل ما تريده.

## 55

خمسة وعشرون

ستة وعشرون

سبعة وعشرون

# 56

ها هو فيكتور فورنيي ملقى داخل حوض الاستحمام، وقد انتفخ جلده إلى درجة يتعذر معها التعرف عليه بسبب الماء وسخونة المكان. تحوّل لونه إلى اللون الغامق بين الأسود والأخضر الداكن، ويوجد ثقبان في صدره المنتفخ نتيجة إصابته بطلق ناري من العيار الصغير.

يخرج بيرجر من الحمام، ويسير في ممر على امتداد الطابق الأول إلى أن يصل إلى الدَّرج. تختلط رائحة القيء الحامضة مع الرائحة النفاذة للجسد المتحلل، وأصيب أحد الجنود بالغثيان عندما رأى جثة فورنيي تطفو على الماء الذي أصبح لزجاً ولونه بني بسبب ارتخاء عضلة فتحة الشرج القابضة. يركض الجندي نحو الطابق الأرضي ليتقيأ على بعد خطوتين من الباب الرئيس.

في الطابق الأرضي، يشاهد بيرجر رجال الشرطة من قسم المعمل الجنائي وهم يفحصون كؤوس الشمبانيا الموجودة فوق الطاولة في الصالون، ويوجد على إحدى هذه الكؤوس علامات لمسحوق أحمر اللون يوضع على الشّفاه. لم يكن لدى بيرجر أدنى شك في أنه سيتم العثور على بصمات فاليري رومر، التي ما تزال مختفية حتى الآن! هو على يقين بأن أندرسن قد اختطفها.

وبينما يخرج إلى الشرفة يكتشف مجموعة من الأسلحة، وكميات من الكوكايين مكدسة فوق قطعة قماش مصنوعة من المشمع في غرفة خشبية في الحديقة. يغلق بيرجر عينيه، ويأخذ نفساً عميقاً من الهواء النقي المنعش بعيداً عن الهواء الملوث بسبب جثة فيكتور فورنيي المتعفنة؛ إلا أنه، وهو على وشك العودة إلى الداخل، يرن هاتفه في جيبه؛ إنها ديان، يفتح الخط.

- نعم يا ديان؟

صوتها بعيد جداً؛ ربما وضعت الهاتف على الطاولة، وتتحدث بعيداً عن الميكروفون، بدت كأنها تحصي أعداد شيء ما:

- ثمانية وعشرون، تسعة وعشرون...

## 57

ثلاثون

تضغط ديان بشفتيها، وتنفخ الهواء في فم فاليري مرة أخرى. تشعر بدرجة برودة فمها التي تماثل برودة الجليد، وبأن فمها يفرز مادة تشبه السائل اللّزج الذي يفرزه الكبد. تنفخ ديان الهواء في فم فاليري مرتين:

- حاولي، تنفسي، تنفسي.

واستأنفت محاولاتها لإنعاش قلب الفتاة:

- واحد، اثنان، ثلاثة، كم لبثت من الوقت تُعاود مُحاولة إنعاش الفتاة؟

ترقد فاليري رومر وهي غائبة عن الوعي وسط تجمّع من البول البارد في غرفتها، وما تزال الحقنة التي تسببت في توقف قلبها عالقة في ذراعها. يقف زبائن الفندق في الممرّ، ويحدقون النظر إليها، ولا يعرفون ما الذي يجب عليهم أن يفعلوه! يرتفع صوت بيرجر عبر مكبر الصوت في هاتفها:

- يا ديان، يا ديان، ما الذي يحدث عندك؟!

- وجدتها، يا إريك، وجدت فاليري رومر.

- أين؟

- ستة عشر... سبعة عشر... ثمانية عشر. أنا في مدينة ليل في فندق بالقرب من الطريق السريع المتّجه إلى باريس... اثنتان وعشرون... تلقيت منذ ساعتين،... أربعة وعشرون...رسالة من شخص مجهول مدوّناً فيها العنوان... ثمانية وعشرون... إنها... إنها لا تتنفس...

ثلاثون، تضغط ديان بشفتيها فوق الشفتين الميتتين لفاليري، وتنفخ الهواء في فمها مرة أخرى لعلّه يصل إلى رئتيها.

- ما الذي يحدث عندك؟!

- ثلاثة... بسبب المخدرات... خمسة... تناولت جرعة زائدة. يجب أن تُحذِّر جيريكو، يجب علينا إصدار... تسعة... بلاغ لضبط وإحضار صديقها و... اثنا عشر... اهتم بابنتها.

-أنا مهتم بها بالفعل يا ديان.

- وأندرسن... اثنان وعشرون... هل تم توقيفه في الحي اللاتيني؟

يظل بيرجر صامتاً

- يا إريك؟

تُسمَع خطوات سريعة في بئر السلم. يدخل رجال الإطفاء ورجال الشرطة، تبتعد عن جسدها، وتمسح فمها. يُخرج أحد المسعفين جهاز تنظيم ضربات القلب، ويضع الأقطاب الكهربائية على صدر فاليري العاري. يبدأ هذا الجهاز الصفير ويلوح المسعف بذراعيه.

- لا يقترب أي أحد هنا. يضغط على الزر. يطلق الجهاز موجات كهربائية. يهتز جسد فاليري بقوة، وتصبح مثل الدمية المفككة. يصطحب الشرطي ديان إلى الممرّ. يريد أن يعرف ما الذي حدث، وتستند ديان على جانب الباب لتتمكن من مراقبة فاليري.

- تلقيت رسالة نصية مفادها أنها هنا، هي... أنا... طرقت الباب لكنها لم تفتح، ولهذا كسرت الباب بمطفأة الحريق.

تشير إلى العلبة الحمراء الملقاة على الأرض.

- عندما دخلت وجدتها ملقاة على الأرض، وكانت لا تستطيع التنفس.

- أتعرفين منذ متى أصيبت بالسكتة القلبية؟

تنظر إلى المسعف وهو يتعامل مع جسد بلا حياة. لقد فعلت ما بوسعي كي أتمكن من الوصول إلى مدينة ليل، وكان الفندق على مسافة ساعتين من باريس وربما تزيد، مع مراعاة القيود المفروضة، وكان يمكن لي أن أصل خلال ساعة أو يزيد بقليل في حال استخدام الدراجة النارية.

- منذ متى؟

- لا أعرف.

يصرخ أحد المسعفين:

- لنأخذها بعيداً عن هنا.

وضعوا فاليري على نقالة. يدقّ الهاتف في يدها إلا أنها أغلقت المكالمة مع إريك دون أن تنتبه.

- الخط فصل، ما الذي يحدث؟!

- الإسعاف هنا. سأذهب معهم، وسأتصل بك عندما نصل إلى المستشفى. كيف سارت الأمور مع أندرسن؟

يغمغم إريك:

- لقد هرب منهم.

تستمع إليه بمزيد من الدهشة!

- عثرنا على فورنيي ميتاً.

يسير المسعفون بالنقالة، ويسرعون في الخطى في الممر وبجوارهم ديان إلى أن خرجوا بفاليري رومر من الفندق.

يسألها بيرجر:

- كيف عرفت مكانها؟

تفكر في الرسالة النصية المجهولة التي تلقتها منذ ساعات قليلة.

ترد بصوت جهوري:

- إنه هو. إن أندرسن هو الذي قتل فاليري، وهو الذي اتصل بي لكي أجد جثتها.

## 58

يُخاطبها الطبيب بصوت مُفعم بالرجاء ويقول:

- سيدتي. أطلب منك أن تهدئي.

النظرات متوترة، والأيدي مرتعشة، والأنفاس قصيرة، في غرفة انتظار الحالات التابع لمركز المستشفى الجامعي بمدينة ليل. يراقبها الجميع؛ ديان ومسؤولة وحدة الطب الباطني والممرضتان اللتان أتتا للمساعدة.

- منذ ساعة وأنا أنتظر. أريد أن أراها. لن أغادر طالما أنني لم أرها.

- سيدتي، يجب فتح تحقيق. لا يمكننا أن نسمح لك.

- أيعقل هذا؟! ما أطلبه منك لا يعدّ أمراً معقداً!

تصرخ، فيتقدم الطبيب نحوها، ويشير براحة يده إلى الأرض في بادرة منه لتهدئتها.

- علينا أن نقوم بما يلي: نحتسي القهوة، ونخرج في الهواء الطلق لنتكلم. لا داعي للقلق!

- نحتسي القهوة... ؟! حسناً... ما الذي تقصده بقهوة، وكلام؟!

تضغط على أسنانها وهي تتكلم، ثم تسير خلف الطبيب إلى خارج غرفة الانتظار.

تسير الممرضتان معهما حتى وصلا الى ماكينة القهوة. يضع الطبيب بعض العملات المعدنية فيها.

- سيدتي، لقد بذلنا قصارى جهدنا مع صديقتك؛ حتى لو أن القلب بدأ ينبض من جديد، إلا أن الدماغ أصابه تلف لا يرجى برؤه.

- أنت لا تفهمني. لا بد لي من رؤية جسدها. هي لم تمت بسبب جرعة مخدرات زائدة، أنا متأكدة من أن الأمر يتعلق بجريمة قتل. أحتاج إلى عشرين دقيقة لكي...

- مستحيل يا سيدتي، هذه سياسة المؤسسة: عدم السماح لك...

تضرب ماكينة القهوة ضربة عنيفة. يشحب وجه الطبيب.

- أأنت أصم أم ماذا؟! أنا أتحدث عن عملية اغتيال! في هذه اللحظة تحديداً يوجد سفاح هارب في شوارع باريس، وتأتي أنت لتخبرني عن سياسات مؤسستك الغبية؟!

- ما هذا؟! سيدتي، لنتوقف عن الحديث في هذا الموضوع!

تقترب إحدى الممرضات وهي تشير إليها.

- لا تلمسيني، لأهشِّمنّ وجهك!

- لنهدأ لو سمحتم، لنهدأ جميعاً. ظل الطبيب يكرر كلامه، وهو يدفع مسؤولة وحدة الطب الباطني.

لم تتحرك الممرضتان؛ لكنهما أعربتا عن دعمهما واستعدادهما للانقضاض على ديان، والسيطرة عليها. تبتعد ديان عنهما وهي غاضبة جداً.

- لا داعي للعنف! سأخرج من هنا.

كلكم أغبياء. تبصق على الأرض، وهي تخرج من المستشفى، وعندما خرجت سارت مسافة طويلة دون هدف محدد. تتصل ببيرجر وتخبره بكل ما حدث، والدموع في عينيها.

- لقد ماتت، مع الأسف. قتلها هذا الحقير؛ إنه يرغب في أن أعثر عليها وهي ميته!

- اهدأي. أنتِ فعلت كل ما في وسعِك. أنا الآن على مسافة قريبة من المستشفى، وسأكون هناك بعد لحظات. أين تقفين؟

- لا أعرف الموقع تحديداً؛ لكنني أقف بالقرب من مركز الأبحاث أمام كلية الطب. لم أستطع إنقاذ إيما، ولم أستطع توقيف أندرسن في الوقت المناسب. أنا فشلت في كل شيء.. في كل شيء..

تلاحظ ديان يافطة مكتوباً عليها معمل التشريح.

- من هي إيما؟!

سأعيد الاتصال بك.

- يا ديان، من هي إيما؟

تغلق الخط. إن الجثث التي يتدرب عليها الجراحون في المستقبل مخزنة في هذه المشرحة. بكل تأكيد يوجد في معمل التشريح ممرّ يؤدي إلى هناك. تدخل المبنى الذي يضم مركز الأبحاث، وتسير مع اليافطات

حتى تصل إلى غرفة كبيرة طويلة وباردة تشبه الكنيسة في صباح فصل الشتاء. رائحة الجثث المتعفنة في كل مكان؛ جثث الرجال والنساء تصطفّ فوق عشرات من طاولات التشريح المصنوعة من الخزف، وقد تمت تغطية وجوههم بقماشة بيضاء؛ يبلغ عددهم نحو ثلاثين من دون ملابس صامتين بلا حراك، ويشبهون تماثيل من الحجارة.

يوجد باب خلفي يسمح بالوصول إلى المشرحة. تحاول فتحه؛ لكنه مغلق بإحكام! تضغط عليه بعصبية، فيُسمع صدى حركة يدها على مقبض الباب المعدني في جميع أنحاء الغرفة، وبينما تسير في أحد الممرات الذي يقودها إلى خارج الغرفة، تلاحظ وجود خصلة شعر شقراء على إحدى الجثث. تضع يدها على القماشة البيضاء التي تغطى وجهها وترفعها، وإذا عيون باهتة وميتة لجثة غير معروفة تحدق النظر إليها. تخطر على بالها فكرة مجنونة: ماذا لو كانت جثة فاليري موجودة هنا؟! ترفع الأغطية من على وجوه الجثث الواحدة تلو الأخرى.

- لماذا تريد أن أعثر عليها أيها الوغد؟! لماذا؟!

يدخل رجل يرتدي معطفاً أبيض.

- ماذا تفعلين هنا؟! هذا المكان مخصص للطلاب.

- تُخرج ديان مسدساً من تحت سترتها وتصوبه نحوه.

- أغلق فمك. اخرج من هنا أيها الأحمق.

يختفي في غرفة خلع الملابس وهو خائف. تسير في ممر آخر، وتستمر في رفع الأغطية؛ رجال ونساء وشباب وكبار في السن، ومن ذوي البشرة السوداء والبيضاء؛ لكن فاليري غير موجودة!

- أنت قذر يا أندرسن! أتريد مني أن أدفع الثمن لأنني كشفت حقيقتك. أليس كذلك؟! أتحاول أن تكون أقوى مني. أليس كذلك؟!

تصل ديان إلى نهاية الممر ثم تستدير. تلقي كل الأغطية على الأرض. بدا أنها منزعجة إلى أقصى حد. تستند على الباب الخلفي وتبدأ البكاء. ظلت على هذا الحال لدقائق طويلة، وهي غير قادرة على النهوض حتى دخل بيرجر معمل التشريح.

يقترب منها ببطء..

- لقد ربح! (تردّ عليه وهي تحدق النظر إليه من بعيد) أقتل فتاة أخرى؟

تشعر بالوحدة وبالإرهاق وبالهزيمة. يجلس بجانبها، ويأخذ المسدس منها.

- يسألها بإلحاح: من تكون إيما؟

تستنشق بصوت عالٍ، ثم تمسح المخاط الخارج من أنفها بكمها.

- تسأل عن إيما؟ نعم، إيما فتاة رائعة، دراستها في مجال الطب، وتعمل دائماً لمصلحة الصليب الأحمر. كانت تتمنى أن تكون أماً لثلاثة أطفال، أما إن كانت عقيمة فستتبنى الأطفال، تركب الخيل يوم الأحد مع والديها إن كانت من دون عمل، وكنت أريد أن أخبرهما أنني عثرت عليها.

تغمض عينيها:

- كنت أبحث عنها في الليلة التي طاردت فيها هنكر. علمتُ قبل أن يقتلها أنه عذبها واعتدى عليها طيلة يومين بدرجة تفوق إهانته للضحايا الأخريات، وذلك لكي يتثبت لي أنه هو القاتل المحترف!

تضع وجهها بين يديها، وتبكي بكاء مرّاً. يربت إريك على كتفيها، ويحاول أن يخفف عنها آلامها، ويقول:

- سنعثر على أندرسن، وسنمنعه من إيذاء أي شخص آخر.

# 59

الأمطار الغزيرة المصحوبة بالبرَد جعلت السماء رمادية فوق رأس ديان على امتداد الطريق منذ خروجها من مدينة ليل حتى وصلت إلى ضواحي باريس. تصل إلى بيت بيرجر عند الساعة الثامنة مساء. لقد بلّل المطر ملابسها بالكامل. أوقفت دراجتها النارية أمام بيته، وانتظرت في الردهة قرابة عشر دقائق إلى أن وصل. سمح لها بالدخول، وكانت ترتجف، وبمجرد دخولها إلى البيت نصحها أن تذهب لتستحم حتى يتدفأ جسدها، وإذ بها تقف تحت الدش، وقطرات الماء الساخن تجري على جسدها تمسح الأوساخ والعفرات عن جسدها وشعرها إلا أن غضبها آخذٌ في الاستعار، لا ينمحي أثره عن ذكرياتها في مدينة ليل، وجوه وأجساد ضحايا محرك الدمى الذين عذبهم، والوشم الظاهر خلف جفون هؤلاء الضحايا، يضاف إلى ذلك رائحة فم فاليري المُنتنة عندما كانت تنفخ الهواء فيه!

تنتبه من غفوتها عندما يطرق بيرجر الباب؛ ليعطيها بعض الملابس الجافة.

تشكره ثم تغلق محبس المياه.

بعد مُضي بضع دقائق خرجت ديان من الحمام، تلف جسدها بفوطة تحاول ارتداء الملابس الملقاة جانباً؛ لكن الثوب المكون من قطعتين كان ضيقاً جداً.

ربما زوجة بيرجر أنحف منها بكثير. يتصل بيرجر، وهو في المطبخ، بوالدة صديقة كلوي التي كانت وصديقاتها مُنخرطات في حفلةِ نسائية عند إحداهن؛ لكنها لم تنتبه إلى أن والدها لم يتصل بها. يوجد كأسان

من النبيذ على المنضدة. تأخذ ديان إحداهما، وتحتسي منها بعض الشيء، وتنتظر بيرجر لإنهاء مكالمته. يبدو أن طعم النبيذ غير طيب!

وما إن انتهت المكالمة حتى يُخرج بيرجر مفتاحاً من علبة القهوة المصنوعة من الحديد، ويستخدم المفتاح لفتح الخزانة المصفحة في الصالون، ويضع فيها مسدسه الرسمي، الذي تسلمه أثناء عمله في الشرطة. تلاحظ ديان داخل الخزانة وجود فوهة بندقيتين طويلتين من طراز براوننج ماكسوس نصف آلية، وبينيلي مونتيفيلترو عيار ماجنوم20، كما أنها تلاحظ وجود منظار بندقية قنص، وليس سلاح صيد، وبندقية قناص.

يغلق بيرجر الباب المصفح. يحتسي شيئاً من النبيذ، ويحدق النظر بعيداً..

- ما الذي تفكر فيه؟

- لا شيء؛ غير أنني أحلق بذكرياتي بعيداً عندما رأيتك في تلك الملابس.

- أتتذكر زوجتك؟

- نعم.

- يبدو أنها ضيقة جداً بالنسبة إلي، ولا تناسبني، وتثير السخرية.

يضحك بهدوء..

- مطلقاً. أراكِ جميلة وأنت ترتدينها.

تحتسي ديان شيئاً من النبيذ، ويبدو على وجهها أن النبيذ أعجبها.

- يقول جيريكو، اشترى أندرسن تذكرة قطار متجه إلى مدينة نيس، وأنه أرسل تعزيزات أمنية إلى المحطة.

- لا فائدة من ذلك؛ ربما هي خدعة. إن أندرسن يختبئ في مكان ليس بعيداً عن باريس.

جلس ديان وبيرجر بالقربِ من بعضهما، وفجأة خلال بضع سنتيمترات قصيرة ومدفوعين برغبةٍ عارمة، طفقا يُقبلان بعضهما.

أضاف بيرجر وهو يربت على كتفيها:

- يثير استغرابي هذا الأمر!

يقشعرّ جسدها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

ترد عليه وهي ترتعد:

- من يدري ما الذي قد يحدث غداً؟!

## 60

**الساعة السادسة وأربعون دقيقة صباحاً.**

تحدّق ديان النظر إلى عقارب الساعة الخضراء في المنبه، ومن وقت إلى آخر تمد يدها إلى اللمبات الكهربائية الصغيرة التي تؤذي أطراف أصابعها لشدة وهجها. لم يحدث لها أن نامت من دون أي إضاءة منذ سنوات، ورغم ذلك عندما استيقظت لم تشعر بأي ضغط نفسي أو أي قلق. هناك في الظلام يغط إريك في نوم عميق. يعلو صدره ويهبط كلما تنفس نفساً عميقاً، وكأن الجدران تهتز!

تنهض وترتدي ملابسها بهدوء، وتتجه ناحية الباب. كانت إضاءة الغرفة الضعيفة تنبعث من عقارب الساعة. نزلت إلى الطابق السفلي؛ حيث يوجد المطبخ. أعدت كوباً من القهوة ومعه الخبز المحمص. وبعد وقت قصير، يرن المنبه في الطابق العلوي. ينزل إريك. يحييان بعضهما بعضاً. تغير كل شيء الليلة الماضية. ربما كان ذلك بسبب الموت الذي يحوم حولهما، أو ربما بسبب تلك المخطوطة التي شاهداها في أول لقاء

جمعهما في الحديقة، إنها على يقين بأن السبب يعود إلى أول مرة التقيا فيها منذ فترة طويلة. تشعر كأنها في منزلها بحماية رجل.

يحدق النظر إليها..

- كنت أخشى أن تغادري.

- لماذا؟

- مجرد انطباع، أو شيء من هذا القبيل.

تحدّثا فترةً طويلة. لم يكن الحديث يدور حول قضية أندرسن، ولكن عن أشياء نقولها بعضنا لبعض في أي وقت من أوقات الليل أو النهار. ها هي الحقيقة تلوح في الأفق من جديد. عادا إلى الحديث عن المحامي.

يحتسي بيرجر القهوة على جرعتين، ويقول:

- في بعض الأحيان أعتقد أن أندرسن يتصرف مثل المهرج، وأحياناً أخرى أعتقد أنه ينسي فعلاً أنه يقتل، وأنه ينسى مراراً وتكراراً!

إذا كان إريك على صواب، فإن ديان تحسد أندرسن على شيء ما؛ إذ إنها أيضاً تود أن تكون لديها القدرة على محو أحلك لحظات حياتها.

والآن يسأل بيرجر:

- ما الذي يجب علينا أن نفعله؟

- أتتكلم عن أندرسن؟

- نعم.

- يجب أن تتحدث إلى طبيبه النفسي وتسأله، إذا كنت تتمتع بنصف ذاكرة أندرسن! فمن الذي بإمكانك أن تتذكره. حاول مقابلته لطلب المساعدة منه!

- أنت؟ لا نحن؟

- لقد أزاحني جيريكو من ملف التحقيق، كما أنه بعد الذي حدث يوم أمس في مدينة ليل أحتاج إلى أن أستريح قليلاً.

هكذا تغير ديان من لهجتها.

ينظر إليها إريك باندهاش؛ لكنه لم يعقِّب على كلامها! نهض ليستحم، وبعد خمس عشرة دقيقة يرتدي ملابسه ويستعد للخروج.

- يجب أن أعيد كلوي للمنزل.

يضع سلسلة المفاتيح على الطاولة:

- تفضلي هذا المفتاح الإضافي للشقة.

- منذ اليوم الأول وأنت لا تضيع الوقت مع النساء.

يحييها ويسلم عليها، ثم يقول:

- أنا أعرف ما الذي أرغب في فعله. سأتصل بك إذا كان لدي أي معلومة جديدة.

تنظر إليه من نافذة الغرفة المفتوحة وهو يستقل السيارة، ويبتعد حتى يختفي في نهاية الشارع. تشعر بقشعريرة تدبّ في جسدها في تلك الأجواء الصباحية الباردة، التي تستمد نضارتها من تلك الليالي الصافية. ترتدي ملابسها، وتغادر المنزل أيضاً.

تذهب إلى حيث يوجد صندوق صغير استأجرته في الضواحي. يوجد أيضاً صندوق بلاستيكي كبير لونه أسود لا يلفت الانتباه أسفل كومة من الصناديق والخردة، في داخله مكونات بندقية قنص بمنظار عيار 260، كما يوجد مدفع مزوّد بمبرد ومكابح للفوهة ومقبض يناسب راحة اليد قابل للتعديل، بمؤخرة قابلة للطي، ومنظار قناص عيار 40مم مزود بإمكانية لتكبير الهدف بنسبة عشرة أضعاف. أثناء التدريب تمكنت من إطلاق جميع الطلقات الخمس الموجودة في الخزنة صوب هدف قطره

30 سم على بعد أكثر من 100م. لقد اشترت هذا السلاح بمبلغ بسيط من تاجر أسلحة في حي كلو-لازار التابع لمنطقة ستان.

تجمع عدداً من الطلقات من البندقية، وتحدق النظر إليها بمزيد من الخوف والذهول؛ بندقية قنص بمنظار تعني أن القوة ترمز إلى هيبة الملوك، ذلك هو شعار لويس الرابع عشر المنقوش على المدفع، ولهذا عندما كانت تعمل في قسم الشرطة، كان يتحتم عليها استخدام المسدس الرسمي الذي تسلمته من الشرطة في منع المجرمين من ارتكاب أعمال عنف، لكنها لم تضطر أبداً إلى الضغط على الزناد لقتل رجل بدم بارد.

نعم، هذه بندقية قنص بمنظار؛ إنها مقتنعة بأن كريستيان أندرسن مجنون، وأن حياته ستنتهي في مصحة عقلية إذا تم القبض عليه حياً. تعرف ديان أن لديه إمكانية الهروب منها بسهولة أكبر من إمكانية هروبه من السجن، ولذلك هي تأمل، عندما يحين الوقت المناسب، أن تطلق رصاصة على رأس المحامي.

## 61

لا بد أن أتفحصها. لم أتناولها أبداً. هكذا يفكر أندرسن وهو يهرس البطاطس البنية التي تركها ستريجا له في ثلاجة السيارة المتنقلة، وما إن تذوقها بطرف لسانه حتى ألقى بها في سلة المهملات، وقد أبدى استياءه منها لأنها غير صالحة للأكل!

من موقع إلى آخر في هذا المكان الذي يشبه السجن، يتنقل من دون هدف محدد وهو مشغول البال. لا يبدو أن أموره تسير على ما يرام. تظهر صورته في نشرات الأخبار باستمرار؛ حيث تم اتهامه بقتل ثمانية نساء، بالإضافة إلى أليس! يريد دوجسون منه أن يحتفظ بهدوئه في

سيارة ستريجا المتنقلة، وألا يخرج تحت أي ذريعة؛ لكن انعدام الحركة يكاد يقتله على نار هادئة!

يظل خلف ستائر النافذة يراقب ما يدور في الخارج. يجلس الباعة الجائلون على كراسي بلاستيكية خضراء. ها هي المأدبة التي يقدم فيها الشواء. يرفع جوني هاليداي مؤشر الراديو إلى أعلى درجة ليسمع أناشيد الحمقى من خلال مكبرات صوت راديو السيارة.

تبًا لدوجسون وسُحقًا لنصائحهِ. لم يستطع أندرسن الانتظار أكثر من ذلك دون أن يفعل أي شيء. يضع القبعة على رأسه ويغادر.

يسير فوق الأرض المليئة بالحصى حتى وصل إلى أطراف المخيم. يشاهد المناظر الطبيعية؛ طرق الإسفلت والمناطق الزراعية على امتداد البصر... لا وجود لجيران فضوليين، ولا دوريات للشرطة. يبدو الطريق خالياً من البشر، ويبعث على الحزن إلى درجة أن الدقائق العشر التي قضاها في السير بدت كأنها نزهة مفروضة عليه في فناء أحد السجون!

عاد إلى السيارة المتنقلة، ثم يلاحظ امرأة شقراء تسير بهدوء الى جوار العربات في أرض الباعة الجائلين. للوهلة الأولى يتساءل ما إذا كانت هي أليس، ويفكر في ملاحقتها.

يضع القط البري المخطط باللون الأسود مخالبه على كتفه:

- ماذا تفعل بالخارج؟

إنه ستريجا.

- أتنفس الهواء النقي.

- قلنا لك أن تختبئ، ولا تتحرك.

يدفعه الغجري إلى داخل السيارة المتنقلة.

يعترض أندرسن بمجرد أن دخل إلى السيارة المتنقلة، ويقول:

- سأصاب بالجنون إذا بقيت محبوساً هنا طوال اليوم!

يخرج الغجري زجاجتي بيرة باردة من الثلاجة ويعطيه زجاجة واحدة.

- استرخ من فضلك. أرسلت الرسالة إلى طبيبك النفسي كما طلبت، فأخبرنا أنه سيأتي للاجتماع بنا.

## 62

ينتظر البروفيسور هنري هاليزيدوت على المقعد الذي أعلمه به عبر الهاتف صديق أندرسن. يتجنب النظر إلى حقيبته الجلدية التي وضعها بجانبه. يوجد في داخلها محاقن وأنبوب أكسجين صغير وزجاجة زرقاء فيها دواء كان قد أعده لمصلحة مختبر أجنبي كبير، ويتساءل عما إذا كانت تجربة هذا الدواء على السفاح ستؤثر في النتائج؛ خاصة إذا فقد التمويل اللازم لصناعته! ينظر إلى ساعته لمعرفة الوقت، ثم يحك أذنه للمرة العاشرة، ويصدر الميكروفون العالق في أذنه صوتاً ضعيفاً.

يأمره جيريكو بأن يتوقف على الفور عن فعل أي شيء.

يوافق بيرجر على هذا الرأي، وهو جالس بجوار جيريكو في الشاحنة التي لا تحمل أي علامات. يقترب موعد الاجتماع الذي حدده أندرسن. ربما هو فعلاً يراقب الطبيب النفسي.

يستغل اللحظات الأخيرة قبل انطلاق العاصفة للاتصال برقم ديان مرة ثانية، ولأنها لا ترد على اتصالاته منذ أن غادرت هذا الصباح، بدأ يشعر بالقلق. ينتظر صفير الرد التلقائي للهاتف، ثم يكرّر الرسالة نفسها التي أرسلها سابقاً:

- أنا هنا. أنا إريك. ما زلت في حدائق منطقة فانسان، أو بالقرب منها. سيصل أندرسن في أي لحظة. مجال الرؤية واضح، وسنراه من على مسافة تصل إلى مئة متر. يضع جيريكو قناصون على الأسطح تحسباً لذلك الأمر. لن يهرب منا. اتصلي بي بمجرد سماعكِ الرسالة؛ لكن لا تنزعجي لهذ الأمر، إذا اكتشف مكانك فقد يهرب. انتظري خبراً جديداً.

كان يود أن يضيف شيئاً يبث في قلبها الطمأنينة؛ لكن هذا الأسلوب غير وارد مع ثيو الذي يجلس بجانبه.

يرد ثيو عليه:

- لو كنت مكانك لوضعت حداً بيني وبينها. إن كيليرمان قنبلة موقوتة؛ فهي لا تتحمل ضغوطاً متزايدة. تتراكم المواقف المتوترة وينتهي بها الأمر إلى الانفجار.

يلتزم بيرجر الصمت، وهو يفكر في جميع الأحداث التي أثّرت في مجريات التحقيق. إن ديان تُمثل طاقة عشوائية حياتيًا كما أنها صعبة المراس؛ على العكس تماماً من زوجته، هذه الصفات هي التي لفتت نظره إليها، ولهذا إن اختيار شخص مختلف عنك تماماً لا يعدّ خيانة للماضي.

- ستثور حفيظتها إذا تم العثور على سيدة أخرى شقراء مقتولة. سترى كما حدث منذ ثلاث سنوات، لقد انهارت لأنها كانت تعاني من مشاكل عاطفية. يجب أن تقرأ تقرير الطب النفسي عنها.

يحك هاليزيدوت أذنه مرة أخرى، ويصرخ جيريكو في وجهه من جديد:

- أيعقل هذا؟! أتمنى ألا تفسد الأمور بسبب هذا المسنّ الغبي غريب الأطوار! إن أندرسن ذكي، وإذا شعر بأيّ شيء فلن يأتي.

ويعتقد بيرجر أن ديان قالت شيئاً من هذا القبيل ليلة أمس. إن أندرسن ذكي، وبالتأكيد لن يستقل القطار للذهاب إلى مدينة نيس. يبدو أن هذا الرأي صحيح. ماذا لو كان رأيها فعلاً صحيحاً؟!ماذا لو... لا، هي لن تستطيع فعل ذلك، لن تستطيع مواصلة العمل بمفردها؛ خاصة بعد معاناتها الليلة الماضية في مدينة ليل.

يتصل برقم البروفسور من هاتفه الشخصي؛ يشاهده بالمنظار وهو يرد:

- أنا بيرجر. استمع إليّ جيداً قبل أن ترد. يجلس بجانبه جيريكو، يبدو عليه الغضب، وهو يرفع قبعته.

- ماذا تفعل يا إريك؟ إن أندرسن سيكون هنا في أي لحظة.

- أتحقق من فكرة. يستغرق الأمر دقيقتين. أيها البروفسور تظاهر بأنك تتحدث مع حفيدتك، اتفقنا؟ لا تقل اسم أندرسن، أو أي شيء قد يدفعه إلى الاعتقاد بأنك تتحدث معي، أتفهمني؟

- أجل يا عزيزتي؟

- عادة ما يتم علاج أندرسن في عيادتك، أليس كذلك؟

- نعم، سأكون هناك من أجل تناول العشاء.

- إذا اعتقد أن هذا المكان يخضع للمراقبة، فهل هناك مكان آخر يمكن أن يحصل منه على الدواء؟

- لا... لا أدري أين... يمكنه الحصول عليه؟

- هل أنت واثق؟

يتردد البروفسور. يتحدث جيريكو في الميكروفون المتصل بسماعة طبيب الأمراض العصبية.

- أيها الشيخ، إذا أخفيت أي شيء عنا فسوف ألغي عضويتك في نقابة الأطباء.

يتنهد هاليزيدوت..

- يوجد مستشفى آخر؛ لكننا لم نذهب إلى هناك منذ ثلاث سنوات.

- لماذا لم تخبرنا بهذا من قبل؟! من أي مكان يستطيع أن يحصل على الدواء؟

- من المستشفى.

ينفجر جيريكو من الغضب.

- تقصد مستشفى بيتي سالبترير؟ أيعقل هذا؟! أنت عالجته بالفعل هناك، ولم تفكر في إبلاغنا بذلك!

- لا، لم يأت إلى المستشفى... أريد أن أقول، إنه يعرف أنني أحتفظ بكمية من... الكرواسون و...

يصرخ جيريكو في وجهه ويقول:

- لا تتحدث عن هذه التفاهات، هل تؤكد أن هناك أدوية في مكتبك في مستشفى بيتي سالبترير، وأنه يعرف ذلك؟!

- أنا أعمل هناك عدة أيام في الأسبوع بالإضافة إلى عملي في عيادتي... أعتذر، لم أتخيل أنه سيذهب إلى هناك!

يغلق بيرجر الهاتف، وينأى بنفسه عن محور التحقيقات التي يجريها جيريكو، وهو ينادي على رجاله بصوت عالٍ في جهاز الراديو الخاص به:

- ليذهب فريق منكم إلى مستشفى بيتي سالبترير على الفور. إن أندرسن يسخر منا؛ فهو يعلم أننا نراقب طبيبه، ضعوا هذا الطبيب الأحمق قيد الحبس الاحتياطي.

يتصل بيرجر بسرعة بديان. في هذه المرة يستمع مباشرة إلى الرد التلقائي للهاتف دون أن يُصدر أي رنين. لقد أغلقت هاتفها، هل تعلم أن أندرسن كان يخدعنا؟

هل تنتظر المحامي في المستشفى؟

## 63

تبلغ مساحة مستشفى بيتي سالبترير ثلاثين هكتاراً تقريباً، ويقع بين الجسر العلوي للمترو وخطوط السكك الحديد التابعة لمحطة أوسترليتز؛ يبدو المستشفى كبيراً جداً إلى درجة أنه يعدّ تقريباً مدينة داخل مدينة، ويرجع سبب تسميته بهذا الاسم الى اثنين من أقدم المباني؛ الأول مبنى نوتردام دو لا بيتي، الذي أنشأته ماري دو ميديسيس في عام1612، والثاني مبنى سالبترير القديم الذي تم إعداده لتخزين المواد الكيميائية القابلة للاشتعال. ولعدة قرون تم استخدام هذا المكان البعيد عن الأنظار مأوى لكل ما تعدّه مدينة باريس أشياء هامشية؛ كالمجانين والمتسولين والمعاقين إعاقة تامة، وأصحاب الأعمال المشبوهة والزنادقة والسحرة أو حتى اللاتي يتم إجهاضهن. وفي هذه الأيام، لحسن الحظ، أصبح هذا المكان مجرد مستشفى عادي.

يدخل أندرسن بهدوء إلى المبنى الذي يقع فيه مكتب هاليزيدوت، لا أحد يوقفه، أو يحاول التّحقق من هويته الشخصية، ولأنه يرتدي المعطف القديم، الذي قدمه له دوجسون، ولأنه يسير بسرعة، ظن

الجميع أنه طبيب، وبمجرد أن وقف أمام المكتب، يحاول أن يفتح القفل باستخدام أدوات مخصصة لفتح الأقفال من إنتاج شركة

بومب، أعطاه إياها ستريجا، يحاول أن يستخدم المفتاح المعدل بكود رقم 999 ذي الشفرات والثقوب التي تسمح له بالدخول إلى أقصى عمق القفل. يتذكر أن ستريجا أوضح له أن عشرة مفاتيح مختلفة من إنتاج شركة بومب تكفي لفتح أكثر من نصف الأقفال المتوافرة في السوق حالياً، وكل ما عليك فعله هو إدخال المفتاح في القفل، والنقر عليه بأداة ثقيلة أثناء تدوير المقبض.

ولأنه لا يريد أن يلفت الأنظار إليه قدر الإمكان، فقد استعار أيضاً من والد زوجته مطرقة مطاطية يستعملها كأطباء العظام، هذه المطرقة مغطاة بطبقة من المطاط، وبالتالي لا ينتج مع استخدامها ضجيج عالٍ، وبعد عدة محاولات فاشلة، ينجح أحد المفاتيح في الإفلات من سنون القفل، وهكذا استطاع أندرسن فتح باب المكتب، كما كان الحال في العيادة حيث كان يتابع جلساته العلاجية. يوجد هنا جهاز مشغل أسطوانات وفراشات زرقاء في كل مكان. يكتشف على الفور الخزانة الزجاجية التي يضع فيها هاليزيدوت الأدوية، ويعثر بسهولة على الدواء الذي يبحث عنه، ويمسك بعشرات الزجاجات الصغيرة زرقاء اللون، ثم يلتقط هاتفه، ويتصل بدوجسون بيد واحدة.

- أنهيت كل المطلوب. كيف هو الحال مع رجال الشرطة؟

- يجب أن نغادر بسرعة. إنهم يفتشون المخيم. أعتقد أنهم فهموا كل شيء.

- اطلب من ستريجا أن يشغل محرك السيارة، فأنا...

يشعر بضربة قوية على رأسه، ويسقط على وجهه. لم يفقد وعيه تماماً، فيزحف وينام على ظهره. يقف أمامه رجل طويل جمع شعر رأسه إلى أعلى، ويرتدي معطفاً طبياً، ويمسك إحدى يديه المغطاة بمادة اللاتكس المطاطية بمسدس كبير كاتم الصوت.

يضع الزجاجة على المنضدة ويسحب جرعة كبيرة من الدواء بالحقنة، ويلقي بها في وجهه.

- سأحقنك بهذا.

- يوجد الكثير جداً...

يلوّح الرجل بمسدسه.

- إما أن تموت من الألم أو تحت تأثير التخدير. اختر الطريقة التي تفضلها.

يطوي أندرسن كمّ سترته ويفكر في طريقة للهروب. لا يوجد معه سلاح. ممرات المستشفى لا يوجد فيها أحد، ما يزال ستريجا في السيارة، ولن يأتي أحد لمساعدته.

- أسرع.

على الرغم من حركته المهتزّة، تمكن من إدخال الإبرة في الوريد.

- أريد أوكسجيناً، خذ الزجاجة.

ينهض بصعوبة، ويذهب لإحضار الزجاجة الكبيرة من داخل العيادة.

- قفْ، وضع وجهك في مقابل الحائط.

يتكئ أندرسن على الفاصل المعدني. يجبره الرجل على توصيل أنبوب وقناع للتنفس بالزجاجة، ثم استنشاق الأكسجين. بسرعة ترتفع حرارته، وكان الدواء يحترق داخل أوردته. يتواصل الرجل غير المعروف هاتفياً مع شخص ما، وهو ما يزال يحتجزه تحت تهديد السلاح.

- الأمور طيبة. أنا أحتجزه، أعطيته الدواء، ثلاث جرعات.

ينحني الرجل إلى مستواه وهو جالس:

- اسمع يا أندرسن، هناك شخص ما يريد التحدث معك.

يضع الرجل الهاتف على أذنه والمسدس في قلبه.

يسمع صوتاً مألوفاً إليه: مرحباً يا كريستيان، هروبك لن يدوم وقتاً طويلاً.

ترتفع درجة مكبر الصوت إلى أقصى حد، وطبلة أذنه معرضة للانفجار.

- أنت فينيول ... أيها الحقير... أنت الذي قتلت أَلِيس... ستدفع الثمن ...

يضحك المحامي المتخصص في القانون التجاري.

- لا أعتقد ذلك يا كريستيان. الشخص الذي سيموت هو أنت، إلا إذا توصلنا إلى اتفاق معين. لقد تم حقنك بكمية كبيرة من الدواء المخصص لعلاج ضعف ذاكرتك. هل قرأت ما هو مدون في النشرة الداخلية للدواء في حالة تناول جرعة زائدة؟ أنا قرأته: شعور بالهلوسة، ووساوس وأفكار مشوشة، وحالة من الاضطراب الشديد. من الأفضل أن تخبرني عن الذي تشعر به الآن قبل أن أعطي الأوامر بإلقائك من النافذة، فإذا تم العثور على رأسك مقسّماً إلى أربعة أجزاء، فلن يسأل أحد عما يوجد في أوردتك، أليس كذلك؟

بدأت تتشكل الألوان المتناغمة على أطراف الأشياء، وعلى أطراف أصابعه. يتصبب أندرسن عرقاً، ولن يتحمل لفترة طويلة.

- أنا لا أعرف أي شيء يا فينيول!

حركة جفون العين تتباطأ.

- أليس سرقت مني بعض المستندات المهمة.

- أين هي يا كريستيان؟ يا كريستيان؟

يضع الرجل، الذي يحمل المسدس، الهاتف جانباً، ويضربه على أصابعه، ولأنه يعتقد أن ذلك غير كاف، يصفعه بقوة على وجهه. يكاد أندرسن لا يشعر بالألم.

يضع الرحل إصبع سبابته أمام عينيه، ويقول له: حرك عينيك مع حركة الأصبع.

لا يوجد رد فعل من أندرسن! يقسِم الرجل المأجور ويمسك بالهاتف المحمول.

- يا سيدي، لا يستطيع أن يتكلم. سيموت حالاً.

- ما تقوله مزعج جداً، لم أكن أعتقد أن مفعول الدواء بهذه السرعة -مع الأسف- أتعرف ما الذي يجب عليك القيام به الآن؟ أسرع. ستأتي الشرطة حالاً.

يغلق الرجل الهاتف.

يركل الرجل أندرسن في ساقيه. عندما تأكد له عدم وجود رد فعل منه، يقترب منه، ويحقنه بالإبرة في يده. لم يتأثر أندرسن، ولم تعد أعصابه تنقل إشارات الألم؛ فكل شيء يلمع من حوله.

هناك صوت غريب!

في البداية كان الصوت ضعيفاً يشبه صوت احتكاك القماش بالورق، ترتفع حدة الصوت إلى أن تحول إلى ضجيج متواصل! الصوت يأتي من الجدران، وليس من الإطارات التي تتحرك وتهتز بسبب أجنحة عشرات الفراشات الزرقاء التي تحاول الإفلات من هذه الاطارات، وقد ينتهي الأمر بخلاصها.

أَأصيب بالجنون أم أنه يحلم؟! نعم إنه يحلم.

يصرخ الرجل المأجور في وجهه، ويقول: ابتعد عن طريقي.

يفتح القاتل إحدى نوافذ المكتب عن آخرها، ويجلس القرفصاء ليرفعه من على الأرض. يحاول أن يجعله واقفاً على قدميه. يضع إحدى ذراعيه حول خصره لتحريكه إلى الأمام؛ لكنه لم ينتبه إلى أنه بسبب وزنه الزائد خرجت الحقنة من راحة يده، وأمسكها مثل الخنجر، وما إن غرس أندرسن الحقنة بقوة في عين الرجل اليسرى حتى نزعها على الفور، وابتعد، وهو يصرخ من شدة الألم.

تحولت الصرخة إلى صفير ضعيف. بدأ جلده يتشقق، وظهرت قشور سوداء على وجهه، وبدا على أندرسن الشعور بالخوف؛ إلا أنه أخذ أسطوانة الأكسجين، وضربه على رأسه، فسقط مغشياً عليه.

بدت الأرض كأنها تتحرك. جلس أندرسن، ثم زحف على الأرض حتى وصل إلى هاتفه بالقرب من حقيبة الدواء، وما إن أمسكه بيده حتى أغمض عينيه. يشعر بالغرفة كأنها تدور من حوله، وكأنه قد فقد وعيه. يسمع صوتاً حاداً ينادي عليه:

- أسرع. يجب أن نغادر.

وما إن يفتح أندرسن عينيه، حتى يجد فتاة صغيرة شقراء ترتدي فستاناً لونه خليط من البياض والزرقة تأخذ بيده.

- من أنتِ؟!

- أنا أليس.

- لا، أنت لست أِليس. لقد ماتت أليس.

- إذاً اسمي سيليا. اتبعني.

تجذبه نحو الممر. يجب عليه أن يستند على الحاجر المعدني لكيلا يسقط، فالأرض غير مستوية. لقد تمت زراعتها بالأعشاب بدلاً من نبات اللينو أثناء وجوده في عيادة هاليزيدوت الذي يشبه الغراب. يتقدم بحذر وهو يستند على الأعمدة المثبتة على الجدران. تأخذه الفتاة الصغيرة إلى غرفة في نهاية الممر.

- من هنا.

الغرفة عبارة عن مكان لتخزين أي شيء؛ كطيور الفلامنجو الوردية اللون، التي تقف على ساق واحدة، وتُصدر أصواتاً معينة. وبينما يدفعها أندرسن عند دخوله ترجع إلى الوراء، وهي تصرخ بصوت عال.

- يجلس القرفصاء وهو يقول لها: اصمتي.

- احترس، الأشرار قادمون.

يرى من خلال فتحة بين الباب والحائط ثلاثة أشخاص من رجال فينيول وهم يمرون، الثاني والخامس والسابع المقرب منه. إنهم يركضون نحو مكتب البروفسور.

تهمس الفتاة الشقراء الصغيرة في أذنه:

- الملكة هي التي أرسلتهم. يجب ألا يعثروا علينا.

تنظر من خلال ثقب الباب.

- لنخرج عن طريق السلّم.

ينزلان طابقاً واحداً؛ إلا أن المسافة التي قطعاها للنزول كانت طويلة وصعبة جداً؛ لأن درجات السلّم كانت متهالكة وغير مستوية الارتفاع. يسمعان ثرثرة غير عادية..

- الشرطة! لندخل هناك.

ينتقلان إلى قسم آخر من المستشفى، ويتجنبان الانعطاف يميناً؛ لأن جزءاً من الممر أصبح غارقاً بدموع المرضى الغزيرة، وتسبح فيه الفئران.

في داخل القسم.

تأخذه الفتاة الصغيرة إلى غرفة توجد فيها امرأة شقراء ترتدي معطفاً كبيراً مبطناً بالفراء.

تسأله سيليا:

- أهذه أليس؟

- لا، ليست أليس أيضاً.

- يا له من لغز محير، من تكون أليس إذاً؟!

- إنها زوجتي.

- أحقاً ما تقول؟ صفها لي.

- إنها تشبهها إلى حد ما؛ لكنها لا تشبهها، هي دون ذلك... نعم هي تشبه النعجة إلى حد ما.

- أي جزء من النعجة يشبه أليس كثيراً، وأي جزء منها أقل شبهاً؟ يجب أن أرسم لك نعجة لكي تتعرف عليها.

- نعم، ارسمي لي نعجة.

تصرخ السيدة، النعجة:

- لا يجب أن توقظها، وإلا فسوف تصرخ بصوت عالٍ جداً جداً جداً، وسوف تؤذي آذاننا.

يمشيان في الممر مرة أخرى، ويذهبان ناحية الطرف الآخر منه ليركبا المصعد الشوكولاتة.

تسأله الفتاة الصغيرة:

- لماذا جئت إلى هنا؟

- لكي أتذكر أليس. يجب العثور على شيء أخفته أليس.

- نعم، تبحث عن الكنز.

تقفز الفتاة وهي تصفق بيديها:

- لنبحث معاً. أولاً سقطت أليس في حفرة أرنب، ثم دخلت بلاد العجائب...

يسألها أندرسن :

- وماذا بعد؟

- وقعت في مشاكل مع الملك.

- أعلم ذلك.

- ومشاكل مع الملكة.

- من هي الملكة؟

- زوجة الملك، التي تقطع الرؤوس.

- هي التي قطعت رأس أليس؟

- أيّ أليس منهنّ؟

- لا توجد إلا أليس واحدة.

- نعم.

- ألها عدة رؤوس؟

- لا تقل أشياء لا معنى لها. ليس لدي وقت للعب ألعاب التخمين!

- أتلعبين الحجلة ربما؟

- لا، أو ربما في وقت آخر، أعطني الإجابات أولاً.

يتوقف المصعد بسبب الكاكاو المذاب بكثرة.

- انظري إلى هذه الفراشة.

تصرخ سيليا.

تطير فراشة زرقاء في الممرات وسط مؤثرات صوتية.

- بسرعة. إنها تتجه نحو المخرج.

تتبعه الفراشات حتى موقف السيارات الخارجي، حيث تقف الأفيال والقوارب البخارية. يمكن رؤية سيارة ستريجا على بعد عشرات الأمتار. تعرفا عليها بسهولة، تمت تغطية السيارة بشعر قط برّي، وبينما يحاول أندرسن الاندفاع نحوها إذ بحيوان لا يمكن تخيله؛ نصفه العلوي طائر ونصفه الآخر حيوان وحشي ينقض عليه، ويلقي به على الأرض، ويضع قدمه التي تشبه أقدام أسد على ذراعيه، ويشل حركته!

- يا أندرسن، لن تهرب هذه المرة (ينعق الطائر بصوت غليظ).

يبدو رأس الطائر كأنه رأس نسر. ها هو يضع رأسه بالقرب منه، ويخشى أندرسن أن يأكله. تفوح من منقاره رائحة النعناع ورائحة بقايا السجائر النتنة. يعتقد أندرسن أنه ينتمي إلى الحيوانات آكلة الأعشاب.

- ما الذي ستفعله معي؟

- سأضعك في السجن فترة طويلة.

- تقول السجن؟ وهل يملك المتوحشون سجوناً؟

- أنت انتهيت تماماً يا صديقي المسنّ. أنا شرطي.

يُخرج الوحش هاتفه، ويطلب المساعدة من بعض الدجاج. هناك ضجيج قوي في الممر، دويّ الطلقات النارية يسمعها بأذنيه، وإحدى هذه الطلقات تصيب هذا المخلوق، فيتطاير من جناحيه ملءُ الكفّين

من الريش الملطخ بالدماء. يسقط الحيوان على ظهره، وتندفع نحوهما من نهاية الغرفة البطاقات التي تُستخدم للعب.

تصرخ سيليا:

- أسرع، سوف يؤذوننا هم أيضاً.

تهرول نحو المخرج، ويركض أندرسن وراءها، وظلت هذه البطاقات تمطرهما بمقذوفات تعكس على الجدران أشكالاً تشبه القلوب المصنوعة من مسحوق أسود.

- بسرعة، بسرعة.

ها هي السيارة المغطاة بشعر قط برّي تقف في موقف السيارات، ويرتفع صوتها عالياً، وما إن يفتح الباب حتى تهرب الدجاجات والديوك الرومية، فيتطاير الريش، ويعلو الصياح. ينعكس ضوء طلقة الرصاص على السقف فيرتد شعاعاً لامعاً.

يصرخ ستريجا بصوت عالٍ:

- ماذا تفعل؟! ادخل.

يقفز على المقعد الخلفي. تنطلق السيارة المغطاة بشعر قط برّي، وهي تصدر صوتاً غليظاً ومرتفعاً، وتجلس سيليا في مقعدها وتنظر إلى الخارج.

- اخفضي رأسك.

يمسك الفتاة الصغيرة، ويطلب منها الجلوس على المقعد، بينما تتكسر النافذة الخلفية بسبب تناثر الحصى، وتتمايل السيارة من جهة السيار إلى جهة اليمين في هذا الطريق الواعر.

يسأل أندرسن سيليا:

- هل أصابك مكروه؟

- لا، لا بأس (يرد ستريجا لأنه لم يفهم السؤال).

تظهر عيناه الكبيرتان في منتصف المرآة الخلفية المثبتة على الجزء العلوي من الزجاج الأمامي للسيارة.

- وأنتِ؟ ما هذه النظرة الغريبة؟!

يتكلم الغجري، وهو يدفع الفِطر بحذائه الجلدي الكبير، وتجلس سيليا على المقعد. لم يصبها أذى؛ لكنه اعتقد للوهلة الأولى أنها ماتت وشعر بحزن شديد.

- كل شيء على ما يرام. نحن في مأمن الآن.

وبينما هو ينظر إليها، تهمس الفتاة الصغيرة في أذنه وتقول:

- أعرف أين يختبئ كنز أليس. أتأخذني إلى هناك؟

## 64

مرة أخرى، تتأكد ديان من أن منظار بندقية القنص تم تعديله بشكل صحيح. تنتظر لساعات وهي تجلس على كرسي مكسور، وتضع السلاح على سطح طاولة مغطى بطبقة لامعة، لكنه تشقق بفعل الرطوبة، وتقف سيارة دوجسون المتنقلة بمحاذاة البندقية؛ الأمر الذي يسمح بضبط زاوية التصويب بشكل مثالي للتحقق من إصابة أندرسن، ولهذا لن تحتاج ديان إلى أن تقف.

لقد انتقل الطبيب، منذ لقائهما الأول، إلى مخيم آخر يقطنه الغجر، وكان من الممكن أن تستنفد وقتاً طويلاً للعثور عليه لو لم يسهّل ستريجا الأمر لها بإعطائها رقم هاتفه عندما التقيا أول مرة، وبينما يطلق هاتفه الخلوي آخر إشارة من على مسافة أقل من خمسمئة متر، كان يسير خلف مجموعة من النساء يدفعنَ عربات محملة بقطع معدنية خاصة بالمخيم.

حتى الآن لا يعرف أي شرطي المكان الذي يوجد فيه دوجسون؛ ربما لأنه لم يكن مطلوباً لديهم، بما أن أندرسن هو المتهم بقتل ابنته، لكنها كانت مقتنعة بأن المحامي سيحاول الاختباء عنده.

إن سيارته المتنقلة هي مكان الاختباء الأنسب للهارب، كما أن أندرسن متحدث لبِق.

تلاحظ ديان حركة ما.

يخرج دوجسون من منزله. تُحدّد الهدف من خلال المنظار المثبت على البندقية. قبعته على رأسه، حقيبته الطبية في يده، سيغادر من أجل فحص شخص مريض.

إنذار خاطئ.

تشرب القليل من الماء، فالجو حار في هذا المبنى المهجور الذي تحتمي به، وعلى الرغم من أنه مناسب جداً لمراقبة معسكر الغجر إلا أن الهواء فيه يكاد ينعدم؛ فمعظم فتحات التهوية سُدّت بألواح من الخشب!

يوجد في حقيبتها طعام وشراب يكفيها لعدة أيام، ويوجد أيضاً منظار يستخدم في الليل بالأشعة تحت الحمراء، وتوجد معها قهوة وشموع يمكن إشعالها، وعقار موديودال المنشّط الذي يوصى به لمن يعانون من فرط النوم. ظلت ديان مستيقظة طوال الليل تستعمل هذه الأشياء، فإذا ما مرّ أندرسن خلال الاثنتين وسبعين ساعة القادمة فسوف أطلق النار عليه فوراً.

ورغم ذلك، ما يزال الشك يسيطر عليها، وتغمض عينيها، وتحاول جاهدة أن تتخيل كل ضحاياه، لكي تقتنع بأن كريستيان أندرسن يستحق الموت مثل وحش خطير.

وصلت سيارة حمراء يقودها ستريجا. عادت ديان إلى موقعها، وأخذت موضعها خلف البندقية. يتجه الغجري إلى باب سيارة متنقلة متوقفة الى جوار سيارة دوجسون. تحرك ديان إصبعها بالقرب من الزناد، وبعد دقيقتين يخرج من السيارة، ومعه دلو مليء بزجاجات البيرة.

إنذار خاطئ!

## 65

وبينما يقضي أندرسن ساعات طويلة بين الوعي واللاوعي يُهيّأ له أنه يرى أحلاماً غريبة وخادعة! في بعض الأحيان يفتح عينيه ليرى أليس كأنها ترش الماء على وجهه، وفي أحيان أخرى يغمضهما فيرى ظلام الليل كأنه قد أقبل في صورة امرأة عجوز متجعدة الجلد تعالجه!

يفتح عينيه مرة أخرى فيجد إشراقة الصباح قد هلّ هلالها، ويبدو له كأن السقف مقوس ومغطى بصور تدعو للتأمل. يجلس على سريره فيكتشف أنه في سيارة متنقلة. يحدق النظر إلى المسابح وأقدام الأرانب والدمى المصنوعة من القماش الشفاف وعقارب الثواني المثبتة في ساعات الحائط الكبيرة، وهي تتحرك، وبطاقات لعبة التارو، وحتى الطائر المحنّط، قبل أن يتوقف فوق رأس سيدة عجوز لا تتحرك وهي تراقبه في صمت. كانت ترتدي معطفاً أخضر مصنوعاً من ريش النعام وثوباً أحمر طويلاً، وتتزين بوشاح ذهبي، وتلبس حذاء بنياً كبيراً.

- أما زلت أحلم؟!

تصفعه السيدة العجوز بقوة على وجهه، فيسمع لها صوتاً رناناً.

رد عليها وهو يفرك وجهه:

- سأعتبر كأن شيئاً لم يحدث.

- لقد نجوت بحياتك أيها الحقير الصغير.

- أيعرف بعضنا بعضاً؟

- لا، لكن شارل طلب مني أن أقول لك ذلك، وأن أصفعك عندما تستيقظ.

- أين هو؟

- خرج وسيعود بعد قليل.

- كيف وصلتُ إلى هنا؟

- ألا تتذكر؟

- أتذكر أنني ركبت سيارة تشبه الثعلب.

ترفع السيدة العجوز حاجبها وهي مندهشة. لقد تفاجأت برده!

- نعم. يقول شارل إنك أخذت جرعة كبيرة من الأدوية، وبالتالي كنتَ معرضاً لأن تموت. كيف عرفت أن تحقن نفسك؟!

- لم يكن لدي خيار. هل تتخيلين ذلك؟!

وبينما هو يتأهب ليخرج من السرير أبصر نفسه عاريًا تمامًا، فأسرع من فوره وغطى النصف الأسفل من جسدِه.

- ما الذي فعلتِه؟!

تبتسم الساحرة العجوز:

- لا داعي للقلق يا سيدي. لقد تخلصت من أغراضك كلها لأنها كانت مغطاة بالدماء.

تعطيه حزمة من الملابس، ويحاول أن يرتدي السروال.

- لا داعي للقلق. لقد رأيت مرضى آخرين مثلك.

- لا أشك في ذلك؛ لكنني لست معتاداً على أن أجلس أمام ساحرة!

ترد عليه السيدة:

- أنا لست ساحرة، لكنني أحاول أن أقرأ ما تقوله عيناك.

يعتقد أن القميص لونه أصفر بلون عباد الشمس، والسروال لونه أخضر فاتح مصنوع من القطيفة المخططة، ويمكن للسيدة العجوز أن تقرأ ما تقوله عيناي، لكنها بالتأكيد لا تستطيع رؤية هذه الألوان. وبمجرد أن ارتدى الجوارب الأرجوانية، وما أن وضع قدميه داخل الخف المصنوع من سيور من جلد حتى توجه نحو الباب.

- توقفي. لن أخرج.

- لا أشك في ذلك. لا أحد يرغب في الخروج بمثل هذه الملابس!

يطوي أندرسن أكمام قميصه.

تقول له السيدة بصوت حزين:

- الموت ينتظرك في الخارج.

يضع يده على مقبض الباب.

- السخرية لا تقتل وفق معلوماتي.

- أنت معرض للخطر. أعتقد ذلك.

ينظر إلى السماء.

- لا أصدق ما تقولينه.

- تم إطلاق النار عليك في المستشفى، ألا تتذكر؟!

يتذكر بشكل غامض اصطدام الحصى بسطح السيارة رينو فويجو.

- الشرطة؟

- لا، لا تطلق الشرطة النار على أشخاص غير مسلحين، أيها الأحمق. لا يحدث هذا دائماً. من ناحية أخرى، لن تتردد الشرطة في إطلاق النار على قاتل شرطي.

- لا أفهم! أنا لم أقتل أحداً... ولا حتى شرطياً، بكل تأكيد!

تنهض الساحرة العجوز من أجل تشغيل جهاز التلفزيون الصغير الموجود أسفل صورة لقديسة في حالة اندهاش. تشاهد قناة إخبارية تعمل 24/24. تَصدّر إطلاق النار على المستشفى عناوين الأخبار. يظهر على الشريط الأحمر أسفل الشاشة ما يفيد بمقتل قائد الفرقة المتخصصة في مكافحة الجريمة نتيجة إصابته برصاصتين في الظهر. تعرض القناة تسجيلاً لكاميرا مراقبة؛ يتم التعرف على أندرسن حيث كان يرتدي معطفاً لطبيب ملطخ بالدماء، يبدو كأنه قد خرج لتوه من غرفة عمليات جراحية. يجلس على السرير، يشعر بالأسى لما سيؤول إليه مصيره!

- يعتقد دوجسون أنه يتحتم عليك عدم الخروج هذه الأيام.

يرد أندرسن بصوت ضعيف:

- أنا لست قاتلاً. لست من أطلق النار على الشرطي، إنه...

- أهُم رجاله؟

- نعم، إنهم رجال فينيول.

- اشرح له ذلك الأمر عندما يعود. لكن إلى أن يعود، سنحاول استكشاف الأمر بشكل أوضح مع بطاقات لعبة التارو... ماذا تفعل؟

يتوجه أندرسن إلى الباب.

- سأخرج. أشكرك على متابعتك لي أثناء مرضي؛ لكنني لست الآن بحاجة إلى خدماتك. أنا أعرف ما الذي يجب أن أفعله الآن.

- لا، لا تفعل.

وما إن يفتح باب السيارة المتنقلة، حتى يعلو صوت صفير حاد يكاد يخرق طبلة أذنه. يتوقف قطار بضائع طويل على بعد خمسين متراً منه، ويحمل القطار عربات سكك حديد، وقضباناً من كل الأنواع.

يسأله أحدهم:

- ما اسم هذا المكان؟

- يريد دوجسون إبعادك أنت وستريجا عن هذا المخيم إذا جاءت الشرطة إلى هنا.

يجلس الغجري على كرسي من كراسي المخيم قابل للطي بقوائم معدنية صدئة إلى أبعد حد. يظهر أعلى صدره من فتحات القميص. يغمض عينيه ويحرك بأطراف أصابع قدميه مقبض دلو مليء بزجاجات البيرة الباردة. يأخذ مجموعة من الزجاجات الفارغة، ويلقي بها على كومة من الحصى على بعد عشرة أمتار.

يقترب أندرسن منه حتى أظله بظله. يفتح ستريجا عينيه، ويصرخ في وجهه:

- لا تخرج من هنا. يمكنهم رؤيتك!

يرد عليه أندرسن:

- أنا بحاجة إلى سيارتك.

يلتفت ستريجا إلى السيارة رينو فويجو الحمراء المغطاة بالقماش.

- عد إلى السيارة المتنقلة. رجال الشرطة يبحثون عنك!

- إنني أتذكر كل شيء الآن؛ الأدلة والأموال، كما أنني أعرف أين أخفيتُ كل شيء.

يتمايل الغجري بالكرسي.

- أين أخفيتها؟

يرد عليه أندرسن:

- في المكان الذي جئت منه.

## 66

تم إهمال مبنى المستقبل الاجتماعي للأيتام الكائن في حي أورجمون لسنوات، ولهذا أثارت تلك المباني المهملة مشاعر أندرسن المتضاربة؛ إنه الشعور بالحنين إلى الماضي؛ لأنه قضى بعضاً من أفضل أوقات طفولته هناك، والشعور بالأسى بسبب ما فعله الائتلاف العام لاتحاد النقابات بهذا المبنى الذي يعدّه أندرسن كبيته.

إننا نتحدث عن النقابة الشيوعية القوية، التي تُدير دار الأيتام، والتي تهدف من حيث الأصل إلى أن تكون ملجأ لأبناء العمال الذين ماتوا في المنجم؛ إنهم ضحايا الاستغلال الرأسمالي كما ورد في كتيبات صدرت في ذلك الوقت. بعد الحرب، استقبل هذا المبنى أبناء وبنات المقاومين الذين أعدمهم الألمان أو أبعدوهم، ومع مرور الوقت تغير وضع المبنى؛ حيث تحول إلى مؤسسة تستقبل الأطفال مثله، من الفقراء ومن اللقطاء.

أما بالنسبة إلى قادة النقابات، فإن دار الأيتام يجب أن تظل واجهة للائتلاف العام لاتحاد النقابات على أن تقوم بغرس مفاهيم أيديولوجية في نفوس الأطفال الشيوعيين الجدد.

في حين أن المسؤولين في دار الأيتام لم يوافقوا على هذا الرأي؛ رغبة منهم في أن يكون الأطفال أحراراً في اختياراتهم، وبالتالي لا يجب أن نفرض عليهم الأفكار بطريقة سلطوية. في ديسمبر1987، عندما طلبت النقابة من المعلمين تهيئة الأطفال للمشاركة في مظاهرة في باريس، بدأت الأمور تتدهور؛ حيث رفض المعلمون، وتوترت

الأجواء بين الإدارة والائتلاف العام لاتحاد النقابات، حتى جاء ذلك اليوم العصيب.

يحتفظ أندرسن بذكريات يشوبها غموض؛ كان صغيراً جداً في ذلك الوقت؛ إنه يتذكر بشكل خاص الوجوه البائسة والحزينة للأطفال الآخرين المحبوسين مثله في غرفهم. أدرك الجميع أن أمراً مأساوياً سيحدث في هذا المبنى.

في الساعة الرابعة صباحاً، يقوم العاملون بالائتلاف العام لاتحاد النقابات بتحطيم أبواب دار الأيتام، ويقتحم رجال معهم قضبان حديدية غرفته ويطردونه منها! في الممر بدت نظرات الأطفال الآخرين، الذين تم طردهم من غرفهم، حائرة، إنهم يرتجفون من شدة الخوف. أجبرهم المقتحمون على ارتداء ملابسهم، والخروج من المبنى. وفي الخارج، يتحرك الرجال، ويقولون بصوت عالٍ في أجهزة اتصال لاسلكي إن العملية تسير على ما يرام. أصبح مبنى المستقبل الاجتماعي للأيتام تحت السيطرة. إلا أن الائتلاف العام لاتحاد النقابات لم تكن لديه أي خطط لهؤلاء لأطفال! تُرك أندرسن لمصيره، يرتجف من شدة الخوف، يهرب إلى منطقة ريفية حول دار الأيتام مثل معظم الأطفال الآخرين.

وما إن أشرقت أنوار الصباح حتى تحرك رجال الشرطة من أجل إنفاذ القانون والتّصدي لهذه الفوضى.

يواجهون صعوبة في استعادة جميع الأطفال الذين غادروا المبنى. لقد امتطى بعضهم ظهور الجياد، وابتعدوا عن دار الأيتام مسافة عدة كيلومترات، ومنهم من سرق دراجة نارية. ترفض النقابة بشدة عودة الأطفال إلى الدار، وكردّ فعل على هذه الكارثة الكبيرة تصدر إدارة

الشرطة قراراً بإغلاق دار الأيتام، وتم توزيع الأطفال على المنازل والعائلات الحاضنة!

مثلت تلك الحادثة نهاية مبنى المستقبل الاجتماعي للأيتام، الذي يُعدّ واجهة الحركة العمالية الشهيرة؛ غير أن النزعة الاستبدادية الحمقاء لعدد قليل من أعضاء الائتلاف العام لاتحاد النقابات تسببت في القضاء عليه.

يشير أندرسن إلى ستريجا كي يأتي إليه داخل أحد المباني الكبيرة المبني بالخرسانة الكاتمة للصوت، والمغطى بأوراق الأشجار والأغصان والأعشاب الضارة، ومثل جميع المباني الأخرى، التي تتألف منها دار الأيتام، تم وضع شارات كثيرة عليها؛ كانت النوافذ مهشمة، في حين لم يتم سرقة الأشياء التي ليس لها قيمة والتي ظلت في ذات المكان الذي كانت موضوعة فيه منذ عشرين عاماً؛ مثل أدوات الطبخ الصدئة التي تم وضعها على ملفات تخص الدار، وماكينة خياطة من نوع سنجر لونها أزرق غامق، وهاتف قديم جداً لا يعمل لونه بيج، وغسالة ملابس كبيرة جداً مزودة بفتحة كبيرة تعمل وفق برنامج بطاقات من الكرتون المقوى المثقوب، وعندما كنت طفلاً اختبأت فيها أثناء لعب الغميضة، أما عن الأشياء الأخرى، فقد أخذها جامعو الأدوات المستعملة زهيدة الأثمان الذين كسروا البناية الخرسانية من أجل استخراج جميع الأنابيب المعدنية.

يدفعه الحنين إلى الماضي إلى أن يتجول داخل الغرف؛ ما تزال هناك الأسرة والمراتب وبعض الأغراض التي تخصهم، ولم يسمح الائتلاف العام لاتحاد النقابات إلا ببضع دقائق فقط ليضعوا أغراضهم البسيطة في أكياس القمامة.

يعتصره الألم وهو يتذكر هؤلاء الرجال الأقوياء القساة؛ إنهم عصابة من أراذل المجرمين، الذين حرموه من عائلته الوحيدة! بعد ذلك بسنوات، يعتقد أندرسن أن الشيوعية أصبحت في ذلك اليوم هي والعدم سواء؛ قبل سقوط جدار برلين بسنوات عدة بطبيعة الحال.

يسأله ستريجا:

- هناك؟

- لا، هنا، لا وجود إلا للذكريات.

ينزلان ويتوجهان إلى البناية الزجاجية. هنا تنبت الأعشاب التي لا فائدة منها بين الأواني والأدوات غير المستخدمة، وتفوح رائحة العفن الكريهة من أسفل القبة الزجاجية الصدئة، ويشعر كأنه يشم رائحة الطماطم الطازجة. ما يزال يتذكر هذه الرائحة منذ أن كان طفلاً. تم احتجازه داخل هذه البناية الزجاجية؛ لأنه كسر لوحاً زجاجياً عندما قذفه بحجر، وسيندرج هذا الفعل ضمن ألعاب الأطفال الخشنة، وستتم معاقبته بالعمل ثلاثة أيام في هذه البناية تحت إشراف معلِّم؛ حيث سينقل التربة، ويقطف الزهور، ويحصد الخضروات، وسيعمل أشياء أخرى كثيرة، سيأكل مع معلمه الطماطم الطازجة خلال فترة الراحة. وقد ظل طعمها الحامض وسخونتها عالقين بشفتيه حتى بعد مرور ثلاثة وعشرين عاماً، ورغم ذلك ما يزال يتذكر أيضاً دروس معلمه!

أخبره أن اثنين من الباحثين الأمريكيين كتبا ذات يوم مقالاً بعنوان «النوافذ المكسورة» في مجلة متخصصة في عِلم الاجتماع، وقد أوضح الباحثان أنه إذا لم يتم إصلاح الأضرار، التي وقعت في الحي، فستتعرض المنطقة لانتكاسات بكل تأكيد؛ سيغادر القادرون، وسيحل محلهم السكان الأكثر فقراً، وسيمهدون المكان ليصبح أرضاً خصبة للجريمة المتزايدة، وسيصبح الحي غير صالح للعيش!

لم يتخيل المعلّم أن موضوع النافذة المكسورة سيتحقق هنا داخل مبنى المستقبل الاجتماعي للأيتام! فكل شيء هناك توجد عليه علامات، ومكسور، وغير صالح للاستخدام. ومن المفارقات أن المبنى الزجاجي لم يحدث له أي ضرر إلا شيء واحد فقط ألا وهو اللوح الزجاجي الذي كسرتُه منذ سنوات.

- هذا هو.

وما إن ينزل حقيبته من على ظهره حتى يعطيه ستريجا واحدة من الجرافتين اللتين معه، فيحفران مدة خمس دقائق، ويستخرجان صندوقاً بلاستيكياً كبيراً ملفوفاً في عدة أكياس مخصصة لجمع القمامة.

تتسع عيون ستريجا من الدهشة عندما يرى محتويات الصندوق!

- هذا الذي يشبهه، المليون...!

كان الصندوق مليئاً بالأموال من ألوان فئات النقد كافة؛ الأرجوانية والخضراء والصفراء، ويوجد فوق هذه الأموال جوازا سفر ملتصقان بشريط مطاطي. يسحب الجواز الأول، ويقرأ الاسم:

كريستيان كارابا.

توجد صورة له مثبتة داخل الجواز. من الواضح أنها تعود إلى ما قبل الحادث، أما جواز السفر الثاني؛ فهو خاص بأليس:

أليس فيكتوريا أوستن.

تصبغ شعرها باللون الأسود، وتضع عدسات لاصقة جعلت لون عينيها بنياً، ويوجد أسفل الأوراق النقدية شيء على شكل مكعب كبير مصنوع من البلاستيك الأزرق؛ فيستفسر ستريجا عنه.

- إنه قرص صلب يتم تخزين الأدلة في داخله ومئات الوثائق السرية.

يكفي هذا الأمر لمعاقبة فينيول بالسجن فترة طويلة، وللقبض على عملائه الرئيسين.

وضعا كل شيء في الحقيبة، التي تُحمل على الظهر، وغادرا المبنى الزجاجي، وعندما وصلا إلى السيارة، وضع ستريجا الحقيبة على المقعد الخلفي، وفتح صندوق السيارة لكي يستريح أندرسن، كما حدث من قبل.

ظل أندرسن بلا حراك!

يسأل الغجري:

- ما الذي كنت تريده؟

أخبرت والد زوجتي بأنني سأغادر البلاد إذا وجدت المال والأدلة. الآن وبعد أن عثرت عليهما، سأفكر في سيناريو جديد.

- الهروب فقط لا يكفي. لا بد من الانتقام من فينيول.

يحدق الغجري النظر إليه بحدة.

- أنت مجنون. لا يمكنك الوصول إلى هذا الحقير؛ لن تكون قادراً على الاقتراب منه!

يشاهد أندرسن المباني الممتلئة بالأعشاب التي لا طائل منها، ويتطاير الشرر من أعماق عينيه.

- إذاً، سأصنع له فخاً لاصطياده هنا.

- ألا توجد لديك أفكار واضحة؟! أنت بحاجة إلى مقابلة شارل. هيا، تعال؛ سنعود إلى المخيم. يضع الغجري ذراعه الموشومة على كتفه. يُبعد أندرسن ذراعه عنه، وهو يستدير بقوة.

- لا أستطيع أن أقضي بقية حياتي مع مَن يغدر بي مِن وراء ظهري! أريد من هذا الحقير أن يدفع ثمن كل الأضرار التي لحقت بي، وهذه

الأدلة هي الطعم الذي سأصطاد به فينيول. أحتاج إلى متفجرات، أعلم أنك تستطيع تزويدي بها.

يحك ستريجا لحيته الصغيرة بعصبية.

- ليس لدي صلاحيات؛ لكن شارل يمكنه العثور عليها. يجب أن تعود لمقابلته في المخيم.

- لن أغير رأيي.

- أيعقل هذا؟! (يقسم الغجري باللغة الرومانية) ادخل وتحدث إلى شارل، وإلا فلن تتمكن من الحصول على المتفجرات.

يشبك الغجري ذراعيه، ويبصق على الأرض، وبدا وجهه كأنه عازم على ألا يحنث في وعوده أبداً.

يتنهد أندرسن، ويقول:

- سنذهب إلى المخيم؛ لكن لن أدخل في صندوق السيارة هذه المرة.

## 67

كانت الساعة تقريباً التاسعة صباحاً عندما دخلت سيارة إلى المخيم. ثبّتت ديان كعب البندقية على كتفها، وتابعت السيارة بالمنظار المثبت أعلى البندقية. لم تستطع رؤية السائق بوضوح. تسقط حبات العرق من جبهتها إلى جفنيها، ثم تدخل في عينيها، فتكون كالدموع المريرة. تضغط بطرف أظفارها القطعة المعدنية القريبة من الزناد استعداداً لإطلاق العيار الناري.

يبدو أن السيارة لونها أسود، ومخصصة للسير في الطرق الوعرة. توقفت على مسافة تبلغ نحو عشرة أمتار من سيارة دوجسون المتنقلة.

ينزل منها أربعة رجال يحملون بنادق أوتوماتيكية داكنة اللون، يرتدون ملابس من النوع الكاكي وأقنعة. يتقدم أحدهم نحو السيارة المتنقلة، التي أخذ منها ستريجا البيرة في الليلة السابقة؛ بينما يتوجه الثلاثة الآخرون إلى سيارة دوجسون. كانت تحركاتهم المنظمة والمرتبة تماثل تحركات الجنود المدربين.

ما الذي يبدو عليه هذا السيرك؟

يطرد اثنان من المقنعين الطبيب العجوز من سيارته المتنقلة، ويطرحونه أرضاً، أما عن الرجل الذي ذهب إلى سيارة ستريجا فقد نزل منها، وبإشارة من يده فهم زملاؤه أنه لم يعثر على شيء.

وجهت ديان مرة أخرى المنظار المثبت أعلى البندقية نحو دوجسون. لقد أجبره على الركوع في الوحل. يركله الرجل الذي يرتدي ملابس من النوع الكاكي في بطنه. يتقوس جسد دوجسون من الألم. يصوّب الرجل الذي يرتدي ملابس تشبه الملابس العسكرية مسدسه نحو رأس الطبيب.

لا شيء يقطع الصمت سوى تلك الفرقعات الحادة.

انطلق مقذوف من بندقية قنص بمنظار، وعلى الرغم من أن الرجل المعتدي أصيب في ساقه بشكل غير دقيق، إلا أن إصابة الهدف من هذه المسافة تشبه المثقاب الصناعي، الذي يعمل بطريقة القطع الحلزوني بسرعة مئة كيلومتر في الساعة. انفجر عظم ساقه الأمامي مثل الفاكهة الناضجة، وفقد الوعي قبل أن يسقط على الأرض، ويصاب بصدمة نزفية.

يقطع صمت المكان صدى فرقعات حادة متتالية. تسقط كبسولات الأعيرة النارية الفارغة على الأرض، وبينما تحاول ديان هذه المرة إصابة الهدف بدقة، تصيب الطلقة الثانية الرجل الثاني في صدره،

وتتناثر الدماء من صدره المثقوب بقوة، ثم يسقط على قفاه في الوحل، وبينما تسحب ديان مزلاج البندقية، تخرج رصاصة فارغة جديدة من منفذ الإخراج. يركض الناجون الآخرون نحو السيارة المخصصة للسير في الطرق الوعرة، ويبحثون عن ملجأ؛ ليس بهذه السرعة، وتصيب أحدهما في جنبه بعيار ناري، بينما يحتمي الرجل الأخير بالجزء الأمامي للسيارة، ويجلس القرفصاء خلف غطاء المحرك، وما إن بدأ إطلاق النار من بندقيته الكلاشينكوف على المبنى الذي توجد فيه ديان، وأصاب المبنى بوابل من الرصاص، حتى ألقت ديان بنفسها على الأرض. أصابت معظم المقذوفات واجهة المبنى، وبدا كأنه يهتز؛ لكن بضع رصاصات أصابت بندقيتها التي كانت في وضع إطلاق النار على الطاولة ما أدى إلى انفجار المنظار المثبت أعلى البندقية، وكسر البندقية نفسها.

دون أن تضيع ثانية من وقتها، سحبت ديان مسدسها، وزحفت نحو السلم، وكل همها أن تقترب أكثر فأكثر من الخصم، وعلى بعد خمسين متراً، ترى ديان البندقية الكلاشينكوف كأنها سلاح فتّاك، بينما مسدسها لن يكون ذا فاعلية إلا من مسافة قريبة، فتخرج من الجانب الخلفي للمبنى، وتقوم بالالتفاف مسافة طويلة عبر الغابة لتظل مخفية عنه، وما يزال الرجل يطلق رشقات نارية من وقت إلى آخر على النافذة عندما كانت ديان هناك قبل لحظات، ثم بدأ يتحدث في جهاز اتصال لاسلكي برتقالي اللون. زحفت من ورائه، ووصلت إلى مسافة تبعد عنه نحو خمسة أمتار، وما إن أثارت ضجيجاً باستخدام الحصى حتى استدار الرجل؛ إلا أنها لم تمنحه الوقت الكافي للرد، وأصابته بثلاث رصاصات في جسده قبل أن يرفع سلاحه.

حل الهدوء على المخيم، وتم قتل الرجال الأربعة من المجموعات المسلحة. تنظر حولها فترة طويلة، وتتفحص المكان خلف السيارة المخصصة للسير في الطرق الوعرة، ثم تأخذ البندقية الهجومية، وتركض نحو سيارة دوجسون المتنقلة.

تطرق الباب

- يا دوجسون، أأنت هنا؟ أنا كيليرمان.

لا أحد يرد. اختفى الرجل الكبير! تذهب ناحية السيارة المتنقلة الثانية التي تخص ستريجا، وتتقدم إلى الأمام بحذر، تثبّت البندقية على كتفها في وضع الاستعداد، وتسمع صراخاً قوياً عند المنعطف على امتداد صف من السيارات المتنقلة التي لا تعمل، وبنظرة خاطفة، لاحظت ظل قطعة داكنة لعقب بندقية موجّهة إلى رأسها، وبسرعة شديدة تخطر على بالها فكرة أخيرة، إنه جهاز الاتصال اللاسلكي البرتقالي اللون الذي استخدمه الرجل لاستدعاء التعزيزات.

وصل رجال آخرون إلى المخيم سيراً على الأقدام.

وما إن تم ضربها بكعب البندقية على رأسها حتى فقدت الوعي.

# الجزء السادس

## 68

لا تبغ ولا علكة من أجل تهدئة ألم العصب. كاد بيرجر يقتل نفسه بسبب جرعة زائدة من النيكوتين! فتدخين السجائر، على وجه الخصوص، أتاح له التنفيس عن مشاعره؛ من اختفاء ديان وموت ثيو إلى اختطاف دوجسون... فجأة. تضغط عليه هذه الأحداث المتتالية، وأصبح لزاماً عليه أن يخفّف هذا التوتر بطريقة أو بأخرى، وعلى مسافة أمتار قليلة منه، يتجاذب ضباط تابعون لفرقة مكافحة الجريمة وآخرون تابعون لقسم الطب الشرعي أطراف الحديث حول ملاحظاتهم الأولية عن السيارة السوداء المخصصة للسير في الطرق الوعرة، وعن الجثث المقنعة، وعن كبسولات الأعيرة النارية الفارغة الدافئة، وعن البنادق الهجومية العالقة في الوحل. يبدو مسرح الجريمة كأنه ساحة معركة حقيقية!

ينحني ليقترب من الجثة؛ حيث اخترقت رصاصة من العيار الكبير الجسد، وخرجت من الجانب الآخر، ثم أصابت في نهاية المطاف باب السيارة. ينظر بيرجر حوله فيكتشف وجود منزل مهجور على مسافة تبعد نحو خمسين متراً من المكان الذي يقف فيه، ويبدو أنه الموضع الذي وقف فيه لاستهداف الرجال؛ إذا كان هو فعلاً الذي يطلق النار.

في الطابق العلوي توجد بندقية قنص بمنظار مضبوطة على وضع الاستعداد، وتفوح منها رائحة الزيوت الساخنة والبارود، وما إن رأى بجانبها حقيبة تُحمَل على الظهر، وسترة جلدية، حتى عرفها على الفور!

هذه الأغراض تخصّ ديان.

أعاد الكرسي المقلوب إلى وضعه الصحيح، وجلس عليه. نعم، كان جيريكو على حق، ليرقد في سلام. نعم، جن جنون ديان. طالما حذرها ولأنه توقع هذا الأمر من قبل، فان بيرجر يفكر في حديثه مع مدربها عندما ذهب يوماً ما إلى حلبة الملاكمة الخاصة به، وكلُّه أمل في أن يدلّه على مكان وجودها؛ لكن والتر مورا لم يكن يعلم شيئاً عنها. يتحدث الملاكم العجوز مع بيرجر عن ديان حتى يتمكن من أن يفهمها بشكل أفضل؛ أخبره عن لقائهما لأول مرة قبل عشرين عاماً، ولم تكن ديان قد بلغت السادسة عشرة من عمرها في ذلك الوقت؛ حيث طلبت تسجيل اسمها بين المتدربين، لكنه رفض في البداية؛ إذ إنه لم يكن يدرب النساء آنذاك؛ إنه يستهجن صراع الفتيات داخل حلبة الملاكمة! أخبرها أنه لن يعلمها فنون القتال، ثم طردها؛ لكنها عادت في اليوم التالي، وفي اليوم الذي يليه، وهكذا لأيام عدة، وكانت تجلس ساعات فوق المدرجات داخل صالة للتدريب قديمة لكي تراقبه، وهو يعلِّم الشباب فنون الملاكمة، وطلبت منه كل يوم أن يدربها. بدت عنيدة جداً في ذلك الوقت! ذات يوم جاءت ووجهها منتفخ نتيجة تجمعات دموية وأنفها مكسور، ولم ترغب في أن تشرح له ما حدث؛ لكنه تأثر كثيراً عندما رأى وجهها مشوَّهاً إلى هذه الدرجة. وهنا يقرر مورا أن يدربها، وهكذا أصبحت ديان أفضل متدرب عنده؛ فهي تبدو شديدة التركيز، وتعمل بجدية كما أنها صبورة.

لم يسأل والتر مورا نهائياً ديان عن السبب الذي دفعها إلى طرق باب صالة الملاكمة التي يملكها، ولم يوجه هذا السؤال إلى المتدربين نهائياً؛ فمعظمهم لديهم نسبة من الأوهام عالقة في ذاكرتهم؛ قصص

تدل على أنهم ضحايا معاملة ما، أو أنهم تعرضوا لعنف وضرب من جانب الوالدين. يقول مورا إن ساعات طويلة كل أسبوع كانا يقضيانها معاً في تلقي لكمات، أو توجيهها لأحد منهما، ورغم ذلك استطاع الحديث معها عن السلوكيات السيئة، التي تعرّضت لها في حياتها السابقة، وكان يعرف ما الذي يجب أن يتكلم عنه؛ إن والدها مُدمن خمور وكان يؤدبها ضربًا بالعصا!

كل هذا الكلام فسّر لبيرجر دوافع ديان للتصرف بهذا الشكل؛ ربما تكون قد أطلقت النار على هؤلاء الرجال للدفاع عن نفسها بشكل شرعي حسب ما يبدو من آثار الطلقات المشاهدة على الجدران؛ إنه يعلم سبب مجيئها هنا. تقف سيارة دوجسون المتنقلة في زاوية مناسبة في مواجهة النافذة التي تعرضت لطلقات نارية. لقد قررت قتل أندرسن، وذلك لمنعه من إلحاق الأذى بأي امرأة أخرى، بكل تأكيد يرتبط هذا الأمر بالصدمة التي تعرّضت لها عندما كانت صغيرة.

والآن، ما الذي يجب عليه أن يفعله؟ يمعن النظر في جميع أنحاء الغرفة. لم يمر أي رجل شرطي هنا! هو أول من وصل، وإذا أراد أن يتصرف، فعليه أن يفعل ذلك على الفور. لقد تضررت الجدران المبنية بألواح من الجص بسبب الرطوبة؛ كسر واحداً من هذه الجدران، وخبأ معطف ديان وحقيبتها خلفها، وقام بإزالة بصمات الأصابع من على البندقية، وجمع كبسولات الطلقات النارية الفارغة، وأزال البصمات من عليها؛ لكنه لم يستطع محو آثار الحمض النووي، وفي أسوأ الأحوال يمكنه أن يتحدث عن علاقته بديان، وأن آثار الحمض النووي كانت موجودة على السلاح عندما تضرر مسرح الجريمة بسبب إهماله.

وما إن انتهى من وضع خطته حتى عاد إلى المخيم. يمر أمام اثنين من زملائه، وينادي عليه أحدهما قائلاً:

- أيها الرائد، وجدنا الشاهد الذي هرب بالسيارة المتنقلة؛ يقولون إن الرجال المقنعين اقتادوا امرأة إلى جانب دوجسون.

- تقول امرأة؟

- نعم، امرأة شعرها أحمر.

## 69

الظلام حالك.

البرد القارس يحيط بديان من كل جانب في تلك الليلة. ها هي تلهث وتتنفس من فمها من شدة البرد. تبدو كأنها تختنق. تريد أن تنهض لكن تم تقييدها من اليدين والقدمين. تزحف بصعوبة على الأرض الخرسانية حتى وصلت إلى الحائط. تستند عليه وتحاول أن تتنفس بهدوء. يرتجف جسدها، ويبدو أنها تشعر بالبرودة والحرارة في الوقت نفسه. تتنفس بسرعة وتشعر بأنها على وشك أن يغمى عليها.

تسمع صوتاً يخيفها! يُفتح باب ويُسلّط على وجهها ضوء قوي لمصباح يدوي. تدير رأسها، وتكتشف من حولها أعمدة من الفولاذ المقاوم للصدأ وأرضية بيضاء. يضربها رجل بحذائه في جنبها بقوة ويجذبها من شعرها لإجبارها على الوقوف على قدميها. يرتدي الرجل سترة خضراء بلون الزيتون، وقد وضع قناعاً على وجهه. يبدو قصير القامة، وممتلئ الجسم. لا تستطيع رؤية وجهه، ورغم ذلك هي ترى شفتيه الحمراوين وأسنانه شديدة البياض كالخزف.

يحملها على كتفيه، وينقلها بسهولة خارج الغرفة، وبينما كان رأسها مائلاً إلى الخلف؛ إذ بها ترى من خلال ضوء مصباحه اليدوي المرتعش الأضرار التي أصابت الجدران المبنية بألواح من الجص، وترى أيضاً النوافذ التي تم طلاؤها بوساطة بخاخ أسود اللون.

يفتح الرجل الباب في نهاية الممر، وكانت الغرفة الخلفية مضاءة بمصباح نيون يستعمله عمال البناء، معلق على مسمار. تشمّ رائحة غاز الأمونيا النفاذ، وتلوي رقبتها لتنظر حولها. توجد خطاطيف معوجّة مثبتة في الأسقف وأنابيب مياه كبيرة على الأرض. كان البلاط أزرق اللون، كما أنها شاهدت منشاراً كهربائياً وسكاكين وآلات تفرم اللحم مترتبة في صفوف في خزانات مخصصة للتعقيم. هذا المكان يشبه مسلخاً مهجوراً!

أنزلها الرجل من فوق كتفيه، وأجلسها على كرسي خشبي أمام طاولة تقطيع. يقف خلفه رجل بشع إلى حد كبير. يبدو أنه ضخم وسمين. حاجباه كثيفان، وأسنانه صفراء، وعيناه جاحظتان، وما إن حدقت النظر إليه حتى أدركت فجأة أنه لا يخشى من وصفها وجهه!

هذا يعني أنه ليس في حسبانه أن يتركها حية!

تسأله:

- من أنت؟ لماذا هاجمت المخيم؟

يصفعها بقوة على وجهها، وقوة الصفعة أفقدتها توازنها، وجعلتها غير قادرة على الوقوف؛ لأن يديها كانتا مقيدتين خلف ظهرها. تسقط على الأرض، ويصطدم رأسها بالخرسانة بسبب هذه الصفعة الشديدة.

ردّ عليها هذا الرجل الغليظ بلكنة سلافية:

- أنا الذي أوجه الأسئلة، وليس أنت!

يمسكها الرجل ذو الأسنان البيضاء كالخزف من شعرها مرة أخرى، ويضعها على الكرسي. تتفحص ديان الغرفة بعينيها. يوجد هناك مخرج، كما توجد في إحدى زوايا الغرفة زجاجات فيها منظف صناعي ومادة الكافور.

- أنت قتلتَ ناتاشا.

- تعلمين ما الذي فعلته بها. إذا كنت لا تريدين أن ينتهي بك الأمر مثلها ومثل الأخريات، يتحتم أن تجيبي عن أسئلتي.

لماذا فعلت هذا بهم؟!

يصفعها مرة أخرى على وجهها، فتسقط على الأرض. يجذبها الرجل الآخر مرة أخرى كي تقف. تقبض يداه البيضاوان كالطباشير على كتفها بقوة، ويجلسها على الكرسي. يوجد وشم طويل على شكل خنجر ملفوف عليه ثعبان على أحد ساعديه.

يكرر هذا الرجل الفظّ كلامه:

- أنا الذي يطرح الأسئلة وليس أنت.

سأرد على أسئلتك على أي حال. راقبنا أندرسن مدة ثلاث سنوات، لأننا اعتقدنا أن زوجته على قيد الحياة، وأنها سوف تتصل به مرة أخرى. وفي كل مرة يجد فتاة تشبه أليس كنا نتحقق من أنها ليست هي، يخشى رئيسنا أن تحصل أليس على هوية جديدة لو أنها خضعت لعملية تجميل، ولذلك يقابلهنّ بنفسه. كان علينا قتلهنّ، والتخلص منهن بهدوء، لكيلا يتم الربط بينهن، ولهذا قمنا بتنويع طريقة القتل.

- أنت قذر وحقير...

يصفعها مرة أخرى على وجهها، ولأنها لم تسقط على الأرض، يصفعها من جديد، وعندئذٍ تسقط ويرتطم رأسها بالأرض مرة ثانية،

بينما يجبرها الرجل الذي يقف خلفها على الجلوس على الكرسي، ويواصل الرجل السمين كلامه:

- أريد منك أن تخبريني أين يوجد أندرسن.

تتساءل ديان في نفسها بسرعة، قدر استطاعتها، لماذا يحتاج هذا الرجل الفظّ معرفة مكان وجود المحامي؟!

يأمرها قائلاً:

- هيا أجيبي عن السؤال. (وكأنه يستطيع قراءة الأفكار التي تدور برأسها)

تبلع ريقها بصعوبة، فتشعر بطعم شيء معدني في فمها؛ إنه طعم الدماء.

- لماذا يبحث عنه؟!

تغمض عينيها، وتضغط على فكيها، وتنتظر صفعة لم تُوجّه بعد إليها. يكتفي الرجل الفظّ بالكلام في هذه المرة.

- لقد سرقت أليس أندرسن بعض المعلومات، ويجب أن أستعيدها، ومن الممكن أن يساعدنا زوجها في العثور عليها. أين هو إذاً؟

تعتقد ديان أنها لو كانت تعرف مكانه، لكان قد مات في الحال! تلتقط أنفاسها بعمق، وهي تحاول التخفيف من حدة اصطكاك أسنانها قبل أن ترد.

- هيا تكلمي أيتها الخنزيرة الكبيرة.

لم يضربها الرجل الفظّ؛ لكنه وقف وبدأ فركَ راحتي يديه إحداهما بالأخرى.

- أعتقد أنّ من الواجب علينا أن نتحرك بأقصى سرعة.

هذه المرة، أجلسها شريكه بيديه الباردتين على الكرسي ليمنعها من السقوط على الأرض.

## 70

يقود بيرجر سيارته العائلية الكبيرة بأسرع من أي وقت مضى، ويقول لنفسه إن العثور على قاتل الفتيات اللاتي يشبهنَ أِليس يعني العثور على ديان؛ هكذا تسللت هذه الفكرة إلى عقله كما تتسلل وساوسه إليه خلال صلاته.

انطلق مباشرة إلى مدينة نانتير، حيث يوجد مقر القسم الفني التابع للمكتب المركزي لمكافحة الجريمة المرتبطة بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات؛ فجميع رجال الشرطة هنا خبراء في تكنولوجيا المعلومات، ولديهم أحدث برامج التحريات، ويحتاج بيرجر إلى واحد منهم لتطبيق فكرة يمكن أن ينقذ بها ديان.

اجتاز عمليات التحقّق من الهوية بسرعة، وطلب التحدث فوراً إلى رئيس القسم. تم اصطحابه إلى مكتب سيدة تبلغ من العمر نحو أربعين عاماً، صففّت شعرها على شكل ضفائر أفريقية، وطرحته خلف ظهرها. تضع نظارات كبيرة. تم تثبيت شاشتين كبيرتين أمامها، ويكتظ جزء من الغرفة بهياكل أجهزة كمبيوتر أجزاؤها شبه مفككة.

يلوّح بيرجر بهاتفه. تظهر على الشاشة صورة لكريستيان أندرسن تفسّر المقال الذي كُتب في مجلة المخبر الفرنسي بعنوان «قاتل النساء حر طليق».

- هذا الرجل اختطف زميلة للتو. أريد أن أعثر عليه، ولا أريد أن تضيع دقيقة من وقتي؛ يستخدم موقعاً على الشبكة العنكبوتية متخصصاً

في البحث عن المفقودين من أجل العثور على ضحاياه. أريد الاستماع إلى بريده الصوتي. أيمكنكِ أن تفعلي ذلك؟

لم تتردد الشرطية لحظة، فيعطيها بيرجر العنوان. تكتب بأصابعها الطويلة الداكنة على لوحة المفاتيح العاجية، خلال الوقت الذي شرح فيه باختصار دوافع ونتائج تحقيقه، واستطاعت بالفعل الدخول إلى بريد أندرسن الصوتي.

يسألها:

- متى كان اتصاله الأخير؟

- أمس.

يراجعان الرسائل التي تلقاها أندرسن؛ معظمها عبارة عن بلاغات عن زوجته، وصور تم التقاطها بهاتف محمول. يُعتقد أن هذه هي الطريقة التي يجد بها فريسته، فلديه ملايين من الجواسيس من أجل اقتفاء أثر شبيهات أِليس. إن هذا الأمر يجعله يشعر بقشعريرة في جسده.

- ستقومين بإنشاء حساب وإرسال بريد إلكتروني إليه، ومن ثم أخبريه أنك وجدت زوجته.

- هذا الرأي غير جيد؛ الأفضل أن أخترق حساب مستخدم آخر؛ ليكن حساب أحد الذين أرسلوا إليه رسالة لتشجيعه في بحثه عن زوجته.

- لا مانع لدي.

تخترق حساباً وتكتب رسالة بسرعة.

يقول والروس: عزيزي السيد أندرسن. ترددت كثيراً قبل أن اتصل بك مرة أخرى؛ لكن لدي سبب وجيه للاعتقاد بأنني رأيت زوجتك. اتصل بي في أسرع وقت ممكن. تحياتي، والروس.

- حسناً، أضيفي بعض الأخطاء الإملائية وأرسليها.

تنفذ الشرطية الأمر.

تقول الشرطية:

- رده لا يمكن أن يتأخر بما أننا أرسالنا الرسالة. يبدو أن أندرسن يتصل بالإنترنت كل يوم نحو الساعة الرابعة مساء.

تشير ساعة الحائط إلى أننا في الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر. ربما يحالفه الحظ في المرة القادمة.

تقترح عليه:

- هل أدعوك لاحتساء فنجان قهوة طالما نحن ننتظر؟

يحتسي بيرجر ثلاثة أكوب قبل أن تظهر الرسالة على الشاشة.

أندرسن 1، يقول: صباح الخير يا والروس. أمعك صورة؟

تعلق الشرطية:

- بكل بساطة، يبدو عليه الانفعال، ما الذي أقوله له؟!

- سنحاول خداعه. اكتبي ما أمليه عليك:

والروس: أعتذر لك، لا يمكنني الاستمرار. يجب أن أعود إلى العمل.

أندرسن 1: أيمكنك إخباري بالعنوان على الأقل؟

والروس: أود أن نتحدث معاً أولاً.

أندرسن 1: متى؟

والروس: غداً؛ إلا إذا كنت تفضل المجيء لمقابلتي. أنا أعمل في مقهى.

أندرسن 1: أين؟

- وقع في الفخ.



يكتب بيرجر عنواناً على ملصق.

- في مقهى. أعطه موعداً هناك في غضون ساعتين.

بعد فترة، يشعر الرجل الفظ بالتعب من ضربه لديان. يجلس على الكرسي، ويمسح العرق من فوق رأسه الكبير. يُخرج هاتفه من جيبه ويتصل بشخص ما. لم تفهم كلمة واحدة من كلامه! إنهما يتحدثان باللغة السلافية.

أصبح وجهها شديد الحمرة، وتشعر بطنين في أذنيها. ينحني الرجل ذو البشرة السوداء إلى الأسفل، ويمسح وجهها جرّاء تدفق الدم منه. ترتجف من الخوف، ورغم ذلك هي تفضل الضرب على هذا الأمر.

يعلق الرجل الفظ بحدة:

- التمسي له العذر، هو لا يتكلم لغتك، إنه يحاول أن يجعلك تفهمين؛ سأجعله يعاقبك إذا لم تخبريني بكل شيء أريد أن أعرفه. لقد حددنا موقع أندرسن لكننا ما نزال نفتقد ذلك الغجري.

كان على ديان أن تتأسف حتى لا يسألها عن مكان وجود المحامي.

- نحن بحاجة إلى ستريجا أيضاً. هل لديك أي فكرة عن مكان وجود رومانو الحقير؟ لقد كنت ذكية بما يكفي للعثور على دوجسون بعد كل الذي حدث.

تفكر ديان في الرجال المسلحين، الذين ضربوا الطبيب، وفي طريقة تجولهم حول المخيم كجنود مدربين. تتذكر أنها رأت رجالاً يتحركون بهذه الطريقة في الفترة الأخيرة؛ إنهم الحراس الذين يرتدون أقنعة تشبه الكلاب عند إتيان دو فينيول.

تسأله:

- أأنت الذي قتلت شريك أندرسن؟

يتطاير الشرر من عيون الرجل الفظ.

- أنا الذي أطرح الأسئلة وليس أنت.

يربطها الرجل الذي يقف خلفها بطاولة معدنية. يقف الرجل الفظ، ويسحب سكيناً من إحدى خزانات التعقيم.

تصرخ في وجهه:

- ما الذي ستفعله؟!

- يضغط الرجل ذو الأسنان البيضاء بكل قوته على رأسها. يرتطم جانب وجهها الأيسر بالعمود الفولاذي البارد المقاوم للصدأ.

تصرخ ديان في وجهه مرة أخرى:

- ما الذي ستفعله؟!

تتلقى لكمة قوية جداً في جانب بطنها.

- قلت لك إنني أنا الذي أطرح الأسئلة. أين ستريجا؟

تلتقط أنفاسها بصعوبة، وينتفخ جلد رقبتها. يرتجف جسدها كله، ولا تستطع رؤية يديها. شعرت بأصابعهِ الكبيرة تمسك بمعصمها وتشد يديها وتضع راحة يدها اليمنى وتُثبتها بقوة على الطاولة.

- أين ستريجا؟

- أنا... أنا لا أعرف.

يطلق النار على إصبعها الصغير، ثم يضع نصل السكين أعلى العظمة السلامية البعيدة للإصبع.

- أريد أن أعرف مكان وجود هذا الغجري الحقير.

- أنا... أنا لا أعرف أين يوجد. لماذا أكذب؟ أنا... لا، لا، أهذا سؤالك؟!

تصرخ ديان، تحسّ بنصل السكين على جلدها فيقطع الأعصاب والغضاريف. تشعر بألم شديد في رأسها إلى درجة لا تُحتمل؛ بدا أنها سيغمى عليها، عندما وصل النصل إلى مستوى العظم. فصل الرجل الفظ السلاميات بعضها عن بعض باستخدام السكين، ثم قطع إصبعها الصغير بضربة قوية، وأصبح هذا الإصبع معلقاً فقط بوساطة نسيج من اللحم الحي، بعد ذلك طرحها على الأرض مثل دمية محطمة!

يحرك إصبعه في حوض صدئ، ويقول:

- القِ بها في هذا المكان المظلم. سنقطع كل أصابعها إذا لزم الأمر كي تخبرنا بما نريد أن نعرفه.

## 72

يقترب الموعد المحدد.

بينما يضع إريك بيرجر الراديو في راحة يده بعصبية، يتّصل العشرات من رجال الشرطة، الذين يرتدون ثياباً مدنية بشبكة الاتصالات اللاسلكية للشرطة الوطنية الفرنسية، وينتظرون تلقيهم الأوامر بإغلاق المخبأ الغامض الذي يقع بجوار المقهى. لن يستطيع أندرسن الإفلات.

صوت أحد رجال الشرطة يرتفع في الميكروفون:

- من الشرطي السادس. إنهم يتحركون في شارعنا.

يمسك المنظار. يقف ويشاهد من خلال نوافذ الشقة غير المأهولة مكاناً خالياً من أيّ عوائق يطلّ على السطح والشوارع المجاورة. تظهر امرأة شقراء ترتدي بلوزة خفيفة مكونة من قطعتين متقاطعتين. يسمع صوت إنذار خاطئ، ورغم ذلك لم يرفع عينيه عنها. تذهب إلى المقهى،

فلا يعجبه هذا. يوجد بالفعل أناس كثيرون على السطح، وتتضاعف المخاطر نتيجة للمخبأ الغامض. يختبئ المتواطئون. يُحتمل وجود رهائن. يضطرب الشهود. يمثل هؤلاء المدنيون عوامل إزعاج مستمر. يحب عليه أن يتعامل مع الوضع القائم. لا يستطيع منع الناس من التسكع، وهم يشربون.

- انتبهوا جميعاً. تقترب سيدة.

تقف المرأة في منتصف الساحة، وتُخرج هاتفها وهي تستدير.

يغمغم بيرجر بكلمات غير مفهومة:

- لا تتوقفي، لا تتوقفي... أيعقل هذا؟!

تجلس المرأة أمام طاولة فارغة. تتلقى الشرطية التي تقوم بدور خادم الزبائن في المقهى الأمرَ، ويراقبها بيرجر بالمنظار.

- من الشرطي رقم اثنا عشر. إنهم يتسكعون على السطح منذ وقت طويل. ما هذا؟

- نعم، الشرطي رقم ثمانية عشر. يرد الشرطي المكلف بالاستماع إلى الميكروفون الموجود مع الشرطية التي تقوم بدور خادم الزبائن؛ إنها تتحدث إليه عن شبكة الاتصالات اللاسلكية للشرطة الوطنية الفرنسية.

- ماذا؟

- تقول إنها هي التي كانت ترد على الرسالة.

- مستحيل... تقول كل الرسائل. أتعرف مكان أندرسن؟

تستمع الفرق إلى الإجابة نفسها الواحدة تلو الأخرى: لا أحد يعرف مكان أندرسن نهائياً.

- الشرطي رقم ثمانية عشر. كيف كان تعامل الملازم على السطح؟

- من الشرطي رقم ثمانية عشر. إنها ترتجل.

- بشكل جيد أم بطريقة سيئة؟

- بطريقة سيئة. الشرطي رقم اثنا عشر. ماذا نفعل؟ أنتدخل؟

يأخذ المنظار ويتفحص بعينيه المكان. لا أثر لأندرسن. تترك الفتاة الكرسي الذي تجلس عليه.

- من الشرطي رقم أربعة عشر. لقد مرت من أمامنا، ما الأوامر أيها الشرطي رقم اثنا عشر؟ أَنوقفها أم ماذا؟

- إلى الشرطي رقم أربعة عشر، أوقفها حالاً. (يصرخ في جهاز الراديو الخاص به، وهو يسرع الخُطا إلى السلم).

ينزل بيرجر بسرعة شديدة على الدرج، وهو يقفز على كل أربع درجات، وما إن وصل إلى الساحة حتى وجد فريقه قد أوقف السيدة غير المعروفة بالفعل، وقاموا بتقييد يديها خلف ظهرها.

تصرخ في وجوههم:

- أنتم تؤذنني.

يسألها بيرجر:

- من أنتِ؟

تضع السيدة مساحيق التجميل بشكل مفرط، وترتدي فستاناً متعدد الألوان. تقول إن اسمها جوديث، وتدعي أنها سكرتيرة أندرسن.

- رئيسك مطلوب القبض عليه لارتكابه جرائم قتل متعددة. ما الذي تفعلينه هنا؟

- أنا... أنا...

يمسكها بيرجر من ذراعها، ويصرخ في جهاز الراديو الخاص به بصوت عالٍ.

- إلى الجميع. استمروا في المراقبة، سأصطحب المشتبه فيها إلى مكان آخر لاستجوابها.

وبينما يعود فريقه إلى أماكنهم، يسحب بيرجر السكرتيرة من دون احترام بعيداً عن مقر الشرطة.

تحتج جوديث وتقول:

- أنت تؤذيني.

- أنت في ورطة كبيرة أيتها الصغيرة.

أنت متواطئة في قضية قتل. أتفهمين ما الذي يعنيه هذا الأمر؟!

- أنا... كنت أريد فقط مساعدة السيد أندرسن.

- أهو الذي طلب منك أن تأتي؟

- طلب مني الدخول إلى بريده الإلكتروني أثناء غيابه في حال قام شخص ما بالإدلاء بمعلومات عن زوجته...

- لا داعي للكذب عليّ. لقد تم دفنها منذ أكثر من أسبوع.

وهكذا جعل صدر السكرتيرة يعلو ويهبط بشكلٍ مُتسارع جرّاء صعوبة في التنفس واجهتها.

يسير بيرجر ببطء..

- أعرف... أعرف؛ لكنه أخبرني أن بعض النساء قُتلنَ على يد رجل وأنه... كان يجب عليّ أن أحذرهن... من شخص ما سيحاول قتلهنّ.

- لماذا لم تتصلي بالشرطة؟

- لا أعرف، أنا... أخاف أن تحدث لي مشاكل. لا أريد أي مشاكل مع الشرطة. أتسجنني؟

- ممكن جداً.

- لكنني لم أرتكب أي جريمة!

وصلوا إلى سيارة شرطة مدنية. يفتح بيرجر الباب الأمامي، ويطلب من جوديث أن تجلس على المقعد الجانبي؛ حيث تكون ساقاها خارج السيارة. يجلس أمامها ويراقبها عن كثب.

- أين أندرسن؟

تخفض جوديث رأسها:

- لا أعرف...

- وأنا أعتقد أن العكس هو الصحيح.

- لقد طلب مني أن أتابع بريده الإلكتروني فقط...

- يا جوديث. إن أندرسن قاتل. لا تضيعي مستقبلك من أجله.

تعض جوديث على شفتها:

- أنا أعرفه. لم يرتكب جرماً، ولم يقتل أحداً.

- لا تخطئي في حق نفسك. لقد قتل الكثير من النساء، كما أنه قتل شريكه السابق المحامي باتيستي.

- أندرسن لم يقتل فرانك صديقه، ولهذا السبب أنا أساعده. أريد أن يتم القبض على القاتل الحقيقي.

يحدق بيرجر النظر إليها. تبدو مقتنعة بما تقول. إن أندرسن مخادع من الدرجة الأولى.

يسألها بيرجر:

- كيف اتصل بك؟

- بالهاتف.

- هل لديك رقم هاتفه؟

- لا أهمية للرقم؛ فهو يغير أرقام الهواتف بانتظام.

يشعر بيرجر بألم في بطنه. ما يزال يفكر في ديان. أهي مسجونة في مكان ما؟! يجب أن يجعل السكرتيرة تتحدث وبسرعة.

- إذا كنت تعرفين مكانه وتخفينه عنا، فسيتم سجنك فترة طويلة يا جوديث، وإذا كان متهماً فعلاً، وفي حال تم العثور على ضحية جديدة، فسيكون خطؤك أنت. أتشعرين أنك قادرة على تقبّل هذا الأمر؟

تجلس جوديث على المقعد.

- الأفضل لأندرسن أن يسلم نفسه للشرطة، فإذا كان بريئاً فستتاح له الفرصة لإثبات ذلك، ولهذا سأطرح عليك السؤال مرة أخرى: أتعرفين مكانه؟

تخفض جوديث رأسها وتبدأ البكاء بقوة...

- أعتذر، أنا... أنا أردت فقط مساعدته... طلب مني أن أحضر إليه بعد ساعتين... قال إنه تمكن من الحصول على دليل يسمح بتبرئته؛ لكن كان عليّ أن أنضم إليه بمفردي... طلب مني أن أحتفظ بهذه الأدلة في مكان آمن.

يتساءل بيرجر عن أهمية هذه الأدلة. نعم، أندرسن هو المتهم، ولا شك في ذلك قطعاً!

يسألها بيرجر:

- أخبريني عن المكان الذي طلب أن يقابلكِ فيه.

- لا فائدة من ذلك. لقد أقسم لي إنه إذا رأى أي شخص آخر غيري فسوف يهرب ولن يتصل بي مرة أخرى.

يطلب بيرجر من السكرتيرة الوقوف، وهو يفكّ القيود من يديها.

تسأله جوديث:

- ماذا أفعل؟

ينزع بيرجر مصابيح التحذير المرئية المغناطيسية المجهزة لسيارات الشرطة من فوق سقف سيارتهم المدنية التي يستقلونها، ويلقي بها في الصندوق الخلفي.

- سنذهب لمقابلته معاً. أنا وأنت فقط.

أنا لا أفضل المخاطرة؛ لكن إذا هرب المحامي فقد لا يرى ديان على قيد الحياة مرة أخرى.

## 73

ما يزال المتبقي من إصبع ديان المقطوع ينبض، ويشبه حالة المريض الذي يتعرض لصدمات القلب الكهربائية. يعمّ الألم جسدها كله. تمّ إلقاؤها على الأرض. لا تستطيع الحركة نهائياً، وتبدو كمن تجمدت أطرافه من شدة البرد! تذكّرها هذه الحالة بما كانت عليه منذ عشرين عاماً عندما جلست بهدوء أسفل عمود إنارة في الشارع، وقد كان هذا المكان هو الوحيد المضاء على امتداد الطريق الوطني الذي يلف الغابة، وظلت تسير مدة تزيد على الساعة داخل الغابة أسفل أشجارها الصغيرة التي يبلغ طولها نحو أربعة أمتار حتى وصلت هناك؛ حيث تم الاعتداء عليها.

تحاول أن تتكلم بصوت عالٍ؛ لكنه تعامل معها بوحشية. لم تستطع مُجابهتهِ حين مزق ملابسها، ويكون المرء ضعيفًا في سن الخامسة عشرة، يضغط الرجل على حلقها ليمنعها من الحركة ويؤذيها بوحشية.

تشعر بغصة في حلقها للحظات؛ لكن سرعان ما تلاشى الشعور بالألم، ويبدو أنه قد أغمي عليها من شدة الفزع، وكأن الدَوار قد أصاب رأسها. ما تزال أسفل عمود الإنارة، لكن روحها معلقة بمكان آخر! ورغم ذلك هي تشعر كأن قبضة يد قوية تضغط على رقبتها.

وذات مرة، تضاعفت هجماته العنيفة، وقبض بيديه على رقبتها بقوة إلى درجة أنها لم تستطع التنفس، وما إن تطاير الشرر من عينيه حتى شعرت كأنها غائبة عن الوعي؛ أيظن أنها ماتت؟! أكان يتمنى أن تموت؟! تجمدت ديان في مكانها، وما إن أفاقت من غيبوبتها في هذه الغابة المظلمة حتى وجدت الرجل قد اختفى. لا تعرف ما إذا كان تركها من تلقاء نفسه أو أنه اعتقد أنها ماتت. ظلت ديان تتقيأ فترة طويلة قبل أن تتمكن من الوقوف على قدميها. نعم، ينبثق الأمل من أعماق المأساة. ترفض أن تموت في هذا المكان الموحش. تسير وهي تعتمد قدر استطاعتها على قوة ذراعيها إلى أن تلاشى ظلها خلف مصابيح الصوديوم المستخدمة في إنارة في الشارع.

بعد عدة ساعات، تستيقظ ديان وتجد نفسها داخل أحد المستشفيات. تم استبدال فستانها الأبيض والأحمر الصغير، الذي تفوح منه رائحة اللافندر، بملابس المستشفى المخصص للمرضى، وتم سحب عينة دم لفحصها وإعطائها العلاج الوقائي المخصص لمرضى الإيدز؛ لأنها لم تكن تعرف ما إذا كانت مصابة أو لا! ولأن شعرها تأثر بالظروف التي عايشتها في الغابة، فقد قصّت شعرها إلى مستوى قصير جداً، ولبست قبعة صغيرة. أخذت أدوية تساعدها على النوم! من الضروري الكلام مع الأطباء ومع والدتها. يجب أن تستعيد قوتها، وأن تمضي قدماً، على الرغم من أنها تعاني من أزمات نفسية داخلية، ويجب أن تتعايش مع

ذاتها حتى ولو كانت تشعر بالألم يعتصرها! قد يغتسل الإنسان ثلاث مرات في اليوم، ورغم ذلك ما يزال يشعر بأنه غير نظيف! إنها لا تشعر بالأمان بعد الآن. لا تشعر بأنها امرأة. يجب أن تخفي أنوثتها. يجب إخفاؤها تماماً. يجب أن تكون قوية. يجب أن تصبح ملاكمة. يجب أن تلتحق بالشرطة.

لقد نجت من الموت في المرة الأولى؛ لكن هذه المرة لا أمل في البقاء على قيد الحياة. ستموت هنا، وحيدة وسط هذا الظلام الموحش...!

## 74

تجلس جوديث في المقعد الأمامي للسيارة، وتمسك حقيبة يدها الصغيرة الضاربة إلى الحمرة والمناسبة للون حذائها.

- ما الذي بينك وبين أندرسن؟

تنظر جوديث إلى أسفل:

- ما الذي يجعلك تظن بي ذلك؟

- إنه يثق بك. هل طلب منك القيام بأي شيء غير مراقبة بريده الإلكتروني؟

تظل صامتة.

- يا جوديث. من الأفضل أن تخبريني بكل شيء الآن.

- أنا... تقابلت معه في الليلة التي مات فيها فرانك. أخبرني أنه بريء، وأن الأشخاص الذين قتلوا فرانك يريدون أن يقتلوه أيضاً. استقبلته في بيتي، وأعطيته بعض المال، ثم غادر.

- أين تقيمين؟

- في الحي الخامس عشر...
- غادر منزلك في أي وقت؟
- الساعة الثامنة صباحاً تقريباً...
- مستحيل. لقد كان أندرسن في الحي الحادي عشر في ذلك الوقت. خرج من الحمامات العمومية في شارع دو أوبيركام. أنتِ تكذبين!

بدأت جوديث تبكي بقوة، وهي تمسك شعرها الأسود بعصبية شديدة.

يسألها بيرجر:
- هل كُنتما تضطجعان سويًا؟
- لا، أنا... أنا كنت مع فرانك.

(تفتح السكرتيرة النافذة للسماح بدخول الهواء النقي إلى داخل السيارة)
- لا أشعر أنني بحالة جيدة... أيمكنك إيقاف السيارة على جانب الطريق ثانية واحدة؟

توقفت السيارة في وسط القرية، على حافة حقل ذرة.
- ليس لدينا وقت.
- من فضلك... سيُغمى علي...

يدقّ الهاتف في حقيبة السكرتيرة.

قال وهو يشير بيده إلى الحقيبة:
- هاتفك يدقّ.

تفتش جوديث في حقيبتها، وتعطيه هاتفاً صغيراً محمي بجراب أزرق غامق، توجد رسالة تفيد بأن الأشخاص الذي يعملون لحسابها سينتشرون حول دار الأيتام، ونحن في انتظار الأوامر. فجأة يشعر بيرجر

بألم حاد في صدره. ينظر إلى الناحية اليمنى، وهو في حالة من اندهاش؛ تم ضربه بسكين في جنبه. يشعر بالدوار في رأسه، ويريد أن يستعمل مسدسه. تجذبه السكرتيرة من كوعه، وتمسك السكين، وتحاول طعنه في حلقه. يرفع بيرجر ذراعه ليحمي نفسه لكن نصل السكين يقطع جزءاً من ساعده، وقبل أن تضربه مرة أخرى يضغط بقوة على الفرامل، وهو يحرّك عجلة القيادة. يفقد السيطرة على السيارة، وتنحرف ناحية الطريق، ثم تنقلب مرات متعددة...

## 75

ما تزال الغرفة مظلمة وساكنة! كم مرّ من الوقت وهي ما تزال فاقدة الوعي؟! مرّ ربع ساعة؟! أم ساعة؟! تظن ديان أن إريك جاء لإنقاذها، لكنه كان مجرد حلم! لن يأتي. الشيء الوحيد الذي يريح ضميرها هو علمها بأن إريك وكلوي كانا في مأمن من كل هذه الأحداث.

ظلت نائمة بشكل يشبه نوم الجنين وهو في بطن أمه. تم شدّ الحبل حول معصمها بقوة. يتدفق الدم في عروقها بصعوبة. تجمدت يداها من شدة البرد، وتشعر بتنميل في أطراف أصابعها كلها حتى في الإصبع الذي تم قطعه.

تضع يديها بين ساقيها لتدفئتهما، ولأن هؤلاء الرجال كانوا متعجلين، لم يربطوا يديها خلف ظهرها، ولكن من الأمام، إنها تفكر في كل النساء اللاتي قتلنَ على أيديهم. لقد كن عاجزات عن فعل أي شيء كما هو وضعها الآن! هنا يبدأ غضبها يشتدّ..

لا، لا يمكن أن أموت هنا. لا، أنا لست ضعيفة. أنا قوية، كنت دائماً قوية!

لا يوجد شيء في هذا المكان المظلم يمكن أن يقتلني. تبدأ تزحف على الأرض الخرسانية، وتتلمس طريقها في محاولة منها لتتذكر ما رأته في الثواني البسيطة عندما أضاء الحارس الغرفة. طاولات معدنية، وأنابيب مكسورة، وبلاط متشقق، كأنها موجودة في مسلخ مهجور. بالمصادفة تلتقط ديان أداة حادة من مكان ما. تحرك يديها في كل مكان، وما إن لمس جلد إصبعها المقطوع سطحاً ما حتى شعرت كما لو أن تياراً كهربائياً يمس جسدها؛ لكنها لم تتوقف؛ إنها تشعر بشيء ما حتى مع الألم؛ ما تزال تشعر أنها على قيد الحياة!

أخيراً، تعثر على بقايا قطعة من الخزف، وبدأت قطع الحبال حول ساقيها. استغرق الأمر منها بضع دقائق فقط، وما إن تحررت قدماها حتى استطاعت أن تجلس على الأرض. وضعت قطعة الخزف بين نعلي حذائها، وحاولت قطع الحبال حول معصمها، ولكن قبل أن تنتهي من قطع الحبال، سمعت صوت صرير الباب وهو يُفتح. أضاء نور المصباح الغرفة المعتمة. تضغط بسرعة على كاحليها ليبدوا كما لو أنّهما ما يزالان مقيدين، وتستلقي على جانبها.

يقترب منها الرجل السمين، وينحني ليرفعها من على الأرض، ولكن في اللحظة التي كان وجهه منخفضاً فيها بما فيه الكفاية، تستدير ديان حول نفسها، وتضع قدميها فوق رأسه، فكان تأثير هذه الحركة عنيفاً بدرجة لم يسبق لها مثيل! يسقط الرجل على ظهره، ومن دون إعطائه الوقت الكافي للرد، تتدحرج على ظهرها، وتقف، ثمّ تركله بقدمها في وجهه على الرغم من هذا الظلام! بدا الأمر كأنها تحاول سحق حشرة كبيرة.

حتى وإن لم تستطع رؤيته؛ كان يصرخ من الرعب في كلّ مرة تصيبه بنعل حذائها في أنفه أو رأسه، ولم تتوقف عن الضرب إلا عندما بدأ الدم يسيل بغزارة في المنطقة التي يضيئها المصباح.

أخذت ديان المصباح، وركضت نحو الباب. كانت على وشك الوصول إليه عندما دخل الرجل الفظ. اصطدما بعضهما ببعض، وكان ضخماً جداً إلى درجة أنّه لم يهتز، تقريباً، عند الاصطدام! تسقط ديان، ويقع المصباح على الأرض، وينكسر. أصبحت الغرفة مظلمة مرة أخرى ومرعبة. لم يتمكنا من رؤية أيّ شيء، يمكن فقط سماع صوت تتابع أنفاسهما بسبب الإعياء، وبدا نَفَس أحدهما متقطعاً، والآخر كأنه مكتوم وثقيل مثل هدير الحيوان. تمشي ديان على أطراف أصابعها في محاولة منها لتهدئة تنفسها؛ في حين كان الرجل الفظ يتحرك، ويتنفس بصوت عالٍ، كأنه يحاول معرفة مكانها. تحاول الالتفاف حوله للخروج من الباب، ولكن ما إن اصطدمت بطاولة حتى أمسكها بيديه الكبيرتين، وضغط على حلقها ليخنقها.

- ستموتين الآن، مثل...

يصرخ ويتركها فوراً؛ لأنّ ديان سدّدت إليه ضربةً قوية أسفل بطنه بقطعة الخزف التي تمسكها بيدها. تلتف حوله بسرعة، وتقفز على ظهره، وتضع يديها المقيدتين حول رقبته لخنقه. يحاول الرجل الفظ إبعاد يديها عن حلقه، لكن بسبب الحبال البلاستيكية لم يتمكن من فصل معصمي ديان بعضهما عن بعض، وتضغط بقدميها فوق بطنه الكبير، ثمّ تتراجع بقوة، فيسقط الرجل أرضاً، وتقاوم، بكلّ ما أوتيت من قوة، لكي تتحمّل تأثير سقوط هذا الرجل الذي يزن نحو مئة وأربعين كيلوغراماً على الأرض الخرسانية.

يرتطم رأسها بالأرض، فتشعر بدوار؛ لكنها تقاوم حتى لا تغيب عن الوعي. لقد استنفدت طاقتها كلها في هذه المعركة؛ ذراعاها ترتجفان بسبب الحبال التي أثرت في جلدها حتى نزف الدم. يتحرك الرجل الفظ مثل الوحش الكاسر لثوانٍ معدودة، ثم فجأة يتوقف عن الحركة! تنتظر ديان بضع ثوانٍ أخرى.. تنزع القيود البلاستيكية من حول رقبته السمينة، وها هي الآن، بعد أن تخلصت من هذا الخنزير السمين الذي سجنها، تشقّ طريقها نحو باب الخروج...

في الممر، تصطدم بالنوافذ المطلية باللون الأسود. تلتقط حجراً، وتكسر أحد ألواح النوافذ الصغيرة، فيخترق شعاع ضوء خافت الظلام. تكسر لوحاً ثانياً وثالثاً، وهكذا... ونتيجة لما فعلته مع هذه النوافذ تغمر أشعة الشمس الناعمة والدافئة وجهها كله، وما إن رأت السماء حتى جثت على ركبتيها. في هذه اللحظات تشاهد الرجال الثلاثة المقنعين في الطرف الآخر من الغرفة، ومعهم بنادق بماسورة بفوهتين موجهة إليها!

اعتبري نفسك في عداد الموتى هذه المرة. يطرحها أحد الرجال على الأرض، ويضيء الرجل قائد المجموعة مصباحه اليدوي، ويدخل الغرفة حيث يوجد الرجل الفظ.

يقول:

- إنه هنا.

يسأله أحد الرجال الآخرين:

- هل مات؟

- يبدو أنه لم يمت.

ينحني قائد المجموعة المقنّع على الرجل الفظ، ويأخذ من جيبه زجاجة بلاستيكية مليئة بسائل بني صبه عليه، ثمّ أشعل عود ثقاب.

- ماذا نفعل بالشرطية؟

يرد عليه، وهو يلقي عود الثقاب على جسد الرجل الفظ:

- سنأخذها معنا.

قبل لحظة من تغطية رأسها بكيس من القماش، تشاهد ديان جثة الرجل الفظ الذي عذبها ممدداً على الأرض، وهو يصرخ من شدة الألم، كأن أوداجه قد انتفخت. تسمع ديان دويّ انفجار، ويسحب الرجال المقنعون هذا الرجل في الممر. يُصدر الباب صوتاً خفيفاً ثم يُفتح، فتشعر بهواء رطب على جلدها.

الآن هي في الخارج. تسمع من على بعدٍ دويَّ انفجار آخر، لكنه ضعيف. يأخذها الرجال إلى السيارة. تجلس في المقعد الخلفي، وتفوح من أحدهم رائحة لحم متفحم قذر. يقود السيارة، وينطلق بعد لحظات.

تطلب ديان منه:

- انزع هذا الكيس السيئ من على رأسي.
- أغلقي فمك إذا كنت تريدين البقاء على قيد الحياة.
- لن تقتلني.
- ألم تشاهدي ما فعلته بهذا الخنزير السمين؟!
- أعرفك من صوتك يا ستريجا. أرني وجهك.

تسمع بعض الشتائم باللغة الرومانية. تمّ نزع الكيس من على رأسها، فعرفت الآن أنها تجلس في سيارة مرسيدس قديمة، وأن ستريجا هو الذي يقود السيارة. يضع قناعه فوق مقعد السيارة الجانبي، وفي السيارة السوداء التي أمامهم يصطحب الغجر الآخرون دوجسون.

- أنت أيها الحشرة. أنت محظوظ. كان من الممكن أن أقتلك!
- كيف عرفت مكاني؟

- تاتا لديه جهاز تعقب طوال الوقت. عندما رجعت إلى المخيم، جمعت بعض الرجال، وذهبت لاقتياده.

السيارة الأخرى انطلقت، وغادرت المسلخ المهجور.

- ماذا يعني هذا اللقب «تاتا»؟

- يعني أبي.

- وأين هو شقيق زوجتك؟

ظل الغجري صامتاً.

- أعلم أنك تخفيه؛ لكن أولئك الذين اختطفوني اكتشفوا مكانه.

- كريستيان حدثني عنك. إن كل ما تريدينه هو إلقاء القبض عليه. أعتقد أنك تريدين مهاجمته.

ضبط ستريجا المرآة داخل السيارة حتى يتمكن من مراقبتها أثناء القيادة، ثم شغل المحرك، وانطلق.

- استمع إليّ. إن الرجل الذي عذبني قال إنه وجد أندرسن. أتفهم ذلك؟ سيقتلونه، يجب أن نذهب لمساعدته، نتصل به على الأقل!

## 76

السماء سوداء ورمادية. الأمطار الغزيرة تتساقط على دار الأيتام. يختفي أندرسن داخل أحد المباني ليحمي نفسه. في غرفته القديمة، ينسخ المستندات من على أسطوانة التخزين الصلبة الخاصة بأِليس إلى جهاز كمبيوتر؛ فبمجرد نشر هذه المستندات على الإنترنت لن يستطيع فينيول أن يخفيها.

يعتزم أندرسن استدراج المحامي إلى دار الأيتام من خلال صفقة بينهما؛ الأدلة مقابل الحصول على البراءة في قضية مقتل باتيستي، ولضمان أن فينيول لن يوجّه إليه أصابع الاتهام مرة أخرى. تم ترتيب اللقاء في القصر المهجور بجوار دار الأيتام، وبمجرد دخول فينيول ورجاله يتمّ نسف المكان بالمتفجرات. لقد سرق ستريجا بعضاً منها من هذا المبنى المتهدم منذ سنوات، وكان أندرسن يخزنها في مخزن الحبوب بالقصر، وبدأ في تثبيتها بمجرد اكتمال التنزيل.

يُسمع صوت طنين يغطي على صوت هطول المطر على السطح. يدق الهاتف الذي أعطاه إياه ستريجا على الطاولة المتهالكة، التي كان يؤدي واجباته المدرسية عليها عندما كان طفلاً، ويلاحظ من خلال الهاتف أنّ الغجري حاول الاتصال به أربع مرات، وبينما كان أندرسن على وشك الاتصال به مرة أخرى، لفتت انتباهه حركة في حدود مجال رؤيته، وما إن استدار نحو باب الغرفة حتى كاد يقفز عندما رأى خيالاً مألوفا له!

يتساءل أندرسن:

- أنت جوديث؟

كانت ترتدي بذلة رياضية سوداء، وكان شعرها مشبوكاً بشريط مطاطي بسيط، على عكس ما كانت معتادة عليه. لا تضع مساحيق تجميل، لا تتكلف، وتبدو على وجهها الحدة والشدة، وأصيبت بجروح وكدمات في جبهتها.

- ما الذي حدث... ؟!

لم يُنهِ أندرسن كلامه. تمسك جوديث في إحدى يديها سكيناً، وفي اليد الأخرى مسدساً صغيراً أسود اللون.

قالت وهي تصوّب المسدس نحوه:

- أعطني الهاتف يا كريستيان.

كان صوتها حازماً وبارداً! يضع أندرسن الهاتف جانباً.

- حسناً. الآن ضع وجهك في مقابل الحائط.

يطيعها أندرسن، ويتراجع وهو يحكّ ظهره بنسيج متهالك برز من بين الحواجز كما يبرز النسيج الوعائي الرقيق الذي يوصّل الغذاء للنبات. تدخل جوديث الغرفة. يتكسر الزجاج المحطم تحت نعلها الذي يشبه حذاء الجند، وتضع يدها اليمنى التي تمسك بالمسدس على معصمها الأيسر؛ حيث يكون اتجاه السكين إلى الأمام؛ فيدرك أندرسن ببطء أن جوديث التي كان يعرفها لم يعد لها وجود!

فمساحيق التجميل الزائدة على الحد التي تستعملها كانت عبارة عن تمويه تكتيكي، وملابسها الأنيقة كانت مثيرة. لم تكن جوديث مجرد سكرتيرة، إنها قاتلةٌ مُحترفة كانت تراقبه منذ شهور تترصد مُنتظرةً أن يميط اللثام عن الأدلة حتى يتسنى لها أن تحصل عليها.

بمجرد أن تأكدت أنه بمفرده في الغرفة، وضعت السكين في جراب متّصل بظهرها، ثمّ مزقت الكابلات التي تصل القرص الصلب بالكمبيوتر، وأخذته معها.

- قالت وهي تحمل الصندوق المصنوع من البلاستيك: أعتقد أنّ هذه الحيلة التافهة هي التي تسببت في الكثير من المتاعب.

يقول أندرسن: يجب أن أجعلها تتحدث، سيعود ستريجا قريباً بكل تأكد. يحاول فقط كسب الوقت إلى أن يصل الغجري.

يسألها:

- كيف عرفتم مكاني؟

- لدى فينيول عشرات الأشخاص، الذين يعملون ليل نهار في اقتفاء أثرك، ولديهم ميزانية لا حدود لها؛ إذاً كانت مسألة وقت فقط ليكتشفوا مكانك.

وضعت جوديث القرص الصلب والكمبيوتر المحمول في حقيبة كاكي تحملها على كتفها، وما إن حدق أندرسن النظر إلى المسدس في يدها حتى شعر بقشعريرة تجري في جسده.

- يقول لها بصوت بارد:

- أنت قتلت فرانك وموريس.

عقله الباطن يريد منها أن تقول لا. ستقول لا بكل تأكد. لم يكن بإمكانها مقابلة باتيستي طوال هذا الوقت و...

ردت وهي تبتسم بحزن:

- أعترف بالجرم، أيها المحامي؛ لكن المحقق الخاص الذي يعمل لحسابك كان فضولياً جداً. أما عن مقتل فرانك... فيمكن عدّه شيئاً ثانوياً.

- تقولين شيئاً ثانوياً؟!

نوبة الغضب أصابته بالذهول! زادت نبضات قلبه، وبدأ يشعر بألم شديد في رأسه.

يصرخ أندرسن في وجهها:

- لماذا قتلته؟!

يقبض على كلتا يديه بقوة، وسرعان ما تحول الغضب منها إلى كراهيتها. ينظر إلى كومة من الحجارة بجانبه. يلاحظ وجود حجر كبير أعلى هذه الكومة.

- لم يفعل شيئاً... ولم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل!

- قالت له وهي تصوب مسدسها نحو صدره. حافظ على هدوئك يا كريستيان.

أصابه الذهول نتيجة تداخل مشاهد عنيفة في رأسه! يلتقط حجراً، ويقذف به جوديث. أصابها في وجهها حتى نزفت؛ لكنّه انتظر حتى أدارت رأسها، وارتكبت خطأ. يحاول احتواء غضبه وسخطه حتى يطلق سراحها في الوقت المناسب. سينتهز الفرصة.

أخرجت جوديث جهاز اتصال لاسلكي من حقيبتها، ووضعته أمام فمها.

- حسناً. ألقيت القبض على أندرسن ومعي الأدلة، أرسل إلي أحدهم.

وما إن وضعت جهاز الاتصال اللاسلكي في حقيبتها، ونظرت بعيداً عن أندرسن جزءاً من الثانية، حتى انتهز هذه الفرصة، وخطا خطوة إلى الأمام؛ لكن جوديث صوبت مسدسها نحوه، وقبل أن يتمكن من الرد رأى ضوءاً لامعاً ضعيفاً يخرج من فوهة المسدس. هنا يجتاح دويّ انفجار مكتوم الغرفة، وسُمع صدى صوت قوي ينعكس على الجدران الخرسانية؛ بدا وكأن صدمة كهربائية أصابت جسده كله! توقف عن الحركة، لقد استهدفت جوديث الرف الخشبي المجاور له.

- إذا تقدمت أبعد من ذلك سأضطر إلى تفجير ركبتك. أتفهم ما أقوله؟

يرجع أندرسن نحو النافذة، فلم تكن تمزح. هناك معانٍ تتجاوز هذه الكلمات إلى أبعد من ذلك؛ تبدو كأنها محفورة في عينيها الجاحظتين الخالية من أيّ مشاعر! إن جوديث هي القاتلة! إنها تشبه الحيوان ذا الدم البارد؛ ليس لديها مشاعر، ولم تكّنّ لفرانك أي عاطفة!

- سنواصل كلامنا المتواضع بهدوء طالما أننا ننتظر رجالي. ما الذي كنا نقوله... ؟! نعم تذكرت، تحدّثنا عن الشيء الثانوي (تتكلم بحدة بشكل متعمد وتقول) عندما أتيت إلى الحفلة التي أقامها فينيول، قررت أن أتحدث بعفوية. لم أكن أعرف أن الشرطة تشتبه فيك فعلاً بتهمة قتل موريس، ولهذا أردت إلقاء تهمة مقتل فرانك عليك أيضاً، وذلك لكي توجه الشرطة أصابع الاتهام إليك بارتكاب جميع جرائم القتل الأخرى. لقد أرسلت أحد رجالي ليدفعه من النافذة بينما كنت أنت في الطابق العلوي، وقبل أن تسأل، نعم. أنا التي قتلت فاليري رومر، أنا التي وضعت الإبرة في ذراع تلك الشقراء المدمنة، ثم أرسلت رسالة تحذير نصية إلى صاحبة الشعر الأحمر التي كانت تحقق معك. لقد استشاطت غضباً وأرادت أن تقتلك. هل تعلم ذلك؟!

لم يرد أندرسن. يكتفي بتحديق النظر إليها بحدة. يدخل الغرفة رجل مسلح ببندقية آلية. تسلمه الحقيبة التي تحتوي على القرص الصلب.

تسأله:

- هل من أخبار عن المسلخ؟

يرد الرجل بلهجة سلافية قوية:

- لا.

- اتصل بهم. هذا الأمر ليس طبيعياً!

عندما غادر الرجل ومعه الأدلة، انحنى أندرسن على النافذة، ونظر في الفراغ إلى الأسفل. توبّخه جوديث بصوت ساخر:

- هذه فكرة سيئة يا كريستيان. لن تجني سوى كسر ساقيك إذا سقطت من هذا الارتفاع. لا داعي لهذه المعاناة التي لا طائل منها.

سنقوم بتسوية هذا الأمر بسرعة، ومن دون ألم، إذا أخبرتني بما أريد أن أعرفه.

يقبض أندرسن على الحاجز الحديدي بقوة.

- أولاً، أخبرني من الذي قتل أليس؟

بغض النظر عمّا سيحدث بعد ذلك، هو يريد معرفة الذي قتلها، لا يمكن أن يكون فينيول؛ ليس لديه شك في ذلك؛ لأنه ليس من النوع الذي يقوم بمثل هذه الأفعال القذرة!

تبتسم جوديث كالشيطان:

- لكن يا كريستيان. أنت الذي قتلها في نهاية المطاف.

- كفى أكاذيب. كلامك لا يُجدي نفعاً.

- لماذا تعتقد أننا كنا نقتفي أثر زوجتك منذ ثلاث سنوات؟!كنا نظن أنك ساعدتها على الهروب، ولهذا السبب كنا نراقب خطواتك، وأنت تبحث عنها. كنا نأمل أن تجدها.

- هذا مستحيل.، مستحيل. لم أفعل ذلك... لست أنا...

يمسك رأسه بكلتا يديه.

- إذا كنت لا تصدقني، يمكنني عرض مقاطع فيديو عليك. التقطنا فيديو لك في منزل والد زوجتك. لم تتوقفا عن الشجار أنت وأليس. ولمّا كنّا لم نقتلها... فمن فعل ذلك باعتقادك؟ ماذا تفعل؟ انزل من هناك الآن.

يقفز أندرسن نحو إطار النافذة، ويجلس على حافتها. إحدى ساقيه في الخارج والأخرى في الداخل. تصلبت عضلاته، وكان القفز بالنسبة إليه السبيل الوحيد للخروج من هذه الأزمة، كما أن القفز بالنسبة إليه يعني اللحاق بأِليس! ما يزال يفكر فيها، وعلى الفور تراءت له وجوه

الفتيات اللاتي كنّ يشبهنها؛ إنهنّ كثيرات إلى درجة أنّه لم يعد يستطيع معرفة أيهنّ كانت زوجته!

يسمع صوت انفجارات خارج المبنى. يتجمد من الخوف. تضع جوديث جهاز اللاسلكي على فمها، وتصرخ في الميكروفون:

- ما الذي يحدث؟!

يُسمع صوت متقطع في الجهاز اللاسلكي

- نحن نتعرض لإطلاق نار.

- مستحيل، لا تعرف الشرطة أننا هنا!

- إنهم ليسوا من رجال الشرطة؛ إنهما اثنان، رجل وامرأة يحملان بنادق كلاشينكوف.

- تعامل معهما. سيكون أندرسن في مأمن وأنا... أيعقل هذا؟! لقد قفز.

## 77

- يا ستريجا، توقف.

يتقدم ستريجا ليكتشف الأمر، وهو غير مدرك مدى خطورة الوضع. لم تستطع منعه. يقفز الغجري فوق الكتلة الخرسانية التي نزل منها الحارسان، وبدأ يركض كالمجنون نحو النقطة التي سقط فيها أندرسن، خلف العشب الطويل.

- لقد مات يا ستريجا. لن يُجدي نفعاً ما تفعله.

لا أشك في أن أندرسن صعد فوق إطار النافذة، وأدار ظهره إلى الفراغ، ثمّ قفز من الطابق الثالث؛ لكن لو وضع قدميه من الناحية الأمامية لربما تعرض فقط لكسر الساقين، بعد ذلك...

يختفي ستريجا عن الأنظار.

- أيعقل هذا؟! (تقسِم وهي تخرج من المخبأ)

تتقدم إلى الأمام بهدوء. تصوب المسدس إلى الأمام. هناك رجال آخرون يتجولون في هذا المكان. تقفز عندما سمعت قهقهة أحدهم من بين العشب الطويل؛ إنه ستريجا. يقف بجانب كومة ضخمة من المراتب المتسخة المكدسة على الأرض.

أدركت أن المحامي توصل إلى حل بديل مرة أخرى.

- إلى أين ذهب؟

يهز الغجري كتفيه، ويبتسم ابتسامة عريضة.

- ستريجا. سيتم إطلاق نار.

استبدل الفارغ في خزنةِ سلاحهِ برصاصٍ جديد.

- لا بد من قتل الآخرين أولاً.

ضوء ضعيف يسطع في وجه ستريجا. يخرج حارسان للتو من الباب الأمامي للمبنى على مسافة تبعد نحو عشرة أمتار منهما. يدفعها إلى الجانب الآخر ليوفر لها الحماية اللازمة. تقع ديان على ظهرها قبل أن يتاح للغجري الوقت ليرفع ماسورة سلاحه ويطلق النار. ينطلق وابل من الرصاص في اتجاهه، يصاب بطلقة ويسقط على ظهره، ويتمدد على الأرض. تطلق ديان نيرانها الرشاشة في اتجاه المهاجمين. تظهر في الجدار الخرساني حولهما سلسلة من الثقوب. تفرغ خزنة السلاح وهي تصرخ. يسقط المهاجمان فجأة. يخرج دخان من فوهة البندقية

في إحدى يديها، وتمسك باليد الأخرى ياقة معطف ستريجا، وتسحبه إلى مكان آمن بالقرب من المبنى المجاور لها. يوجد ثقب في سترته بمحاذاة بطنه، وتحاول ديان أن تخلع سترته لتفحص الجرح. استشاطت غضباً عندما رأته.

تغمغم قائلة:

- لا بد من استدعاء سيارة إسعاف.

وما إن وجدت هاتفاً في جيب الغجري حتى أمسك بكمّها قبل أن تستخدمه.

- لا... يجب أن... يجب أن تحمي كريستيان... أعلم أنك تعتقدين أنه سيئ.

لكن... هو بريء، لم يقتل أِليس. لا داعي للاهتمام بي. اذهبي وابحثي عنه.

يبرق بصره بشكل موحش. بدا شاحباً. يئن من شدة الألم. يستند على بندقيته، ويحاول الاتكاء على الحائط بينما كانت ديان تسحبه بالقرب منه.

- يجب تعبئة الخزنة. سأوفر لك الحماية.

- يجب أن تختبئ في الداخل إذا اقتربوا...

قال وهو يضغط على أسنانه:

- إذا جاؤوا فسأقتلهم. اذهبي وابحثي عن كريستيان.

أومأت برأسها ووقفت. تنزع الخزنة من حزامها، وتسلمها إلى الغجري.

قال وهو يتألم ويشير إلى جثتي الرجلين اللذين أطلقت النار عليهما:

- خذي جهاز الراديو منهما.

تتحرك بحذر أمام الجثث. يضع أحدهما سماعة في أذنه. تأخذها وتضعها في أذنها. صوت امرأة تصرخ...

- هل ألقيتم القبض عليهم؟ يا بالان؟ هل تسمعني؟ أيعقل هذا، لقد أطلقوا النار عليهم، يا إرمال، يا ميكان، يجب أن نعثر على أندرسن، تحركوا..

يرد بصوت تغلب عليه اللهجة السلافية:

- هو في القصر.

- أين؟

- في الطابق العلوي. أغلق الباب على نفسه.

- ما الذي تنتظرونه من أجل تحطيم الباب؟! إنه أعزل، ليس معه سلاح.

- يقسم إنه إذا تم اقتحام المكان فسيفجّر كلّ شيء.

- أيها الحمقى، كيف يمكن لمحامٍ هارب أن يجد متفجرات؟! اكسروا الباب.

وما إن سمعت دوي الانفجار في الهواء بعد وقت قصير، حتى ألقت ديان سماعة الأذن، وركضت نحو القصر.

ينبعث الدخان من السقف المكسور. تعبر الفناء، وكانت الأرض مليئة بألواح حجرية تُطقطِق تحت قدميها. في الداخل تتجه نحو الدرج، وتصعد إلى الطابق الأخير. أتت النيران على السقف. تزداد كثافة الدخان كلما اقتربت من مصدر الانفجار، تبكي ولا تستطيع التنفس دون أن تضع منديلاً على أنفها. تخلصت من بندقيتها، وسحبت المسدس الذي أعطاها إياه ستريجا عندما نزلا من سيارته.

تدخل ديان إلى مخزن الحبوب، الذي دمره الانفجار تماماً. كانت الجدران سوداء، ها هي جثة متفحمة وممزقة بسبب النيران. توجد في إحدى الزوايا صناديق فارغة ومكدسة. تنبعث في المخزن رائحة البنزين والخشب المحترق.

- يا أندرسن؟

لا أحد يرد. سرعان ما التهمت النيران الأرضية، وأصبح المبنى بأكمله مهدداً بالانهيار، إنها تريد أن تقلب الجثة، وتنظر إلى وجهه قبل أن تشتعل النيران في المخزن كله؛ لكن الحرارة لا تطاق إلى درجة أنها اضطرت إلى أن تنسحب وتتجه ناحية الممر.

ظهرت المرأة التي تقود المهاجمين على الدرَج. تصوب ديان المسدس إلى رأسها قبل أن تتمكن المرأة من استخدام بندقيتها.

تأمرها بأن تضع البندقية بعيداً.

أطاعت المرأة الأمر، ورفعت يديها في الهواء. ركلت ديان البندقية بقدميها بعيداً، وتقدمت المرأة خطوة إلى الأمام.

- أأنت صديقة الشرطي بيرجر؟! لقد قتلته قبل مجيئي إلى هنا، بالنسبة إليكِ هذا خبر سيء. أليس كذلك؟

تشعر ديان أن جسدها كله متصلب.

- مستحيل!...

- لقد توسل إليّ أن أبتعد عن هذه القضية.

- لا داعي للتحقيق فيها.

- كان يبكي كالطفل.

- لا داعي للتحقيق فيها.

تقفز جوديث إلى الأمام، وتطرح ديان على الأرض بضربة من لاعبة جودو رائعة، فيسقط المسدس من يد ديان، وتتدحرج على الدرَج. تهرع جوديث لتأخذ المسدس، لكن ديان تقف على قدميها بسرعة، وتقفز فوقها، وتصطدم بها في منتصف الدرج، وتتدحرجان معاً حتى أسفل الدرج. تقفت ديان وتتنفس بشكل متقطع. تضربها جوديث بقبضة يدها في وجهها. تحاول ديان حماية رأسها من خلال مراوغة دائرية لتكون ضربة جوديث في الفراغ؛ لكنها ضربتها ثانية، وأصابت فكها الأسفل. آلمها الفك بشدة لكن ليس إلى درجة أن تصاب باضطراب في الدماغ، وتتمكن ديان من صد الضربة الثالثة للقاتلة، وضربتها بشكل مباشر؛ الأمر الذي جعلها تتراجع إلى الخلف.

تنظر ديان إلى أسفل. اختفى المسدس، وتنظر من فوق الحاجز على جانب الدرج. الآن هي تراه من على مسافة طابقين. تُخرج جوديث خنجراً طويلاً، وتُخرج ديان مطواة لكنها تشعر بألم شديد جداً في أصبعها المقطوع. ينزلق مقبض المطواة من يدها الملطخة بالدماء. تستدير، تضربها جوديث أولاً، وتسدّد إليها ضربة قوية في بطنها، ثم ضربة أخرى دائرية حول وجهها، وترد ديان بضربة في صدرها؛ تتراجع جوديث لكن بحركة سريعة ومفاجئة تصيب ساعدها بقطع عميق.

تتجاهل ديان الألم، وتواصل التقدم مباشرة تجاه جوديث حتى لا تدعها تبتعد عنها، وتصدّ هجوماً آخر، وبحركة نشيطة وقوية تصيبها في رقبتها، وتقطع الجلد الرقيق بمستوى الحلق، فيتدفق الدم من رقبتها بغزارة، وتستند على الحائط، ثم يسقط الخنجر من بين أصابع جوديث، تضع يديها على الجرح وتترنح على الدرَج ثم تنهار تماماً.

تلتقط ديان أنفاسها. سببت لها الأجواء الحارة ألماً شديداً في رئتيها؛ التهمت النيران كل شيء من حولها. يجب أن تخرج الآن؛ تخطو خطوتين نحو الدرج، إلا أن الألم الشديد، الذي تشعر به في بطنها، يمنعها من الحركة، ويلطخ الدم قميصها، وما إن رفعته حتى اكتشفت أنها أصيبت بطعنة أسفل الضلوع. خارت قواها. تشعر بهبوط في الضغط، وتفقد الكثير من الدم، تستند على الحائط بالقرب من جثة جوديث، تغمض عينيها دون أن تنتبه إلى ما حولها. تشعر كأن شخصاً يجرها على الأرض، ويقول لها تحملي، ثم تشعر كأنها تتنفس هواءً نقياً. تدوي صفارات إنذار الشرطة من بعيد.

لكن يغمى عليها.

# الخاتمة

## 78

يوجد في معهد الطب الشرعي فناء داخلي صغير محاط بالأشجار تحب أُسَر المتوفى الجلوس فيه للملمة شتات أفكارهم، وتقابلت هناك مع شارل دوجسون. يجلس على مقعد، ينظر مد بصره بعينيه الزرقاوين، ويمتلئ وجهه بكدمات كثيرة.

تجلس ديان بجانبه.

ينظر إليها بعينين فاحصتين ويقول:

- لا يبدو أنك على ما يرام.

ذبل وجهها وأصفر لون بشرتها. تشعر بطعم مرير في فمها. يؤلمها التنفس بشدة. أصبح من الضروري أن تظل في المستشفى؛ لكنها أرادت أن تقابل دوجسون مهما كلفها ذلك قبل أن يختفي مرة أخرى.

- هل تمكنوا من خياطة جرح إصبعك وتوصيلِهِ طرفيًا من جديد؟

ترفع يدها المتصلة بجهاز صغير مصنوع من البلاستيك. تتأوه نتيجة لهذا الجهد البسيط، كما أنها تتألم بشدة مع كل حركة مفاجئة نتيجة لإصابتها في بطنها، وما ترتب على ذلك من لصق ضمادة قوية.

- لقد فعلوا كل ما في وسعهم؛ لكنهم لم ينجحوا.

ما تزال تشعر بألم شديد بسبب سكين الجزار الذي فصل سلامات إصبعها بعضها عن بعض. كان يمكن أن تتخلي عن المشاركة في المباراة في هذه البطولة؛ لكن وول أكد أنها تستطيع العودة إلى حلبة الملاكمة عندما تلتئم الجروح. لم تجد من الكلمات ما يسمح بأن تقول له إن المنافسة قد انتهت بالنسبة إليها، وإنها تتطلع إلى حياة أخرى...

يسألها دوجسون:

- وماذا عن الرائد بيرجر؟ هل تجاوز مرحلة الخطر؟

تشعر بتوتر ويزداد ألم بطنها، الذي يمتد من الأعصاب حتى أصابع القدم، حدةً.

ترد عليه، وهي تمسح جبينها المتعرّق بكثافة:

- ما يزال في العناية المركزة.

- وما هو تشخيصه؟

- لا يدعو للاطمئنان.

تفكر في ما قالته لكلوي هذا الصباح، قبل أن تستقلّ مترو الأنفاق لتأتي إلى هنا؛ حيث قالت: والدك مصاب لكنه سيشفى؛ إنه نائم الآن لكننا سنذهب لرؤيته معاً عندما يستيقظ. عانقتها لطمأنتها، ولكيلا ترى كلوي أنها كانت تبكي على الرغم من الألم الذي كانت تشعر به.

قالت لها بلسان الواثق من نفسه:

- سيكون على ما يرام؛ إنه قوي.

يقترب الطبيب منها، ويسألها بهدوء:

- ما الذي تفعلينه هنا؟

تنظر ديان حولها قبل أن تهمس إليه:

- أريد أن أعرف الحقيقة كاملة، وسيظل هذا الأمر سراً بيننا.

- الحقيقة، أليسَ كذلك؟

يحدق دوجسون إليها فترة طويلة قبل أن يرفع كتفيه.

- بعد كل الذي حدث، أنت تستحقين معرفة الحقيقة.

أخذ نفساً عميقاً قبل أن يبدأ قصته.

- بدأ كلّ شيء عندما تواصل توما تارديو؛ ضابط الشرطة التابع للفرقة المتخصصة في مكافحة الجرائم المالية التي تحقق مع مكتب فينيول، مع أليس وعقد معها صفقة بغرض جمع الأدلة ضد رئيسها. قبلت أليس بالعرض خشية أن ينتهي بها الأمر بوضعها في قفص الاتهام.

- أكان أندرسن يعرف كل هذا؟

- لم يكن يعرف في البداية. أرادت أليس حمايته؛ لكن باتيستي اكتشف أنها تأخذ خلسةً دروساً في المسرح، وظن أن ابنتي تخون كريستيان مع تارديو. تحدث عن ذلك الأمر مع كريستيان، الذي أحرقت الغيرة صدره، ولذلك كان علينا أن نشرح له في ذلك الوقت أن أليس تتعاون مع الشرطة.

ظل دوجسون صامتاً برهةً، وهو يشاهد طائراً ينقر قطعة خبز جافة فوق جدار منخفض.

يواصل كلامه:

- بدا أنّ كلّ شيء يسير على ما يرام في البداية، قدمت أليس المستندات بشكل منتظم إلى تارديو، الذي كان يتابع التدفقات المالية لحساب فينيول؛ لكن تارديو كان أحمق، وعندئذٍ أدرك فينيول وجود خائنٍ في مكتبه، وما إن تعرّض جميع وسطاء فينيول في جزر البهاما إلى حوادث مميتة فجأة، حتى قرر المحامي التخلص من هذا الخائن. خافت أليس، وحاولت أن توقف كلّ شيء.

لكن تارديو أجبرها على الاستمرار. كان يريد المزيد من الوثائق والأسماء والأرقام؛ حينئذٍ أدركنا أنها مسألة وقت فقط وستقتل، لذلك توصلنا إلى خطة لإنقاذها.

وضع وجهه بين راحة يديه برهةً قبل أن يواصل كلامه.

- كنا بحاجة إلى جثة امرأة شابة شقراء، وحصلت على جثة لامرأة ماتت في مخيم الغجر اسمها سيليا، ولم يعد لديها أيّ عائلة، طعنتُ جثتها، ودفنها أندرسن في الغابة.

- كنت تحدثني عن أليس منذ قليل...

- نعم.

يغمغم ثم يقول:

- ابنتي على قيد الحياة.

يضغط دوجسون على ركبتيه بعصبية.

- كنا نفكر في جعل الناس يعتقدون أن جثة سيليا تعود إلى أليس، لهذا كان من الضروري ألا تتم معرفة جثة سيليا إلا من خلال تحليل الحمض النووي الخاص بها، ولذلك اخترنا مكاناً رطباً لدفن الجثة، وتم وضع مواد كيميائية في القبر لتسريع تحلل وجهها ويديها، كما أنني أخفيت صور الأشعة السينية لأسنان أليس.

- لماذا بذلت مجهوداً كبيراً لجعلنا نعتقد أن هذه الجثة تعود إلى أليس، في حين لم يتم الكشف عنها من قبل؟!

- كريستيان هو الذي أخفى الجثة؛ لكنه تعرض للحادث، وأصبح فاقداً للذاكرة، كما تمّ تدمير جهاز التعقب الخاص بسيارتي، ومساحة الغابة شاسعة، وفي مثل هذه الظروف كان من المستحيل علينا العثور على الجثة.

- لماذا اخترت غابة نوتردام؟

كنت تأمل أن توجِّه أصابع الاتهام إلى محرك الدمى في قضية موت أليس. أليس كذلك؟

- ليس الأمر إلى هذه الدرجة. إن فينيول رجل ذكي. أكان هناك ثمة احتمال ليعتقد أن أليس قد تمَّ اختطافها وقتلها على يد سفاح؟! تقريباً لا. من ناحية أخرى: إنّ الزوج الذي يقتل زوجته، ويحاول التستر على الجريمة ليبرّئ نفسه يمكن أن يكون ذا مصداقية من وجهة نظر محامٍ فاسد مثله.

- أكان على أندرسن أن يعدّ نفسه مسؤولاً عن مقتل أليس؟!

- لسوء الحظ، كان أمراً ضرورياً ليكون موتها محتملاً.

يشرح دوجسون كيف أن زوج ابنته كان لديه الدافع القوي لقتل أليس بسبب ديونه الكبيرة في نوادي القمار الباريسية. حاولنا توفير الأموال اللازمة أو استثمارها للتحضير لهروبهما؛ على سبيل المثال عن طريق شراء جوازات سفر من المزورين الذين ترافع عنهم في المحكمة، بعد ذلك، بدأ هو وأليس افتعال المشاكل بينهما؛ يتشاجران أمام الأصدقاء والجيران، ويتظاهران بأنهما على وشك الطلاق، وشهد رجال فينيول على هذه الأحداث، وقد كانوا يطاردون أليس طوال الوقت، وكان دوجسون على يقين بأنهم وضعوا كاميرات وأجهزة تنصت في كل مكان من المنزل.

عندما انتهت الاستعدادات كافة، انتقلا إلى المرحلة التالية من خطة أندرسن. اختبأت أليس في سيارة ستريجا المتنقلة، وذهب كريستيان إلى غابة نوتردام، وتحديداً إلى المكان الذي دُفنت فيه جثة سيليا منذ أسابيع؛ لكي يستخدم جهاز التتبع في السيارة كدليل ضده.

في اليوم التالي، ذهب أندرسن إلى مركز الشرطة للإبلاغ عن اختفاء أليس. وبعد أيام قليلة، سحب دوجسون جميع أمواله من حسابه المصرفي، ووضعها مع الأموال التي حصل عليها أندرسن نتيجة بيع شقتهم، ولم يفكروا أبداً في شراء منزل؛ كان يرغب هو وأليس في إيجاد طريقة للحصول على الكثير من المال من أجل الهروب، دون أن يبدو هذا الأمر مثيراً للريبة، وبشكل عام جمع الاثنان ما يزيد قليلاً على مليون، وهو المبلغ التقريبي للمكافأة الوهمية التي اقترحها دوجسون.

لكن بسبب الحادث، لم تنجح بقية الخطة؛ فقد كان أندرسن فقط هو الذي يعرف أين توجد الأموال، ونسخ المستندات التي من شأنها أن تسمح للشرطة بالقضاء على منظمة فينيول بالكامل وعلى عملائه، فهو الوحيد الذي يمكنه معرفة مكان الجثة، ولم تكن أليس ولا دوجسون يعرفان على وجه التحديد مكان دفن الجثة.

تسأله ديان:

- وكيف سارت الأحداث بعد ذلك؟

- كان يجب على كريستيان وأليس أن يختفيا في الخارج. كنت أنوي الذهاب إلى الشرطة بمجرد أن تتحلل جثة سيليا بدرجة كافية لكي أعطيهم السكين، وبصمات أصابع كريستيان على المقبض، ودم سيليا على النصل. كنت أنوي أن أتظاهر بأنني اكتشفت وجود السلاح بالمصادفة في حديقتي، ومن خلال تحليل جهاز التعقب الخاص بسيارتي يستطيعون العثور على الجثة، وستتم ملاحقة كريستيان من قبل الإنتربول؛ لكننا رتبنا الأمر حيث يمكن اعتباره ميتاً أيضاً.

- وأنت؟ ما الذي كنت تنوي أن تفعله؟

- كان من الضروري أن أختفي أيضاً؛ لأنّ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يثبت أن سيليا ليست أليس هو الحمض النووي الخاص بي.

- ولهذا السبب لم تحتفظ بأيّ شيء تقريباً من متعلقات ابنتك... وأشعلت النار في غرفة التخزين لتدمير أيّ شيء قد تصادره الشرطة لتحديد هويتك.

- صحيح.

- لماذا لم تقدّم، بشكل مباشر، إلى رجال الشرطة الذين حضروا إلى منزلك، قطعة ملابس خاصة بسيليا، وعليها الحمض النووي؟

- كان المدعي العام لولوار مستاءً من كريستيان. ومنذ بداية التحقيقات هو يشكّ في أنه قاتل أليس؛ لقد اتفقنا على موعد لإعطائه متعلقات سيليا؛ لكنه جاء إلى منزلي قبل الموعد المحدد بيوم واحد. ورغم ذلك، تم وضع ملابس سيليا في سيارتي، في حال لم أكن هناك. كان كريستيان يتحدث دون استعداد مسبق، وادعى أنني خرجت للقاء أحد المخبرين، وقال إنه لن يدلي بأي معلومات حتى أعود؛ إلا أنه لم يستطع الوصول إليّ؛ حيث إنني ذهبت لمقابلة شارل ستريجا وأليس، وتركت هاتفي في المنزل حتى لا يتمكنوا من اقتفاء أثري. تم استدعاء مدير نقابة المحامين لإقناع لولوار بمغادرة المكان؛ لكن المدعي العام أصر على البقاء، ولهذا كان موقف كريستيان ضعيفاً، في حين أنه من الناحية القانونية كان له الحق في عدم الإدلاء بأي معلومات، ولكن كيف له أن يشرح ذلك؟! طلب لولوار أن يأخذ هذه الملابس لسحب عيّنة من الحمض النووي الخاصة بأليس، ومن الطبيعي أن يقبل أي زوج بهذا الطلب؛ إلا أنه كان يتشاجر مع كل قطعة يأخذها، ولكن في نهاية المطاف حصل لولوار على ما يريد.

يتنهد دوجسون..

- هذا هو أول عائق اعترضنا في الخطة؛ لكن ساءت الأمور بعد الحادث، فلا شيء يمكننا القيام به بعد الآن من دون نقود وأوراق رسمية؛ لم نتمكن أنا وابنتي من الذهاب بعيداً، ولن يصدق فينيول أن أليس ماتت دون وجود جثة، وبدأ يبحث عنها، وقد تم قتل تسع نساء بسبب ذلك.

- وماذا عن شارل؟

يحاول دوجسون حبس دمعة تساقطت على خده: بعد أن قام رجال الإطفاء بإطفاء الحريق الذي أتى على القصر بأكمله. تم العثور على الغجري بالقرب من هناك ملقى على العشب الطويل.

تلاشى الشرر الذي كان يتطاير من عينيه. بدا كأنه ينظر إلى الطيور وهي تطير بسرعة في الهواء. عُثر أيضاً على اثنين من المرتزقة ملقيَّين على الأرض على بعد أمتار قليلة منه، وقد تم إطلاق النار عليهما من بندقية كلاشينكوف. أما عن الغجري، فقد أصيب برصاصة في الصدر بالإضافة إلى رصاصة أخرى في بطنه.

- لقد كان يساندنا دائماً، عندما أدركت أن كريستيان يعاني من فقدان الذاكرة، قررت أن آخذ ابنتي بعيداً عن باريس لحمايتها، فالبقاء هنا مخاطرة كبيرة. عشنا ثلاث سنوات معاً في الشوارع حتى تتمكن أليس من البقاء على قيد الحياة. عشنا فترة زمنية في رومانيا، لكننا عدنا مرة أخرى؛ طالما رفضت أليس أن تعيش في مكان آخر، وظلت تتمنى أن يستعيد كريستيان ذاكرته.

- ألم تحاول الاتصال به؟

- الاتصال به يعني مخاطرة كبيرة؛ كنا نشك في أن فينيول يراقب كريستيان. حاولت تحذيره، وأرسلت إليه رسالة نصية من رقم غير معروف لوضعه على المسار الصحيح، ولإعادة تنشيط ذكرياته؛ لنتحدث في ما بيننا عن خطتنا. لقد تم تنظيم بروفات وهمية

للمسرحية؛ فكل شخصية لها شبيه في العالم الحقيقي، باتيستي هو الأرنب وعملاء فينيول المكسيكيون هم النسور نسبة إلى النسر الموجود على علم بلدهم، وهكذا كانت كل الشخصيات. حاولت تذكيره بذلك. اكتشفت حيلة أندرسن الدنيئة عندما جاء لطلب الحماية مني، وأرادت أليس رؤيته؛ لكني منعتها من ذلك. ستعتقدين أنني قاسي القلب؛ لكنني رتّبت كل شيء حتى لا يعرف أحد أنها ما تزال على قيد الحياة، وكان لي ما أردت خشية على سلامتها، ولكيلا تضيّع كل الجهود التي بذلناها لإبقائها على قيد الحياة.

يصمت دوجسون فجأة. يدخل أحد العاملين في معهد الطب الشرعي إلى الفناء، ويقول لهم:

- يمكننا البدء في تحديد هوية جثة السيد أندرسن.

## 79

تنبعث رائحة لحم متفحم من الخزانة المصنوعة من الحديد المقاوم للصدأ، التي فتحها الطبيب الشرعي أمامهم. توجد جثة سوداء جافة بالداخل. تمزق الجانب الأيمن بالكامل إلى أشلاء بسبب الانفجار.

يتفحص دوجسون الجثة بعناية..

- لا، ليس هو، حجمه كبير جداً.

يغلق الطبيب الشرعي الخزانة، ويفتح الخزانة الثانية.

يقول دوجسون، وهو يحدق النظر إلى الجلد الذي أصيب بطلقات نارية كثيرة:

- ليس هو أيضاً.

الجثة الثالثة جعلت دوجسون في حيرة من أمره! لقد تم تشويهها تماماً بسبب الحريق؛ لا وجود لأنف ولا لعيون ولا لشعر، وجهه عبارة عن قشرة سوداء يتفحصها من كل الزوايا..

يقول دوجسون بصوت يبدو كأنه تساؤل:

- أعتقد أنه هو؛ الطول نفسه والحجم نفسه.

لا يبدو على دوجسون أيّ انفعال عاطفي معين!

تقول له ديان:

- لا يبدو أنك مزعج من هذا المكان.

- مجرد عدد بسيط من الجثث. لم أتفحص المئات.

تم غلق باب الخزانة على الجثة المتفحمة.

يسألها دوجسون:

- وماذا عن فينيول؟ هل وجدته الشرطة؟

يفتح الطبيب الشرعي خزانة أخرى، ويقول:

- فينيول هنا، قُتل شنقاً. في الوقت الحالي، لا نعرف ما إذا كان انتحاراً أو جريمة قتل. على أي حال، يبدو على وجه دوجسون علامات الرضى.

يغادرون المشرحة ببطء. تتعرق ديان بغزارة. تشعر بألم في بطنها. تمشي بصعوبة شديدة. كان الجو حاراً في الخارج، فقد توقفت الاضطرابات المناخية، وبدا الربيع مستقراً وفي أحسن أحواله.

تسأله ديان:

- والآن، هل ستواصل حياتك في المنفى؟

يرد بصوت خفيض:

- هذا هو ثمن حرية ابنتي.

- وأين هي الأدلة التي تثبت تورط عملاء فينيول؟

- تم إرسال نسخة إلى الفرقة المتخصصة بمكافحة الجرائم المالية، ونسخة أخرى إلى أوسكار دوكلير، كما أنني زودته ببعض المعلومات التي توحي بأن كريستيان هو الذي قتل أليس.

يسيران معاً إلى سيارته.

يسألها وهو يجلس في مقعد القيادة:

- أتودين أن أوصلك إلى حيث تريدين؟

- لا، شكراً، سيأتي صحفي الآن.

- أظن أنهم جميعاً يريدون إجراء مقابلة مع بطلة العام.

- لا علاقة له بهذا الأمر. سأتحدث معه عن هينكر، وسأشرح له لماذا كنت أعتقد أنه محرك الدمى.

ينظر دوجسون إليها باستغراب...!

- أنا إحدى ضحاياه. اعتدى عليّ عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري. لم يقتلني؛ لكنه أخذ خصلة من شعري مثل كل الأخريات. في ذلك الوقت، لم أتقدم بشكوى ضده، ولم أرغب في مواجهته. تجاهلت هذه الذكرى؛ لكن عندما علمتُ أن النساء تعرضنَ للخنق والاعتداء، وأنه تم الانتباه إلى هذا الجزء الذي تم حلقه على الجانب الأيسر من رؤوسهن...

تشير بإصبعها إلى صدغها بطريقة لا إرادية منها.

- ...علمت أنه هو؛ الشخص المجرم نفسه الذي فعل ذلك. طلبت نقلي إلى فرقة مكافحة الجريمة التي تحقق في هذه القضية. لم يكن

الأمر سهلاً. تمت الموافقة لأنني حصلت على تقارير جيدة لمصلحتي من قبل رؤسائي، كما كان لدي بعض الاتصالات الجيدة معهم. ظننت أنني سأعثر على هذا المجرم. اقتفيت أثره لعدة أشهر، وذات يوم رأيت هينكر يقوم بعمل دراسة تافهة عن مستودع تخزين يخص شخصاً ما.

كنت أعلم أنه محرك الدمى؛ لكن لم يكن لدي دليل قوي لإلقاء القبض عليه، كما أنني لا أستطيع أن أقول ما الذي فعله بي. لم يتم عمل اختبارات الحمض النووي بعد الاعتداء، وستكون حجته أقوى من حجتي، وسيقولون إنني أتقوّل عليه، وربما ينتهي التحقيق بأكمله إلى لا شيء، ولذلك بدأت أراقبه خارج نطاق العمل. اعتقدت أنني أستطيع توقيفه قبل أن يقتل مرة أخرى؛ لكنني فشلت.

يبدو على ديان الدهشة، لأنها تتحدث مع دوجسون حول كل هذه الموضوعات بهذه السهولة، ربما هو الوقت المناسب للاعترافات. على أي حال، سيعرف الجميع غداً ما كانت تخفيه مدة عشرين عاماً.

حتى إنني فكرت في إطلاق النار عليه إذا لم أتمكن من توقيفه وحبسه؛ لكنني اليوم أعرف كيف أتخلص من الوحوش أمثاله عندما أتكلم باسمهم. لا بد أنه اعتدى على نساء أخريات دون أن يقتلهنّ مثلي؛ ربما هنّ صمتنَ أيضاً لأنهن كنَّ يخجلنَ. أتمنى عندما يسمعنَ كلامي أن يتحدثن عن أنفسهنّ. بهذه الطريقة سنمنعه من تكرار ذلك الأمر مرة أخرى.

يومئ دوجسون برأسه وهو صامت، ثم يشغّل محرك سيارته، وتستند على الباب.

- شخص ما سحبني من القصر عندما أُغمِي عليّ. هل لديك أي فكرة من الذي فعل هذا؟

- مؤكد أنه شارل.

- لا أعتقد! لقد كان مصاباً بجروح عميقة. المعجزة أنه تمكن من الزحف إلى المكان الذي وجدناه فيه.

- ربما يكون شرطياً إذاً.

تحدق النظر إلى عينيه الزرقاوين.

- باستطاعتك إخباري. ما يزال على قيد الحياة، أليس كذلك؟

يبتسم دوجسون، ويحرك مقبض ناقل الحركة، ويرخي مكابح اليد.

ما تزال تصر على قولها:

- أتعلم شيئاً عن اختبارات عيّنات الحمض النووي التي ستُسحب من الجثث؟

يرد عليها دوجسون بأسلوب ملتوٍ:

- من الذي قال لك إنّ النتائج لن تكون إيجابية؟!

يودعها وهو يغلق نافذة السيارة، ثمّ يتوجه إلى مخرج موقف السيارات.

تنظر إليه ديان، وهو يختفي عن نظرها. تستند على أحد الحواجز في مواجهة النهر. تراقب القوارب التي تمخر عباب نهر السين. تبدأ نقطة انطلاق هذه القوارب من المشرحة، ثم إلى كاتدرائية نوتردام، فقصر العدل، ومبنى مقر شرطة باريس، ثم تصل أخيراً إلى جسر الفنون الصغير، وهناك يضع المحبون أقفالاً على البوابات الحديد كعلامة على حبهم اللانهائي.

من يدري إلى أين يذهبون بعد ذلك؟!

M O R G A N   A U D I C

جدل

@soramnqraa
telegram

مورغان أوديك

# قتلى في بلاد العجائب

تختفي أَلِيس زوجة أندرسن المحامي المقيَّد في نقابة المحامين بباريس منذ ثلاث سنوات. كل الناس من حوله يطرحون نفس السؤال: هل قتل أندرسن زوجته؟ يفقد أندرسن الذاكرة نتيجة لتعرضه لحادث قوي بعد أيام قليلة من اختفاء أليس. لمدة ثلاث سنوات وهو يحاول جاهدا استعادة ذاكرته. يتم رصد مبلغ كبير مكافأة لمن يدلي بمعلومات عن الزوجة المختفية. يتسلَّم أندرسن رسائل نصية غامضة علي شكل أسئلة مشفرة تفيد بأن زوجته لا تزال على قيد الحياة. يستأجر الزوج المهموم مخبرا خاصا من أجل البحث عن زوجته الشقراء التي أصبح اختفاؤها لغزا محيرا. موت عدد من الضحايا الأخريات اللاتي تم قتلهن أصبح أيضا لغزا محيرا. باءت محاولات الزوج في العثور على زوجته كما باءت محاولات رجال الشرطة بالفشل وأصبحت محاولاتهم كمن يبحث عن قطة سوداء في غرفة حالكة الظلام. ما الذي حدث للزوجة؟ ألا تزال حية؟ أم أنها ماتت؟ وما علاقة اختفائها بوقائع مقتل نساء أخريات؟ كل هذا وغيره من أحداث تتناولها رواية كثير من الميتين في بلاد العجائب.


9 786030 452538



JADALPUBLISHING
JADALBOOKSTORE.COM